المسلمون بين التحدي والمواجهة

(٤)

مدخل إلى

التنمية المتكاملة

رؤية إسلامية

بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى

التنمية المتكاملة

رؤية إسلامية

طَبْعَةُ دَارِ القَلَمِ الأُولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تُطلبُ جميعُ كتُبنا مِن :
دَارِ القَلَمِ - دمَشق : ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارِ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وبعد:

هذا هو الجزء الرابع من السلسلة التي بدأنا بإصدارها من نحو ثلاث سنوات، بعنوان: «المسلمون بين التحدي والمواجهة» وقد كان الجزء الأول منها بعنوان: «نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي». وأما الجزء الثاني فقد كان عنوانه: «من أجل انطلاقة حضارية شاملة».

وكان عنوان الجزء الثالث: «مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي».

وأسأل الله ـ جلَّ وعلا ـ أن يعينني على إتمامها في وقت قريب.

وقد رأيت جعل هذا الكتاب في سبعة فصول:

الأول: التنمية المتكاملة.

الثاني: التنمية الفكرية.

الثالث: التنمية المعرفية.

الرابع: تنمية الشخصية.

الخامس: التنمية الخُلُقية.

السادس: التنمية الاجتماعية.

السابع: التنمية الاقتصادية.

وقد حاولت الاعتماد على أحدث الأرقام المتاحة في مجالات التنمية المختلفة، كما حاولت تقريب العبارة وتبسيط الأسلوب، لكن الأفكار المعقَّدة كثيراً ما تتطلب نوعاً من الرقي في الصياغة والتعبير حتى تحتفظ الفكرة بطاقاتها الموحية المشعَّة. . .

وإنما جعلت هذا الجزء خاصاً بـ(التنمية) لاعتقادي أن التحدي الكبير الذي سيظل يواجهنا، هو: الاستجابة الصحيحة لمجمل المشكلات والمستجدات التي تجعل الحياة أصعب يوماً بعد يوم. ونعتقد أن محاولات التحسين المتكامل المتناغم يجب أن تظل شغلنا الشاغل إذا ما أردنا المحافظة على مواقعنا؛ فالظروف العالمية والمحلية تجعل ما هو موجود من إمكانات وأساليب وأفكار غير كاف للمحافظة على المكتسبات الراهنة، ما لم نضاعف الجهد، وننشد ما هو أفضل بصورة دائمة. ونعتقد إلى جانب هذا أن من أكبر مشكلاتنا مقاومة التغيير - من غير ضابط - وضعف الهمة في استشراف المستقبل بالقدر المطلوب. ونأمل أن نكون قد لفتنا الأذهان إلى خطورة ذلك، كما نأمل أن نكون قد تمكنا من بيان بعض السبل والوسائل التي تساعد على النهوض بأعباء التقدم المنشود.

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يتقبَّله بقبول حسن، وأن يوفقني إلى ما هو خير وأبقى.

أ.د. عبد الكريم بكّار

الفصل الأوّل

في التنمية المتكاملة

١ ـ أهمية التنمية المتكاملة .

٢ ـ لا بديل عن التكامل في التنمية .

أهمية التنمية المتكاملة

تعريف التنمية:

تشير معاجم العربية إلى أن (التنمية) في اللغة تعني الزيادة في كمِّ الأشياء أو كيفها ونوعيتها؛ فقد قالت العرب: نما الزرع، ونما المال، أي: زاد. وقالوا أيضاً: نما الخضاب في اليد والشَّعر: ازداد حمرة وسواداً[١].

أما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي؛ فإن هناك ما لا يحصى من التعريفات، فبعضهم يعرِّف التنمية بأنها: «التحريك العلمي المخطَّط لمجموعة من العمليات الاجتماعية والاقتصادية من خلال (عقيدة) معيَّنة لتحقيق التغيير المستهدف بغية الانتقال من حالة غير مرغوب فيها إلى حالة مرغوب فيها»[٢].

وبعضهم يركز في تعريفه على ثمار التنمية ونتائجها، فيعرِّف التنمية بأنها: «الزيادة المطردة في مجالات الخيارات والفرص المتاحة للفرد في تخطيط وممارسة حياته حسب آرائه الشخصية في السعادة ومطالب الحياة»[٣].

ونحن نرى أن مسوِّغ الجهود التنموية هو تحقيق الأهداف والغايات المرحلية والنهائية التي يتطلع إليها مجتمع من المجتمعات؛ ومن ثم فإن التنمية المتكاملة التي ننشدها سهلة التعريف بسبب الرؤية الواضحة للحالة النهائية التي ينبغي أن تكون عليها أمة الإسلام. ولذا ففي الإمكان أن نعرف

---

(١) المعجم الوسيط: مادة (نما).
(٢) علم اجتماع التنمية: ١٢.
(٣) إدارة التنمية: ١٦.

التنمية المتكاملة بأنها: «مجموعة الجهود المتنوعة والمنسَّقة التي تؤهل المجتمع المسلم للقيام بأمر الله تعالى».

فالرفاهية والصحة وفرص العمل والتعليم والتدريب والاستمتاع بأوقات الفراغ والتقدم التقني... كل ذلك يهدف إلى شيء واحد، هو تأهيل المسلم ورفع كفاءته، وتهيئة المُناخ البيئي والاجتماعي الذي يساعده على أداء حقوق العبودية لرب العالمين والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض على الوجه الأكمل.

وهذا التصور لتعريف التنمية التي نتطلع إليها لا يساعدنا على بلورة أهداف التنمية فحسب، وإنما يزيدنا بصيرة أيضاً في إقامة التوازن والانسجام بين الجوانب المختلفة للتنمية، ويوفر علينا جهوداً كثيرة، هي في التحليل النهائي جهاد في غير عدو؛ لأنها لا تمتُّ بأية صلة إلى أهداف المسلم الكبرى، أو لأنها لا تستند إلى أرضية من البنية العميقة لعقيدة المسلم وثقافته.

كما أن هذا التصور يساعدنا على ترتيب الأولويات في العملية التنموية وإدارتها بطريقة رشيدة؛ ومن ثم فإننا آنذاك لا نساعد على توفير الكماليات، وفي الناس من يبحث عن الضروريات، ولا نتوسع في بناء الملاعب والحدائق، ولدينا نقص في المعاهد والمختبرات....

لماذا نهتم بالتنمية؟

إن الله ـ جل وعلا ـ خلق الإنسان، وفطره على جملة من النوازع والرغبات، كما أنه وضع لصحته العامة شروطاً وحدوداً، وجعل لعيشه في مجتمع معافى شروطاً أخرى، لا تقل صرامة؛ وهو بعد ذلك أمره بجملة من الأوامر، وطالبه بعدد من المطالب. وحتى يستطيع التوفيق بين شروط عيشه ورقيه وبين القيام برسالته على هذه الأرض، فإن عليه أن يبذل الكثير من الجهد على مستوى التفكير، وعلى مستوى العمل. ويزداد المطلوب من الجهد كلما ساءت الظروف، وزادت ضغوطات الواقع. ونستطيع القول: إن

نجاحات الإنسان المسلم في الموازنة الدقيقة المطلوبة في هذه الأيام ليست كبيرة؛ حيث لم يستطع أكثرنا الارتقاء إلى مستوى التحديات على الصعيد التنظيري أولاً؛ ولا على الصعيد العملي ثانياً؛ لكن لن نيأس من رحمة الله وعونه، وسنظل نحاول أن يكون غدنا خيراً من يومنا.

وبما أنني أعدُّ قضية التغيير والارتقاء إلى مستوى المنهج الرباني وتحديات الواقع أمراً ملحاً لا يحتمل التأخير؛ فإني سأفيض في ذكر الأسباب والمسوغات التي تدفعني إلى إعطاء مسألة (التنمية المتكاملة) اهتماماً استثنائياً، وذلك فيما يلي:

١ ـ إن نسبة الزيادة السكانية في العالم الإسلامي ـ بشكل عام ـ مرتفعة إذا ما قسناها بدول أخرى؛ فعلى سبيل المثال يزيد السكان في الدول العربية سنوياً بنسبة (٣,٣٪) في الحد الأوسط، على حين أن الزيادة في بريطانيا واحد في الألف، وفي روسيا تسعة في الألف، وفي فرنسا ستة في الألف. أما في ألمانيا فإن السكان ينقصون يومياً نحواً من (٣٥٠) شخصاً!.

وحتى نعرف حجم الزيادة السكانية وتطورها السريع؛ فإن من المفيد أن نعلم أن إجمالي سكان الوطن العربي كان عام ١٤٠٠هـ (١٦١) مليون نسمة، ومن المتوقع أن يكونوا عام ١٤٢٠هـ في حدود (٣٠٠) مليون نسمة[١].

وإن بلداً مثل الجزائر يتضاعف سكانه كل (٢٥) سنة، ومن المتوقع أن يرتفع إلى نحو (٢٨٥) مليون نسمة خلال أقل من قرن[٢].

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الشعوب الإسلامية شعوب فتيَّة حيث إن حوالي نصف السكان هم من الأطفال والأشبال دون سن ١٥ سنة[٣]، وهذا يعني أن هناك أعداداً هائلة تحتاج إلى تعليم، ثم تحتاج بعد ذلك إلى فرص عمل، وإلى خدمات عامة كثيرة.

والتنمية ليست من أجل إبقاء هذه الجماهير الغفيرة على قيد الحياة؛

---

(١) التطورات الاقتصادية: ٦٥.
(٢) إدارة التنمية: ٨١.
(٣) قضايا التنمية في الوطن العربي: ١١٣.

لتكافح من أجل البقاء المجرد، وإنما من أجل استيعابها اجتماعياً وتهيئتها للقيام بوظيفتها في هذه الحياة.

٢ ـ لدينا مشكلات خطيرة تتعلق بالمياه والتصحر ومصادر الغذاء، والأرقام التي تتحدث عن تلك المشكلات تبعث على القلق؛ فمن تلك الأرقام ما يتعلق بالمياه، حيث يشكو العديد من الدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا من شح مياه الشرب ومياه الري؛ والبديل المطروح الآن للمياه الجوفية والمياه السطحية هو (المياه المحلّاة) لكن تكلفتها عالية جداً بحيث لا يستطيع الاستفادة منها إلا دول محدودة جداً. ويفيد تقرير للبنك الدولي أن موارد المياه المتاحة لكل فرد من أفريقيا الشمالية وفي الشرق العربي سوف تقل ـ بمعدل ٨٠٪ ـ في خلال جيل واحد، وسوف تتقلص هذه الموارد من (٣٤٣٠) متراً مكعباً للفرد الواحد سنوياً إلى (٦٧٧)، وهو دون الحد الأدنى المطلوب المقدر بنحو (٢٠٠٠) متر مكعب سنوياً[١].

أما بالنسبة للغذاء فإن العرب أنفقوا على الغذاء عام ١٩٨٥ نحواً من (٢٠٠) مليار دولار، ويتوقع أن تزيد هذه المبالغ خلال السنوات العشر القادمة على نحو من (٦٥٠) مليار دولار، أي بنسبة أكثر من ٢٠٠٪[٢].

ومن المتوقع لمشكلة الغذاء أن تتفاقم في ظل أزمة المياه، وتكوّن تكتلات اقتصادية عالمية، وفي ظل اتفاقية تحرير التجارة العالمية (الجات).

ولسنا وحدنا الذين نعاني من ندرة الغذاء؛ فالمشكلة عالمية لكن الدول المتقدمة تملك المال بسبب تقدمها الصناعي، ومن يملك المال يجلب الغذاء، لكن المشكلة هي مشكلة الشعوب الإسلامية التي تعيش الأكثرية العظمى منها على الزراعة لكنها لا تستطيع أن تحصل على الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وليس لها موارد أخرى توفي منها ثمن غذاء أطفالها. ولا بد من عمل شيء تجاه هذا كله[٣].

---

(١) انظر في هذا مقالاً في جريدة الأهرام بتاريخ ١٢/١٠/١٩٩٥ بقلم محمد سيد أحمد.
(٢) الغذاء والماء في عالم المسلمين: ٤٩.
(٣) سوف نتحدث باستفاضة في الفصل الأخير عن تنمية الزراعة.

٣ ـ إن نقص الغذاء المتوقع أن تزداد حدته يؤدي بالنسبة للأطفال إلى نتائج خطيرة، تشكِّل نوعاً من الإعاقة الجسدية والعقلية والنفسية؛ فنقص (البروتين) في غذاء الأطفال يمكنه أن يلحق الضرر بنمو المخ والأعصاب، كما أن العجز في الحديد في فيتامين (أ) من الأمور الشائعة، ويوجد مشكلات خطيرة. ويمكن أن يؤدي سوء التغذية فعلاً إلى (الأنيميا) وتبلد الإحساس، ويجعل من يعاني منه عرضة للعدوى، كما أنه يقلل كفاءة الشخص من خلال الخمول والفتور والكسل[١].

وظهر في إحدى الدراسات أن الأطفال الأفارقة في سن الثالثة متخلفون سنة عن مماثليهم عمراً من أطفال أوربا من حيث النمو العضوي والذهني.

ويجمع الخبراء على أن سوء التغذية في المدرسة يؤدي إلى ضعف التركيز ونقص الحافز الشخصي وضعف الإنجاز والتغيب والترك المبكر للمدرسة وصعوبة إقامة علاقات مع الآخرين[٢]. وهذا كله يعني وجود جيل معوَّق، لا يصلح للعيش في عصرنا الحاضر فضلاً عن أن يكون فعالاً في عصر قادم، من المؤكد أنه أكثر تحدياً وتعقيداً!.

٤ ـ إن التنمية الجيدة شرط أساسي لتقليص حجم (ألبطالة) الضاربة أطنابها في العالم الإسلامي، وهي مشكلة آخذة في التفاقم؛ حيث الركود العام، وصعوبة الحصول على عمل ذي أجر مناسب؛ حتى قال أحد الباحثين: إن هناك أجيالاً سوف تولد، وتعيش، وتموت دون أن تجد عملاً[٣].

وتبقى المشكلة الأساسية لدينا في موضوع البطالة أن الأرقام التي تصور قوة العمل وعدد العاطلين شحيحة جداً. وفي الدول المتقدمة تسهل معرفة حجم البطالة عن طريق المساعدات الحكومية التي تدفع للعاطلين عن العمل.

---

(١) إدارة التنمية: ٤٧.
(٢) الغذاء والماء في عالم المسلمين: ١٨.
(٣) المأزق العربي: ٣٠.

إن مما ينبغي قوله: إن البطالة أضحت صفة لصيقة بخصائص الهيكل الاقتصادي المعاصر، ففي أمريكا واليابان نحو من (٣٥) مليون عاطل عن العمل، وهذا الرقم يساوي ١٢٪ من قوة العمل فيهما[1]. وهذا في الحقيقة يعد إسفيناً آخر في المذهبية الرأسمالية المتغطرسة!

معدل البطالة في التسعينيات في باكستان بلغ ١٩٪ وفي أندونيسيا ٥٠٪. وتستهدف خطة التنمية فيها توفير (٨٦) مليون فرصة عمل عام ١٩٩٦!!

وليست مشكلة البطالة محصورة في فقد المرء لمصدر قوته وعيشه، وإنما يتولد عنها آثار نفسية واجتماعية وسلوكية خطيرة؛ فحين يجلس المرء مدة طويلة من غير عمل فإن ارتكاسات كريهة تصيب شخصيته باعتباره إنساناً، وباعتباره عاملاً. ويمكن أن يفسد احترامه لنفسه، وثقته بذاته؛ هذا إذا لم تؤد البطالة إلى انهيار حياته الأسرية، وتسمُّم الجو الذي يعيش فيه أطفاله[2]. وهذا كله في كفة، وانغماسه في اللهو مع قرناء السوء وإمكان إدمانه للمخدرات في كفة أخرى. وإذا ما حدث شيء من ذلك فإن العاطل عن العمل يكون أقرب إلى المعوَّق والمشوَّه!.

٥ ـ لا يستطيع أحد أن يدّعي أن السواد الأعظم من الشعوب الإسلامية يتمتع بالتحرر من ربقة التبعية الثقافية والاقتصادية والسياسية؛ وما ذلك إلا لأن العلاقة مع الآخرين لا تكون إلا خلاصة دقيقة لما نحن عليه.

وقد استطاعت الدول الرأسمالية إحكام سيطرتها العالمية، وفرض فكرها التنموي على البلدان الفقيرة، وصار لدى السواد الأعظم منا اعتقاد جازم بأن حالة التخلف لدينا إن هي إلا حالة (تخلف زمني) سيتكفل التتابع الزمني لمراحل النمو بتجاوزها[3]. وصارت مقومات النهوض في الغرب هي البلسم

---

(١) الأزمة الاقتصادية الراهنة: ٩.
(٢) الأخلاق والحياة الاقتصادية: ٢٨.
(٣) الأزمة الاقتصادية الراهنة: ٧٠.

الذي سيجعل كل شيء لدينا حسناً!. وهذا في الحقيقة بداية الشعور بالنقص والرضوخ لأدبيات الغرب ومصالحه. وكان ذلك أمراً طبيعياً ما دمنا لم نستطع إيجاد الآليات والأطر التي تجعل من المذهبية الاقتصادية الإسلامية شيئاً ملموساً وواقعاً!.

إن مشكلة التبعية أنها تجعل من الاقتصاد التابع مركز (نفايات) للاقتصاد المتبوع، حيث يصدِّر إليه مشكلاته، ويحلها على حسابه.

والتحرر الاقتصادي والاجتماعي من ربقة شبكة علاقات السيطرة التي تربطنا بالدول المصنِّعة يتوقف في جوهره على تقدم اقتصادي واجتماعي خاص ومتميز، ينهض على أساس من عقيدتنا، ويستخدم ما تبيحه من أساليب ووسائل، ويستهدف ما نتطلع إليه من غايات وأهداف.

والتنمية المتكاملة هي الطريق الوحيد لتحقيق ذلك.

إن السيادة الوطنية تعني نوعاً من التحكم الجيد للأمة في مصيرها المادي والمعنوي، وهي لن تتحقق ما لم نكسر أغلال التبعية التي أوجدت لدى كثيرين منا نفسية (المتسوِّل) وأخلاقه وعلاقاته وطموحاته...

٦ ـ الهوة التي تفصل بين عالمنا الإسلامي والعالم الصناعي هوة واسعة، وهي خلاصة لعوامل عديدة. وتلك الهوة تتجلى في فاعلية الشخص ومعرفته، وفي الداخل الوطني والاستقرار السياسي، والسيطرة على البيئة، والقدرة على التغير، والمرونة الذهنية، ونوعية الخدمات المتوفرة لكل فرد وكميتها.

إن المؤشرات إلى وجود هوَّة متسعة بين الفريقين أكثر من أن تحصى، لكن الوقوف على حجمها قد يكون في بعض الأحيان باعثاً على الإحباط!.

فعلى حين ترتفع أسعار منتجاتهم بصورة مطردة، فإن أسعار صادراتنا تتدهور، أو تتجمد، وهذا يعني أنه يجب أن نصدر أكثر حتى نستطيع الحصول على نفس القدر من الواردات. إن التخلف شأنه شأن التقدم لا بد

أن يعكس نفسه في صورة السلع التي تكون موضوعاً للتبادل الدولي[١].

في عام ١٩٩١ بلغت حصة الفرد السويسري من الدخل القومي ٣٦,٣٠٠ دولاراً على حين أن هناك ملياراً من البشر يكافحون ليعيوشا بأقل من (٣٧٠) دولاراً في السنة[٢]. وكثير من هؤلاء مسلمون.

قد توقف النمو تقريباً في كثير من دول أفريقيا خلال العقد المنصرم، وهبط دخل الفرد في ثلثي بلدان أفريقيا[٣].

وجاء في تقرير اقتصادي صادر في جنيف عام ١٩٨٨ أن متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم النامي قد انخفض بمعدل ٦٪ في الفترة التي بين عامي ١٩٨١ ـ ١٩٨٧. في حين ارتفع متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم المتقدم في الفترة نفسها ١٣٪[٤].

إن الهوة بين البلدان النامية والبلدان الأخرى تكشف عن حقيقة واضحة، هي: كلما كنت في مرتبة اقتصادية أعلى حققت نمواً أسرع[٥].

إن من لا يتقدم لا يبقى في موقعه النسبي، وإنما يتقهقر، ومن ثم فإن من الوهم أن نتصور أن أوضاعنا قد وصلت إلى القاع، لنبدأ بعد ذلك بالصعود، فما دام مصيرنا معلَّقاً بغيرنا فإن إمكانات التراجع تظل مفتوحة!.

ومضاعفات هذه الهوة تظهر، وتتفاعل كلما أخذ الاتصال والانفتاح العالمي في التوسع، وهذا ما نشاهده الآن.

٧ ـ ثورة الاتصالات الحديثة، والتي ما زالت موجتها الجديدة في بدايتها وضعت بني الإنسان بعضهم أمام بعض وجهاً لوجه. وقد صارت الأسواق العالمية تعمل بمنزلة سوق واحدة، ورأى الفقراء المعدمون كل

---

(١) التنمية والتخلف في العالم العربي: ١٠٦.
(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٧١.
(٣) مستقبلنا المشترك: ٩٢.
(٤) الطريق إلى المعجزة الاقتصادية: ١١.
(٥) التربية والتقدم: ٩٣.

إنجازات العصر، وألوان متعه ومرفهاته؛ ولم تمنع الرزانة والحشمة الموجودة لدى كثير من الناس في العالم الثالث من أن يخف الكثيرون للتمتع بمباهج الحياة التي تعرضها عليهم وسائل الإعلام[١].

وإن كثيراً من الناس الذين اطلعوا على أنماط الحياة الغربية المسرفة في التأنق والرفاهية سوف يحاولون الوصول إليها براً أو بحراً أو جواً ولا سيما أن سلبيات الحياة الغربية تُغطّى، وتُحجب بطرق كثيرة، لا يعوزها الدهاء، ولا النفاق والرياء!.

وقد حدث في نفسية المسلم نوع من التمزق العميق، فهو يعطي الأولوية في الاستهلاك لما هو أجنبي، ويعلن في الوقت نفسه حربه ضد الاستعمار ويدعو إلى مقاطعته[٢]!

ويجب أن يقال: إن الوعي لدينا لم يُفتن بفنون اللهو والمتعة التي تشتمل عليها الحياة الغربية فحسب، وإنما فُتن قبل ذلك بالتقدم الصناعي والعلمي، وبالدرجة الفائقة من التنظيم، وبالطريقة التي يعالج بها الغرب خلافاته الداخلية، ويحقق بها بالتالي الإجماع الوطني، إلى جانب شعور الفرد هناك بكرامته والاطمئنان على حقوقه.

قد نشأت حضارة جديدة شديدة الإغراء، تتجاوز فيها بالضرورة الحاجاتُ المطلوبة الوسائلَ المتوفرة، ولا سيما ما لدى الفقراء في العالم النامي، وصار الناس بين خيارين، أحلاهما مرّ: إما العزلة، وبالتالي سيطرة مشاعر التهميش والتضاؤل والإحباط، وإما الانخراط في الموجات المادية والاستهلاكية العاتية!.

وقد آثر جلُّ الناس الخيار الثاني، وانغرز في الأعماق شعور قوي

---

(١) في العالم أكثر من ١,٥ مليار مذياع، و٦٠٠ مليون جهاز تلفاز، كما أن هناك أكثر من ٢٠٠ ألف مراقب يتبادلون المعلومات حول حركة الأسواق العالمية. الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٧٣، ٨٧.

(٢) التطورات الاقتصادية: ٥٠.

بالسطحية، وبالانغماس في استجداء الاستمرارية على أبواب الثقافة القاهرة[١].

هذا كله جعل المشكلة الكبرى في العالم النامي هي مشكلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتأمين الغذاء والدواء والكساء، وفرص العمل لملايين الشباب الذين تدفعهم البيوت إلى الشوارع دون حد مقبول من التأهيل المهني والتربية الجيدة، ودون تكوين ثقافي مناسب[٢].

وصار الناس يشعرون يوماً بعد يوم أنه لا بد للمرجعية الإسلامية العليا حتى تستطيع الصمود أمام الفلسفة الليبرالية من أن تسهم في تطوير أساليب للتفكير المنتج الفعّال، وبناء أخلاقية ناجعة للرقي الحضاري، ووضع (استراتيجية) أنسب وأفضل للرقي الاقتصادي والاجتماعي، وإلا فإنه سينشأ لدى كثير من الناس نوع من الازدواجية المقيتة، تُمارس في ضوئها الشعائر الإسلامية وفق ديننا الحنيف، ويتم تشييد التقدم الاقتصادي والتقني والتنظيمي وفق الأنماط الغربية؛ وهذا ما نلاحظ أنه يتغلغل في أعماق سلوك كثير من المسلمين اليوم!.

إن المشروع الحضاري في جوهره ليس مجرد فكرة أو نسق معين من الأفكار يضعه شخص أو مجموعة من الأشخاص، وإنما هو مجموعة من الإجابات على الأسئلة الكبرى التي تشكل امتحان التاريخ، وتحديات الواقع لمجتمع ما[٣].

إن الأمم التي فقدت إحساسها بهويتها لم يحدث لها ذلك إلا بسبب ضعف مشاركتها الحضارية وضعف فاعليتها، مما جعل تحديد علاقتها بالآخرين، وتمييز ذاتها عن غيرها أمراً عسيراً، ولا معنى له[٤].

---

(١) انظر التنمية الثقافية: ٢٦.
(٢) حول الخيار الديموقراطي: ١٤٢.
(٣) نحو مشروع حضاري عربي: ٢٣٦.
(٤) اغتيال العقل: ٣٠٧.

ونحن نعتقد أن التنمية المتكاملة المؤصلة هي التي ستحد من تشتت وعي المسلم، وشعوره العميق بانسداد الآفاق والدونية الحضارية.

٨ ـ هناك حقيقة، هي عبارة عن ميدان للمعاناة الدائمة لمئات الملايين من المسلمين، هذه الحقيقة هي أن الحد الأدنى المطلوب لحياة كريمة صار مرهقاً، وفوق طاقة الكثير من الناس. قد تعقدت أساليب العيش، وزادت أسعار المواد الأساسية، وكثرت التجهيزات، وصار ما يتطلبه الإعداد التعليمي والمهني الذي يؤهل الشاب للحصول على عمل مناسب، عالي التكلفة. في أكثر بلدان العالم الإسلامي يحتاج الموظف المتوسط الدخل إلى أن يدخر كل مرتباته التي يتقاضاها خلال ثلاثين سنة؛ حتى يتمكن من امتلاك بيت يؤويه مع أسرته!.

فكيف إذا علمنا أن مرتبه لا يكفيه للإنفاق على حياة شبه كريمة سوى نصف شهر، ويدبر نفقات باقيه عن طريق الاقتراض؟!.

إن التواصل العالمي جعل مقاييس العيش المقبول تخضع لآلية الإنتاج والاستهلاك في العالم الصناعي الثري؛ مما زاد من نفقات كل شيء.

حين يكون المرء أمياً بين أميين، وفقيراً بين فقراء، وفوضوياً بين فوضويين، فإن ذلك يشكل نصف مشكلة، لكن المشكلة القاسية هي أن يكون المرء أمياً في وسط متعلم مدرَّب، وفوضوياً في وسط منظَّم.... إن النتيجة المباشرة لهذه الوضعية أن ذاك الأمي أو الفوضوي يُعدُّ نفسه بطريقة مدهشة لأن يُستغل أسوأ استغلال من قبل الآخرين. وهذا ما تعاني منه أمة الإسلام، كما يعاني منه الفرد المسلم اليوم.

إن من ومضات (فولتير) العجيبة قوله: «إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره»!!.

في الماضي لم تكن ثمة وسائل طبية متقدمة للعلاج؛ فكان الموت يحل إشكالات كل الحالات المستعصية، وأما الأمراض والإصابات الصغرى فالمرء يحتملها دون أن تؤثر في حياته.

أما الآن، فماذا يكون موقف أسرة أصيب أحد أفرادها بعطالة في الكُلى هل تتركه يموت؟ أو تسلمه إلى مستشفى حكومي، كثيراً ما يكون نموذجاً للإهمال[١]؟ أما المشافي الخاصة، فإنها أبعد من أن يداعبها خيال الفقير والمحروم!.

وماذا تكون الحال إذا كان لا يجد عملاً إلا من تخصَّصَ، أو تلقى تدريباً يكلف مئات الألوف؟ وماذا تكون حال أسرة تسكن في بيت صفيح من غير ماء ولا كهرباء ولا علاج على هامش مدينة مترفة[٢]، يساوي البيت فيها الملايين؟!

إن هذه الوضعية الآخذة في التفاقم تنذر بتحلل أخلاقي وانحطاط إنساني يفوق كل تصور. وليس هناك حلول سحرية لذلك، لكن بإمكان الفكر المبدع والتربية الجيدة والإرادة الصُلبة، وقبل ذلك وبعده الاستقامة على أمر الله ـ جل وعلا ـ بإمكان كل ذلك أن يحل كل تلك الإشكالات ولو بعد حين.

٩ ـ إن الإنسان لا يستطيع أن يتقدم في حالات الفقر المدقع، بل إني أقول: إنه لا يستطيع أن يعيش وفق مبادئه، ولا يستطيع أن يحيا كل أبعاده، وهو يرضخ تحت ضغوط الحياة المعاصرة وتكاليفها الباهظة.

إن قلة الموارد حملت كثيراً من الناس على الاختلاس وقبول الرشوة، وعلى اقتراف الكذب والاحتيال وإراقة ماء الوجه، وتحمل الجور والهوان؛ بل صار كثير من المسلمين يعيش حياة هي أقرب إلى حياة النبات، فهو يأكل ويشرب ما يتيسر له، ويتنفس، ويتكاثر، ثم يموت!.

---

(١) في إحدى الدول العربية لا يعيش كثير من مرضى الفشل الكلوي سوى فترات قصيرة بسبب رداءة عمليات الغسيل! وإذا ما أراد المصاب الغسيل في مستشفى خاص، فإن أجرة الغسلة الواحدة تبتلع مرتب موظف لمدة شهر كامل!!.

(٢) في كثير من الدول الإسلامية مدن كاملة من الصفيح، وهي نماذج حية لكل ما يمكن أن يجتمع في مدينة من هوان ورذائل وفاقة!.

أما ارتقاء آفاقه الروحية والعقلية والخلقية فإنه أمسى من الماضي البعيد!.

إننا حين نتذكر أننا خير أمة أُخرجت للناس، وأن تلك الخيرية منوطة بقيامنا بوظائف الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من الدعوة والهداية للخلق، ومعاونتهم على الاستقامة، حين نتذكر ذلك، ونرى التكاليف المادية الباهظة التي يتطلبها ذلك نحس بضرورة دفع عجلة التنمية والعمل من أجل توفير الحد المناسب من الرخاء، وما يتطلبه التقدم البشري من شروط وأجواء وإمكانات.

إن العالم بحاجة ماسَّة أكثر من أي وقت مضى إلى من يمنحه الأهداف الكبرى لوجوده، ويرسم له منهجية مطْلَقة، وغير بشرية للخلاص من الكرب الذي يغشاه؛ ولا يملك ذلك أحد اليوم غير أمة الإسلام. والمشكلة أن وسائلنا قاصرة، فنحن نعتمد على غيرنا حتى في المعدات التي نشيِّد بها المآذن، ونرفع بها الأذان!.

إن إيصال رسالتنا إلى العالم تتطلب شبكات اتصالات ضخمة، وقنوات إعلامية عملاقة، حتى نجعل الصورة النقية للإسلام حاضرة في كل مكان في الأرض، لكن الفقر المدقع الذي يلف كثيراً من المسلمين يحول بيننا وبين ذلك!.

إن مسألة التنمية عامة، والتنمية الاقتصادية خاصة ليست مما يمكن تجاوزه أو تأجيله، لأنك حين تعيش في عصر، محوره المال والإمكانات المادية ـ تجد كل إنجازاتك مرهونة عنده، ومنوطة به، وتجد أن كل ما تملكه من مخزون ثقافي وحضاري أشبه بسيارة ليس عند صاحبها ثمن وقود لتشغيلها، أو كمسدس من غير ذخيرة، أو فارس من غير فرس!.

لكل هذا، ولغيره أرى أن مسألة محاولة التقدم المستمر ينبغي أن تدرس في أكثر من مقرر دراسي، وفي أكثر من مرحلة؛ حتى تصبح جزءاً من النسيج الثقافي للمسلم المعاصر.

لا بديل عن التكامل في التنمية

حين نفهم التنمية على أنها عبارة عن دفع وتحريك للكينونة الفردية والاجتماعية نحو الأفضل، ندرك أن عمليات الدفع ينبغي أن تشمل كل الجوانب الحضارية للأمة. وفي اعتقادنا أن الطبيعة الإنسانية كلٌّ متكامل، لا يمكن تجزئتها؛ وحين نهتم بأنشطة وأعمال تخدم جانباً من تلك الطبيعة، ونهمل باقي الجوانب، فإننا في الحقيقة ندخل نوعاً من الخلل على التوازنات العميقة والظاهرة في الشخصية الفردية، والشخصية الاجتماعية.

وحين فتح المسلمون عيونهم على إنجازات الغرب العمرانية والصناعية والتنظيمية كانوا في حالة يرثى لها من الفقر والتمزق والجهل والإحباط... فأدى ذلك بصورة عفوية إلى أن يلتقط وعيهم عن تقدم الغرب كل ما يُسهل استيعابه، وما يشعرون أنهم بحاجة إليه، فاتجه السواد الأعظم من كتّاب التنمية لدينا إلى بلورة الأسس والآليات والأساليب التي تساعد على التقدم في أصعدة الخدمات والصناعة ومعالجة المشكلات الحضرية مستلهمين في كل ذلك أدبيات الغرب ومناهجه ووسائله... وظانين أن ذلك سوف يولِّد لدينا عين النتائج التي حصلوا عليها؛ بل إن الأمر تجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأن علينا أن نتحمل كل السلبيات التي ستنجم عن ذلك النقل؛ حيث إن الثمار اليانعة التي سنحصل عليها تستحق التضحيات مهما كانت كبيرة! ويضاف إلى هذا أن الكتّاب الإسلاميين لم يولوا مسألة التنمية الاهتمام الذي تستحقه إلا في الآونة الأخيرة، وعلى نحو ما يزال إلى اليوم غير مُرضٍ ولا مجزئ.

وقد فات كل دعاة النقل الشامل للمذهبيات الأجنبية أن العمل في الحقول الثقافية والإنسانية حساس تجاه كل الوافدات، وأن ثقافة كل أمة تتمتع

بنوع من المناعة الداخلية التي تساعدها على رفض كل الأفكار والمناهج التي تتجاوز مهماتها توظيفَ المبادئ الأساسية للثقافة، أو تنشيط وظائفها وتفعيلها؛ ومن ثم فإن مما استقر عليه الرأي لدى كبار المنظِّرين والمفكرين أن التجارب الكبرى لا تُنقل؛ لأنها لا تقبل الاستنبات في غير تربة نشأتها الأولى، وإنما يُستفاد من بعض أجزائها وخبراتها وأساليبها.

ونتيجة للخبرة التي تكونت لدينا من وراء رحلات التغريب والتشريق اتَّجه عدد من كتّابنا في العقدين الأخيرين إلى المناداة بضرورة النهوض الشامل بجميع جوانب الحياة، وأخذوا يولون التنمية غير الاقتصادية بعض الاهتمام، لكن ذلك لم يشكل تياراً قوياً إلى اليوم، كما أن هناك نوعاً من العتمة الفكرية والثقافية لدى أبناء هذا التوجه، إلى جانب قصور عظيم في الدراسات والبحوث التي تكشف القناع عن طبيعة التشابك بين جوانب الشخصية الإنسانية وعمليات التشييد الحضاري.

إن التحسين الشامل الذي نحاول أن ننظِّر له يتطلب إلماماً حسناً بمجموعات عديدة من الكينونات الحضارية، وبطبيعة العلاقات التي تربط بينها وأنماط التفاعل والتكامل والتناذر والتأثير المتبادل الذي يحدث أثناء محاولات الإصلاح وبناء مجتمعات راشدة جديدة.

إن علينا أن نلاحظ في خططنا التنموية وجهودنا الإصلاحية الآثار السلبية المباشرة والمشتقة والدائرية والارتدادية التي يُحدثها الاهتمام الخاص بجانب من جوانب الحياة الإنسانية في الجوانب الأخرى. وإن علينا أن نعترف أن خبرة الإنسان بذلك ما زالت متواضعة؛ فالرخاء الاقتصادي قد يكون فرصة عظيمة لشعب من الشعوب كي يجدد كل أبنيته الحضارية، لكنه بالنسبة لشعب آخر قد يصرفه عن استثمار الجوانب اللامرئية في كيانه المعنوي.

والتشدد في التربية قد يُخرج من فتىً ما إنساناً عصامياً، لكنه قد يكون مدمراً للبنية النفسية لفتى آخر.

وهذا في الحقيقة ليس نابعاً من طبيعة الرخاء والتربية القاسية والفقر الشديد، وإنما يتولد من طبيعة التفاعل بين هذا العنصر وبين العناصر الثقافية والمادية الموجودة في ذاكرة ذلك الشعب وواقعه.

فالخوف من المجاعة لدى اليابانيين جعل منهم الشعب الأكثر دأباً وإبداعاً في العالم، على حين أن الفقر دمَّر إمكانات حضارية هائلة لدى شعوب أفريقية عديدة، وجعلها على حافة الهاوية، ومع ذلك فلم يستنفر فيهم الطاقات الكامنة!.

الفراغ خرَّب حياة كثير من الشباب، لكنه بالنسبة للعظماء قد يُعد شرطاً أساسياً لإنجاز الأعمال الكبيرة، وهكذا... في (التنمية المتكاملة) تقوم علاقات اعتمادية كثيرة؛ فالأمة حين تصاب بجائحة اقتصادية تعتمد على رصيدها الأخلاقي في حجز الناس عن الانحلال الخلقي، وفي التعويض على المنكوبين وإغاثتهم. وحين تكون أمة من الأمم فقيرة في العتاد الذي يمكِّنها من الدفاع عن أرضها، فإنها تعتمد على روح التضحية والفداء وحسن التنظيم، وذلك للتعويض عن نواقصها.

وحين تتعاظم ثروة شعب فإنه يتلافى الآثار الترفية التي يمكن أن يحدثها العيش السهل بالاعتماد على ما لديه من أدبيات الزهد والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، وعلى ما لديه من تقدير لأعمال البر والإحسان وبناء المرافق العامة...

وإننا سنحاول الكشف عن بعض العلاقات التكاملية والاعتمادية والتعويضية التي اهتدينا إليها، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ ـ ما بين التنمية الشاملة والتنمية المتكاملة:

تعني التنمية الشاملة نوعاً من صرف العناية والاهتمام لكل مجال من مجالات الحياة المختلفة الروحية والمادية، الثقافية والعمرانية... هذا موجود لدى كل دول العالم، حيث ليس هناك دولة، لا تلقن أبناءها عدداً من القيم والمبادئ، كما أنه ليس هناك دولة لا تبني المدارس والمشافي، ولا تفتح دوراً للرعاية الاجتماعية...

والذي يُلاحظ على هذا النوع من التنمية أنه لا يقوم على فلسفة محددة، ولا تحكمه رؤية واحدة، ولا توجد لديه معايير دقيقة لإعطاء كل جانب من جوانب التنمية، وكل مجال من مجالاتها ـ القدر الذي يستحقه من الاهتمام والجهد.

والقائمون على هذا النوع من التنمية لا يملكون ما يكفي من الخبرة ولا الحساسية والشفافية لإدراك وجوه التوافق والتنافر بين الأنشطة التنموية المختلفة، كما أنهم لا يعرفون الحدود التي ينبغي أن يقف عندها نوع معين من النمو، والتي إذا جاوزها تحول من عنصر مساعد في الإصلاح العام إلى عنصر سلبي ومعوِّق. وحتى نوضح الصورة نضرب بعض الأمثلة:

أ ـ الرخاء الاقتصادي، وتكوين رأس مال وطني وفردي مطلب إسلامي، ولا سيما أننا في زمان صار المال فيه الأداة التي يستخدمها كلُّ شيء، لكن حين تتكوَّن الثروة عن طريق الربا والغش والرشوة والتلاعب بالنظم واستغلال النفوذ والاحتكار والنهب، فإنها تتحول من أداة خيِّرة يستعين بها الأفراد والشعوب على تحريك الأنشطة المختلفة إلى عنصر مدمِّر، تدمر سعادة جامعها الداخلية، وتدمر تربيته لأولاده الذين يعرفون مدى خروج سلوك والدهم على ما يقرؤونه في الكتب، وتدمر روح التضامن الأخوي بين الناس، وتدمر في النهاية نفسها؛ لأن طبيعة مثل هذه الثروة لا تسمح بالاستمرار، وكيف يستمر من يدمر محيطه الحيوي الذي يتنفس فيه؟! إنها أشبه شيء بالسرطان الذي يدمر العضو الذي يغزوه، وبتدميره يكون قد دمَّر نفسه أيضاً.

ب ـ ملاطفة الناس، وغض الطرف عن مساوئهم، ومعاملتهم بالتي هي أحسن، كل ذلك آداب إسلامية معروفة، لكن ذلك إذا تجاوز حدوده ليصل إلى المداهنة والسماح للأخطاء والانحرافات بالانتشار، فإن الأمر يتحول من مطلب خلقي إلى عامل تفسخ وتحلل اجتماعي، على نحو ما حصل لبني إسرائيل، حيث سايرهم أحبارهم، وشاركوهم في لهوهم وارتكاب المناكر والموبقات، فكانت النتيجة هي الانحطاط العام واستحقاق اللعن، كما قال ـ

جـل وعـلا ـ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

جـ ـ إن الله ـ تعالى ـ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾﴾[2]. لكن ذلك التحديث حين يكون بصورة استفزازية للجيران والأصدقاء والزملاء... فإنه يتحول من شيء ممدوح إلى عامل تحاسد وتباغض، وإلى وسيلة كسر لقلوب الفقراء والضعفاء. بل إن التحدث بالنعمة قد يفسد نسيجاً اجتماعياً بأكمله؛ فحين تُصرف الفوائض المالية على شراء السلع المغرقة في الكمالية والبذخ يندفع الفقراء إلى تقليد ذلك، ويؤدي التقليد إلى تبديد الثروة الوطنية، وتسود روح الشكلية والمظهرية والرقي الكاذب، إلى جانب إشاعة مشاعر البَرَم والسخط وعدم الرضا لدى السواد الأعظم من الناس، حيث إن الرضا ينبع أصلاً من خلال مقارنة الإنسان نفسَه بالآخرين.

إننا نستطيع القول إن ما يتم الآن من صنوف التخطيط التنموي على مستوى العالم ما هو إلا نماذج للتنمية الشاملة، على تفاوت في حجم النواقص والعلل الكامنة فيها.

والعالم ليس مؤهَّلاً بما لديه من خبرات ومعارف وأصول لرسم خطط رشيدة يجد فيها الأفراد والمجتمعات حاجاتهم وحقوقهم وطموحاتهم.

وما دامت البشرية لم تملك عبر تجاربها الطويلة ما يؤهلها لإدراك الوضعية المثلى لأجيالها، فإني أظن أن ما تبقى لها على هذه الأرض لن يشهد ذلك!.

إن الأمة الوحيدة التي تملك إمكانات ـ أقول إمكانات ـ بلورة تنمية متكاملة ومتزنة هي أمة الإسلام؛ لأنها وحدها التي تملك أصول رؤية منهجية

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة الضحى، آية: ١١.

مطلقة وراشدة، حباها بها: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

ولا ينبغي أن يُفهم من هذا أننا نملك فعلاً خططاً لتنمية متكاملة؛ فقد اقتضت حكمة الابتلاء أن يملّكنا الله ـ جلَّ وعلا ـ الأرضية والمنهجيات والأهداف الكبرى، وأن يترك لنا البحث عن الأساليب والوسائل وتقسيم المراحل وإقامة الموازنات ومراجعة الخطوات ورسم السياسات، وكل ما من شأنه التفاعل ضمن الإطار العام والمعالم الأساسية التي زوَّدنا بها.

إن التنمية المتكاملة ترتكز على نوع من الرؤية الشاملة لطبائع الأشياء وعلاقاتها وتفاعلاتها وتأثيراتها عبر الماضي والحاضر والمستقبل، وإدراك ذلك فوق طاقة العقل البشري. وهي تقتضي ضبطاً لنوازع الشهوات والأهواء، ودرجة من التضحية والبذل والعطاء السخي، وهذا يحتاج إلى طاقة روحية هائلة، وهي مفقودة اليوم لدى الأكثرية من أبناء الأمم المتقدمة صناعياً.

وتتطلب إلى جانب هذا سلوكاً خاضعاً للمبدأ، وليس لمقتضيات العمل السياسي، وهذا ميدان جهاد فسيح، يختلف كسب الناس فيه اختلافاً بيّناً.

وتحتاج التنمية المتكاملة إلى فيض من البحوث والدراسات والاختبارات والتجارب وعمليات المراقبة والرصد؛ وإنجازاتنا على هذا الصعيد في المؤخرة!!.

وعلى كل حال سيظل الفارق كبيراً بين من يحرث في البحر، وبين من عنده أرض خصبة، ويعرف ماذا يجب أن يزرع، لكنه بحاجة إلى محراث.

٢ ـ إذا أغنينا الحياة المعنوية خفَّ الطلب على المال:

الطبيعة البشرية طبيعة تكاملية تعويضية، فحين تنسد آفاق النمو والتفتح أمام جانب من جوانبها، فإنها توجه طاقات نموها نحو الجوانب والآفاق المفتوحة. وقد يحدث نتيجة ذلك خلل في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة أيضاً. في القرنين السابع عشر والثامن عشر أخذ الفلاسفة في الغرب يروجون

---

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

لجعل الهدف الرئيسي في الحياة هو تحقيق رغبات الإنسان، وصارت كلمة (كسْب) التي تعني الكسب الروحي في المفهوم اللاهوتي مقصورة على المحتوى المادي والربح النقدي باعتباره المدخل الرئيس لشعور الإنسان بالتميز. وأخذ السلوك الاقتصادي يتحرر شيئاً فشيئاً من المبادئ الأخلاقية، بعد أن كانت مقولات اقتصادية، مثل الثمن والملكية الخاصة عند أتباع المدرسة الفلسفية جزءاً من علم الأخلاق(١).

وهكذا تقعَّد في حسِّ الإنسان الغربي نوع من التقديس للمال باعتباره المفتاح الذي يفتح كل الأقفال! لكن مشكلة المشكلات في الاقتصاد كله هي (الندرة) ولولا الندرة ما نشأ شيء اسمه «علم اقتصاد» فالمعروض من المال أصلاً أقل من المطلوب بالإضافة إلى أن الإنسان لا يشبع منه، كما ورد في الحديث: «**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان**...»(٢).

وانتقلت الموجة إلى ديار المسلمين، وصاحب ذلك أوضاع سياسية واجتماعية بائسة؛ مما دفع كثيراً من الناس إلى اعتبار جمع المال وتثميره الميدان الأرحب المحرِّر لكل أنشطتهم...

والمشكلة أننا حين نكبت النشاط الروحي والأدبي والاجتماعي، فإننا نكون آنذاك قد اختزلنا كل الفروق بين الناس، وكل مجالات التنافس وتحقيق الذات - إلى مجال واحد، هو امتلاك المال، ويكون الحال آنذاك مروعاً، حيث يُشحن المجتمع بروح الحقد والحسد والجشع والعنف...

وهذه المرحلة من التهافت على جمع المال أسلمتنا إلى مرحلة أخرى، لا بد لمالك المال منها، وهي مرحلة ثقافة (الاستهلاك العظيم) وهي ثقافة غربية المنشأ، تروج لها أساساً الشركات المتعددة الجنسيات، وقد صارت ثقافتنا الإسلامية كلها في خطر!.

---

(١) المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة: ٥٩، ٦١.

(٢) متفق عليه.

ليس أمامنا من حلول سوى أن ننمي داخل ثقافتنا قيم القناعة والإقبال على الآخرة والحرية والانفتاح والحوار والعدالة والتعاون، ذلك أن هذه القيم هي التي تجعل ثقافة أكثر جاذبية من ثقافة أخرى.

ولو أن فلسفة الملكية في الإسلام تجذرت في فكرنا ومشاعرنا لخبا الكثير من وهج المال وبريقه، حيث يضفي على الملكية الخاصة طابع الوكالة والاستخلاف[(١)]، فالمسلم مستخَلف في المال، وعليه أن يضعه حيث يأمره المالك الأصلي ـ جل وعلا ـ وحين أعطى الإسلام للمال مفهوم الخلافة جرَّده من كل الامتيازات المعنوية التي اقترنت بوجوده على مر الزمن، فالملكية أداة وليست غاية[(٢)]، ومن ثم فإن على من يجمع الثروة أن يلاحظ الجانب الوظيفي لها.

ومن جانب آخر فإن غنى الحياة بعلاقات المودة والتراحم والتضامن، كما أن انتشار العلم والمعرفة وتفتح آفاق الأنشطة الفكرية والروحية ـ مما يساعد على تحطيم الكثير من جاذبية المال والتملك والمظهرية الفارغة. وقد دلت بعض الدراسات على انخفاض تأثير الدخل في حصول السعادة، حيث لا يتجاوز ذلك التأثير أكثر من ٢٠ بالألف. وفي دراسة على (نوعية الحياة الأمريكية) قدَّر الأفراد أن مستواهم المالي من أقل العوامل تأثيراً في مستوى رضاهم عن حياتهم؛ فالمال مثلاً أقل تأثيراً في السعادة من العلاقات الاجتماعية. كما ثبت أيضاً أن تأثير الدخل في سعادة ذوي التعليم المرتفع أقل[(٣)]. نعم يمكن للمزيد من الثراء أن يؤدي إلى إزالة الهموم المادية، ولكن ربما تتحول بؤرة الهموم إلى مشكلات شخصية، ومشكلات في العلاقات مع الآخرين، بحيث لا يمكن للمال أن يحلها[(٤)]، وتدل بعض الدراسات على أن

---

(١) يقول ـ سبحانه ـ: **﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾** سورة الحديد، آية: ٧.

(٢) اقتصادنا: ٥٠٦، ٥١٠.

(٣) سيكلوجية السعادة: ١٢٧. وهذا الكلام لا ينطبق طبعاً على الدخل الذي لا يقوم بالأود، ولا يكفي لسد الحاجات الأساسية.

(٤) السابق: ١٣٣.

(الاكتئاب) يقل شيوعه لدى الشعوب التي تتميز بالأسر الكبيرة، وتلك التي تتمتع بدرجة أعلى من التضامن الاجتماعي[1]. وهكذا يمكن لنا من خلال إدراك العلاقات بين الأشياء أن نكسر من سورة الجشع المادي والتزاحم على المال، حين نقوّي روح الأخوة، وننشر العلم، ونغذي الروح بالذكر، ونسقي الإيمان بالأعمال الصالحة.

٣ ـ التفاوت الكبير في الدخل يُلحق أضراراً بالغة بالحياة العامة:

يحترم الإسلام الملكية الخاصة احتراماً شديداً، كما أنه يقر مبدأ تفاوت الدخل بين الناس على أساس أن المواهب والقدرات والإمكانات متفاوتة، ولا يحرم الإسلام أحداً من ثمار الامتيازات المشروعة التي لديه.

لكن الإسلام يعطي في الوقت نفسه للحاكم المسلم صلاحيات واسعة في إقامة التوازن الاجتماعي، بمساعدة الأكثر حاجة، وبالتدخل في هيكل المرتبات، وفي وضع القيود على الكماليات وبسنّ الضرائب. . . التصاعدية، والمباشرة وغير المباشرة ـ بما يضمن الحفاظ على الثروات الوطنية، وبما يزيل الأحقاد والأضغان من النفوس. والعيش في مجتمع له دائماً ثمنه واستحقاقاته، ويجب أن نكون على استعداد للدفع؛ فالغرم بالغنم.

وقد علّمت الخبرة التاريخية والاجتماعية مخططي الاقتصاد في العصر الحديث مدى الأضرار التي تلحق بالمجتمعات من جرّاء التفاوت الكبير بين دخول الفئات المختلفة، وصار تحقيق نوع من التقارب بين مصادر عيش الناس شغل كثير من الدراسات والبحوث، وكثير من السياسات والتنظيمات. وهناك من يرى أن من أسباب نجاح التجربة اليابانية في المجال الاقتصادي بشكل جوهري ـ عدم وجود فارق كبير بين الموظفين في الدخل والصلاحيات والمسؤوليات؛ فدخل المدير المتدرب بعد خصم الضريبة يبلغ ١/ ٥ أو ١/ ٦ من دخل الرئيس التنفيذي، على حين أنه يبلغ ١/ ١٥ في أمريكا، وأحياناً ١/ ٢٠.

---

(١) السابق: ١٤٥.

ويقل الفارق عن ذلك في أوربا، لكن الفارق يظل فيها أعلى من اليابان[1]، ولا شك في أن ظروف المجتمعات تختلف في إمكانية التقريب إلا أن من المهم ألا تسيطر المقارنات الاجتماعية العلنية بين الأغنياء والفقراء على الحياة العامة، ولا يكون ذلك إلا عندما تزيد الفوارق بين الناس زيادة فاحشة، وإلا عندما تكون جوانب الحياة غير الاقتصادية فقيرة ومتجمدة.

ومما لا خلاف فيه بين علماء الاقتصاد أن الفوارق الكبيرة في الدخول تؤدي إلى زيادة الاستهلاك؛ حيث تشجع الفوائض المالية على شراء الكثير من الكماليات، ويؤدي ذلك إلى ضعف الادخار.

وهناك ظاهرة أخرى هي ظاهرة (الانقسام الثقافي)؛ إذ إن من الملاحظ في كثير من المدن العربية والإسلامية وجود أحياء للأثرياء وأخرى للفقراء؛ ولكل من الفريقين ثقافته في التعامل والتسوق وطريقة الكلام، والتقويمات الخاصة...

إن الغنى يشكِّل دائماً ثقافة نخبة، على حين تتشكل الثقافات الشعبية في ضوء الفقر والحاجة. ويترتب على ذلك نوع من التضاد في المصالح، ومن ثم في المواقف من الخطوات الإصلاحية، والعلاقات مع الخارج..

وهذا في تصوري من أكبر العقبات التي تعوق التقدم والإصلاح.

٤ ـ حين يضعف الموضوعي فإن أول حلوله تدعيم الذاتي:

هناك علاقة جدلية بين الذات والموضوع؛ فحين تسوء الظروف الاقتصادية والاجتماعية، فإن الناس يعتمدون في تحسينها على جهودهم الاستثنائية؛ كما أن الظروف السيئة تغيِّر في أخلاق الناس وسلوكاتهم وعلاقاتهم... وإن العقل يفكر دائماً وفق أنماط ونماذج معتادة، ولذا فإن الناس يندفعون من غير وعي إلى معالجة مشكلاتهم بنوع من العفوية واللاشعور وفق أنماطهم الخاصة، فيعالجون المشكلات الاقتصادية بإجراءات

---

(١) أضواء على الاقتصاديات العربية: ١٥٤.

وحلول اقتصادية، ويعالجون المشكلات الاجتماعية بمزيد من الضبط الأخلاقي والإرشاد التربوي. . . .

وإذا ما نحن أمعنا النظر وجدنا أن أكثر المشكلات التي يعيشها الناس لا تعود إلى جذورها المألوفة، وإنما تعود قبل كل شيء إلى نوع من القصور الإنساني، فالمشكلات الاقتصادية الطاحنة التي تجتاح الشعوب ليس سببها قلة الموارد أو التآمر العالمي، أو ركود الأسواق العالمية، وإنما تصلُّب وانحراف في الفكر، واعوجاج في السلوك، وسوء تصرف وتدبير، وأنانية في النفوس. . . ولذا فإن التفكير المبدع هو الذي يعتمد في حركته واستنتاجاته على مقدمات ومداخل غير مألوفة، وينتهي كذلك إلى حلول غير مألوفة؛ فالتأخر الصناعي مثلاً قد يعود إلى سوء التربية أو بعض العادات الاجتماعية التي تحتقر العمل المهني، وتُعلي من شأن التجارة ـ كما هو شأن عرب الجاهلية ـ والفساد الأخلاقي قد يعود إلى الاستبداد والطغيان السياسي، وتمزق الشعب الواحد قد يعود إلى تمتع فئات منه بامتيازات خاصة وهكذا. . .

وعلينا اليوم أن نعود من جديد إلى استثمار جهودنا في (الإنسان المسلم) فإذا استطعنا أن نتقدم به تقدَّمَ لدينا كل شيء، وهذا ما فعله النبي ﷺ حين جعل من إصلاح الإنسان وتغييره مدخلاً حضارياً لتشييد العمران، والنهوض المدني. وهذا ما أراد القرآن الكريم أن يؤكده عندما قصّ علينا أخبار الأمم البائدة، حيث لم يذكر لنا أن استئصال أي منها كان بسبب قصور عمراني، وإنما بسبب الحيدة عن المنهج الرباني، وجحود رسالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أي بسبب قصور إنساني.

والملاحظ اليوم أن الإنسان آخر ما يتم التفكير فيه، وقد أصبح خادماً لكل ما حوله، بدل أن يكون سيداً له!.

إن سوء الأحوال المادية لأكثر المسلمين يفرض تدعيم خُلُق الإنسان ونفسيته وفكره؛ حتى يتمكن من التغلب على الظروف الصعبة.

٥ ـ يستسلم العقل حين تضعف الأخلاق:

يحرص كثير من الكتّاب العرب على أن يظهروا في كتاباتهم بمظهر (العقلاني) البعيد عن التحيز للمبادئ الأخلاقية، وسيطر على كثير منهم شعور بأن الدعوة إلى الأخلاق إرث من إرث الماضي، وظنوا أن مشكلة الإنسان لدينا تكمن في عدم امتلاكه منهجية قويمة في التفكير. وتجاوز الأمر ذلك إلى اتهام دعاة التمسك بالخلق القويم بالسذاجة والنفاق ومحاولة كسب تعاطف الناس من غير وجه حق... حتى إذا انحدر الناس نحو الهمجية، وسيطرت عليهم الأنانية أخذوا يجأرون بالشكوى من سوء الأحوال؛ وما دروا أن ما نحن فيه يعود في جانب منه إلى ما نفثته أقلامهم من التهوين من شأن الفضيلة......!!.

إن التيار الشهواني الغرائزي بإمكانه أن يطوِّع العقل لمتطلباته؛ ويحولُ دون ذلك في العادة المبادئ والأخلاق التي يتحصَّن بها الإنسان؛ فإذا انهدم الحصن، فإن الغريزة تستعبد العقل.

إن العقل قد يكشف عن فرص للربح والفوز، لكنه لا يحجز أبداً عن ارتكاب الفظائع في سبيل الوصول إلى تلك الفرص، وما يفعله الغرب (العقلاني) اليوم بالأمم الضعيفة برهان على ذلك!.

إن العقل والعلم قد يدلان الإنسان على كيفية العلاج وكيفية القتل، لكن المبادئ والأخلاق وحدها هي التي تحدد متى ينبغي أن يكون العلاج، ومتى ينبغي أن يكون القتل!.

في العالم مئات من الملايين المصابين بسوء التغذية، وفي الغرب جبال القمح والزبدة التي تحرق أو تلقى في البحر استجابة لما يقول به علم الاقتصاد من فرض توازن المنحنى البياني بين الإنتاج والاستهلاك!

إن كثيراً من دولنا الإسلامية ضحت بأخلاق الناشئة لديها، وتركتهم مكشوفين أمام التيارات الشهوانية الرهيبة رضوخاً لما يأتي به الانفتاح من (بركات) السلع المستوردة والأفلام والمجلات الماجنة؛ فكانت النتيجة نشوء

أجيال لا تصلح لأي شيء! وماذا عسى أن يكسب من يخسر نفسه؟!.

إن الطاقة الحيوية لدى الناس حين يديرها العقل بعيداً عن القيود والمدلولات الأخلاقية تتحول إلى عامل تدمير لا يُبقي ولا يذر، وإن التلاعب بالجينات الوراثية الذي يجري اليوم ما هو إلا شاهد أوَّلي على ما يمكن أن يحدث في المستقبل!.

٦ ـ لا ولاية للأمة على نفسها في ظل ظروف متدهورة:

نظراً للتكاملية والجدلية القائمة بين الجوانب الحضارية المختلفة، فإن إرادة التغيير والإصلاح تظل مقيدة بمجمل الظروف الاجتماعية السائدة؛ فرغبة مجتمع من المجتمعات في أن تكون له ولاية حقيقية على نفسه، وسيادة تامة على أرضه، لا يمكن أن تكون حرة طليقة، وإنما يقف أمامها سدود وحواجز من طبيعة الضغوط المختلفة والأوضاع السيئة.

وقد أخذت بعض الدول الإسلامية بالنهج الغربي في الحكم[١]، على أمل أن تؤمِّن نوعاً من السلاسة والشفافية في تداول السلطة ومراقبتها، لكن النتائج كانت مخيِّبة للآمال، وكان كل ما حصلوا عليه نوعاً من قشور ليبرالية وديموقراطية؛ فالانتخابات تزوَّر بشكل سافر، وأصوات الناخبين تباع وتُشترى، والقضاء تابع غير مستقل، والرشوة تشل الأنظمة والقوانين..

وكل هذا مفهوم وطبيعي في ظل أخلاق متدهورة، وظروف معيشية قاسية، وقد صار معلوماً اليوم أن قدرة الشعوب على تنظيم وجودها المعنوي مرتبط إلى حدٍّ بعيد بقدرتها على تنظيم وجودها المادي. ولو فرضنا أن شعباً استطاع تأسيس حكم شوري نزيه، فإن ذلك الحكم يفقد جاذبيته ومضمون شرعيته ما لم يتمكن من إيجاد تنمية جيدة، وتحقيق أمن عسكري مناسب.

إن قوة الأفكار والوعي النقدي العظيم لا يرقيان بالأمة كثيراً ما لم

---

(١) بين المنهج الإسلامي والمنهج الغربي في الحكم نقاط التقاء، ونقاط افتراق، ليس هنا مكان بسطها.

تتمكن من إحداث تغييرات اجتماعية واقتصادية جيدة؛ فالفكر يجد نفسه متأزماً ما لم يمده الواقع بنماذج مثيرة، وما لم يستحثه على الإبداع، ويطالبه بتجديد نفسه. إن توالي الاختراعات الخاصة بوسائل النقل والمواصلات والإنتاج هو الذي حمل الجماهير الغربية على استبدال ضياء المدينة بظلام القرية(١).

ويقول أحد الخبراء الإسبان: إن إسبانيا ستكون مهيأة للديموقراطية حين يصل متوسط دخل الفرد إلى (٢٠٠٠) دولار. وقد كان هذا فعند عشية وفاة (فرانكو) كان دخل الفرد الإسباني (٢٤٢٦) دولاراً، وانتقلت إسبانيا إلى النظام الديموقراطي(٢).

إن الفقر والحاجة والجهل والكسل والتفكك لا بد لها أن تنعكس على أساليب تنظيمنا لأنفسنا، كما لا بد لها من أن تصبغ أشكال إنتاجنا الأدبي والصناعي بصباغها، وإن النهضة الشاملة المتناغمة، ستكون هي الحل - بعون الله - لهذه الجدلية الرديئة.

٧ - انعكاسات الظروف المعيشية القاسية أسوأ مما نعتقد:

انعكاسات الحياة المعيشية الصعبة لا تقتصر على ضعف تنظيم الأمة لنفسها، وتحقيق ولايتها على ذاتها، وإنما تتجاوز ذلك إلى التأثير في قدرة الناس على الكسب المعرفي، وتنمية ذكائهم وتمتعهم بالراحة العقلية وأوقات الفراغ، بل وحسن أخلاقهم. وهذه القضايا كلها ذات أهمية خاصة في زمان يتطلب العيش الكريم فيه أن يشغِّل الإنسان كل طاقاته النفسية والذهنية والجسمية حتى يشعر بالسواء الاجتماعي، وبإمكان الوصول إلى أهدافه.

وسنعرض هنا لبعض الدراسات التي تناولت علاقة الأوضاع السيئة بالحالة الثقافية والعقلية للفرد، وذلك فيما يلي:

---

(١) الغرب وأسباب ثرائه: ٣٢٧.
(٢) نهاية التاريخ: ١٠٨.

أ ـ تدل الدراسات التي أجريت على بعض الفقراء أن التخلف العقلي يزيد بين الذين يولدون في بيئة فقيرة، ويرجع ذلك إلى ارتفاع نسبة المخاطر المقترنة بالولادة من ناحية، وبالحرمان الثقافي التعليمي من ناحية أخرى. ويؤدي ذلك ـ غالباً ـ إلى مزيد من الفقر في المستقبل، كما قال (ونسلو) مبيناً الدورة الرديئة: «في البلاد الفقيرة يمرض الرجال والنساء؛ لأنهم فقراء معدومون»[1].

ب ـ إن الطلاب الفقراء يحصلون في العادة على كم كبير من الأنشطة الثقافية (السلبية)، مثل مشاهدة التلفاز. أما أبناء الطبقتين الغنيَّة والوسطى، فيحصلون على:

١ ـ القراءة المكثَّفة في المنزل.

٢ ـ مناقشات جادة داخل المنزل حول موضوعات جوهرية ومهمة.

٣ ـ العيش في بيئة اجتماعية تضمن معلومات متقدمة، ومعقدة بدرجة كبيرة[2].

وأثبتت بعض الدراسات أن الآباء ذوي التحصيل الدراسي والتعليمي المنخفض يشكلون في منازلهم بيئة تساهم في تنشئة أطفال مشابهين لهم في المستوى في بعض الأحيان.

وأكدت معظم الدراسات أن متوسط ذكاء الطبقة الوسطى أعلى من متوسط ذكاء الطبقة الدنيا، وأن متوسط ذكاء أطفال الحضر أعلى من متوسط ذكاء أطفال الريف[3].

جـ ـ التقدم الحضاري ساعد الإنسان الحديث على السيطرة على بيئته، فتخلص من ضغوط عوامل المناخ، مثل البرودة الشديدة والحرارة المرتفعة،

---

(١) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين: ٣٣.
(٢) التدريس من أجل تنمية التفكير: ٥٠.
(٣) الفروق الفردية: ١٠٤.

ومثل البيئات التي استوطنتها الأمراض الخطيرة، لكن السيطرة على المناخ تحتاج إلى المال من أجل التكييف[1]، والتدفئة والأدوية.

والفقراء المحرومون ليس لديهم ما يكفي للأساسيات والضروريات؛ مما يعني تغلب تأثيرات المناخ عليهم. ومن الواضح أن الجو الحار يفرض حدوداً على طموح الفرد، وهو من الأسباب الأكثر أهمية لمستوى الحماسة المنخفض لدى معظم الأفارقة[2]. كما أن مجموعة من الأمراض ونوع الغذاء وطريقة المعيشة ونقص البروتين، يؤدي كل ذلك إلى كسل مؤقت أو شبه دائم[3].

د ـ يترقى الإنسان كلما كان مجتمعه الذي يعيش فيه زاخراً بالإبداع والتراحم والاستقامة والنقاء والمعلومات المتقدمة والاستقرار والإنتاج... وعلى مقدار كمال هذه السمات والأحوال يكون كماله.

وحين يكون المجتمع فقيراً فيما ذكرناه فإن هموم الناس وتفكيرهم ـ بصورة عامة ـ تتجه من أجل تأمين الضروريات التي لا بقاء لهم بدونها. وهذا في الحقيقة يخفِّض الوجود الإنسان إلى مستوى المنتج ـ المستهلك، ويحوِّل الحياة من فرصة للكفاح من أجل الأهداف النبيلة إلى ساحة صراع من أجل البقاء! وهذا هو مصدر فقد التاريخ بالنسبة لكثير منا. يقول (توينبي): «لو تصور المرء أنه محتاج دوماً إلى إعمال الفكر، وإلى العمل الإداري ليبعث في رئتيه كل نَفَس، وفي قلبه كل نبضة لما توفرت له قط أية فضيلة من طاقة ذهنية أو إرادية، يدَّخرها لا لشيء سوى مجرد الحفاظ على حياته. وبعبارة أدق. ما كان ليتيسر لأي كائن بشري التطور إلى إنسان كامل»[4].

---

(١) في العديد من الدول الإسلامية لا يكفي راتب الموظف لسداد ثمن الكهرباء إذا أراد تكييف منزله!!.

(٢) تدل بعض الدراسات أن أفضل حالات الطقس بالنسبة للنشاط البشري، هي التي تتراوح فيها درجات الحرارة بين ٥ و١٦ درجة.

(٣) التربية والتقدم: ٢٥٥.

(٤) مختصر دراسة التاريخ: ٤: ٢٢٩.

إن كثيرين من إخواننا في العالم يغتبطون إذا ما حصَّلوا عملاً إضافياً ينفقون فيه ما تبقى لهم من طاقة حيوية بغية تأمين حاجات أطفالهم؛ وهذا وحده كاف لقتل أي إبداع، بل لقتل السعادة والشعور بالرضا!.

هـ - الأنشطة التي نقوم بها في أوقات الفراغ مصدر عظيم من مصادر الشعور بالرضا، كما أنها مصدر ترميم لما تآكل من نفوسنا وعواطفنا وطاقاتنا الذهنية والبدنية من جرّاء الأعمال الرتيبة التي صارت سمة من سمات هذا العصر. وعلينا أن نتذكر أن مصطلح (وقت الفراغ)[1]، لم ينشأ إلا حين نشأ العمل في المعامل والمكاتب بصورة مستمرة على مدار العام، وهذا يعني أنه لا معنى لوقت الفراغ بالنسبة لأولئك الذين سمتهم الأساسية البطالة عن العمل معظم أيام السنة، حيث الفراغ بالنسبة لهم داء دوي.

في عالم الفقراء تظهر دائماً الحالات المتطرفة، ويقل فيه التوسط والاعتدال، ومن ثم فإن السواد الأعظم من الناس ينقسم إلى قسمين قسم مؤهَّل، ويجد فرصة للعمل، فهو يعمل الساعات الطوال، نظراً لتدني مردود عمله، وقسم لا يجد في كثير من الأحيان أي عمل. والنتيجة بالنسبة للفريقين عدم الاستفادة من الفراغ!.

إن جميع الإنجازات العظيمة التي حققتها البشرية في الفنون والعلوم كانت ثمرة للفراغ الذي تمتعت به تلك الأقلية المبدعة، وأحسنت استخدامه فيما ينفع الناس.

وقد شُغلت الحكومة السويسرية منذ ما يزيد على عشرين سنة بغزو الإنتاج الصناعي لأوقات الفراغ؛ مما صرف الناس عن الاهتمام بالثقافة[2].

وفي حكومة (ميتران) السابقة في فرنسا وزير للوقت الضائع؛ ليتعلم الناس الاستفادة من أوقات الفراغ!.

---

(١) الفراغ والعمل قديمان لكن قبل الصناعة كانت ممارسة الأعمال تأخذ سمة التحديد الصارم، كما أن الفراغ كان كثيراً، ولذا لم يكن الاهتمام بأوقات الفراغ يأخذ الاهتمام المطلوب.

(٢) التنمية الثقافية: ٣٤٧.

ومن مهمات مخططي التنمية توفير أوقات الفراغ للمكدودين الذين يجاهدون الساعات الطوال من أجل لقمة العيش، ومساعدة الذين حياتهم كلها فراغ بسبب البطالة على وجود عمل شريف، وهذا وذاك لن يتما إلا من خلال التحسن العام للأحوال المعيشية والاجتماعية الذي يستحق كل اهتمام.

و ـ لعل أكثر جوانب الشخصية حساسية لسوء الأحوال المعيشية هو الأخلاق، حيث يمكن للوازع الأخلاقي أن يضعف بسهولة عندما تجري عملية (تأويل)، وتتسلط عليه الرؤية النسبية. وقد صار من الشائع بين الناس أن يقولوا: فلان معذور؛ لأن ظروفه صعبة. وكثير من الموظفين يسوغون لأنفسهم أخذ الرشوة؛ لأنهم يعتقدون أن على الدولة أن تؤمن لهم كفايتهم، وهي لم تفعل، فالرواتب في كثير من الدول لا تكفي إلا لأيام معدودة في الشهر!.

في أوان الأزمات الاقتصادية تسود حالة من الانكماش الاجتماعي، حيث إن الصلات مكلفة مادية بصورة دائمة، كما أنه ينتشر الكذب والفرار من الوظائف، ويشعر كثير من الناس بالضآلة وانسداد الآفاق لديهم، وينتشر السخط والتأفف، ويفتِّش الناس عن كبش فداء لتحميله تبعات ما هم فيه.. وقد أثبتت دراسات عديدة أن الناس حين يكون مزاجهم حسناً، فإنهم يكونون أكثر كرماً، وأكثر تقديماً للعون لغيرهم.

وأثبتت دراسات أخرى أن الحالات المزاجية الطيبة تؤدي إلى مزيد من التقدير الإيجابي للآخرين. وتكون مشاعر الناس أكثر دفئاً إذا تقابلوا في أماكن جميلة، على حين يكون الوضع مختلفاً إذا هم التقوا في غرف قبيحة أو غرف مزدحمة أو حارة(١).

وقد أظهرت بعض الدراسات التي أجريت حول النمو الأخلاقي لدى الأطفال وجود حقيقة مؤلمة، هي أن الأخلاق تتدنى بتدني المنزلة الاجتماعية؛ فقسوة الحرمان تقلل من درجة إنسانية الإنسان، والفقر يمحو

---

(١) سيكلوجية السعادة: ١٨٤، ١٨٥.

الإيثار النفسي الذي يبديه الموسرون، والذين لا تهدد حياتهم البطالة. وتضيف تلك الدراسات أن أثر المنزلة الاجتماعية في الأخلاق يبدو في أمور خمسة، أطلقوا عليها اسم (الصفات الأخلاقية)، وهي: الحكم الأخلاقي، والإشباع المرجأ، والتكيف المستقبلي، والشخصية الأخلاقية، والإبداع الأخلاقي[1].

ومن كل هذا يتضح أن تحسين الأحوال المعيشية للناس ينطوي على نوع من التقرب إلى الله تعالى، حيث يجلب عليهم الفقر الشديد ما لا يحصىٰ من المشكلات والعلل الخلقية والاجتماعية!.

٨ ـ الوساطة بين المبدأ والواقع:

المبادئ والنصوص تشد المسلم نحو المطلق والمتعالي؛ فهي تكوّن أفكارهم وعقائدهم وقيمهم محررةً من ضغوطات الواقع وملابسات الظروف؛ فهي تمثل في جملتها الثوابت والأصول، وتؤسس المعايير لسلوكات البشر وعلاقاتهم، لكن الجماعة المسلمة لا تعيش في فراغ، وهي تواجه مشكلات عديدة تحتاج إلى اجتهاد وتنظير فقهي دائمين، من أجل تسهيل حركة الأمة، وتحقيق مصالحها في إطار ثوابتها وأصولها.

وهنا يمكن القول: إن العلاقة بين النص والواقع ليست علاقة صماء ولا متحجرة؛ فالنص يعمل في إطار المقاصد العامة للشريعة والمصالح العليا للأمة، وبما أن القضايا الكبرى تُحكم عادة بمجموعة من النصوص فإن للمقاصد الشرعية العامة والقواعد الكلية المقررة دوراً مهماً في تقديم نص على آخر، وفي انعقاد الإجماع على جواز بعض التصرفات، بما يمثل في النهاية نوعاً من مرونة النصوص، أو نوعاً من انفتاحها على الواقع.

ونريد أن ننفذ من هذا إلى أن هناك نوعاً من الجدلية بين النص والواقع؛ فإذا تحسّن موقع الأمة، وتحررت من ضرورات الحركة الحضارية،

(١) اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية: ٤١، ٤٢.

فإن قدرتها على الانصياع للنصوص ستكون أفضل، حيث يتيح الواقع الجيد خيارات أكثر، وبذلك تصبح الأمة أكثر انسجاماً مع أصولها؛ مما يجعل رصيد ثقتها بمبادئها ودينها أعظم، وبذلك يتوفر لديها نوع من الشعور بالتأنق الذي لا يجده إلا من ينجز كل ما يريد في إطار الالتزام الصارم بمعتقده ومبدئه.

ويحدث العكس حين تسوء الشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطلوبة لحياة حرة كريمة ومنتجة، حيث يجد الناس نوعاً من الهوة الفاصلة بين مبادئهم وواقعهم المعاش، وما في وسعهم أن يعملوه، بل يسود نوع من الاختلاط، فيظن المفرّط المتقاعس أنه فعل كل ما في وسعه، وأنه لن يستطيع بسبب سوء ظروفه أن يعمل أفضل مما عمل!.

وعوامل السعة والمرونة في الشريعة السمحاء، تستجيب في كثير من الأحيان لكثير من ضرورات الواقع؛ فإذا خيَّم الضعف العام على المسلمين، وجدوا لهم مندوحة شرعية عن الجهاد في سبيل الله وفتح طرق جديدة أمام الدعوة. وإذا أصاب الأمة تمزق داخلي كبير، فقد يستعين بعضها على بعض بقوى خارجية، وسيجد ذلك نوعاً من التسويغ العقلي والشرعي والمصلحي؛ حتى يُدفع الضرر الأعظم بالضرر الأصغر. وماذا يمكن للمفلس أن يفعله تجاه ما عليه من نفقات واجبة، وماذا يمكن للقاضي أن يفعله معه؟.

وقد أوقف عمر ـ رضي الله عنه ـ قطع يد السارق عام الرمادة حين فشت المجاعة خشية أن يقطع يد من سرق ليدفع عن نفسه الهلاك من الجوع.

ويتجاوز الأمر انحطاط الفعل وتأويل النص والشعور بالبعد عن المبادئ إلى نوع من التحول عن الإطار المرجعي والرموز الأخلاقية العميقة، وذلك من خلال الالتصاق بالواقع والمصلحة والمقاييس الشعبية المبتذلة. وهذا هو بالضبط الانحدار نحو البربرية والهمجية الذي نجده لدى كثير من الناس اليوم!!.

إن وعي الناس ليس ثابتاً، وإن سوء الأحوال يُفقد ذلك الوعي حساسيته الخاصة التي تمكنه من التمييز بين ما يقدم عليه المرء تحت مطارق الضرورة والحاجة الملحَّة، وبين ما يفعله بدافع شهوة خفية أو قصور قيمي أو كسل وتقاعس.

فتحسين الأحوال والشروط الاجتماعية والاقتصادية قد يكون شرطاً لبقاء سلطان المبادئ، وهيمنة القيم على سلوك الناس وعلاقاتهم؛ فالتنمية الجيدة تساعد على الالتزام الجيد.

٩ ـ يتمدد النسق الثقافي عند ضمور الأنساق الأخرى:

يحكم توازننا الاجتماعي عدد من الأنساق والمنظومات الفكرية والأخلاقية والاقتصادية والرمزية؛ وعلاقة هذه المنظومات بعضها مع بعض علاقة تكامل وتعاون وتنافس في آن واحد؛ فالمنظومة الأخلاقية توجِّه السلوك الاقتصادي، وتضغط عليه، كما أن المصالح الاقتصادية تضغط على المنظومة الأخلاقية والاجتماعية، وتحاول التمدد على حسابهما. ومع أن الفكر يحكم الواقع، ويقوِّمه، ويرشده إلا أن الصحيح أيضاً أن الواقع يضغط على الفكر، ويحمله على تغيير طروحاته وفروضه كلما تبدت لنا نتائج الاجتهادات والخطط التي حاولنا من خلالها اجتراح المستقبل.

وهذه الجدليات بين الأنساق والمنظومات المختلفة تهدف كلها إلى تلبية حاجاتنا الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، لكن علينا أن نعلم أن ذلك لا يتم بصورة عفوية وآلية، وإنما يجب أن تكون هناك رعاية دقيقة، وعلى مستوى عال من المتابعة، وإلا فمن الممكن لأية منظومة أن تخنق المنظومات الأخرى، وتحط بالتالي من مستوى توازن الحياة الحضارية كلها. فإذا تم إشباع الحاجات المادية دون إبطاء، فإن ذلك يمنع التفكير من ابتكار نظم اقتصادية أكثر إنتاجية، أي ظهور نظام اقتصادي ذي بُعد ثقافي.

وفي كثير من مجتمعات العالم الثالث عُلِّق توازن الحياة الحضارية كلها

على السياسة والدولة؛ مما أدى إلى ضمور وتفكك كل المنظومات الأخرى[1].

وقد يسيطر على مجتمع ما التنظير العقلي، وتكون وسائل التجربة محدودة؛ فيؤدي ذلك إلى سيادة نوع من المثالية الخيالية التي لا تصمد أمام أي تمحيص.

إن التنمية المتكاملة سلسلة من العمليات والموازنات الدقيقة، وإن جعلها حقيقة ماثلة يتطلب أن تسود فينا روح المفاتحة والمفاتشة، وأن تكون نظمنا الاجتماعية شفافة بدرجة يمكن معها تلافي الانحرافات قبل أن تتكلس، وتصبح أصولاً وقواعد يصعب تعديلها وتجاوزها. وبالصبر والخيال الخصب ودقة الملاحظة والغيرة يمكن صنع أشياء كثيرة لهذه الأمة. والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) اغتيال العقل: ٩٤.

الفصل الثاني

في التنمية الفكرية

١ ـ حول العقل والفكر والثقافة.

٢ ـ مبادئ في التفكير القويم.

٣ ـ تقنيات في تنمية التفكير.

٤ ـ انحرافات عن التفكير المنهجي.

(١) حول العقل والفكر والثقافة

إن تطوير أي جانب من الجوانب المتصلة بشخصية الإنسان يعد بالغ الأهمية؛ لأن تكلفته ليست كبيرة، ولأن ذلك قد يكون الخيار الوحيد في بعض الأحيان؛ ولأن النجاح فيه قد يكون بعيد الأثر إذ يدفع بأمة من القاع إلى القمة!

وليس لنا أن ننسى أن ذلك من وجه آخر لا يتم إلا ببطء شديد، فهو يحتاج إلى صبر لا يقبل النفاد، وإلى عناية فائقة؛ فإقناع شخص بفكرة جوهرية قد يستغرق سنوات، وتدعيم الناحية الروحية لدى إنسان، أو تغيير عادة قبيحة عنده، يستغرق وقتاً أطول مما نظن؛ لأن الانتكاس أمر مألوف في هذه المجالات، لكن لا توجد خيارات ولا بدائل عن النهوض بالإنسان.

الفكر هو الذي يقود التقدم، فلا يمكن لمجتمع أن ينهض ما لم يتقدم الفكر لديه، ويكن في وسعه توفير الأسس المنهجية والإصلاحية لذلك.

إن التفكير لا يُسهم في الكشف عن حقائق جديدة فحسب، وإنما يساعدنا على تناول المعلومات المتاحة بطريقة جديدة، تضفي عليها أبعاداً جديدة، لم تكن مألوفة، كما أنها تفسرها على نحو جديد.

بالتفكير وحده يمكن لنا أن ندمج حقائق الماضي ونظمه في الحقائق والنظم المستجدة، ونزيل التنافر بينها.

إن من الملاحظات المنقولة عن (أنشتاين) قوله: «لا يمكن حل المشكلات المهمة التي نواجهها بنفس مستوى التفكير الذي كنا عليه عندما

أوجدناها»[1]. فالمشكلات تتراكم في كثير من الأحيان بطريقة غير مرئية، ونتيجة عوامل عديدة ومعقدة، والخلاص منها يحتاج إلى تفكير يتطور، ويتعقَّد باستمرار؛ وهذا كله يجعل تنمية التفكير وتطويره أمراً ضرورياً للغاية!

إن لحيوية الأفكار سلطاناً أعظم بكثير مما يظن الناس، وإن قوة الفكر في المدى البعيد هي أكبر من أية قوة إنسانية أخرى، مع أن ثمار إشراقات المفكرين قد لا ينتفع بها الناس إلا بعد ممات أصحابها[2]!

العقل والثقافة:

زوَّد الله ـ جل وعلا ـ بني الإنسان بطاقات ذهنية فطرية قادرة على التحليل والتركيب والتقويم والاستفادة من الخبرات المختلفة. . . . وهذه الإمكانات قد تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً عظيماً، لكنها على مستوى الشعوب متقاربة ـ في الأحوال العادية ـ إلى حد بعيد.

ومع تقدم المعرفة وتعقد الحياة، واحتياج كثير من الأعمال إلى تعاون فريق متكامل أكثر من حاجتها إلى الفرد المبدع ـ صرنا نشعر بتراجع أهمية الذكاء الفطري، وتعاظم قيمة المعرفة والخبرة والتدريب. ومما يروى عن (أديسون) قوله: العبقرية واحد في المائة إلهام وتسعة وتسعون في المئة عرق جبين[3].

في الحضارة الإسلامية الزاهية كانت المعرفة تستمد نموها واكتمالها من التجربة. وعندما دخلنا في نفق الجمود والانحطاط، صارت المعرفة تنمو بعيداً عن الواقع، وتستلهم الخيال، وتستند إلى معطيات المماحكات الجدلية واللفظية. ومنذ (جليلو) في القرن السابع عشر أخذت التجربة الأوربية في بناء العلم على البحوث الميدانية والآلات الصناعية التي يتم تحسينها باستمرار،

---

(١) العادات السبع: ٣٧.

(٢) أسس لإعادة البناء الاجتماعي: ١٨٢.

(٣) العبقرية والإبداع والقيادة: ١٢٧. ولعل مراده بالعبقرية الأعمال الفذة والاختراعات المدهشة، وإلا فإن العبقرية المتعارف عليها عبارة عن إمكانات ذهنية استثنائية.

وبتقدم العلم ذاته. وصار تقدم الفكر من ذلك اليوم مرهوناً بتقدم المعرفة[١].

وقد طرأ تحول ذو شأن على تعاملنا مع القدرات الفطرية، حيث كان يُنظر إليها على أنها شيء محتوم لا حيلة لنا تجاهه، لكن الأمر قد تغير اليوم؛ إذ إن هناك فيوضاً من الدراسات والملاحظات التي تؤكد ارتفاع مستوى الذكاء نتيجة التدريب واستخدام تقنيات الوسائل التعليمية. وقد أظهرت بعض الدراسات أن الأطفال الذين نُقلوا من بيئة فقيرة بالمثيرات العقلية إلى بيئة غنية بالنشاط الثقافي، أظهروا ارتفاعاً في نسبة ذكائهم[٢].

وفي بحث حديث حول أثر تقنيات التعليم في الذكاء لدى الأطفال سجَّل الأطفال الذين يدرسون في مدارس غنيَّة بوسائل التعليم ذكاء مرتفع قدره (٥٣/ ١٠٤) بالنسبة للبنات و(١٠٦) بالنسبة للبنين.

أما الطلاب الذين يدرسون في مدارس فقيرة بالوسائل التعليمية، فكان حاصل ذكائهم منخفضاً، وهو (٤/ ٨٦) لدى البنات، و(٧٥/ ٨٨) لدى الذكور[٣].

وهذه فوارق كبيرة، وهي تؤكد على أن الحد من ضعف الإمكانات الذهنية صار اليوم ممكناً أكثر مما كان يُظن.

ويمكن تعريف النظام المعرفي بأنه: «جملة من المفاهيم والمبادئ والإجراءات التي تعطي للمعرفة في فترة تاريخيةٍ ما بنيتها اللاشعورية، أو هو في ثقافةٍ ما بنيتُها اللاشعورية»[٤].

والخبرة هي ما يتزايد باستمرار مما يُسجَّل في الذاكرة... من وقائع وضوابط ودوافع وقواعد وفروض.

---

(١) تكوين العقل العربي: ٣٣٧.

(٢) أثر تقنيات التعليم على الذكاء: ٣٨١.

(٣) السابق: ٤٣٥. وقد عرض زميلنا د.فائز الحاج نتائج (٤٥) دراسة سابقة، كلها يؤكد نتائج البحث الذي أجراه على بعض طلاب وطالبات المملكة.

(٤) تكوين العقل العربي: ٣٧.

والوعي هو استخدام الخبرة استجابة للإرادة[1].

والتفكير هو مهارة التشغيل التي تؤثِّر من خلالها الإمكاناتُ الذهنية في الخبرة[2].

إن التفكير هو نوع من الاستقصاء والسبر والخضّ لما لدينا من معلومات ومعارف ومبادئ وملاحظات وانطباعات من أجل الفهم أو اتخاذ قرار أو القيام بعملٍ ما.

إن التفكير قد يكون مستحيلاً في بعض الأحيان دون وجود معلومات، وقد يؤدي توافر المعلومات بصورة كافية إلى جعل التفكير غير ضروري.

أما ما يقع بين هذين الحدين فإنه يتطلب كلاً من التفكير والمعلومات[3].

ويمكن القول بعد هذا وذاك: إن بين الأفكار والمعلومات تفاعلاً دؤوباً؛ فالأفكار تتولد بتطبيق التفكير على البيانات، ولدى قيامنا بجمع المعلومات، فإننا نجمع البيانات التي سبق أن نُظمت عن طريق الأفكار القديمة. وللإفادة من تلك الأفكار نجدنا بحاجة إلى التفكير، وليس إلى مزيد من المعلومات.

إن الوعي حين يصدم بمشكلة يعود إلى (الثقافة)[4]، باعتبارها مخزون الخبرة الجماعية، فإن لم يجد جواباً، أو وجد جواباً ناقصاً لجأ إلى الخبرة المباشرة التي تشكل التجربةُ مصدرَها الأساسي، فإن لم يجد لجأ إلى تلفيق أجوبة سحرية أو خيالية أو خرافية بغية الخلاص من القلق الذي يصاحب كل مجهول[5].

---

(١) المدرَك والغامض: ٢١٦.
(٢) تعليم التفكير: ٤٢.
(٣) السابق: ٤٢.
(٤) بمفهومها الشامل الذي تمثل المعرفة جزءاً منه.
(٥) اغتيال العقل: ٣٣١.

إن من جملة مشكلاتنا فقد التوازن بين المعلومات والتفكير، وكثيراً ما ننحاز إلى جانب المعلومات على حساب الاهتمام بالتفكير، لكننا في بعض الأحيان نمارس التفكير دون أدنى قاعدة معلوماتية مقبولة[١].

إن كثرة المعلومات والتفاصيل حول قضية محددة قد تعوق العقل، وتضيِّعه، وتجعل استخدامه لنماذجه الخاصة صعباً؛ لأن المعلومات كثيراً ما تتوزع على نماذج ومساقات متعارضة ومتقاطعة، مما يُربك العقل الذي سيستخدمها إرباكاً عظيماً! ومما يذكر في هذا الصدد أن الحكومة الأمريكية طلبت من شركة (آي بي إم) أن تجمع لها كل المعلومات المتعلقة بقضية ما، فجمعت الشركة سبعة ملايين وثيقة (!!). ولو حاول القاضي البحث في هذه الوثائق كلها فسيقضي عمره كله قبل الانتهاء منها، ولذا قرر إسقاط القضية[٢].

إن الخلاصة التي ننتهي إليها، هي أن تنمية قدراتنا العقلية، وتنمية طرق التفكير الجيد صارت ممكنة أكثر من أي وقت مضى، وإن الذي نحتاجه هو التدريب الجيد إلى جانب عطش للمعرفة لا يعرف الارتواء!.

إن تنمية الفكر تقوم على ثلاثة أسس رئيسة، هي: التعرف على المبادئ والمنطلقات الصحيحة التي تستخدم في التفكير، إلى جانب معرفة بعض التقنيات التي تساعدنا على استخدام إمكاناتنا العقلية على نحو صحيح، بالإضافة إلى تسليط الضوء على بعض الانحرافات عن سبيل التفكير المنهجي. وهذا ما سنحاول التحدث عنه في الصفحات التالية؛ ومن الله الحول والطول.

---

(١) يظهر هذا جلياً لدى الشعوب العربية عندما تحاول تحليل حدث سياسي ما.

(٢) تحسين التفكير: ١٧.

(٢) مبادئ في التفكير القويم

حاولت في الكتاب الأول والثاني والثالث من هذه السلسلة أن أسلط بعض الضوء على بعض قضايا الفكر، كما كنت كتبت كتاباً مستقلاً حول التفكير الموضوعي. وإنني في كل مرة أحاول أن ألمس قضايا جديدة، أو أتناول بعض القضايا التي طرقتها من قبل بطريقة جديدة، وبتعميق أكثر. وهذا الإصرار على التذكير بمسائل الفكر ومشكلاته نابع من الأهمية الخاصة التي أراها له.

وأود أن أشير في البداية إلى أن الفصل بين المبادئ والتقنيات والمشكلات كثيراً ما يكون مصطنعاً، لكن لأسباب فنية، ومن أجل تسهيل الاستيعاب آثرنا ذلك، مع الاعتراف بأن الفصل الكامل ليس ممكناً دائماً. وسنذكر هنا بعض الأسس والمبادئ والمنطلقات التي نظن أنها تساعد على تنمية التفكير والنهوض به، وذلك في المقولات التالية:

١ ـ العقل الإسلامي معياري التكوين:

إن العقل الإنساني على الرغم من إمكاناته الكبيرة لا يستطيع أن يعمل إلا وفق أنماط ونماذج محددة، فقد أوجده الله ـ تعالى ـ ليكون في الأساس عقلاً عملياً، يشتغل في إطار عالم المادة، وكلما خرج عن مجاله، وحاول النفاذ إلى المعرفة المطلقة والبحث في الغيبيات، وجد أن وسائله، بل طبيعة تركيبه لا تسعفه[١]؛ ومن ثم فإما أن يعود كليلاً حسيراً، وإما أن يخبط خبط عشواء، على غير هدى ولا بصيرة؛ فيكون كنجم خرج عن مداره، وفقد

(١) المذهبية الإسلامية: ٨٨.

اتجاهه، على ما نشاهده اليوم عند كثير من أمم الغرب والشرق. وفي اعتقادنا أن العقل المتفلت لم يحن أوان محنته الحقيقية بعدُ؛ فإنجازات الحضارة الغربية أسبغت عليه مشروعية عظيمة، وستكون الكارثة عندما يتبخَّر الرفاه، وتبلغ المجتمعات مداها في التحلل، ويصل تلوث البيئة إلى الحدود الخطرة المرئية، وتتقدم علوم الهندسة الوراثية، بحيث تجعل أشياء كثيرة جوهرية موضع جدل....!!.

أما العقل العربي الإسلامي الذي كوَّنته الثقافة الإسلامية المتمحورة حول (الوحي) فإنه عقل معياري يعمل ضمن إطار مشيَّد بالأصول والثوابت، ومن ثم فإنه حين يعالج الأفكار لا يبحث عن مكوِّناتها الذاتية، ولا يحاول الكشف عما هو جوهري فيها، بل يبحث لكل فكرة عن مكانها وموقعها في منظومة (القيم) التي يتخذها العقل المسلم مرجعاً له ومرتكزاً.

من خلال الثقافة الإسلامية تتكون لدى العقل المسلم المفاهيم والرؤى الفكرية والأخلاقية؛ وكثيراً ما يتصرف المسلم في مواقف الحياة المختلفة على هدي من تلك الرؤى بطريقة عفوية تلقائية[١].

ونخلص من كل هذا إلى أن طبيعة الأنشطة الحضارية تظل موضع تقويم خاص لدى المسلم؛ فنجد نوعاً من الرفض المبهم لإنتاج أدوات مغرقة في الزينة والترف، كما نجد نوعاً من الرفض للبحث في قضايا لا تخدم الواقع، أو لا يترتب عليها عمل؛ وهذا يمنح الإنتاج الحضاري الإسلامي خصوصية وتفرداً.

ويقال نحو هذا حيال القيم المختلفة؛ فالحق في بنية ثقافتنا مقَدَّم على (الجمال) ومن ثم فإن كل أشكال التجمل ينبغي أن تكون في إطار المباح وإطار الستر والعفة.

وبما أن نظرة المسلم إلى فنون إعمار الأرض هي نظرة معيارية، فإننا

---

(١) انظر في هذا: تكوين العقل العربي: ٢٩ ـ ٤١.

نعتقد أن حماسة المسلم في التعامل مع كل ألوان البناء الحضاري، ستظل مرتهنة بشيء واحد، هو صلته بالله ـ جل وعلا ـ فإذا فترت تلك الصلة، وضعف الإحساس بعالم الآخرة؛ فإن الوعي المسلم يصاب بالارتباك، ويحصل آنذاك أحد أمرين: إما التكاسل والترهل في التعامل مع الطبيعة والاكتفاء بما يُبقي على الأَوَد، والبقاء المجرد، وإما أن ينتج، وينشط كما يفعل غير المسلم، لكن إنتاجه ونشاطه لا يكتسب التناسق والتناغم والمشروعية التي نحسها في أنشطة المسلم الملتزم. وهذا كله يعني أن البداية الصحيحة لكل نهضة حضارية إسلامية، هي الرقي بمستوى العلاقة الداخلية بين العبد وربه، والرقي بدرجة التزامه وشفافيته.

٢ ـ تغيير الحالة الراهنة يحتاج إلى وقت طويل:

حين يرى الناس رجلاً متفوقاً عليهم، فإنهم يطرحون عليه كل مشكلاتهم ويطلبون منه حلولاً سريعة لها. وقد جرت العادة عندنا ألا يعرض الناس إلا المشكلات المستعصية، ومع ذلك فإنهم يريدون الخلاص منها في لمح البصر!.

إنني أعتقد أن كثيراً من الإحباط الذي يحيط بنا ينبع من أننا نريد تغيير الأخلاق والعادات والأفكار بأقصى سرعة متجاهلين أن الوسائل التي اخترعها البشر لتحقيق ذلك ما زالت أكثر من قاصرة؛ إذ من السهل أن تغير أثاث مدينة في سنة، لكن قد لا تنجح في تعديل رأي خمسة أشخاص في قضيةٍ ما خلال ثلاث سنوات!.

قد تجد قائداً عسكرياً لا يأبه بمواجهة جيش جرار، لكنه يقف حائراً أمام تغيير عادة سيئة عند أحد أبنائه!.

إن تمتع الإنسان بالإرادة الحرة والعنصر الروحي هو السر الكامن وراء صعوبة التعامل معه.

وعندما تتأزم الأحوال، وتنسد الآفاق؛ فإن ما نستطيع أن نعمله بصورة فورية يكون محدوداً جداً، لكن إذا قلنا: ما الذي في إمكاننا أن نفعله حيال

مشكلاتنا خلال عشرين سنة ـ فإننا سنجد الكثير الكثير مما يمكن القيام به.

إن مهمتنا على مستوى الأفكار أن نجعل فكر الأقلية المتميزة الراشدة فكراً للأكثرية المشغولة بالكفاح من أجل البقاء، والسادرة في التمتع بالملذات؛ وما ذلك بالمطلب اليسير!.

٣ ـ التقدم الشامل يحتاج إل رؤية شاملة:

على صعيد التنمية المتكاملة والإصلاح العام نلقىٰ ألوف العلاقات الجدلية بين جوانب الحياة المختلفة، وبين الأزمنة: ما مضى منها، وما هو قادم.

الرؤية الشاملة تعني التعرف على تكوينات متباعدة في تكوينها الزماني، وانتمائها المعرفي؛ إلى جانب إدراك ما بينها من وشائج التكامل والتنافر. وسنسلط الضوء على هذه المسألة في الحروف الصغيرة الآتية:

أ ـ التفكير المنطقي والتفكير الرياضي يوليان اهتماماً خاصاً للإجابة بـ(نعم) أو (لا) وهما أساسيان في قيادة التقدم العلمي والتقني[(١)].

أما في الحالات التي تتوجه فيها الأنظار لمعالجة شؤون وقضايا ذات صلة بالإنسان، مثل مشكلات الفقر والتفكك الاجتماعي والبحث عن هوية... فإن هذين النوعين من التفكير لا يكونان عقيمين فحسب، وإنما يؤديان إلى نوع من التصلّب الذهني وفقد السيطرة على المنهج الصحيح للتغيير.

ومن المؤسف أن كتب التراث لدينا مشحونة بأطروحات ومقولات المنطق اليوناني! هذا المنطق أوجد لدينا عقلية التحزب والتنافس، وجعل الناس ينقسمون إلى فريقين: مهاجم ومدافع، وتكوَّن لدينا نوع من الرؤية الأحادية؛ فإما أن تكون معي أو ضدي، وإما أن تكون على خطأ أو على صواب، لا غير!.

---

(١) تعليم التفكير: ١٣.

إن التفكير الذي نحتاجه اليوم هو التفكير (الإحاطي) الذي يساعد على رؤية الخيارات، ويطرح البدائل، ويدرك التأثيرات المتبادلة والآثار المترتبة على كل خيار، وهذا لن يأتي إلا من خلال المعرفة المتنوعة، وإلا من خلال التأمل والحوار ودراسة علوم التفكير الحديثة.

ب - الرؤية الشاملة هي رؤية تركيبية متحركة متطورة؛ فالعلاقات الجدلية بين القضايا والأشياء ستظل موجودة؛ لأنها جزء أساسي في بنية الوجود، وفي النواميس التي تحكمها؛ لكن شدة التأثير والتأثر متذبذبة دائماً؛ فتأثير الجوع في تردِّي كرامة المرء شيء ثابت، لكن شدة التأثير متوقفة على السياق الذي يكتنف الجائع، إذ إن هناك فرقاً بين فقر مفاجئ، وفقر تكوَّن عن طريق التدرج، وبين فقر عام، وفقر أصاب فئة محدودة، وبين فقر وقع نتيجة تقصير من الفقير، وفقر جاء بسبب ظلم وقع على الفقير. فكل نوع يثير مشاعر، ويؤسس استجابات مختلفة.

وتسببُ التحدي في إثارة روح المقاومة وشحذ الذهن ويقظة القوى الروحية للإنسان شيء لا مراء فيه أيضاً، لكن حجم الإثارة للرد على التحديات متوقف أيضاً على كيفية (إخراج) التحدي؛ فالصدمات المباشرة والتحديات السافرة يكون ردها في العادة عنيفاً. أما التحديات والانحرافات والمصاعب التي تواجهنا بصورة بطيئة وخفية أو ناعمة فإنها قلما تستثير ردوداً حاسمة، بل ربما تحولت إلى (مخدِّر) كما حدث لأمة الإسلام حين ابتليت بظاهرة الردة عقب وفاة النبي ﷺ حيث جابهتها برد فعل هائل. أما الانحرافات الخطيرة العقدية والمنهجية والأخلاقية التي حصلت عبر مراحل طويلة فيما بعد فإن ردود الفعل عليها كانت هشَّة وغير منظَّمة!.

إن العالم من حولنا يتغير، وإن أهداف دولة ما قد تتغير، فتصبح الأهداف القريبة بعيدة، والبعيدة قريبة. وكذلك الطموحات والمثيرات والإمكانات والخصومات... كل هذا يتغير بصورة سريعة. وهذا يعني أن الصورة التي نكوّنها عن محيطنا الأدنى والأقصى يجب أن تكون تطورية قابلة للمراجعة والإضافة والتشذيب، وإلا تفلت الواقع من بين أيدينا، وصرنا إلى العماء والرؤية العمشاء!.

جـ ـ الصورة ـ أية صورة ـ تتصف بزاوية الرؤية ودرجة الدقة في الالتقاط والتسجيل. اتساع زاوية الرؤية يعبر عن الشمول، ودرجةُ الدقة في الالتقاط تعبر عن كمية التفاصيل(١).

كلما ابتعدت الصورة عن عيوننا رأينا مساحات أوسع، وتفاصيل أقل، وكلما قربناها رأينا مساحات أقل، وتفاصيل أدق. حتى نتمتع برؤية شاملة، لا بد لنا من أن نحمي أنفسنا من أن نغرق في تفاصيل أية صورة، أو أية قضية أو أي علم، أو أي فن. . . . وإنني أشبه صاحب الرؤية الشاملة بقائد قافلة كبيرة في رحلة طويلة؛ فهو يعرف أهداف الرحلة، ويعرف المشكلات التي يمكن أن تواجه القافلة، ويعرف أن القافلة بحاجة إلى طبيب، ويعرف، ويعرف. . . لكن معرفته بكل ذلك معرفة إجمالية.

في هذه القافلة الطبيب والطباخ والمهندس الذي يصلح عربات القافلة. . وكل واحد من هؤلاء يعرف تفاصيل كثيرة ودقيقة، لكن معرفة كل واحد منهم محصورة في تخصصه ومهمته الخاصة.

سوف يحصل ضرر عظيم إذا ما شُغل قائد الرحلة بالطبخ أو خياطة ثياب الناس الذين أمّروه عليهم. وكذلك ستكون الخسائر فادحة حين ينشغل المفكرون والعلماء بتفاصيل علم من العلوم، أو ينشغلون بتحقيق كتاب من كتب التراث، يستغرق أمداً طويلاً من الحياة!

إن أمتنا غنية بالاختصاصيين، لكنها فقيرة إلى حد الإدقاع، إلى قادة الفكر الذين يرون صوراً تضم أكبر قدر من التكوينات المتباينة، ويستطيعون في الوقت نفسه صياغة خطة تركيبية أصيلة لإصلاح الشأن العام الذي يمثل لكل واحد منهم المحيط الحيوي الذي يتنفس فيه!!.

إن من الجوهري أن نقول: إن اتساع الرؤية الشاملة لا يكون ذا جدوى حقيقية بسبب كميات المعلومات التي بحوزتنا، ولا بتعدد المجالات التي

---

(١) المدرَك والغامض: ٣.

تغطيها تلك المعلومات، وإنما بإدراك العلاقات التي تربط بين تلك التكوينات. إن معرفة تلك العلاقات تظل هي المقياس الأهم للقدرة على توظيف المعلومات والاستفادة منها.

لا يعني كل هذا أننا في غنى عن الرؤية الدقيقة التي تقترب من الرؤية المطلقة لقضية من القضايا؛ فمن المستحيل حدوث تقدم ذي شأن لأي علم من العلوم من غير وجود تخصصات دقيقة، ومن غير وجود مختصين يجعلون كل اهتمامهم في دفع عجلة المعرفة خطوة إلى الأمام.

إنما المطلوب من أولئك المختصين أن يكونوا على وعي بأن الإغراق في التفاصيل الدقيقة، هو في الحقيقة عبارة عن تعامل مع حقائق فرعية، وهذا ما يجعل الواقع العام ـ الذي يتألف أصلاً من تكوينات دقيقة ـ يُفلت من أيديهم، بل إن من المحتمل أن يُوظَّفوا هم وثمار تخصصاتهم في أغراض شريرة، دون دراية منهم!.

٤ ـ دقة الرأي نابعة من دقة العمليات المؤدية إليه:

القوانين التي تحكم العلاقات البشرية ما زالت مكتنَفة بالغموض، وما زالت مطبوعة بطابع الاحتمالية، ويبدو أن الطريق أمام نضج علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والنفس ـ ما زال طويلاً جداً.

ومما ينبغي أن يكون واضحاً أن الآراء والأحكام التي نُصدرها حول المسائل والموضوعات الكبرى ـ تستند دائماً إلى عمليات ذهنية ومعرفية متعددة، وإن صلابة أحكامنا ودقتها لا يمكن أن تكون أرقى من مجموع المقدمات التي استندت إليها؛ ومن ثم فإن من الواجب ألا نعطي وزناً لخططنا ـ مهما كانت ـ لا تتحمله النظريات والفَرَضيات والمقولات التي بنيناها عليها.

فدراسات الجدوى للمشروعات ـ مثلاً ـ ستظل ظنية واحتمالية؛ لأنها تعتمد على عدد كبير من المعطيات بموقع المشروع والمواد الأولية وأجور العمالة وإمكانية التسويق وحجم المنافسة، وأمور أخرى من هذا القبيل..

والمعلومات المتعلقة بكل هذه الجوانب معلومات ظنية تقريبية، ولذا فمؤشرات أية دراسة ستكون كذلك. ولذا فإن الأعمال التجارية ـ ولا سيما الكبرى منها ـ والصناعية ستظل تحمل درجة من المخاطرة. ويقال مثل هذا عن الخطط الدراسية والاقتصادية...

ومن وجه آخر فإن دقة الإجابة على أي سؤال سوف تتحدد بإمكان إخضاع المقدمات والمعطيات التي بُنيت عليها الإجابة للتجربة[1].

فالإجابات التي لا يمكن التجريب بشأنها ستظل ظنية؛ لأنها آنذاك ستخضع لاعتبارات إنسانية وتقديرية وثقافية.... وهذه كلها تختلف بين الناس اختلافاً عظيماً.

إن استخدام قاعدة تفحص الأسس والمقدمات سوف يحجِّم ما تعود الناس استعماله من الألفاظ الفضفاضة، وألفاظ المبالغة والأقيسة الخاطئة، وسوء التقدير المتعمَّد وغير المقصود.

إن المطالبة بشرح الأسس التي قام عليها رأي من الآراء سوف توفر علينا كثيراً من خيبة الأمل التي ستصيبنا عندما نصغي لكل إجابة، ونجاري قائلها على ما يهوى!

٥ ـ الانشداد إلى الأصول يقينا من الانحراف:

نحن ـ بحمد الله ـ الأمة الوحيدة التي حفظ الله ـ تعالى ـ لها اتجاهها العام وأهدافها الكبرى، بما أذن به من خلود الرسالة، لكن تقلب الأيام والليالي وبعد العهد وطول الأمد وطروء الحوادث وامتزاج الثقافات وتنوع الظروف.. كل ذلك يؤدي إلى نوع من الغَبَش في الرؤية واختلاط العادات والتقاليد بالعبادات وضعف الإحساس بالهدف.

ومما استفدناه من التجربة التاريخية أن الناس يميلون بطبعهم إلى جعل الدين جزءاً من ثقافتهم عوضاً عن أن يكون مهيمناً عليها، وموجهاً لها.

---

(١) انظر الإنسان ذلك المجهول: ٤٦.

الانحرافات التي تصيب أمة الإسلام أمر طبيعي للعوامل التي ذكرناها، وكأن من تمام الابتلاء أن تظل الأمة تجاهد من أجل البقاء ضمن المسار الصحيح؛ وذلك الجهاد يجب أن يقوم على سلسلة من الانتفاضات الفكرية والمنهجية المستمرة، وقد حصل ذلك في بعض الفترات لكنه لم يكن كافياً ولا شاملاً للعالم الإسلامي كله.

إن الانتفاضات المطلوبة تقوم على ركيزتين أساسيتين:

الأولى: الانشداد إلى الأصول والالتزام بها في المنشط والمكره، ولو كان ذلك على حساب مصالحنا؛ فإن التمسك بالأصول إن ظهر أنه غير مواتٍ في الأمد القريب، فإنه يمثِّل طوق النجاة على المدى البعيد.

ولا يعني هذا الدعوة إلى الجمود وعدم قدح الفكر في فهم أفضل للنصوص، وتحسس أعظم لروح الشريعة ومقاصدها، ولكنه يعني الالتزام الصارم بالقطعيات، وعدم الخروج على ما أدى إليه اجتهادنا في الظنيات والخلافيات.

والركيزة الثانية: هي التحام سلوكاتنا وخططنا الحياتية العامة بالأهداف الكبرى لوجودنا، من نحو السعي إلى رضوان الله ـ جل وعلا ـ وتبليغ الرسالة ونصب رايات الحق والعدل والإحسان في ربوع بلاد المسلمين، وتهيئة كل الظروف والوسائل التي تمكِّن الفرد المسلم من القيام بأمر الله تعالى....

إن المشكلة التي أحسُّ بها في هذا الصدد أن حالة الوهن الحضاري التي نعيش فيها تجعل إدراكنا لأهدافنا يتم بطريقة مبتذلة أو رتيبة، كما أن تراكم الضروريات فوق رؤوس الناس جعلتهم ينشغلون بتحقيق إنجازات صغيرة، لا ترتبط ـ في أكثر الأمر ـ بالأهداف الكبرى التي ينبغي أن يعيش المسلم من أجلها.

وعلى كل حال فإن الناس بحاجة إلى تثقيف دائم بالأهداف والأصول ومحاولة تجاوز النُتَف الثقافية التي تشغلهم عن الوعي بها.

٦ ـ الاستمرار في النقد شرط للبقاء في الطريق الصحيح:

حين تتجه الإرادة للقيام بعمل كبير معقّد، فإن المألوف والمنطقي أن نضع التصورات أولاً؛ ومهما كان حذقنا عظيماً، ومهما كانت خبرتنا واسعة فإن تصوراتنا تحتاج إلى نوع من التمحيص والتدقيق، وليس ثمة أفضل من الممارسة والتطبيق لتحقيق ذلك، والممارسة سوف تسفر عن نتيجة، والنتيجة هي الحَكَم العدل على صحة التصورات التي بنينا عليها. والعمل الذي علينا أن نقوم به بعد ذلك هو النقد والمراجعة واختبار المفاهيم والتصورات، وأشكال الممارسة التي تجسدت فيها التصورات. وهذا يعني تعديلاً في كل ذلك، وإلا فلا معنى لمراجعة لا تفضي إلى نوع من التغيير والتحسين.

كثير من الناس يضيق بالنقد والمراجعة، وقد يتَّهم من يفعل ذلك بالتآمر وزرع الإحباط.... وما ذلك إلا لمشقة التغيير على النفوس، وإلا للاعتزاز بالرأي والثقة المبالغ فيها بالنفس!.

وكثيراً ما يتجه النقد لدينا إلى المواقف وإلى الأشخاص والإجراءات والأفكار الصغرى، وهذا في حد ذاته مطلوب، لكن العطب كثيراً ما يكون في البنى الأساسية، وفي الأطر العامة، كذلك الذي ينقد طريقة استخدام مدفع في معركة، مع أن الإشكال الأساسي يكمن في قرار خوض المعركة!

وكذاك الذي ينقد إجراءات عقد صفقة من الصفقات، مع أن النقد يجب أن يتوجه إلى فكرة الشراء نفسها لمثل ذلك النوع من البضاعة!

إن نقد الأسس والأطر العامة شاق جداً، ولذا فإن من يستطيع ممارسته قليلون جداً؛ لأن ذلك يتطلب الخروج عن أنماط التفكير المألوفة والخروج عن الثقافة الرائجة والأعراف الراسخة، وذلك كله يتطلب مغامرات حقيقية؛ وطبيعة تربيتنا وتنشئتنا الاجتماعية لا تشجع على الكثير من ذلك!

إذا أردنا أن نعرف أهمية النقد في الحياة؛ فلنحذف على سبيل التدريج وظائفه، ولنتصور وجود خطط وأعمال ومعارك لا تُقوَّم نتائجها، ولا تُنقد

آلياتها وأهدافها ومرتكزاتها الذهنية[١].... إن العاقبة ستكون نفاذ الطاقة، وكل رصيدنا من (العقلانية) ثم الارتطام بجدار يسد سبيل التقدم والنمو أمامنا!

وعلى كل حال فلن يكون هناك أسوأ من الرضا عن الحالة الراهنة، والاطمئنان على ما تم إنجازه دون شعور أكيد بضرورة الرقي نحو الأفضل بصورة مستمرة.

٧ ـ سوء الفهم ليس حادثاً غريباً:

إذا ما أردنا لمسيرتنا الفكرية الرشد والسداد؛ فإن علينا أن نعطي اهتماماً أكبر لطريقة استخدامنا اللغة، حيث إن ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من دلالات الألفاظ أوسع بكثير مما تفيدنا به المعاجم اللغوية، فالتراكيب اللغوية حين توضع في سياقات ثقافية وشعورية متنوعة تعطي من الإيحاءات والانطباعات ما يعسر حصره!.

والذي منعنا من الاهتمام بهذا الموضوع اعتقادنا أن سوء الفهم شيء غريب وشاذ، يقع فيه الآخرون الذين حُرموا كفاءة الإدراك الجيد.. وربما كان الموقف الصحيح أن نرى التفسير الموفَّق نصراً فردياً أو طارئاً في خضم مغريات كثيرة. ويجب على الجامعات أن تعيد النظر فيما تقدمه إذا أرادت إنقاذ المجتمع من سوء الفهم، وإذا أرادت تحسين التواصل الفكري والاجتماعي بيننا[٢].

لا بد لنا من أن نخترع وسائل لاختبار دقة الفهم والتفسير لما يسمعه الناس بعضهم من بعض، ولا بد للمتكلم منا أن يتعلم كيف يحتاط في أدائه، وكيف يوصل رسالته إلى سامعيه وقرائه على أفضل حال ممكنة من الوضوح والدقة.

---

(١) انظر في النقد الذاتي: ٤٧.

(٢) انظر اللغة والتفسير والتواصل: ٢٧٦ وما بعدها.

ولا نخلي السامع من مسؤولية اتهام النفس وضرورة التساؤل عما إذا كان فهمه لما سمعه صحيحاً، وهل هناك إمكانية لفهم أفضل؟.

٨ ـ تفكير السابقين أقرب إلى البساطة والقطعية[١]:

كلما رجعنا إلى الوراء وجدنا الحياة أكثر بساطة؛ فما اكتشفه الإنسان من مكونات الحياة على مختلف الصعد كان محدوداً، والعلاقات المكتشفة بين الأشياء كانت هي الأخرى أقرب إلى الضآلة.

وسائل الاتصال كانت محدودة، وقد كانت قرية الرجل تعد بالنسبة له عالماً متكاملاً! أما اليوم فكل شيء قد اختلف، ومن الطبيعي أن يختلف معه أيضاً التفكير.

يشكو كثير من الناس من تعقيد التعبيرات والخطط والإجراءات، ومع أن ذلك قد يكون مبالغاً فيه أحياناً، إلا أن الميل إلى التبسيط قد يشتمل على نوع من الخيانة للحقيقة المعقّدة؛ وهي تتطلب دائماً كفاءها من الألفاظ. وإن التزاحم والتنافس على أشده في كل مجالات الحياة، فهل تستطيع أن تنافس من غير استعدادات وإمكانات مكافئة لما عند المنافسين؟!.

إن ما جال في عقول البدائيين وأشباههم كان محدوداً؛ لأن عالمهم كان محدوداً، وخبرتهم والصور الذهنية لديهم كانت ضئيلة إلى حد الإملاق، وهذا جعل إمكانات المقارنة هي الأخرى ضئيلة.

والرؤية النسبية للصواب والخطأ لا تنبع غالباً إلا عند مقارنة مستويات عديدة للظاهرة الواحدة أو الظواهر المختلفة. ومن ثم فإن ما نسميه اليوم رأياً كان كثير من الناس يسميه حقيقة، ويراه مذهباً جيداً. إن اكتشافنا للسنن الربانية مدَّ في آفاق الرؤية، وجعلنا نبصر ما هو أكثر من الحقبة الراهنة، كما جعلنا نرى في صلب الهزيمة نوعاً من النصر، ونرى ضعف المتجبر، وجبروت الضعفاء في آن واحد!

---

(١) انظر المدرَك والغامض: ٨٨.

إن المشكلة الحقيقية ليست مشكلة العقل البدائي، لكن مشكلة الذين يحملون عقلاً بدائياً في زمان شديد التعقيد، واسع الخيارات، ثري بالخبرات والموازنات!.

٩ ـ المستحيل درجات عديدة:

تعوَّد كثير منا إطلاق الألفاظ الدالة على الاستحالة، أو عدم الإمكان دون تحديد لدرجة الاستحالة، ودون أي تعليل لذلك؛ مما أوجد اختلاطات عديدة في الذهن.

إن عودة الحياة التي كانت سائدة منذ ألف عام بكل مكوناتها وتكرارها مرة أخرى ـ مستحيلة؛ لأن تغييرات كيميائية وفيزيائية كثيرة وقعت، وهي غير قابلة للارتداد نحو الوراء. وهذه الدرجة من الاستحالة تكاد تكون مطلقة.

إذا طلبنا من رجل لم يتلقَّ أي تعليم أو تدريب أن يكتب اسمه، أو يقود طائرة، فإننا نكون قد طلبنا منه مستحيلاً مؤقتاً، وهو مستحيل بالنسبة لشخص واحد. وإذا تعلم الرجل أو تدرب التدريب المطلوب صار ذلك المستحيل بالنسبة له ممكناً.

وقد كان الصعود إلى القمر بالنسبة لعامة الناس قبل مئة سنة مستحيلاً استحالة مطلقة ـ وهو إلى الآن ما زال مستحيلاً في نظر بعض الناس! أما العلماء الذين يرون إمكانات الحاضر، ويمدون قرون الاستشعار في جوف المستقبل، فقد كان الصعود إلى القمر في نظرهم مستحيلاً استحالة مؤقتة، ريثما تتوفر بعض الشروط الضرورية...

إن العاجزين والخاملين وأصحاب الكسل الذهني تحجبهم قسوة المعطيات الحاضرة عن رؤية الإمكانات الكامنة!.

أما أهل البصيرة والخبرة فإنهم يرون أن كل حركة في الاتجاه الصحيح تنزع لبنة من صرح المستحيل، وتنقلنا خطوة من دائرة المستحيل إلى دائرة الممكن، ثم إلى دائرة المتحقق الذي يصبح حدثاً غابراً في يوم من الأيام.

إن القصور في فهم الواقع وحدود الممكن هو الذي يجعلنا نضفي على الممكنات سمة المستحيلات؛ وإن علينا أن نوجد عقلية تركيبية، ترى وجه الاستحالة فيما نعده مستحيلاً إلى جانب الشروط التي إذا توفرت صار المستحيل ممكناً.

١٠ ـ التفكير بالمستقبل قضية مصيرية:

الشعوب البائسة شعوب بلا مستقبل؛ لأن بؤسها الشديد لم يترك لها أية فضلة من وقت أو جهد للتأمل في واقعها، أو مد النظر نحو مستقبلها. ولا ريب أن جزءاً من بؤسها يعود في الأصل إلى أن الواحد منهم لم يفكر أبداً في (الغد)، ومن ثم فإن تصرفاته تتسم دائماً بالآنية المغلقة والمقطوعة الصلة بأية اعتبار من الماضي أو مراعاة لما تأتي به الأيام من أحوال وظروف.

وإني لأتساءل هل الذي ينفق جل كسبه اليومي على (القات) وغيره من المكيفات، ويترك أطفاله فريسة لسوء التغذية ـ يكفر بمستقبل تلك الذرية الضعيفة التي اؤتمن عليها؟!

وهل الذي ينفق كل ما يأتيه دون أن يدخر منه شيئاً لمناسبات مهمة، أو لاستثماره لتلبية الحاجات المتزايدة لأسرته ـ يفكر بالمستقبل؟.

إن المشكلة أن مناهجنا الدراسية تشغل أذهان الطلاب بأحداث الماضي، وترهقها بالحفظ لما هو مهم، ولما ليس مهماً، ولم نر منهجاً واحداً في أي مرحلة دراسية يعلّم الطلاب التفكير المستقبلي الذي بدونه لن يكون من الممكن ترشيد الواقع الذي نعيشه.

إن ثقافة الاهتمام بالمستقبل تحتاج إلى تعميم واسع من خلال كل الوسائل المتاحة، ويجب أن يساهم فيها جهات عديدة.

إن الحاضر سيظل أقرب إلى التسيب والضياع ما لم نضغط عليه بطموحات وآمال مستقبلية تتطلب استثماره والتصرف فيه بحكمة وبصيرة.

١١ ـ الفكاك من النمطية شرط للتجديد:

فطر الله ـ تعالى ـ العقل البشري على العمل ضمن مسارات محددة،

وإذا ما تجاوز تلك المسارات حطَّم منطقيته، ولم يجد منطقية أخرى تسعفه في الاستمرار في ذلك التجاوز. وهو لا يستطيع أن يفكر إلا ضمن أنماط معيَّنة، يستفيدها من كسبه الثقافي والمعرفي؛ ومع مرور الأيام يميل العقل إلى التطابق مع الأنماط السائدة، والخضوع لها، ويصبح إنتاجه عبارة عن تدعيم للواقع الموجود وإثرائه، دون تفكيكه وتغييره[١].

وليس من السهل على العقل أن يخرج عن كل الأنماط السائدة، لكن بإمكانه أن يبتعد عن بعض الأنماط اتكاء على أنماط أخرى.

وعلى كل حال فإن (الإبداع) ليس سوى التحرر من أسر النمطية وحتميات الطبيعة ومقولات التاريخ. وإن هناك قدراً مشتركاً بين الإبداع والفكاهة، فكلاهما خروج عن المألوف، والأنماط السائدة التي يسير عليها الناس في تفكيرهم.

إن الشرط الأول لكسر رتابة النمطية هو أن نعرِّض عقولنا للتنوع المعرفي، فنحكم (علم الأسس) وندقق النظر في الأصول، ونمتلك إلى جانب ذلك القدرة على الغوص نحو الفرعيات لكن مع الاحتفاظ بالقدرة على العودة إلى الأسس مرة أخرى، حتى لا نضيع في الفروع، وحتى لا تنقلب الفروع إلى أصول، أو تتولد لدينا فروع من غير أصول.

إن كل الإبداعات الكبيرة كانت تخرج عن التفكير النمطي المألوف، كما كانت تنطلق من فلسفة جديدة للأسس والأفكار الكبرى؛ إنها في جوهرها طريقة النظر إلى المعلومات المتوفرة أكثر من أن تكون اكتساب معلومات جديدة.

---

(١) نجد هذا واضحاً عند بعض طلاب العلم الذين يتعصبون لشيخ أو طريقة أو مذهب، حيث إنهم يدورون في فلك بعض الأصول المتوارثة من المديح والتقدير واختراع الخصائص الموهومة. وأحاديثهم في مجالسهم الخاصة مكررة ومتشابهة، ولا يكتشفون ذلك إلا عندما يلتقون بغيرهم، لكن ذلك لا ينفعهم، ولا يردعهم عما هم فيه، حيث يستطيع العقل إيجاد المسوغات لمخالفة الآخرين مهما يكن عددهم أو علمهم!.

إن التنوع المعرفي يتيح لنا مجال المقارنة، وإدراك الخصائص العامة، والقواسم المشتركة بين جوانب الحياة المختلفة، هذا كله يتيح للعقل البشري إمكانات جيدة لتأسيس أنماط جديدة؛ مما يعني دفع عجلة الحياة إلى الأمام. وقد أظهرت إحدى الدراسات حول بعض المبدعين أنهم يميلون إلى أن يقرؤوا أكثر من خمسين كتاباً في السنة[1]. وهذا يعني أن استمرارهم في القراءة ذو تأثير في نبوغهم وتفوقهم.

إن إثراء مثاقفة التساؤل شرط ثان لإطلاق الطاقات الإبداعية؛ فالاستسلام للمألوفات مصدر عظيم للتكرار، وخمود نار الفكر؛ ولا مخرج من ذلك إلا بمحاولة العثور على أجوبة جديدة وتعليلات حديثة لكثير من الظواهر التي نتعامل معها.

إن بعض الدراسات يذهب إلى أن العقل البشري لم يُستثمر منه حتى الآن إلا نحو ١٥٪ وإن الاستفادة من باقي إمكاناته الكامنة تحتاج إلى شروط تربوية وثقافية واجتماعية، لا بد من توفيرها، وإلا فما أسهل أن ينصاع العقل لأمر العادة والإلف والتطابق!

إن فائدة (الإبداع) لا تكمن في تسهيل الحياة وإثرائها فحسب، وإنما في كونه أعظم مصدر للتنوع وتحقيق الذات والتميز والشعور بالإنجاز؛ على حين أن (الاستهلاك) يجعل الناس بعضهم أشبه ببعض، وذاك مصدر مهم من مصادر السآمة والضجر والتبلُّد!.

١٢ ـ المرونة الذهنية شرط لكفاءة التفكير في زمان معقَّد:

لا يستطيع العقل أن يعمل بكفاءة ما لم يأخذ من الوجود زاداً من المعنى؛ فالمعرفة الجيدة هي التي تتيح للعقل نوعاً جيداً من العمل. وقد اكتشف الإنسان في هذا العصر الكثير من العناصر والعلاقات، لكن ذلك قد لا يؤدي إلى (المرونة الذهنية) بصورة تلقائية، بل قد يؤدي إلى إعطاء نتائج

---

(١) العبقرية والإبداع والقيادة: ١٢٢.

تُصلِّب الذهنَ، وتقلل من فاعلية التفكير؛ فالعلاقات (اللينة) التي تربط بين كثير من الظواهر الإنسانية قد تتم قراءتها بصورة خاطئة، وقد يُظن أن الكشوف العلمية قد أدت إلى معارف يقينية جازمة؛ مما يؤدي إلى تصليب المواقف أكثر فأكثر...

ونعني هنا بالمرونة الذهنية قدرة العقل البشري على إدراك الفروق الدقيقة بين الأشياء والمراوحة المستمرة بين الأسس والأصول وبين المسائل الفرعية التخصصية، وتعرية الألفاظ والمصطلحات مما يعلق بها من شوائب الاستعمال والتقليد، من أجل بعث حيويتها في الدلالة والإيحاء؛ إلى جانب قدرته على التفلت من (القولبة) والنماذج الثابتة...

ولعلنا نفصِّل بعض هذه القضايا في النقاط التالية:

أ ـ إن من مظاهر المرونة الذهنية وتطبيقاتها القدرة على إدراك العلاقات (المتدرجة) بين الأشياء، فالحرام ليس درجة واحدة؛ وإنما هو درجات؛ فليست حرمة الغيبة مثل حرمة قتل النفس أو الزنا؛ والفرائض أيضاً درجات، فوجوب الصدق ليس كوجوب الصلاة أو الزكاة...

والأعداء أيضاً درجات، فهم قد يستوون في كرهنا وإرادة الشر لنا؛ لكن ربما يكون لدى بعضهم أولويات أو ظروف أو موازنات معينة تحول دون تشكيل خطر ناجز علينا....

وحين نتعامل مع أشياء ذات أوساط متدرجة فإن وضع الموسى على المفصل يكون أمراً تقديرياً اجتهادياً؛ فمن الصعب في لوحة زيتية ذات ألوان متداخلة أن نقول: هنا يبدأ اللون الأصفر، وينتهي اللون البرتقالي، ولو فعلنا ذلك لوقعنا في التعسف والتحكم.

التدرج قد يظهر في مسائل جوهرية، فقد يقول فقيه من الفقهاء عن مسألة إنها من مسائل الأصول، على حين يقول فقيه آخر إنها من مسائل الفروع. وقد يقول عالم في مسألة: إنها عقدية، على حين يقول عالم آخر: إنها مسألة فقهية اجتهادية. وهكذا فقد ننظر إلى عنصر من العناصر بأنه

أساسي في خطة ما، على حين يرى غيرنا أنه هامشي، وقد نطيل في ذلك الجدل دون أن نصل إلى أية نتيجة. ولا ينبغي أن يُفهم من هذا أن كل شيء قابل للخلاف، ولكن المقصود أن بين ما لا يُشك أنه أصل، وما لا يُشك أنه فرع (منطقة برزخية) تحتمل الخلاف الجدي؛ لأنها تحمل من خصائص الطرفين، وتظل قابلة للنزاع، مهما كان احتياطنا عظيماً.

ب ـ القدرة على إدراك الفوارق الدقيقة بين الأشياء مظهر آخر من مظاهر المرونة الذهنية. وفي هذا الصدد يمكن القول: إن المرء حين يحاول إيجاد شَبه بين الأشياء؛ فإنه سيجد أكثر من وجه في أكثر الأحيان لكن المهم أيضاً ألا ننساق وراء التشابه الجزئي وننسى الفوارق العظيمة التي تميز بين المتشابهات. ونجد في هذا السياق ـ على سبيل المثال ـ أن بعض الدعاة يرى أن حالة المسلمين اليوم تشبه حالتهم في مكة حيث الضعف الشديد، وتكالب الأعداء مع قلة الحول والطول. ويمضون في ترتيب الأحكام على ذلك بما يؤدي إلى انحرافات خطيرة؛ فهناك من لا يرى إقامة صلاة الجماعة؛ لأننا في حالة تشبه الحالة المكية، وهناك من يرى اعتماد عين الوسائل التربوية التي اعتمدها النبي ﷺ في مكة؛ بل إن هناك من يقدِّر مدةً لتجاوز المحنة والانتقال إلى المرحلة التالية كتلك المدة المكية، أي ثلاث عشرة سنة وهكذا...

وغاب عنهم أن كثيراً من الأحكام والفرائض لم يكن منزلاً في مكة، على حين أننا مكلفون بها اليوم. كما غاب عنهم أن آليات نشر المنهج الرباني وتبليغ الرسالة يجب أن تتطابق مع عصر استخدامها، وأن ما كان من الوسائل ناجعاً في الماضي قد لا يكون صالحاً اليوم.

بعض الناس يشبِّه الهجمة الحديثة على أمة الإسلام بهجمة التتار أو الصليبيين، ويعتقدون أن آليات المواجهة والمدافعة لا تبتعد كثيراً عن آليات مدافعة الهجمات السابقة.

وفاتهم أن الوضعية العامة لأمة الإسلام لم تكن تختلف كثيراً عن وضعية الصليبيين على المستويين الحضاري والعسكري، كما أن التتار قوم

همج، واجهوا أمة متحضرة، على حين أن المسلم يرى أن أعداءه اليوم متفوقون عليه في المعرفة والتنظيم والتقدم الصناعي، وينظر في الوقت ذاته إلى قومه بعين الاستخفاف حيث الجهل والفقر والفوضى والحروب الأهلية. . .

وهذا يعني أن أسلوب المدافعة ووسائلها مختلفة كلياً.

جـ - من أمارات المرونة الذهنية وزن مصادر المعرفة بطريقة صحيحة، وعدم الخلط بين معلومات تفيد الظن، وأخرى تفيد اليقين. وقد حاول علماء المسلمين القدامى استخدام صحة الإسناد والبرهنة العقلية والمنطقية سبيلين للوصول إلى عصمة الذهن من الخلط بين القطعي والظني، ووصلوا في ذلك إلى ضوابط رائعة، لكن المشكلة كانت دائماً في القدرة على تعميم تلك الضوابط بحيث تصبح جزءاً من ثقافة الناس، وفي استخدامها وتطبيقها خارج نطاق العلوم، أي في الحياة اليومية والمواقف المختلفة.

هناك فارق مثلاً بين معلومات، مصدرها الاستقراء، وأخرى مصدرها القياس. لا شك أن المعلومات التي مصدرها استقراء كامل قد تقترب من القطعية المطلقة، كما لو استقرأنا رأي أعضاء مجلس من المجالس حول قضية ما، فإن من الممكن أن نقول: إن ٥٩٪ يرون كذا و٤١٪ يرون كذا. ويكون كلامنا ذا دلالة قطعية يقينية.

أما إذا أردنا معرفة رأي شعب تجاه حادثة، وقمنا بسؤال (٤٠٠٠) شخص حول رأيهم في تلك الحادثة، ثم قلنا إن ٩٠٪ من الشعب الفلاني يرى في تلك الحادثة كذا، بناء على أن ٩٠٪ من العيِّنة ترى ذلك - فإن نتيجة ذلك الاستقراء ستكون ظنية؛ لأننا استخدمنا استقراء ناقصاً، وعمّمنا نتيجته عن طريق القياس. وقد صار من المألوف اليوم أن تتجه استطلاعات الرأي إلى الحكم بفوز شخص، ثم يفوز غيره.

إن في استخدام القياس استخداماً لعناصر ذهنية في أمور حسِّية، لا يحكمها نمط أو نموذج محدد، وذلك لا ينتج عنه سوى النتائج الظنية.

ومصدر المعلومة المستخدمة مهم كذلك في اعتبار صحتها وصدقها فقد ترد المعلومة عن شخص غير مطلع، وقد يكون مطلعاً لكن لهوىً في نفسه قال غير الحقيقة...

د ـ نحن دائماً على صلة بعالمين مختلفين: عالم المدركات الواضحات، وعالم الغوامض والمبهمات. وقد جرت العادة أن نستخدم (الفلسفة) وسيلة للتعامل مع المسائل الغامضة. أما الأمور الواضحة فإننا نسيطر عليها من خلال التجربة والملاحظة وإدراك أبعادها المختلفة.

والحقيقة أن التعامل مع القضايا المختلفة يمر بثلاث مراحل: مرحلة الفروض والأحكام التخمينية، فإذا انجلت لنا قضية، وصدق فيها حدسنا بدأنا نتعامل معها عن طريق المعلومات والأرقام والمحدِّدات المعرفية. فإذا زادت سيطرتنا على تلك القضية، وأمكن إدخالها في حيز التطبيق والتصنيع صارت تعد في حيز الفنون العملية. وهكذا تنتهي الفلسفة إلى أن تكون فناً، أي أنها تنتقل من الحيوية والإبداع إلى الجمود والنمطية والآلية.

ومن المهم أن نفرق بين معطيات الفلسفة ومعطيات العلم؛ فمهمة الفلسفة لا تتجسد في مدنا بالمعلومات، وإنما في زيادة شفافيتنا، وفسح المجال أمام استشراف المستقبل، وتكوين قدراتنا في مجالي التحليل والتعليل؛ إنها تعلِّم الشمول، لكنها لا تمنح أبداً الدقة، ولا تسعفنا باليقين.

أما العلم فإنه على العكس من ذلك، فهو يوقفنا على جملة من الخبرات الجزئية الدقيقة، لكنه ينفر من التعامل مع غير المحدد والمتبلور والملموس(١) إن معرفتنا بإرواء الماء وتمدد الحديد وعناصر تركيب الهواء لا تخضع لأي تخمين شخصي أو قياس أو استنتاج، ومن ثم فإنها معرفة تستوجب الاطلاع، ولا تحتمل الجدل.

أما تفكيرنا بالمستقبل وتحليلنا للأحداث المختلفة وتفسيرنا للمواقف،

---

(١) لا نعني بالملموس المحسوس، وإنما نعني ما يمكن البرهنة عليه.

كل ذلك يشتمل على فراغات معرفية كثيرة، وهذه الفراغات تُملأ عادة عن طريق التفلسف والتعليل والتقدير؛ مما يجعل موقف جميع المتحاورين حولها مائعاً، وبعيداً عن اليقين.

ويظهر التصلب الذهني بوضوح في هذه القضايا، حيث يدافع أكثر الناس عن وجهة نظرهم ورؤيتهم لحدثٍ ما دفاعاً مستميتاً، وتُبدَّد الساعات الطوال في البرهنة على قضية لا ينفع معها البرهان، ولا الجدل الطويل.

أما صاحب الذهن المرن، فيعرف أنه يقف على أرض هشَّة، وأن ما تجمع لديه من مقدمات ومعلومات لا يمكن أن يجعل تحليله قطعياً، ومن ثم فإنه يكتفي بعرض وجهة نظره، ويبدي رأيه في وجهة نظر الآخرين، ويترك لمناظريه الخوض في الظنون والأوهام ومحاولات القبض على السراب!!.

هـ ـ العقل المرن يفرق بين القيمة الأصلية والقيمة الإضافية للأفكار والأساليب والأشياء.. ففي مجال الإصلاح الشامل ـ مثلاً ـ تكتسب التربية الصحيحة للأجيال أهمية خاصة؛ حيث إن المجتمع لا يمكن أن يكون في النهاية أقوى من مجموع أفراده.

أما القيمة الإضافية فتتجلى في إمكان القيام بالتربية المطلوبة في أجواء يسودها الفساد والخوف والانغلاق والطغيان.. فإذا قلنا إن التربية الجيدة يمكن القيام بها في هذه الأجواء؛ فهذا يعني أن التربية تكتسب قيمة إضافية؛ حيث لا يحتاج القيام بها إلى إصلاح المناخ العام الذي يأخذ في العادة وقتاً طويلاً، وهذا يعني توفير الكثير الكثير.

أما إذا قلنا: إن التربية المطلوبة لا تتم في تلك الأجواء؛ فإن التربية تفقد القيمة الإضافية، كما أن الإلحاح عليها قبل توفير أجوائها يفقد الكثير من قيمته؛ لأن حصولها عسير آنذاك ومحدود. وذلك كله لأن أهمية تطبيق منهج أو فكرة أو أسلوب تتناقص كلما كانت شروط تجسيده أكثر أو أشق، وكلما كانت الفئة التي يمكن إيصاله إليها أو قيامها به ضئيلة ومحدودة، والعكس بالعكس.

إن مما يؤلمني أن كثيراً منا يطالب بنشر أفكار طيبة، دون أن يعير أدنى اهتمام لتدبير الوسائل والآليات التي تجعل نشرها ممكناً، أو التفكير فيما إذا كان توفير تلك الوسائل هو من الممكن أصلًا!

و ـ العقل المرن يرتب أولوياته بشكل جيد، ويدرك العلاقات المباشرة وغير المباشرة، والعلاقات الجدلية والخطية بين الأشياء، وهذا كله يمنحه بصيرة خاصة، تحمله على رؤية شاملة للوضع الراهن.

وعلى سبيل المثال لا الحصر يفرق العقل المرن في المسائل الحضارية بين الشروط والواجبات[1]، وهذا التفريق ضروري لأن الوضع العملي آنذاك يكون مختلفاً. فإذا قلنا إن التحسين المقبول للشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية واجب على الدعاة والمصلحين، فإن المرء يقوم بها جميعاً، ويحاول أن يرتب بينها بحسب البلد والظرف، وبحسب اجتهاده، ويصبح تحسين كل منها مطلباً مقصوداً لذاته، وليس لأي اعتبار آخر.

أما إذا قلنا إن تحسين ما ذكرناه ليس واجباً لكنه شرط للرقي بالإنسان المسلم، وشرط للتمكين لدين الله ـ تعالى ـ في الأرض فإن ذلك يعني أمرين:

الأول: أن إصلاح المناخ العام يصبح ذا أولوية ما دام شرطاً؛ فالوضوء سابق على الصلاة، وتوفير الماء له هو ما يشتغل به من يريد الصلاة أولاً.

أما **الأمر الثاني**: فهو أن النظر إلى الشيء على أنه شرط يجعل المرء لا يقف عنده، بل يتخذه هدفاً مرحلياً يتوسل به إلى تحقيق الهدف النهائي الذي هو تمكين المسلم من القيام بأمر الله، وتمكين الرسالة الخاتمة من بلوغ الآفاق، وإذا وضح كل ذلك فإن المسلم ينظر إلى الرخاء الاقتصادي ـ مثلاً ـ على أنه شرط، لا معنى لإيجاده إذا لم نتجاوزه إلى المشروط؛ وما معنى أن نستقبل القبلة، ونقف على مكان طاهر دون أن نصلي؟!.

---

(١) يختلف الفقهاء أحياناً في أمر هل هو من قبيل الشروط أو من قبيل الواجبات.

ومن وجه آخر فإن المرونة الذهنية تقتضي إدراك العلاقة بين الشرط والمشروط؛ فالوضوء شرط لصحة الصلاة، لكن هذا الشرط ليس وحيداً، ومن ثم فإن هذا لا يعني أن كل من توضأ صحت صلاته، فقد يكون غير مستقبل للقبلة، أو غير طاهر الثياب.. وكذلك ما نحن فيه من قضية الإصلاح والتقدم، فتحقيق تحسن اجتماعي، أو اقتصادي لا يعني بصورة آلية أن وضع التدين والالتزام سوف يتحسن، فهناك دول فيها انفراج سياسي، ورخاء اقتصادي وتقدم اجتماعي، لكنها علمانية. إذ لا بد من اعتبار هذه الأنواع من التحسن فرصاً مواتية للقيام بعملية الهداية، وصقل المسلم... وهذه الفرص قد يتم استغلالها، وقد تُضيَّع.

العقل البليد لا يفرق بين الشرط والواجب، ولا يدرك طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات في الحقول الإنسانية، ولا يعرف أنها ليست صارمة ولا اطرادية، بل يظن أن العلاقات بينها أشبه بالعلاقة بين الحرارة وتمدد بعض المعادن؛ فيؤدي ذلك إلى أن توكل أمور لا بد من القيام بها، إلى قانون ليس مسؤولاً عن إيجادها!.

إن إهمال (علوم التفكير) ومعارفه وأدبياته يمكن أن يؤدي إلى اختلاطات ذهنية كافية لإضاعة جهود جيل كامل!.

١٣ ـ سيظل التزام الموضوعية أمراً نسبياً:

الخلط بين المطلق والنسبي ليس أمراً مستغرباً، بل هو الأصل؛ إذ إن رؤية (المطلق) أسهل من رؤية النسبي، وكأن بنية العقل البشري مفطورة على ذلك، ولأن ملاحظة (النسبية) لا تتم إلا عند وجود مقارنات جيدة وصحيحة؛ وهي ليست متاحة دائماً.

المبادئ والأفكار والخطط والطموحات والخيالات، كل أولئك من باب المطلق، ولا تظهر نسبية شيء من ذلك إلا عندما يتشخص في الواقع. ومجرد نزول شيء من ذلك إلى الميدان العملي التطبيقي يُخضعه لقيود الزمان والمكان، وتأثيرات الإمكانات والثقافات والموازنات المختلفة... وعلى هذا

فالصدق والبعد عن الهوى والمهارة والحكمة، كل ذلك قيم مطلقة، لكن اتصاف الناس والأمم بها يتفاوت تفاوتاً عظيماً.

هذه المقدمة ضرورية لوضع النقاط على الحروف في أمور عديدة؛ فكثيراً ما تتحدث ـ على سبيل المثال ـ الحكومات والشعوب عن إنجازات ضخمة حققتها؛ وما يذكر من حقائق وأرقام قد يكون صحيحاً، لكن عندما نلاحظ مسألة (النسبية) ندرك أن تقويم الإنجازات على نحو مطلق شيء لا معنى له، إذ إنها مثل (الأرقام) تماماً عبارة عن أعداد مبهمة ما لم يتبعها تمييز؛ فقيمة أي إنجاز توزن من خلال أمرين: ما أنجزه الآخرون، وما هو متاح من الإمكانات(١). وحين نلاحظ هذين الأمرين تبرز النسبية، وتظهر الأمور على حقيقتها!.

ومهما ادعينا الموضوعية في البحث العلمي، فإن الفصل التام بين الذات والموضوع يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ لأنه لا يمكن التعامل مع أي موضوع دون التفاعل معه بعاطفة إيجابية، وذلك قد يؤدي إلى توحيد الوعي مع الواقع وإضفاء الرغبات أو المقاصد الذاتية على موضوع البحث. وهذا واضح فيما يختلقه الناس من أسباب الحب والاحترام عندما تتعلق قلوبهم بشخص أو ثقافة أو شيء...

إن المشكل الأكبر في سيطرة الأهواء على الناس لا يتجلى في الرضوخ للأهواء الظاهرة والميول المكشوفة، وإنما في الشروط النفسية والثقافية والبيئية وأوهام العصر، التي تتحكم بكل علاقة بين الذات المفكرة وموضوع التفكير؛ وبغضِّ النظر عن وعي الباحث بها وعدمه.

ليس من السهل على أي إنسان أن يتخطى الشروط الخاصة الذاتية والموضوعية التي تحدد وعيه وطريقة تمثله للواقع، وتفرض عليه رؤية خاصة تميزه عن غيره.

---

(١) أخرج النسائي في سننه أن النبي ﷺ قال: «سبق درهم مائة ألف درهم» فالصدقة بالدرهم ممن لا يملك سواه أعظم دلالة على سخاء النفس من مائة ألف، تصدق بها من يملك عشرات مثلها.

وليس من السهل على أحد تجاوز محدودية قيم ثقافته أو عالمه الثقافي وعاداته وتقاليده ومشاعره الشخصية والدينية والوطنية؛ حتى لو ادعى إنكارها، وليس من اليسير عليه تجاوز أوهام الحقبة وأفكارها السائدة.

وليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع[١].

نعم هناك مجاهدات وتبصرات وإجراءات عديدة، في إمكانها جعل الباحث يقترب من الموضوعية، ويشعر بالاطمئنان النسبي إلى حياده وإنصافه.

أول تلك الإجراءات أن ندرب أنفسنا على سماع رأي الآخرين في الموضوع الذي نفكر فيه، وأن نحاول الاهتداء به بدل تجاهله أو تقويل الناس ما لم يقولوا[٢]. وفي ذلك نوع من الخروج عن الأنماط الفكرية التي يكوِّنها فكرنا لنفسه من أجل تسهيل عمله.

وثاني تلك الإجراءات إبراز عواطفنا نحو الموضوع، وإخراجه من اللاوعي إلى الوعي؛ حتى لا تعمل عملها الخفي دون أن ندري.

ولا ريب أننا لا نستطيع أن نكون حياديين تجاه انتمائنا لعقيدتنا وثقافتنا وأمتنا، ونحن لا نجد مناصاً من أن نذكر إيجابياتنا من أجل رفع المعنويات وتدعيم الآمال، كما نذكر المثالب بصورة مختصرة، وفي سياق التأكيد على قدرتنا على تجاوزها. وهذا كله طبيعي، وموجود لدى كل الأمم؛ ومن ثم فإننا إذا قبلنا بقسط من (اللاموضوعية) في رؤيتنا لقضايانا وخصوصياتنا فإننا نكون قد أخذنا بعين الاعتبار العوامل الذاتية والإنسانية التي لا يستطيع النظر العلمي أن يدركها. وبهذا نكون في قمة الموضوعية التي تستوعب كل العوامل، ولا تتجاهل أياً منها[٣].

وثالث تلك الإجراءات يتعلق بنتائج البحث والحوار والتفكير، حيث إن اعترافنا بعدم بلوغ الموضوعية التامة ينبغي أن يدفعنا إلى عدم التصلب

---

(١) انظر اغتيال العقل: ٧٥.
(٢) السابق: ٦٨.
(٣) السابق: ٧٦، ٧٧.

والتشبث الشديد بالنتائج التي نتوصل إليها؛ إذ من المحتمل أن تتاح المعلومات التي أتيحت لنا، لباحث آخر، ثم ينتهي إلى نتائج مغايرة. وربما تحول الباحث نفسه عن بعض الرؤى والمقولات التي أسلمه إليها البحث إلى رؤى جديدة نتيجة استمرار البحث أو التغير في زوايا الرؤية. وقد كان علماؤنا القدامى على وعي تام بظنية نتائج اجتهاداتهم حين قالوا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب. وهذا غاية الإنصاف وغاية الموضوعية!.

وأخيراً فإن مما يساعد على الحكم الموضوعي أن نقوم بتقسيم الموضوع إلى أكبر عدد ممكن من الجزئيات، ثم القيام ببحث كل جزئية على حدة؛ لأن هذا يمكننا من السيطرة التامة على الموضوع، كأن تدرس أسباب قضية ما ومظهرها والعناصر المؤثرة فيها والنتائج التي يمكن أن تتمخض عنها، وكيفية العلاج...

ويمكن أن يكون تحت كل جزئية من هذه جزئيات عديدة.

وإني أعتقد أن تجزئة القضية موضوع البحث سوف تساعد على تشتيت بنية الانحياز والتعصب للموضوع أو ضده، من خلال التنقل بين جزئيات متنوعة إلى حدٍّ ما، ولا سيما إذا اتبعنا طريقة تفكيك بنية المعالجة العلمية، كما سنتحدث عنه فيما بعد.

وعلى كل حال فإن التدريب على مقاومة الهوى ومحاولة رؤية المسألة من جميع الزوايا يساعدان على الارتقاء نحو الإدراك والحكم الموضوعيين.

(٣) تقنيات في تنمية التفكير

المقصود بالتقنيات هنا مجموعة الأساليب والأدوات والإجراءات التي تساعد إمكاناتنا الذهنية على الارتقاء، وتحسِّن من كفاءة التفكير لدينا.

ونحن نعتقد أن تنمية التفكير تستحق الاهتمام الخاص، حيث يشتد الطلب اليوم على الإنسان الفذ الذي يستطيع استخدام إمكاناته الذهنية بصورة جيدة، وحيث يتطلب تزايد المشكلات على الصعيد الإسلامي عقولاً من نوع خاص.

وسوف نركز في الصفحات التالية على ما نظنه يرقى بقدرة التفكير على حل المشكلات وطرح البدائل واكتشاف الخيارات، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ ـ تنمية الإبداع:

التفكير الإبداعي تفكير يؤدي إلى إنجاب شيء جديد لم يكن معروفاً ـ على مستوى ما ـ من قبل. وتطلق صفة الإبداع على الخيال متى قام تلقائياً في إنشاء مجموعة جديدة من الأفكار والصور. إن الإبداع يعني تأليفاً بين الأفكار وتركيبها تركيباً فذاً، وذلك حين تكون الثمرة العقلية أكثر من مجرد خلاصة جمعية للأجزاء. إنه الإتيان بقاعدة جديدة، أو اكتشاف لقانون جديد، أو استخراج لشكل جديد غير مألوف...

إن نوعاً من الخفاء يلف جوهر العملية الإبداعية التي يقوم بها الدماغ، ومن ثم فإن جدلاً يدور حول إمكان زيادة القدرة الإبداعية من خلال التعليم والتدريب.

وأتصور أنه لا ينبغي الخلاف في رفع كفاءة الفرد، وزيادة مهاراته في توظيف الطاقات المبدعة لديه. ويمكن أن يتركز الجدل حول فائدة التدريب في زيادة القدرات الإبداعية نفسها[1].

إن عملية الإبداع تخضع لعوامل أساسية ثلاثة، هي النشاط العقلي، والأبعاد الوجدانية (سمات الشخصية)، وأنواع المناخ. والباحثون في هذا المجال يؤمنون بصيغة أساسية، مؤداها: أن الإبداع هو محصلة لما يشبه (اللقاء السعيد) بين أعلى الوظائف العقلية كفاءة، وأكثر الخصال الوجدانية في الشخص المبدع فعالية، وأفضل أنواع المناخ ملاءمة للتفكير المبدع[2].

تغيير نظم التعليم وتحويلها من التلقين وتقديم المعلومات المعلبة الجاهزة[3]، إلى تعليم يثير التساؤل ويعتمد الاستنتاج، شرطٌ ضروري لتحسين التفكير وتنمية الإبداع. وما زال إنفاقنا على التعليم محدوداً، وما زالت هناك مشكلات كثيرة تحول دون أداء المدارس لوظيفتها المنشودة.

في الميادين العملية تجارب كثيرة لتنمية الإبداع، لا تسمح لنا هذه المساحة باستعراض الكثير منها، فلنقتصر على بعضها:

أ ـ القصف الذهني:

من أهم الأساليب وأكثرها شيوعاً في تنمية الإبداع ما يسمى بـ(القصف الذهني) ويقوم هذا الأسلوب على مبدأين: أحدهما يقضي بتأجيل النقد أثناء جلسات توليد الأفكار التي تُعقد للتدريب على مهارات حل المشكلات، والثاني: يتلخص في معنى أن «الكم يولد الكيف».

(١) انظر تنمية الإبداع: ١٦.
(٢) السابق: ١٩.
(٣) أجريت دراسة مقارنة على بعض الطلاب الغربيين والشرقيين، فتبين أن ذاكرة الطالب الشرقي أفضل (نظراً لكثرة ما يحفظ) من ذاكرة الطالب الغربي وحين عرضت مشكلات تتطلب حلولاً كان الطالب الغربي أقدر على حلها؛ لأنه تعلم بطريقة أقرب إلى التفكير.

وينطوي هذا المبدأ على التسليم بأن الأفكار والحلول المبتكرة للمشكلات تأتي تالية لعدد من الحلول غير الجيدة. ومن ثم فإنه لا بد من استنفاد كل الأفكار التقليدية والتداعيات المألوفة؛ حتى نصل في النهاية إلى استقبال الأفكار الأصيلة والآراء المبدعة.

وهناك قواعد أربع تترتب على هذين المبدأين، هي:

ـ **ضرورة تجنب النقد أثناء جلسات** (القصف الذهني) سواء أكان ذلك من قِبَل بعض الحاضرين أم من قِبَل صاحب الفكرة؛ فالوقت وقت تفريغ واستنزاف للأفكار؛ والنقد يوقف طوفان التداعيات الذهنية.

ـ **إطلاق حرية التفكير والترحيب بكل الأفكار** مهما يكن مستواها، ما دامت متصلة بالمشكلة موضوع الاهتمام. وترسخ هذه القاعدة فكرةً، محتواها: كلما كانت الفكرة فجة أو بكراً، أي: غير مصقولة، ولا مشذَّبة كانت أفضل؛ فالمهم وجود أفكار، وسيكون تشذيبها فيما بعد أسهل. والغرض من هذه القاعدة مساعدة الفرد على أن يكون أكثر استرخاءً وأقل تحفظاً، وبالتالي أعلى كفاءة في توظيف قدراته على التخيل وتوليد الأفكار.

ـ **الكم أساسي في توليد الأفكار الأصيلة**، وهذه القاعدة مبنية على المبدأ الثاني، وتنطوي على معنى، هو: أنه كلما زاد عدد الأفكار المقترحة من أعضاء الجماعة زاد احتمال بلوغ قدر أكبر من الأفكار الأصيلة أو المُعينة على الحل المبدع للمشكلات.

ـ **البناء على أفكار الآخرين وتطويرها**. والمقصود بهذه القاعدة أن تشحذ دافعية المشاركين في جلسة القصف الذهني على أن يضيفوا لأفكار الآخرين وذلك بأن يقدموا ما يمثل تحسيناً أو تطويراً لها، أو يشكِّل مع غيره من الأفكار التي سبق طرحها في الجلسة تكوينات جديدة[١]....

---

(١) السابق: ٢١ وما بعدها.

ب ـ التغيير في الخصائص:

وهو أسلوب بسيط ومباشر للتفكير في مقترحات أو توليد أفكار تستهدف تحسين أو تعديل منتَج ما. ودور الشخص الذي يستخدم هذا الأسلوب أن يحدد أولاً ما هو هام وأساسي من الخصائص المميزة لهذا المنتج، وأن ينظر إلى كل خصيصة من هذه الخصائص على أنها عنصر قابل لصور عديدة من التغيير أو التحسين. وعليه بعد ذلك طرح أكبر عدد ممكن من الأفكار أو مقترحات التطوير الممكنة بالنسبة للخصيصة المعينة.

فإذا كنا في صدد تطوير جهاز (هاتف) مثلاً أمكن طرح أسئلة حول اللون والشكل والوزن والحجم واستخدام الأزرار بدل القرص والمادة التي يصنع منها، وكيفية وضعه على المنضدة أو تعليقه على الجدار، وما يمكن أن يضاف إليه من ميزات وكماليات، مثل عداد الوقت أو الأجرة المستحقة...

جـ ـ برنامج (بوردو):

قامت بتصميمه مجموعة من الباحثين في جامعة (بوردو) في الولايات المتحدة، من أجل تنمية قدرات إبداعية محددة، هي: الطلاقة والأصالة والمرونة والتفصيل. وقد أُعدَّ هذا البرنامج لتدريب طلاب الابتدائي (من الصف الثالث إلى الخامس) على التفكير المبدع، ولتعزيز هذه القدرات بوجه خاص.

ويتكون هذا البرنامج من سلسلة من الدروس (٢٨ درساً) مسجلة على أشرطة بأصوات إذاعية مدرَّبة، ويتعرض الطالب عند سماعه لها إلى نوعين من المعلومات:

١ ـ بعض الأفكار والمبادئ التي تؤدي إلى تحسين القدرة الإبداعية، ويستغرق ذلك بين ثلاث إلى خمس دقائق.

٢ ـ قصة أحد الرواد المبدعين من العلماء أو المستكشفين. وتستغرق هذه الفقرة من الدروس سبعاً إلى عشر دقائق.

ويعقب ذلك في كل جلسة تدريب تقديمُ عدد من التمرينات التي تشتمل على مواد لفظية وشكلية مطبوعة، لتنمية قدرات الإبداع المختلفة.

وقد قُدِّر لهذا البرنامج الذيوع والانتشار. وقد كشفت الدراسات المختلفة عن فعاليته في تنمية الإبداع لدى طلاب المدارس[١].

إن هناك أفكاراً تدريبية صغيرة كثيرة يمكن أن يُستفاد منها مثل التدريب على رؤية العلاقات بين الأشياء والأفكار، والأساليب التي لم ينتبه إليها أحد من قبل، ثم القيام بصهر المعطيات الجديدة في مركَّب جديد[٢].

إن على الأسرة واجباً كبيراً تجاه تنمية الإبداع لدى أطفالها، وقد أظهرت إحدى الدراسات التي أجريت على عدد من علماء الطبيعة النابهين أن أفراد هذه المجموعة يشعرون باحترام كبير نحو آبائهم، ويرتبطون بأمهاتهم وجدانياً. وتوضح بعض النتائج أن مرونة الأسرة في السماح لأبنائها بالقيام بأي نوع من أنواع النشاط الاستكشافي العقلي أو اليدوي، وعدم عرقلتها لذلك النشاط له تأثير كبير في تشجيع الإبداع لدى الأبناء.

إن من قدرات الإبداع الأساسية الطلاقة، وإن الأسرة التي يسودها روح النقاش والتفاهم والمصارحة تساعد على تنمية هذه القدرة لدى أبنائها؛ على حين أن الأسر التي تعامل أبناءها بالتوبيخ والاستخفاف تكبت نشاطهم الأدبي الداخلي، وتُفقدهم الثقة في أنفسهم، وتحرمهم من تجارب وثمار التعبير عن الرأي.

وأخيراً فإن تنمية الإبداع ليست تنمية للدماغ والمحاكمة العقلية فحسب، وإنما تربية الروح وحفز الهمة وبناء حب الاستطلاع والدهشة من الجديد. وقديماً قالوا: العلم روح تُنفخ لا مسائل تُنسخ!

---

(١) السابق: ٤٦، ٤٧.

(٢) العبقرية والإبداع والقيادة: ١٢٢.

٢ ـ التفكير الجيد مهارة يصنعها التدريب:

إن المهارة هي القدرة على الأداء بشكل فعال في ظروف معينة. ولا ينكر أحد أن ذوي الإمكانات الذهنية الجيدة أقدر على الاستيعاب والاستفادة من التدريب من متوسطي أو ضعيفي الذكاء، لكن علينا أن نعتقد في الطرف المقابل أن الذكاء لا ينفع الذين لا يملكون سواه شيئاً. وإذا كان التفكير لا يعدو أن يكون تطبيقاً غراً لذكاء فطري موروث، فليس أمام المرء عندئذ سوى القليل ليفعله[١].

إن التدريب على التفكير الجيد كفيل بأن يجعل قدراتنا وملكاتنا الذهنية تعمل بصورة منظمة وواعية. وقد ذكر أحد أساتذة تعليم التفكير أن التفكير مهارة تستدعي عدداً من التغييرات النفسية والسلوكية، من أهمها ما يلي:

- مزيد من الإصغاء للآخرين، وقليل من الحديث مع أفراد جانبيين.
- تمركز أقل حول الذات.
- استخدام التفكير للاستكشاف بدلاً من استخدامه لتدعيم وجهة نظر معينة أو للدفاع عنها.
- استخفاف بآراء الآخرين أقل وتسامح أكثر إزاء وجهات النظر الأخرى.
- استخدام أشكال من التفكير غير تلك التي تُستخدم في النقد المحض.
- معرفة ما ينبغي عمله بدلاً من انتظار تلقي فكرة من الأفكار.
- ابتعاد أقل عن صلب الموضوع.
- مزيد من الرغبة في التفكير في الموضوعات الجديدة بدلاً من رفضها أو نبذها على اعتبار أنها سخيفة، أو غير ذات صلة بالموضوع.

---

(١) تعليم التفكير: ٥٧.

- مزيد من الثقة.

وهذه الصفات مطلوبة بصفة أساسية في حالات التفكير أو النقاش الذي يدور بين مجموعة من الأفراد[1].

إن المهارة في التفكير لا تعني حلولاً غير نمطية، ولا سبراً أفضل للخبرة فحسب، إنها أكثر من ذلك بكثير، فهي تتضمن معرفة ماذا ستفعل؟ ومتى تفعله؟ وكيف؟ وما الأدوات اللازمة؟ والنتائج المتوقعة؟ وما الذي ينبغي أخذه بالاهتمام؟.

ومن أجل بيان أثر التدريب في ترقية التفكير وتحسين المحاكمة العقلية قامت مجموعتان من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وإحدى عشرة سنة في مدرسة ريفية بمناقشة اقتراح «منح الأطفال أجراً أسبوعياً من أجل ذهابهم إلى المدرسة». وكانت كل مجموعة تضم خمسة أطفال. وقد أخذت إحدى المجموعتين عشرة دروس في التفكير مع مدرس متميز جداً.

أما المجموعة الثانية فلم تأخذ شيئاً، وهي (المجموعة الضابطة).

وقد تم تسجيل حديث كلا المجموعتين، وبعد الاستماع إلى الحوارين بين الأطفال تم رصد المناقشات التالية:

أولاً: المجموعة المدرَّبة:

- لماذا ينبغي الدفع للأطفال؟ إنهم يتعلمون أموراً سوف تنفعهم عندما يكبرون.

- من أين ستأتي الأموال؟ ربما لا تتوفر أموال كافية لدفع أجور المعلمين. وقد لا تتوفر أموال كافية للتوسع في المباني المدرسية. ويمكن إنفاق الأموال بصورة أفضل على أشياء أخرى كالحافلة الصغيرة التي تريد المدرسة شراءها.

---

(١) السابق: ٦٠.

- لا بد أن يأتي المال اللازم من دافعي الضرائب. فالأجور سوف تنخفض، وفي هذا ظلم لمن ليس عنده أطفال في المدرسة، يتقاضون مالاً.

- لا يقدِّر الأطفال المال، ولسوف ينفقونه في شراء الحلوى.

- سوف يكتفي بعض الأطفال بالجلوس في الصف دون أن يعملوا شيئاً.

فالسباحة لا تفيد أحداً، فلماذا يتعين عليهم إذن أن يدفعوا أموالاً من أجلها؟ كما أنه قد يستغل بعض الأطفال النظام، ويقضون فترة أطول في الدراسة كي يحصلوا على مال أكثر.

ودار كلام آخر على هذا النمط، وانتهى الأطفال إلى خلاصة هي أن الأطفال لا يستحقون أموالاً، تُصرف لهم من أجل التوجه إلى المدرسة، كما أنه من أين ستأتي هذه الأموال؟

ثانياً: المجموعة الضابطة (غير المدرَّبة):

إذا تقاضى المعلمون مالاً، فيتعين أن يتقاضى التلاميذ مالاً كذلك، ذلك لأن التلاميذ يبذلون جهداً أكبر مما يبذله المدرسون.

- إن ما يصرف للمدرسين كثير جداً، ولكنهم دائمو الشكوى، بل يقومون بالإضراب.

- يحصل المدرسون على إجازات عديدة جداً، ويرغب التلاميذ في المزيد من الإجازات يجب مناقشة مدى طول فترة الإجازات، وأية مقترحات بشأن الإجازات.

- مناقشة الشكوى حول أسعار الوجبات المدرسية، وحول تقديم الحليب مجاناً في المدرسة.

- يمكن إنفاق الأموال في شراء الحلوى أو حصان أو قارب، وما شابه ذلك.

- ينبغي السماح للأطفال بمضغ الحلوى في المدرسة.

خلاصة:

يتقاضى المعلمون مالاً، ومن ثم يتعين أن يتقاضى الأطفال مالاً كذلك.

مقارنة عامة:

أظهرت المجموعة الضابطة ميلاً إلى الانحراف بالموضوع نحو ما يمكن تسميته بتفكير (النقطة التي تجر النقطة). فالنقطة التي تبرز في أثناء الحوار تفتح باباً جديداً للتفكير، على ما رأينا في العرض السابق.

ولم يُذكر أبداً من أين سيأتي المال الذي سيدفع إلى التلاميذ، أو ما إذا كانوا يستحقونها أم لا. لقد بدا أن التفكير يقوم على أساس عدائي حيث سعى كل فرد لإقناع الآخر بوجهات نظره؛ مما جعلهم يلجأون إلى الاقتراع كَحكَم أخير في الموضوع.

وبالمقابل فإن المجموعة المدرَّبة بدت كأنها تستكشف الموضوع أكثر مما تتصارع حوله. وقد التزمت بصلب الموضوع دون أن يتشعب نقاشها إلى مجالات أخرى[١].

وتدل بعض الدراسات على أن الأطفال من سن التاسعة حتى الثانية عشرة مستعدون لمناقشة أية مشكلة تقريباً. وقد كان عند الأستاذ (دي بونو) مجموعات تناقش لمدة ثلاثة فصول بمعدل ساعة أسبوعياً دون مراقبة - المسألة الأساسية: هل يجب أن تدفع للفرد حسب حاجته أو حسب جهده؟.

وقد يرى بعض المدرسين مثل هذه المشكلات أكبر بكثير من مثل هذه الفئة العمرية. وقد يعود ذلك إلى الاعتقاد أن التفكير مثل المعرفة؛ مع أن الأمر مختلف إلى حد بعيد[٢]...

---

(١) السابق: ٦٥ وما بعدها.

(٢) السابق: ١٨٢.

إن من أسرار تفوق الشعب الياباني عنايته الهائلة بالتدريب والتأهيل المستمر للعمال والموظفين، فالشركات لا تسرّح الموظفين نتيجة تقليص الإنتاج وإغلاق بعض خطوطه، لكنها تعيد تأهيلهم في فروع إنتاج جديدة.

إن تعاظم حركة التدريب في اليابان والعالم المتقدم هو نتيجة لحكمة، تقول: «إعطاء الفرد سمكة واحدة، يوفر له غذاءه مرة واحدة. أما تعليم الإنسان كيف يصطاد السمك فإنه يضمن له غذاءً متجدداً دائماً»(١).

٣ ـ تحسين التفكير عن طريق القبعات الست:

إن القبعات الست ليست قبعات حقيقية، وإنما هي عبارة عن مواقف نفسية عقلية يجري تقمصها خلال جلسات الحوار والمناقشة، أو خلال حالات التفكير الفردي، وهذا موجز لها:

ـ القبعة البيضاء:

تعني القبعة البيضاء أن يبدأ الفرد بطلب المعلومات والحقائق أولاً، ثم ينتقل إلى الوصول إلى نتائج. وإن على المرء ألا يطلب المعلومات غير المفيدة لموضوعه؛ حتى لا يتشتت الذهن، ويغرق في أرقام ومعلومات لا علاقة له بها. وعلى المرء أن يتساءل أيضاً هل هو يريد الحقائق، أو يبحث عن الأفكار والمعلومات التي تدعم ما قرره سلفاً؟.

إننا لا نستطيع أن نعتمد على الحقائق الذائعة والمثبتة في كل أمور حياتنا، ومن ثم فإن علينا أن نكون على وعي بأن هناك طبقتين من الحقائق:

حقائق ثابتة، وحقائق معتقدة لشخص ما. الحقائق المثبتة حقائق من الطبقة الأولى، إنها نوع من المسلَّمات التي انقطع النزاع حولها. أما الحقائق المعتَقَدة، فهي حقائق من الدرجة الثانية، إنها أقرب إلى أن تكون رؤى شخصية، ويمكن أن يجري حولها نزاع طويل. وليس المطلوب هو التخلص منها، وإنما تفكير القبعة البيضاء هو الحقائق الحيادية نضعها على الطاولة دون

---

(١) بنية التخلف: ٢٦.

محاولة إعطائها صبغة ما، ودون محاولة استغلالها للانتصار لفكرة أو دفع فكرة.

يقول (دي بونو): نحن نتعجب كيف لا يجادل اليابانيون، وهم يتعجبون كيف نتجادل. يأتي اليابانيون للاجتماع، وليس لدى أي منهم أي أفكار مسبقة (!) يأتون للاستماع، ويقدم كل منهم معلوماته الموضوعية، وتتشكل بالتدريج خريطة لقرار يساهم فيه كل منهم[1].

ـ القبعة الحمراء:

هذه القبعة توفر الطريقة لإخراج العواطف والانطباعات والحدس، لتصبح تحت المراقبة والضبط. إن العواطف تصبح جزءاً من مشروع التفكير الكلي.

عند كل واحد منا عواطف نحو الموضوع المبحوث، ولا نعترف بها، وأحياناً لا نكون على وعي بها، ومن ثم فإنها تؤثّر في التفكير على نحوٍ بعيد عن السيطرة. وإن إخراج العواطف إلى السطح يساعد على نزعها وتحييدها.

يمكن للفرد أن يلبس القبعة الحمراء عندما يمارس عملية التفكير وحيداً، فهو بهذا يجعل مشاعره أمراً مقبولاً، ثم يحاول أن يبعدها عن عملية التفكير. علينا أن نتذكر أننا كثيراً ما ننظر إلى المشكلات بعيون قلوبنا، ومن ثم فإننا لا نقبل النقاش حولها! وإن العواطف كثيراً ما تشكّل الخلفية التي تحدث في جوها المناقشات المنزلية ومناقشات العمل، ومناقشات الخصوم والشركاء... ماذا يحدث لو كان لدينا حساسية لدى شخص ما، وحاولنا إخراج تلك الحساسية إلى انتباهنا؟

إننا بالتأكيد سوف نكون أكثر موضوعية وإنصافاً وتحرزاً من التحيز.

ـ القبعة السوداء:

تفكير القبعة السوداء هو التفكير الناقد، وهو تفكير منطقي، لكنه

---

(١) تحسين التفكير: ١٧ ـ ٢٠.

سلبي، وهو تفكير مطلوب، وكثيراً ما يكون مبنياً على حقائق وصادقاً، وإن كان لا يشترط أن يكون منصفاً دائماً.

على عكس ما يظن الناس، فإن إتاحة فرصة للنقد، ولإبداء الملاحظات السلبية ـ لا تزيد في النقد، وإنما تخفف من حدته، وميل الناس إليه.

إن إعطاء وقت للنقد يعني أننا استطعنا وضع حد للنقد الدائم. وهذا ينبهنا إلى جانب من الطبيعة الإنسانية حيث لا يرغب الشخص الماهر في النقد في أن يكشف عن أنه ضعيف في غير هذا اللون من التفكير.

وعلينا أن نتذكر أن التفكير الناقد هو على مستوى ما تفكير بنائي، حيث لا يستغني أي عمل جيد عن المراجعة وإعادة النظر، والأعمال التافهة وحدها هي التي لا تحتاج إلى ذلك.

وهذا لا يمنع من أن الملكة النقدية تتضخم لدى بعض الناس إلى حد المرض! وربما كان النقد شديد الإغراء لأنه يمنح الناقد تفوقاً سريعاً على النظراء، على حين أن التفكير الذي يُشيِّد النظريات والقوانين يحتاج إلى وقت طويل، ويحتاج حتى يكتسب المصداقية المطلوبة أن يتجسد في واقع مرئي، وليس كذلك النقد[١].

ـ القبعة الصفراء:

تفكير القبعة الصفراء هو: التفكير الإيجابي الذي يركز على الإيجابيات في المسألة موضوع البحث، ويقوم المرء به بدافع من الفضول والسرور.

ويستخدم المرء تفكير القبعة الصفراء في الغالب حينما يكون له مصلحة شخصية في الموضوع. قد تكون الإيجابيات خفيَّة، وغير واضحة.

والحقيقة أن الجوانب الإيجابية غير الواضحة هي التي ينبغي أن تلقى اهتمامنا؛ والناجحون دائماً ينتبهون إلى جوانب النفع الخفية، فيسبقون غيرهم.

---

(١) انظر السابق: ٢٧ ـ ٣٠.

إن من الثابت أنه في أغلب الحالات لا يُغلق باب إلا ويُفتح معه باب آخر، لكن غالباً ما يصيبنا الارتباك، ونُشغل بالباب الذي أُغلق عن رؤية الباب الذي فُتح.

إن التفكير الإيجابي ليس تفكيراً مبنياً على أوهام، ولا على مجرد التفاؤل، ومع هذا فلا بد من القول: إن الخط الفاصل بين الاندفاع الأحمق والتفكير الإيجابي المتفائل هو خط ضيق جداً، وإن اختلاط الأمرين على الناس ليس من الأمور المستغربة!.

إن في تفكير القبعة الصفراء رؤية نافذة للجوانب الإجابية، ولو لم تكن مبنية على مؤشرات موضوعية؛ ثم تأتي بعد ذلك دراسة متفائلة لترى الجوانب الطيبة الإيجابية[1] ....

ـ القبعة الخضراء:

إن تفكير القبعة الخضراء يعني النمو والتغيير والخروج عن المألوف. إنه يخالف ميولنا الطبيعية التي تدعونا إلى البقاء ضمن الخط المعهود.

فالعقل الإنساني يكوِّن لنفسه نماذج يقيس عليها ما يرد عليه من أشياء من خارجه وكل ما لا يوافق النماذج المستقرة في العقل يتم طردها ونبذها.

لا يعني دخول المرء في التفكير الإبداعي أن يغير المرء عقله، ولكن ما عنده من قدرة على التفكير سيجري استغلاله بشكل أشمل وأتم بحيث يرى الاحتمالات كلها.

إن أكثر التفكير الذي نتشبع به من البيئة مهيأ لمعالجة المعلومات، وذلك مثل المنطق والإحصاء والرياضيات وجمع المعلومات. وهذه العمليات لا تحدث إلا من خلال الرموز؛ والذي يقوم به التفكير الإبداعي هو إيجاد أشكال جديدة تضاف إلى مجموعة ما عندنا من تراكيب، ندرك من خلالها العالم.

---

(١) السابق: ٣١ وما بعدها.

إن التفكير المبدع يحتاج إلى الوقت؛ والعجلة هي عدوه الأول. والعادة تجعلنا نقبل الحل الذي يظهر لنا لأول وهلة. والمطلوب هو أن نوفر الوقت لاستخراج حلول أخرى، ثم نختار منها الأكثر مناسبة لحاجتنا وإمكاناتنا.

إن من المهم أن نظل نرى أن الحلول التي توصلنا إليها ليست هي الوحيدة، وقد لا تكون هي الأفضل. وهذه الرؤية هي وحدها التي ستجعل تطلعنا للجديد غير قابل للاستنفاذ[١].

ـ القبعة الزرقاء:

إن تفكير القبعة الزرقاء يعني تفكير التحكم في أنواع التفكير الأخرى، إنه بمنزلة لوحة تحكم كبيرة، عليها أضواء وأزرار وأذرعة تحكم. ويمثل من يلبس القبعة الزرقاء دور القائد لجلسة الحوار والتفكير، ومهمته ضبط عمليات التفكير وتوجيهها؛ فهو يحمي المجموعة من أي انزلاق أو ابتعاد عن الموضوع الذي يدور حوله البحث أو التفكير. كما أن عليه أن يوجِّه أنواع التفكير بحسب الظروف المحددة. ففي جو يكون الحاضرون كثيري الانفعال تجاه الموضوع المطروح للبحث، يعطي للمشاعر والانفعالات وقتاً أوسع؛ حتى يُخرج الحاضرون كل ما لديهم من مشاعر. وبعد فتح المجال لإبداء المشاعر قد يجد صاحب القبعة الزرقاء أن من المناسب إتاحة المجال لتفكير القبعة البيضاء أو السوداء وهكذا[٢]...

إننا بعد استعراضنا لأساليب تحسين التفكير عن طريق القبعات الست ندرك مدى الفوضى والجنف الذي يتخلل جلسات الحوار وعمليات التفكير، وكيف يختلط تفكير العواطف بالتفكير الناقد، بتفكير المعلومات...!

كما أننا ندرك كم هي عظيمة سيطرة جانب من جوانب التفكير على شخص، أو على مجلس؛ إذ من غير المستغرَب أن تجد جلسة كاملة، لا

---

(١) السابق: ٣٧.

(٢) السابق: ٤٥ وما بعدها.

يذكر فيها إلا النقد، كما أن من المألوف ألا تسمع في جلسة ثانية إلا المعلومات التي تُنثر، دون أي تحليل، وفي جلسة ثالثة نجد البشائر وألوان التفاؤل التي تنهلُّ من كل صوب!.

إن التفكير الجيد يحتاج إلى ملاحظة دائمة ومتابعة، حتى لا يخرج عن مساره، ويفقد توازنه.

(٤) انحرافات عن التفكير المنهجي

إن التنمية الفكرية التي ننشدها ستظل مرهونة بالنجاح الذي نحققه على صعيد التخلص من ألوان التفكير القاصر والمنحرف والخاطئ؛ إذ لا بد قبل زرع النبتات الفكرية الجديدة من تطهير الأرض من الأشواك، وتعريض التربة لأشعة الشمس الساطعة...

لا يعني هذا بالطبع التوقف عن بث المنهجيات الصحيحة والجيدة والأفكار العظيمة إلى أن نتخلص من أنماط التفكير المعوج، لكنه يعني ضرورة محاصرة الأخطاء الفكرية التي تظهر في مظاهر شتى.

ولا بد مع هذا أن نكون على وعي بأن الفكر كثيراً ما يكون مرآة لجوانب الحياة المختلفة؛ إذ لا يمكن للأمية والقصور الاجتماعي والتحلل الأخلاقي والاستبداد السياسي... إلا أن تُشيع أساليب خاطئة في التفكير، وتمدها بالماء الآسن كلَّ حين!.

وليس هذا فحسب فالأجيال الجديدة التي تدفع بها الأرحام تحتاج إلى جانب الحاجات المادية إلى استيعاب نفسي واجتماعي وفكري وتربوي، وهذا يحتاج إلى أجهزة وخطط، كثيرٌ منها مفقود الآن.

وعلاوة على كل هذا؛ فإن في تركيبة الذهن البشري، وفيما يفرضه الاجتماع الإنساني من عادات وتقاليد... ما يولِّد أنماطاً فكرية خاطئة، لا نعرف إلى الآن عواصم نهائية منها.

هذا كله يدعونا أن نظل نجاهد بدون استرخاء في سبيل تأسيس تفكير إسلامي، يفيد من المنهج الرباني، ومن التجارب والخبرات البشرية المتتالية على صعيد التآزر بين العقل والثقافة.

وسنعرض هنا إلى بعض ما نعتقد أنه انحرافات ومظاهر فكرية خاطئة من خلال المفردات التالية:

١ ـ الانتقال من موضوع إلى آخر لأدنى علاقة تربط بينهما:

حين ننعم النظر في مختلف الظواهر الحياتية نجد أمراً مطرداً، لا يكاد يتخلف، وهو أن كل ظاهرة محكومة بنوعين من الشروط والعوامل: داخلية وخارجية؛ فالجانب الاقتصادي مثلاً محكوم بشروط داخلية عديدة، مثل: العادات الاستهلاكية والموارد الأولية وأعداد السكان... مما هو في صميم المجال الاقتصادي.

وهناك إلى جانب هذا مؤثرات خارجية من نحو قيم العمل والعادات الاجتماعية والاستقلال السياسي والبنية التحتية، وما شابه ذلك مما لا يعد في جملة المعطيات الاقتصادية، لكنه يؤثر في الشأن الاقتصادي تأثيراً كبيراً.

الذي يحدث في كثير من مجالسنا ودراساتنا أننا حين نبحث الوضع الاقتصادي لبلد ما، لا نعير الاهتمام الكافي للشروط الداخلية، وإنما نقفز إلى الوضع السياسي، أو الوضع الاجتماعي، فنعزو المصاعب والإخفاقات الاقتصادية إلى سوء الإدارة السياسية أو إلى كسل الشعب، أو إلى انتشار الأمية.. ونحن لا ننكر تأثير كل ذلك في الوضع الاقتصادي، لكن ذلك لا تتجاوز نسبة تأثيره ٣٠٪. وماذا يمكن أن تصنع حكومة جيدة لشعب فقير في الموارد، مزدحم في السكان سوى أن تخفف من المعاناة إلى مستويات حدية[١]. على أن البلاد الغنية بالموارد مع عدد سكان قليل ـ مثل بروناي ـ تستطيع أن تؤمن للسكان رفاهية عالية بأقل جهد من الإدارة والتنظيم وهكذا...

إنني أعتقد أن الشروط الخارجية لأية ظاهرة تظل هامشية ما لم تستطع أن تزحزح بعض الشروط الداخلية، وتحل محلها، أي ما لم تتحول إلى

---

(١) يبلغ عدد سكان بنغلاديش مائة وعشرة ملايين، وهم يسكنون في ١٤٤ ألف كم٢!!.

شروط داخلية على مستوى من المستويات. فإذا أدت القيم الاجتماعية إلى إنشاء عادات استهلاكية سيئة، أو إلى التقاعس عن الاستفادة من الموارد الاقتصادية المتاحة ـ مثلاً ـ تحولت من شرط خارجي إلى شرط داخلي....

إن علينا عند مناقشة أية قضية أن نمنح المؤثرات الداخلية الوقت الكافي لاستقصاء كل أغوارها وسبرها، ثم نلتفت إلى العوامل الخارجية، ونستقرئ مدى تأثيرها في الظاهرة موضوع البحث.

٢ ـ المعرفة القاصرة تعطل الإمكانات الذهنية الجيدة:

يتشوق المرء دائماً للمعرفة وإدراك الحقيقة، لكن ذلك ليس متاحاً دائماً. ومع أننا نعيش عصر الاتصال وتسايل المعلومات إلا أن ما يحتاجه المرء من المعرفة لاتخاذ قرارات حاسمة هو أضعاف أضعاف ما كان يحتاجه من قبل. هذا بالإضافة إلى أن قدرة الناس على إخفاء المعلومات أكبر بكثير مما كان لديهم فيما مضى.

في العالم الإسلامي قدر أقل من المعلومات والإحصاءات عن كل شيء، وهناك أشياء كثيرة محظور الاطلاع عليها، على حين أنها مكشوفة تماماً في البلدان المتقدمة!

نحن لا نستطيع إيقاف حركة الفكر؛ لأننا لا نملك معلومات، ومن ثم فإن الدماغ يكوِّن تصورات عديدة عن الواقع الذي يجهله، ويحاول تقدير النتائج المحتملة لذلك الواقع المجهول(١).

إن المخيلة الشعبية طالما ملأت الفراغات المعرفية من خلال التصورات والأحكام المبتسَرة، حيث يكره الإنسان الفراغ، بكل معانيه.

ويعاني الإنسان لدينا من نوعين من القصور: قصور في كمية المعلومات، وقصور في نوعيتها؛ فالتخلف الشامل الذي نعاني منه في

---

(١) المدرَك والغامض: ٢١٧.

استيعاب المنهج الرباني، على الصعيد المادي - يؤدي دائماً إلى إنتاج معلومات مشوَّهة ومغلوطة. ويتم هذا في زمان صارت المعرفة المادةَ الأساسية التي تشغِّل العقل، وتساعده على اتخاذ قرارات راشدة.

إن نظام عمل العقل لا يختلف عن نظام عمل (الحاسوب) فالمدخَلات الخاطئة تعني دائماً مخرَجات خاطئة[1]. والعقل - كالحاسوب - لا يستطيع إضفاء تحسينات كثيرة على المدخَلات القاصرة، إلا بعد بلوغ درجة عالية من النضج والرشد؛ ومن ثم فإن كثيراً من القرارات التي نتخذها مصاب بعيوب جنينية، حيث إنها لا تعتمد على معلومات جيدة وكافية. وكم قتلنا من الوقت، وضيعنا من الجهد في جدل عقيم حول قضايا كبرى لا نملك أية خلفية عنها! بل إن هناك جماعات وأحزاباً ودولاً وهيئات وقفت مواقف صارمة خاطئة، ما كان لها أن تقفها لو أنه توفر لها الحد الأدنى من المعرفة الجيدة!.

إنني أعتقد أننا لو وفرنا ربع وقت الجدل العقيم لتحصيل معلومات جيدة حول ما نتداول فيه الرأي لاستغنينا عن تسعة أعشار الكلام الذي تولِّده أذهاننا من نماذج عقيمة وقياسات منطقية مغلقة ومعزولة عن الواقع!

إن مشكلة نقص المعلومات على نحو مستمر، أنها تولد عقلاً محدوداً. والناس يرفضون الاعتراف بهذه الوضعية؛ فمن السهل أن يعترف المرء بأنه مخطئ في هذا الموقف، أو ليس له خبرة به. أما أن يعترف بأن عقله محدود، فهذا ما لا يرتضيه أحد! بل إن كثيراً من الناس من يزعم أن ما لديه من الحدَّة في الذكاء يجعله في غنى عن كثير من المعلومات التي يلوكها كثير من الناس. ويشعر هذا الفريق أنه يمتلك عدداً كبيراً من البدهيات التي لا ينبغي الخلاف حولها!!.

٣ ـ النظرة التجزيئية:

يفرز الجسم بعض المواد التي تخرب (الكُلى) ويكون بذلك قد حكم

---

(١) تعليم التفكير: ٨١.

على نفسه بالدمار! وهكذا الفكر يصنع بنفسه ما يعوقه، ويجعل أحكامه أقرب إلى الخطل والضلال.

إن العقل حين يُترك؛ ليعمل دون رقابة ومتابعة وتكميل فإنه بطبعه ونُظُمه يميل إلى تكوين الرؤى التجزيئية؛ فهو حتى يستوعب الواقع الموضوعي والتاريخي، وحتى يستوعب المعرفة بشكل عام - يقوم بتفكيك المفاهيم والموضوعات واختزال الأحداث والمراحل؛ وليس في مكنته الاستحواذ على معلومات كثيرة دفعة واحدة. لكن الذي يحدث بعد ذلك أن قلة قليلة من الناس يحاولون إعادة ربط وتركيب ما فككه الذهن. والسواد الأعظم منا ينساقون مع الذهن في عمله الذي ألجأته إليه ضرورة القصور الذاتي؛ فيكوِّنون صوراً جزئية مبتسرة ومشوَّهة، مما يؤدي إلى خلل كبير في عمليات الإدراك المختلفة.

والرؤية التجزيئية ذات أبعاد عديدة، نذكر منه ما يلي:

أ - إننا في كثير من الأحيان نطلب الكمال المطلق في الأشياء والأشخاص والأفكار، وهذا الطلب المبالغ فيه نابع من الرؤية التجزيئية نفسها؛ فحين نبصر الأشياء معزولة عن أسبابها وسياقاتها، فإننا نفتقد خاصية (النسبية) التي لا تكاد تفارق كثيراً مما نتعامل معه، وفقد هذه الخاصيّة هو الذي يدفع نحو تحسس (المطلقية) واعتبار الكمال أصلاً وحيداً.

حين نرى الصورة كاملة نجد النواقص والاختلالات في كل ما حولنا أموراً طبيعية، بل أشياء لا بد منها للتكامل والتعاون والتآزر.

لو نظرنا إلى الرجل والمرأة كل على حدة لوجدنا نقصاً في عواطف الرجل وضموراً في قدرة المرأة على القيادة ومواجهة الصعاب... لكن حين ندرك أن الرجل والمرأة خُلقا للعيش في أسرة واحدة نجد أن علاقة (التخالف) هي علاقة الكمال والتكامل، ولولا التخالف بين الرجل والمرأة في التركيب الذهني والنفسي والعضوي لما أمكن تكوين أسرة، ولا كان هناك إمكان لحياة زوجية أصلاً.

حين نتعامل مع المرأة على أنها جزء من أسرة ندرك أن قوة العاطفة لديها ليست ضعفاً، ولا نقصاً، وحين ننظر إلى الرجل على أنه خُلق ليقود أسرة نجد أن تغلب العقل لديه على العاطفة أحد مستلزمات الوظيفة التي أنيطت به.

فإذا نظرنا إلى كل منهما على أنه مخلوق منفرد مستقل وقفنا على العيوب والنواقص والزوائد الشائهة.

إن (القلق) إذا نظرنا إليه على أنه حادث نفسي متفرد فسوف نراه مرضاً أو كالمرض النفسي، لكن إذا نظرنا إليه على أنه جزء من توازن الشخصية، فسوف نراه فضيلة، وربما كان فقدُ القلق على الواقع والمصير أكثر من مرض، إنه مؤشر على بدايات تراجع حضاري شامل!.

وهكذا فإن رؤيتنا المجزَّأة للواقع تجعلنا نطلب حلولاً وأشياء كاملة، على حين أن الرؤية الكلية التكاملية تعلمنا أنه يستحيل الحصول على حلول كاملة في وسط غير كامل.

ب ـ مما يشجِّع على الرؤية الجزئية وجود حجة منطقية متسقة لدى المرء، فمن السهل على الواحد منا أن يربط بين ظاهرة وظاهرة أخرى بينهما نوع من التلازم السطحي؛ فلو فرضنا أن الشرطة قامت بإجراءات أمنية معيَّنة لمكافحة الجرائم في بلد ما؛ وبعد عام من تطبيق تلك الإجراءات تبين أن الجرائم زادت بنسبة ٤٪ ـ عن العام السابق ـ فإن بإمكان أي إنسان أن يقول: إن تلك الإجراءات كانت سيئة؛ لأن مردودها كان عكس ما كان يرتجى منها[١].

النظرة التجزيئية في هذا الموقف ناتجة عن ضيق الأفق وقصر تعليل الظاهرة على عامل واحد؛ مع أن أكثر الظواهر لا تعلَّل بعلة واحدة. وفي حالتنا هذه قد تكون زيادة نسبة الجرائم ناتجة عن زيادة عدد السكان بالنسبة

(١) تعليم التفكير: ٨٣.

نفسها، ومن ثم فلا تكون هناك زيادة في الجرائم. وقد تكون ناتجة عن اجتياح موجة من الفقر أو الانحلال الخلقي في المنطقة كلها، ومن ثم فإن نسبة الجرائم في بلد مجاور قد تكون ارتفعت بنسبة ٦٪ مع أنه لم يطبِّق الإجراءات الجديدة التي طبقت في البلد الآخر. وهذا يعني أن الربط بين الإجراءات التي اتخذتها الشرطة وبين زيادة نسبة الجرائم كان ربطاً شكلياً، وهو نابع عن رؤية جزئية للعلاقات.

وهذا الخطأ من الأخطاء الشائعة بين العامة والخاصة، وعلينا أن نوجد آلية أخرى لاختبار صحة تلك الإجراءات عن طريق استخدام الخيال الخصب واستخدام نظام الاحتمالات المتعددة، وسبر ما يمكن أن يقف خلف الظاهرة من احتمالات عديدة.

جـ ـ التمركز حول الذات مصدر آخر من مظاهر الرؤية التجزيئية للواقع، فكثير من طلاب العلم يقيس أحوال العالم الإسلامي كله على الحالة التي يعيش فيها؛ فإذا كان يعيش في رخاء وأمن ظن أن المسلمين جميعاً كذلك، ومن ثم فإنه يستغرب من شكوى بعض الناس من سوء الأحوال، ويرى أن الحديث عن انهيار حضاري أو تحلل أخلاقي أمر مبالغ فيه؛ لأن البيئة الضيقة التي تغذي ذهنيته بالصور والنماذج بيئة يغلب عليها الصلاح.

وقد يكون للتربية الأنانية التي تلقاها بعض الناس في صغره أثر في جعله لا يرى أبعد من أرنبة أنفه!

د ـ من مظاهر النزوع إلى الفهم الجزئي التركيز على حقبة تاريخية معينة على أنها تمثل التاريخ الإسلامي كله، أو التركيز على جانب من جوانب التاريخ، على أنه يمثل حقبة تاريخية كاملة.

ويتم هذا تارة عن حسن نية، حيث يعمد المتفائلون منا إلى نزع بعض الصور المشرقة من تاريخنا، ثم يصير إلى تعميمها على الناس، على أنها نموذج للتاريخ كله. ففي مجال العدل ـ مثلاً ـ يُذكر العُمَران ـ رضي الله عنهما ـ ويُغضُّ الطرف عن أشكال الظلم والقهر الذي مارسه غيرهم، مما

تطفح به المصادر التاريخية، وكأن أولئك الظلمة لا ينتمون إلى أمة الإسلام، ولا إلى تاريخها!

بل إن بعضاً منا يحكم على صحة أحداث التاريخ وفق تركيبه العقلي الخاص بعيداً عن أية معطيات موضوعية؛ فإذا نُقل له خبر يدل على أخطاء وقعت من قبل بعض الخاصة من المسلمين حكم على ذلك الخبر بالوضع والزيف، أو وجد له تأويلاً يحيله إلى فضيلة!.

وإذا نقل له خبر يكيل المدائح، ويسرد المناقب دون حساب قبله دون أي نقاش، وكأن تاريخنا من صنع أشخاص معصومين!.

في المقابل يعمد فريق آخر من بني جلدتنا إلى أسوأ ما في تاريخنا، فينتزعه من سياقه، ثم ينشره بين الناس، ويستخدمه لدعم ما يدعيه من القصور في بنية فكر الأمة وماضيها وحضارتها، ناسياً كل الأعمال الجليلة التي قام بها عظماؤنا في التاريخ! إنهم يريدون تصوير الرذائل، وكأنها من صنعنا وحدنا!.

إن التاريخ كالواقع صَنَعه بشر، لهم مبادئ وقيم، ولهم مصالح واجتهادات وشهوات، وقد مروا في فترات نهوض، وفترات ركود؛ ولا يكون البشر إلا كذلك.

إن التاريخ أداة مهمة من أدوات التربية، وإن عدم استيعابه بطريقة صحيحة قد يحوِّله إلى أداة هدم وتخريب!.

٤ ـ ليس الإنسان ضئيلاً لكنه كسول إلى حد مقيت:

خلق الله ـ جل وعلا ـ الدنيا داراً للابتلاء، فوفّر فيها كل شروط الابتلاء، فالمرء أينما ذهب وفي أي حالٍ كان مبتلىً وممتحن وعليه دوماً أن يتلمس سبل النجاح. والمشكلة الكبرى تكمن في كسل الإنسان وتقاعسه عن محاولة الارتقاء، مع عظم الإمكانات التي زوده البارئ بها.

«يولد الحيوان مبرمجاً برمجة كاملة؛ فدودة القز تنسج خيوط الحرير

بنفس الطريقة، وعلى نفس المستوى من الدقة منذ وُجدت، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أما الإنسان فهو بمنزلة مشروع مقترح ومفتوح لكل احتمالات التألق والانطفاء، وكافة إمكانات الخير والشر. ومعضلة الإنسان أنه لا يشعر بالحاجة إلى المجاهدة، فهو في الغالب يتوهم أنه قد ورث كل الكمال في العقل والجسم، وأنه يمثل كل الكمال في الفعل والسلوك»[١].

إن غرائز الإنسان لا توصله إلى أن يتحلى بشروط الاستخلاف والقيام بحق العبودية، فإذا لم يستخدم عقله، ويسعى إلى تفتح ملكاته، ويخرج من أسر النمطية والطبيعة، فإنه سيظل إنساناً بالقوة لا بالفعل ـ كما يقول المناطقة ـ ويظل حائراً بين أهداف كبرى ومواهب وإمكانات معطلة.

قليل جداً أولئك الذين يناقشون الأفكار السائدة، وقليل أولئك الذين يملكون أية مقولات مضادة للتقاليد والعادات البالية التي صارت أثقالاً وقيوداً، يرسف فيها الناس، دون أن تحقق لهم أية فرص للرقي والتحسن!

إن قعود المرء عن اكتساب أفكار جديدة يجعله كَلًّا على مجتمعه، يمتص أسوأ ما فيه من نقائص؛ وقد كان (جوته) يقول: «نقائص الإنسان مستمدة من عصره (مجتمعه) أما عظمته وفضائله فمستمدة من نفسه»[٢].

إن الرضا عن التفسير الأولي للحقائق وعن الأحكام المبدئية التي تصدر من جهات عديدة، هو أحد مظاهر الكسل الذهني الذي يعاني منه كثير من الناس، مع أن كل حكم مبدئي ينبغي أن يكون معبراً لحكم نهائي، فالانطباع الأول هو نوع من الحدس، ونوع من التأثر بالمظهر والخبرة المتواضعة الراكدة. وأخطر الأحكام والتعليلات التي تؤدي إلى السُبات العقلي هي تلك التي تتشح بشيء من المنطق، وتحمل درجة ما من الصدق والقبول، إنها الأحكام والآراء (الرجراجة).

---

(١) بنية التخلف: ٢٠٦.

(٢) السابق: ١٩١.

ويشابه ذلك في التأثير شخصية صاحب الرأي أو ناقل الخبر؛ فإن الناس قد تعودوا تقبل الآراء الصادرة عن أشخاص، هم موضع ثقة، وذاك في الحقيقة نوع من معرفة الحق بالرجال بدل أن يُعرف الرجال بالحق!.

ولا ينبغي أن ننسى بعض الرسوم، والآداب التي طبعت حلقات التعليم في عصور الانحطاط، حيث صار السؤال عن البرهان، أو مخالفة الشيخ، أو مناقشته في أمر، مما يخدش التبجيل والاحترام الواجب على طلاب العلم تجاه شيوخهم!

وقد أدى ذلك إلى سيادة نوع من التلقي السلبي الصامت للمعلومات دون محاولة الكشف عما فيها من تناقض وتهافت ومبالغة. وقد أدى هذا إلى تكديس المعلومات، دون استثمارها في حل مشكلاتنا أو الرقي بأفكارنا، وصار من غير المستهجَن أن نلمح ضمور الفكر إلى جانب غزارة المعلومات على نحو لم يسبق له نظير!.

إن اليأس من الإصلاح وتحسن الأحوال دفع كثيراً من الناس إلى أن يعطوا أذهانهم إجازة مفتوحة، فما فائدة التفكير إذا كنت لا تجد مجالاً للتعبير عنه، وما فائدة التعبير إذا لم يتمكن صاحبه من إيجاد أية آلية إلى تحويله إلى حقائق ومشروعات...

وهذا صحيح إلى حدٍ ما، لكن هناك نقص واضح في الأفكار الضرورية لتسيير حركة الحياة، وهناك مجالات كثيرة، يمكن أن يجد فيها الفكر النيّر آليات للتجسد والتحقق في الواقع العملي.

إن العقل البشري رغم إنجازاته الهائلة ما زال بكراً، وإن بعض الدراسات يقرر أنه ما زال هناك ما بين ٩٥ و٩٠٪ من إمكانات أذهاننا قابلاً للاستثمار والتشغيل والإبداع، وإن كثيراً مما ينبغي عمله غداً لا يجد سبيلاً للولادة سوى سبيل كدِّ الأذهان وإطلاق الطاقات العقلية التي أصابها الضمور والانحسار بسبب سوء الاستخدام أو قلته!.

٥ ـ المهارة اللفظية ليست ميزة في كل الأحوال:

كان تعلم الإنسان للقراءة والكتابة الحدث الأهم على صعيد العلم والفكر، وقد أمكن بفضل الكتابة إخراج المعرفة من حيز التتابع الزمني إلى حيز التتابع المكاني، وأمكن نقل المعلومة إلى كل صقع وعبر القرون دون أن يطرأ عليها تبديل يُذكر، ودون أن تتحكم فيها الذاكرة والأهواء والتفسيرات الشخصية.

بسبب تمكن الأمية وانتشارها في العالم الإسلامي، فإن تقاليد الثقافة الشفاهية ما زالت تطبع المعرفة السائدة لدينا، حيث يتم الاعتماد على اللسان والسمع أكثر من الاعتماد على القلم والعين. وهذه الوضعية تدفع دفعاً إلى التأكيد اللفظي والإطناب والخضوع لنظرات المخاطبين ومراعاة أحوالهم؛ فالمنطوق الشفاهي يكون قد تلاشى بمجرد النطق به، ومن ثم يكون على العقل أن يتحرك إلى أمام بشكل أكثر بطئاً محتفظاً قريباً من بؤرة الانتباه بالكثير مما تناوله قبلاً، وهذا هو الذي يدفع نحو الإطناب، أي تكرار ما قيل تواً. والجمهور نفسه يطلب الإطناب حيث لا يكون في إمكان كل فرد في الجمهور الكبير فهم كل كلمة، يتفوه بها المتحدث، مما يجعل التكرار للفظ أو لمعناه أداة تفهيم.

إن الثقافات الشفاهية تشجع الذلاقة والمبالغة وطلاقة اللسان ودواعي هذا التشجيع أملتها الضرورة ـ كما ذكرنا ـ لكن البلاغيين ظلوا يشجعون هذه السمات حتى انتقلت إلى الكتابة، وبذلك تحولت (البلاغة) من فن للخطابة إلى فن للكتابة[1]!.

كثيراً ما تنكَّر البيان والطلاقة في الحديث بزيّ التفكير. وإن التدرب على استخدام اللغة، إضافة إلى خلفية في بيت يتسم أهله بالبيان، ينمي براعة لغوية، وغالباً ما يكون التفكير هزيلاً. ويعود ذلك إلى أنه لم تجر تنمية مهارة التفكير الفعلية بدرجة عالية؛ فتنصبُّ الأفكار طوعاً أو كرهاً في الفراغ (الخواء) الذي ولَّده أسلوب التعبير الطلق، فلا تزيد المهارة في التعبير عن

---

(١) الشفاهية والكتابة: ١٠١ ـ ١٠٣.

كونها مهارة في التعبير فحسب[1].

وكان سائداً أن اللغة تعد القوام الفعلي للتفكير، وليست وسيلة للتعبير فقط. أما اليوم فقد قلَّ التأييد لوجهة النظر هذه، وذلك نتيجة أعمال بيَّنت أن التفكير في ثقافات فقيرة محرومة قد يكون فعّالاً، كما هو في ثقافات مزدهرة، مع أن وسيلة التعبير عنه قد تبدو محدودة. قد تشير مقالة سلسلة ومترابطة إلى مهارة لغوية، لكنها لا تشير بالضرورة إلى مهارة في التفكير[2].

وإن الأمر يتجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأنه في كثير من الأحيان يكون استخدام الألفاظ البديعية المنمَّقة وسيلة لإخفاء النقص والاختلال بأردية من البلاغة! وهذا في الحقيقة ذو خطر بالغ على تكوين الفكر والشخصية الاجتماعية؛ لأنه يسلب الوعي، ويضعف الشعور بالمسؤولية، ويظل يشيع الحرفية والخيالية من دون أن يساهم في تقديم شيء ملموس لعملية التغيير والنهضة[3]!

وعند البخاري أنه قدم رجلان من المشرق، فخطبا، فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: **«إن من البيان لسحراً»**.

قال الخطابي: البيان اثنان: أحدهما ما تقع به الإبانة عن المراد بأي وجه كان. والآخر ما دخلته الصنعة بحيث يروق للسامع، ويستميل قلبه، وهو الذي يُشبَّه بالسحر إذا خلب القلب، وغلب على النفس، حتى يحوِّل الشيء عن حقيقته، ويصرفه عن جهته، فيلوح للناظر في معرض غيره[4].

إن من الواضح في كلام الخطابي أن في البيان المتكلَّف المنمق ما يعطي بعض الحقائق أكثر من قدرها وقيمتها الحقيقية، وفي ذلك نوع من الإخفاء لنواقص كثيرة.

---

(١) تعليم التفكير: ٤٥.
(٢) السابق: ٤٦.
(٣) التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: ١٨٣.
(٤) فتح الباري: ١٠: ٢٣٧.

إن ضحالة الفكر تجعل الإنسان عيياً، وإن تشدَّق، وأطلق العنان لصفوف من الألفاظ، فكلامه مثل كلام النائم!

في عهود التخلف تصبح الأفكار ضحلة، وتصبح اللغة عبارة عن قوالب فارغة جامدة محنَّطة. وهذا معنى كلام الإمام الغزالي: «من طَلَب المعاني من الألفاظ ضاع، وهلك، وكان كمن استدبر الغرب وهو يطلبه»!.

ويبين (توينبي) أيضاً أن هناك ثقافات تجعل الكلمة مصدر المعاني، بدل أن تكون الكلمات أمارات على المعاني»[1].

إن علينا ألا نسحر ببلاغة الألفاظ، وأن نحاول تجاوزها إلى المضامين التي تعبر عنها، ومحاكمتها ورؤية مدى الصدق والاتساق الواقعي الذي تحمله.

إن كثيراً من الكلام الذي يقال يصدق فيه قول القائل: «تكلم كثيراً، ولم يقل شيئاً»!.

٦ ـ المنطق التقليدي قليل الجدوى في حل مشكلاتنا المعاصرة:

حين قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ رحمه الله ـ عن المنطق اليوناني: إنه لا ينتفع به الغبي، ولا يحتاج إليه الذكي ـ نظر إلى قوله بشيء من الاستغراب، حيث كان الافتتان بالمنطق اليوناني عاماً. لكن الخبرة التاريخية واتساع آفاق التفكير وتعقد الواقع، واتجاه الأذهان نحو القضايا العملية كل ذلك نبَّه الأذهان إلى قصور مهام المنطق التقليدي في عصمة الأذهان من الخطأ، وعجزه عن المساعدة على استيعاب الواقع الموضوعي، وحل المشكلات المعاصرة.

المنطق التقليدي يسعى إلى نوع من الاتساق والانضباط الشكلي أو الداخلي بعيداً عن الواقع العملي. وهو منطق أقرب إلى أن يكون عقيماً في جوانب عديدة منه؛ فالقياس مثلاً لا يأتي بجديد؛ إذ إن نتيجته متضمَّنة في

---

(١) ﴿اقرأ وربك الأكرم﴾: ٥٨.

مقدمتيه، فحين نقول: سعيد إنسان، وكل إنسان فان، وتكون النتيجة: سعيد فان - لا نكون قد جئنا بجديد سوى تنبيه الأسماع إلى شيء من الفذلكة الذهنية!.

ويبدو أنه لا سبيل لتخليص ثقافتنا الإسلامية من الآثار السيئة للمنطق اليوناني إلا بأن نَضُخَّ في صميمها منهجيات وأفكاراً جديدة تعتمد المعرفة والتجربة والخبرة، وتقدم الحلول المرنة والخيارات المتعددة. . . .

ويمكن أن نلمس جوانب قصور المنطق التقليدي والمشكلات التي أثارها في الحروف الصغيرة التالية:

أ - المنطق اليوناني أشاع روح التحزب بين طلاب العلم؛ فهو لصرامته يقسِّم الناس إلى قسمين: مخطئ ومصيب، فإما هذا، وإما ذاك. والمناظرات التي كانت تجري بين العلماء كانت تحكم بآداب المناظرة لدى اليونان، وكان العالم الفذ يدخلها فيُغْلَب، ثم يخرج منها مهزوماً؛ لأنه لم يجب على سؤال أو سؤالين، على حين أن عالماً من الدرجة الثالثة كانت تطير بشهرته الأخبار؛ لأنه أجاب في المناظرة على سؤالين أو ثلاثة!!.

هذه الوضعية السيئة أوجدت نوعاً من التصلب الذهني، وجعله لقاء المختلفين في مسألة أشبه بلقاء الأضداد. وما كان بالإمكان بناء رؤية نسبية ومتدرجة للصواب والخطأ في ظل منطق يجعل الذهن يلتصق بقواعده كالتصاق القطار بسكة الحديد!.

ومن ذيول التصلب الفكري الظن بأن المرء إذا ثبت أن خصمه على خطأ، كان هو على صواب، مع أن هناك احتمالاً أن يكون الصواب مع شخص ثالث.

ب - المنطق القديم متغلغل إلى اليوم في علوم الأصول والعقيدة والنحو وغيرها، وقد عانت أنظمته التقليدية من صعوبات جمة في تعاملها مع (المقدار) ذلك لأن اللغة تتعامل مع طبيعة شيءٍ ما، لا مع حجمه. خذ مثلاً واحدة من دعاوي الإعلانات: «المعقمات تقتل الجراثيم». فالجراثيم تؤثر في الطعام التالف؛ لتتسبب برائحة الفم. فإذا استخدمتَ معقماً في غسيل الفم

فسيكون نَفَسك ألطف. ويبدو هذا في معايير المنطق القديم صحيحاً؛ لأن الصدق الشكلي لهذه الترابطات صحيح. إلا أن هذا خاطئ من وجهة نظر (كمية). فالمعقِّم ينحل سريعاً في الفم، بحيث لا يمكنه قتل الجراثيم إلا لمدة دقيقة واحدة، على الأكثر. أما الجراثيم فتتضاعف؛ لتعوض نفسها بسرعة!.

ولا يمكن كشف حجم الخطأ عن طريق الحجة نفسها، لكن يمكن ذلك إذا توافر لدى السامع مجال واسع الإدراك والخبرة، يتيح له الحكم على الحجة[1].

جـ - إن المنطق اليوناني كان يعادي التجربة والنزول إلى الواقع العملي بقدر ما كان يحث على تمثل المشكلات وحلها في الذهن اعتماداً على قوانين وتجريدات ذهنية ثابتة. وهذا هو الذي يشكل البنية العميقة لإعراض كثير من مثقفينا عن محاولات فهم الواقع وعلاقاته الجدلية المتشابكة اكتفاء ببعض المفاهيم والقوانين والصور المختزنة في الذاكرة. وهم حين يفكرون في الواقع لا يفكرون فيه باعتباره كائناً متغيراً نامياً قابلاً للاستيعاب عن طريق الإحصاءات والتحليلات العملية، وإنما يتعاملون معه من خلال صور ذهنية يولدونها من مفاهيم تكونت عبر النظر التاريخي، وعبر العقيدة التي يؤمنون بها، وعبر بعض التجارب الضيقة المحدودة التي مروا بها، أي يحوِّلون ما هو عام إلى شيء شخصي!.

السياسة - مثلاً - تخضع لمبادئ، وتخضع أيضاً لمصالح وتوازنات واجتهادات ومعطيات على الأرض، وكثيراً ما تفقد التناسق الشكلي، لكنها منطقية على مستوى ما، حيث إنها في جوهرها جملة من الأعمال (التكتيكية) ضمن خطة بعيدة المدى. وهذه الوضعية يستعصي استيعابها على الذين تعودوا معايشة الكتب والأفكار والأحكام النظرية؛ وفي هذا يقول ابن الأزرق: «إن العلماء من بين الناس أبعد عن السياسة ومذاهبها لأمرين:

الأول: أنهم يعتادون النظر الفكري وانتزاع المحسوسات وتجريدها في الذهن.

---

(١) تعليم التفكير: ٨٩.

الثاني: أنهم يقيسون الأمور على أشباهها بما اعتادوا من القياس الفقهي، فهم منفردون في سائر أنظارهم بالأمور الذهنية. والسياسة تحتاج إلى مراعاة ما في الخارج، ولذلك يقعون في الغلط الكثير. والعامي السليم الطبع المتوسط الكيِّس، حيث يقتصر في كل حادثة على حكمها الخاص بدون تعميم، فيكون مأموناً من الغلط»[1].

إن كثيراً من الأفكار يمكن أن يكون صحيحاً في ذاته إذا أبعدناه عن معايير الواقع الاجتماعي، ومدى تناسقها معه وخدمتها له. فرض ضرائب تصاعدية، وفتح جامعة، وإغلاق قسم، ومنع استيراد سلعة... كل هذه الأمور إذا نظرنا إليها بصورة مجردة قد تكون تصرفات صحيحة ومقبولة، لكن إذا نظرنا إليها باعتبارها إجراءً في بيئة وظروف ومعطيات محددة فقد تكون صواباً، وقد تكون خطأ بحسب المهام الإيجابية التي تؤديها في خدمة المصلحة العليا.

د ـ حَجَب الانهماك في الاحتكام إلى المنطق التقليدي كثيراً من طلاب العلم ـ ولا سيما في الماضي ـ عن الاستفادة من رؤية سنن اقتصادية واجتماعية وسياسية بثها الله ـ جل ثناؤه ـ في هذا الكون، ومن ثم فإن زاد كثيرٍ منهم من فهم السنن وإدراك الترابطات الواقعية ـ قليل ـ، لا يمكِّن من تكوين رؤية كلية للواقع العام.

إن المنطق التقليدي له دقة الرياضيات، وهو يساعد على كشف بعض التناقضات، لكنه أعجز من أن يساعدنا في حل مشكلات معقدة، تعيش تحت وطأتها أمة الإسلام اليوم؛ فهو مثلاً لا يفيدنا في الكشف عن الآثار التي تتركها الأزمات الاقتصادية في أخلاق الناس، ولا عن أثر الرفاه الزائد في الترهل الأخلاقي والانفعالي، كما لا يساعدنا في معرفة المفعول الارتجاعي، ولا التغذية الارتدادية، ولا معرفة تعدد الأسباب لظاهرة واحدة، ولا معرفة الآلية المؤازرة[2]...

---

(١) حركة النفس الزكية: ١٥٢.

(٢) انظر عودة الوفاق: ٢٣٢.

سيكون من الأمور الحميدة التوجه إلى تقليص المنطق التقليدي إلى أبعد الحدود، واللجوء إلى الاستفادة من ثراء الواقع في بناء مفاهيم جديدة ومحاولة الكشف عن الترابطات السننية بين الاتجاهات والأحداث والأشياء وملء عقول الناشئة بعلوم التفكير الجديدة.

٧ ـ انقسام الصفوة أعاق التقدم الفكري:

الإجماع على التفاصيل في القضايا الإصلاحية مستحيل، ولا سيما حين تتسع الرقعة، وتختلف الظروف والإمكانات والمعطيات. . . .

أما الاختلاف في الأصول والأسس والمحاور بين الذين يُفترض أنهم يقودون سفينة واحدة، فإنه في الحقيقة أكبر من أن يوصف بأنه مشكلة؛ لأنه أوجد مشكلات لا حصر لها، وقعد بالأمة كلها عن القيام بمهمتها في البلاغ المبين، وعن التلخص من المشكلات الكثيرة المتراكمة في حياتها.

ولا نتحدث هنا عن الانقسام بين من يرى الحلول خارج الإطار الإسلامي، وبين من يراها داخله، وإنما حديثنا عن المثقفين الإسلاميين الذين يلتقون في المنطلقات الكبرى والأهداف الإصلاحية العامة، ويتخذون من العقيدة والشريعة مصدراً للضوابط والمعايير. . .

ويبدو أن أسباب هذا الانقسام عديدة، لكن يمكن اختزالها إلى سببين:

الأول: هو الزاد الثقافي والمعرفي الذي يتشبع به كل منا، فهناك من يعرف كل شيء عن التاريخ والتراث والأحكام الشرعية، لكنه لا يقرأ أبداً في العلوم الاجتماعية، ولا يحاول إعمال الذهن في استيعاب الواقع الموضوعي، وكيفية السيطرة عليه، والتحكم به وتوجيهه. وتغلب هذه الوضعية على أكثر طلاب العلم الشرعي.

ولدينا فريق ثان، يقف على الطرف الآخر، فخبرته الشرعية والتراثية محدودة وهو مشغول بالتعمق في تخصص من التخصصات، ويعرف عن الواقع نتفاً يلتقطها من بعض نشرات الأخبار والمطالعات العامة. ويغلب هذا الشأن على كثير من أساتذة الجامعات، ومن على شاكلتهم.

وثمة فريق ثالث اتخذ من العلم مهنة وحرفة، يرتزق من ورائها، وهو يحاول القيام بالحد الأدنى من عمله الوظيفي المهني بما يضمن له الاستمرار؛ ومعظم همّه منصرف إلى تثمير الأموال وإطعام الزوجات والعيال!

الثاني: مدى الاهتمام بالشأن العام للأمة، وتوفير الشروط الموضوعية اللازمة لقيامها بحق الاستخلاف. وكثير ممن نسميهم صفوة صرف همه إلى تحقيق أو تأليف كتاب، يعلّق على نشره آمالاً كبرى، أو إقراء خمسة حاشية من الحواشي، أو بناء مسجد، أو إتقان خطبة يريد إلقاءها....

ولا يسأل هؤلاء أنفسهم عن مدى جدوى الجهود الصغرى إذا لم تكن موظَّفة في سياق عام، وفي مُناخ صحي غير مسمم ولا خانق...

وثمة فئة محدودة جداً تبصر كل أجزاء الصورة، وتعرف الأولويات... ولعل الله ـ تعالى ـ يبارك في عددها وجهدها في خدمة الإسلام وأمته.

قد أدى هذا الانقسام إلى إيجاد جزر ثقافية منعزلة، كما أوجد حيرة كبرى لدى الأجيال الجديدة التي بدأت تشعر بقسوة العيش وانسداد الآفاق وهم يجدون الكبار الذين سينيرون لهم الطريق منقسمين على أنفسهم، ويتحدث كل منهم على موجة، ليس لها جهاز استقبال عند الآخر!.

لا أريد هنا أن أقترح شيئاً لسد الفجوات وتوحيد الرؤى، لكني أعتقد أن بإمكاننا أن نفعل أشياء كثيرة، لو تملكتنا الغيرة على رفعة هذا الدين وكرامة هذه الأمة، ولو انطوت جوانحنا على مثل حرقة الأمهات!!.

٨ ـ الطريقة التي نرى بها المشكلة هي المشكلة:

إن وجود المشكلات أمر طبيعي في حياة الناس، وربما يؤدي إنعام النظر إلى الاعتقاد بأنها نعمة؛ حيث تجدد روح المقاومة، وتحفز آليات العمل والحركة؛ ولكن تراكم المشكلات دون حلول جيدة يؤدي إلى إطفاء فاعلية الإنسان، وجعل الشروط الموضوعية للأداء العالي المطلوب مفقودة.

إن أهم مجال يتجلى فيه إبداع العقول البشرية هو الحلول للمشكلات

والمصاعب المختلفة التي تولدها حركة الرقي والصراع في سبيل البقاء. كما أن أهم مراحل حل أية مشكلة يتحدد في طريقة رؤيتنا لها ومدى قدرتنا على تحديدها وتوصيفها بدقة. وإن كل مشكلة يتم تحديدها بشكل جيد، هي مشكلة محلولة جزئياً. لذا يمكن القول: إن أشد المعاناة لا يتجلى في طبيعة المشكلة، وإنما في طريقة رؤيتنا لها، وتعاملنا بالتالي معها.

جرت العادة ألا ننتبه إلى مشكلاتنا إلا بعد فوات الأوان، وإذا رأينا من ينبهنا إليها قبل الإحساس بآلامها وصفناه بأنه يبالغ، أو أنه متشائم!.

وحين نرى رجلاً فذاً متفوقاً، فإننا نصب كل مشكلاتنا بين يديه، ونطلب لها حلولاً سريعة؛ ولكن التجربة أثبتت أن الحلول العاجلة لمصاعب متأسنة، لا تحلها، وإنما تساهم في طمسها، ثم تظهر أعراض جديدة؛ لأن جوهر المشكلة لم يحل، وإنما شُوِّهت معالمه!

قصتنا مع محاربة الأعراض، وقطع الأوراق، وترك الجذور لتنبت من جديد قصة طويلة، وما ذاك إلا لأن رؤية الجذور تحتاج إلى رؤية ثاقبة، تتجاوز حواجز كثيرة، كما تتجاوز بعض أنواع الأشعة اللحم والدم والعصب إلى العظم!

تمزق العالم الإسلامي - مثلاً - ليس هو المرض، وإنما هو من أعراض المرض، ولو جئنا بمادة لاصقة، وحاولنا جعل عدد من المجتمعات والدول الإسلامية شيئاً واحداً لاكتشفنا سريعاً أن ذلك العمل إن نجح فسيكون نجاحه شكلياً، ولو شكَّلنا إطارات وحدوية في ظروفنا الراهنة، فسنجد أنها محدودة الكفاءة، ولا تتناسب أبداً مع ما أقامه غيرنا. فالتوحد لا يتم إلا بعد وجود قدر من الاستقلال السياسي والوطني، كما أنه لا يتم إلا بعد الاتفاق على المحور الذي ستدور في فلكه الدول المتحدة، هل هو ديني أو قومي أو إقليمي أو اقتصادي...

التبسيط معضلة أخرى نعاني منها في طريقة تصور المشكلات؛ وقد قرأت بحثاً لأحد الكتّاب المسلمين، قسَّم فيه العالم الإسلامي إلى ستة

أقاليم، وقد استخدم في تصوير إمكانات التعاون داخل كل إقليم أرقاماً كثيرة مفيدة ومعلومات قيمة وعلى سبيل المثال، فإنه ذكر أن إقليم (السند) يضم كلاً من أفغانستان والبحرين ودولة الإمارات العربية وإيران وباكستان وقطر. وأخذ الرجل يصور لنا الثروات والإمكانات ودخل الفرد في كل منها... على غرار ما تحسب أسرة، تعيش في منزل واحد دخلها الشهري ومصاريفها اليومية، وما يخص كل فرد منها من ذلك[1]!!.

ولست أدري كيف يمكن أن تشكل دول متفاوتة تفاوتاً عظيماً في لغاتها وثرواتها وعدد سكانها ومساحاتها إقليماً واحداً!.

كان من المنطقي ـ ما دمنا ننظِّر ـ أن تكوِّن بنغلادش وباكستان وإيران وأفغانستان إقليماً واحداً، وأن تكوِّن دول الخليج إقليماً ثانياً، ودول المغرب العربي إقليماً ثالثاً وهكذا....

وهذا في الحقيقة ليس هو الخطأ الأساسي، إنما يكمن الخطأ الأساسي في تصور الكاتب أن العالم الإسلامي بمنزلة قطعة من العجين يمكن أن نشكِّلها كيف شئنا!!.

إن إدراك طبيعة أية مشكلة لا بد أن يستند إلى فلسفة ورؤية خاصة محددة للحياة بأسرها؛ بمعنى أن تكون آليات وإجراءات تحديد المشكلات ومعالجتها جزءاً من فهم واضح لطبيعة الترابطات والتداعيات القائمة بين الداخل والخارج، والمادي والمعنوي، والماضي والحاضر، والعام والخاص.... وإلا فإن من السهل أن نُصدر عدداً من التوصيات والمواعظ دون أن نشعر أن شيئاً ما قد تحقق.

إن بإمكاننا أن نذكر المزيد من المشكلات والانحرافات الفكرية، لكن الحرص على ألا يتضخم الكتاب، يُلجم القلم عن التوسع. والله حسبنا.

---

(١) انظر الوحدة الإسلامية: ٤٣٥.

الفصل الثالث

في التنمية المعرفية

(١) تنمية المعرفة ضرورة حيوية.

(٢) أية معرفة ننمي؟.

(٣) كيف ننمي المعرفة؟.

(٤) عقبات في طريق تنمية المعرفة.

(١) تنمية المعرفة ضرورة حيوية

لم تعرف البشرية في تاريخها الطويل ديناً أو فلسفة أو مذهباً، أعطى كل هذا القدر من الاهتمام والاحترام لمسألة العلم ـ كدين الإسلام. وأدبياتنا في هذا أوضح من أن تحتاج إلى شرح أو تذكير. وما ذلك إلا لأن الإنسان لا يكتمل، ولا يترقى في مدارج الإنسانية إلا بمقدار ما يتعلمه، وما يستفيده من أنواع الإدراك والخبرة في جوانب الوجود المختلفة.

لم يعد ما لدى الإنسان من ذكاء واستعدادات فطرية كافياً للعيش في هذا الزمان المعقَّد المتحول. وقد كان في إمكان الأمي فيما مضى أن يعيش بكرامته، وضمن الحد المقبول من الفاعلية والسيطرة على شؤون الحياة المختلفة؛ لأن الوسط الذي يعيش فيه كان كذلك. أما اليوم فإن طفولة الإنسان صارت هي الأصل، وبالإمكان أن يصبح المرء هرماً، دون أن يكتسب النضج الكافي للعيش الجيد في هذا الزمان المنقطع النظير!.

ما يحتاجه الإنسان من زاد معرفي ليعيش حياة طيبة يختلف باختلاف العصور وسيظل باستمرار شيئاً نسبياً. وفي ظل التواصل الكوفي الذي تتصاعد وتيرته على نحوٍ مدهش صارت أهمية المعرفة ضعيفة الارتباط بالمكان، حيث لم يبق هناك عوالم مختلفة، وإنما عالم واحد: أجزاء منه متقدمة، وأجزاء أخرى متخلفة. وكل تقدم معرفي أو حضاري تحرزه الأجزاء المتقدمة سيزيد من صعوبة الحياة في الأجزاء المتخلفة، لكن ذلك قد يتم بصورة غير منظورة.

ولا تظهر انعكاسات الفجوة بين من يعلم وبين من لا يعلم إلا عندما يحاول هذا الأخير حل مشكلاته المتراكمة؛ آنذاك فقط تدرك الأجزاء المتخلفة

مدى ارتهان إرادتها ومصيرها في أيدي الذين يقودون الحضارة، ويصنعون المعرفة!.

إن من المؤسف حقاً أن تتحول أمة العلم والبحث والتجربة إلى أمة تغلب عليها الأمية الهجائية والأمية الثقافية، وأن تحتاج إلى من يشرح لها مدى حاجتها إلى العلم مع أنها تتلو كتاب ربها الذي يمجد العلم، في كل آن!.

إننا على قناعة متزايدة أن الاستثمار في العلم هو أفضل أنواع الاستثمار، وأن المخ البشري هو منحة الله ـ تعالى ـ العظمى للفقراء الذين حُرمت أرضهم من الموارد.

ويتعاظم الاعتقاد بأن التقدم العلمي ومحاولة دمجه في الجهود البدنية قد يكون هو الفرصة الوحيدة أمام الفقراء للخلاص مما هم فيه.

إن خلود الرسالة وارتباطنا المصيري بها، يجعلنا في حاجة مستمرة إلى الاجتهاد والتدبر وتوليد الأفكار من النصوص والأصول، إلى جانب توظيف المبادئ الإسلامية، وإيجاد الشروط الموضوعية لعملها في حياة الناس. وهذا كله يحتاج إلى وعي تام، يستند إلى العلم والمعرفة والخبرة الحسنة. ولا يخفى أن ساحات الحياة المختلفة مزدحمة بالمذاهب والأفكار والخبرات ذات الطابع العلماني البحت مما يجعل دعاة الإصلاح يواجهون منافسات حادة، ولا بد لهم من أن يكونوا على مستوى المواجهة. والمعرفة والرؤية الشاملة هي عتادهم الأفضل في ذلك.

وإني لأذهب إلى أبعد من ذلك إذ أقرر أن استيعاب الإسلام الحضاري يحتاج إلى درجة من التثقف والفهم والتمدن، ومن ثم فإنه لم يكن من المستغرب أن تنتشر الصحوة الإسلامية الحديثة في المدن أكثر من القرى، وفي قطاع المثقفين أكثر من قطاع العمال أو التجار.

إن المعرفة هي السبيل الأكثر نجاحاً اليوم لاكتساب منظور واسع للقضايا المختلفة، من خلال إدراك خصائص الشؤون المختلفة وعلاقاتها.

ولا يستطيع المرء أن يشعر بالقدرة على الاختيار إلا من خلال العمق المعرفي بكل الخيارات المطروحة على الصعد النظرية والعملية؛ وإن الذين يشعرون بالانحسار والحيرة هم الذين لا يعرفون إلا قليلاً، فيخشون كل شيء، ويدفعهم الاحتياط الزائد إلى موقف (لا أدري) مُبهَم ومغلَق. وفي هذا وذاك يقول - جل وعلا -: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2]. وقال جل وعلا: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[3].

إننا نرى اليوم بأم أعيننا أن الذين بأيديهم نواصي المعرفة هم أكثر الناس قدرة على التصرف في الطبيعة، وأعظم قدرة على إبداع النماذج وتطويرها، فقد استطاع العلماء أن يصنعوا من عناصر الأرض التي تزيد على المئة بقليل أكثر من مليوني نوع من المصنوعات!

إن العلم يكشف القوانين، ويطلعنا على صرامتها، لكنه في الوقت نفسه يعلمنا كيفية الخلاص من ضروراتها ومحدوديتها، وذلك من خلال سنة (المدافعة) التي أوجدها الخالق - جل وعلا - في هذا الكون، ومن خلال ما هو معروف من أن الشيء يطرأ على خصائصه تعديلات وتغيرات حينما يوضع في سياق جديد أو تركيبة مختلفة.

إن كثيراً من النزاعات العالمية ينشأ من خلال عجز مثقفي العالم عن رؤية ثقافة الآخرين من وجهة نظر أصحابها، والعجز عن رؤية ثقافتهم الخاصة من وجهة نظر مغايرة، مع أن الدمج بين رؤيتين سيخفف من التوتر، وسيثري كلتا الثقافتين. ولا يتم شيء من ذلك إلا بالمعرفة الموسوعية الرصينة.

---

(١) سورة سبأ، آية: ٦.
(٢) سورة النمل، آية: ٤٠.
(٣) سورة يونس، آية: ٣٩.

وإن مما لا يخفى أن الجهل المتبادل بحقيقة ما لدى الجماعات والحركات الإسلامية المختلفة ـ أدى إلى تدابرها وتناحرها واستهلاك كثير من جهودها في رد بعضها على بعض. وكان بالإمكان الصيرورة إلى التسامح والتفاهم لو كانوا يملكون رؤية حضارية أوسع من أطرهم العملية والاجتهادية جميعاً، لكن ضحالة المعرفة تأبى إلا أن تتجلى في صورة سوء الفهم وتزكية النفس والبَرَم بالمخالفين وتتبع سبل الفتن والمعارك التافهة!!

إن أسلحة العلم اليوم هي الأسلحة الأشد فتكاً، حيث صار من الممكن تحويل العدو إلى تابع مجنَّد لخدمة أغراضك بدل أن تتخلص منه بطريقة ما.

ومما كان يقال فيما مضى: الشرقي إذا أراد الخلاص من شخص شدخ رأسه، والغربي إذا أراد الخلاص من شخص فتح له كلية!

ولم يكن هذا القول صادقاً في يوم من الأيام صدقه في هذه الأيام؛ ففي ظل استهجان الصراعات المكشوفة، وارتفاع نغمة (السلم العالمي) أصبحت المعرفة هي السلاح الأساسي المستخدم في السيطرة على المستضعفين الذين لا يعرفون عن كل شيء إلا القليل!

بعد أن تطورت تقنيات التحكم عن بُعد وتقنيات الاتصالات والهندسة الوراثية والأقمار الصناعية التي تصور كل شيء[1]. صارت مصائر الشعوب المتخلفة مرتبطة بغيرها من الدول المتقدمة، حيث إنك لا تجد البحوث الراقية إلا في جامعاتهم، ولا تستطيع تأهيل كفاءات متقدمة إلا عندهم، ولا تستطيع الكشف عن الثروات المخبوءة في أرضك إلا بوساطة عتادهم...

وقد سبَّب ذلك نوعاً من الاستخذاء النفسي لدى الشعوب التي لا تتعامل مع المعرفة إلا بمقدار الضرورة، وبرؤوس الأصابع!!.

وقد علمتنا التجربة أن العدو الجاهل ينفخ فيك روح المقاومة

---

(١) يقولون عن القمر الصناعي الإسرائيلي (أفق ـ ٢): إنه أنسب أداة لرصد ما يدور في الأقطار العربية في وقت السلم!.

والاستبسال من خلال حماقاته وقصر نظره؛ فهو يجدد دماء الشباب في عروقك من حيث أراد هزيمتك! أما العدو المتعلم فإنه يصطادك بشباك من حرير ويجعلك تخدمه، وأن تشعر له بالامتنان!!

وويل للذين يريدون إسقاط طائرة بمسدس، والذين يريدون نشر أفكارهم عن طريق نشرة سرية، وعدوهم يستخدم البث الفضائي!!.

إن العناء الذي يكابده رواد المعرفة لن يكون بدون ثمن؛ فطلب العلم ـ إذا خلصت النية ـ أفضل من النوافل، بالإضافة إلى أن المعرفة أكبر مصدر من مصادر المباهج الروحية، كما أنها مصدر مهم للأمن النفسي؛ فهي تؤمن نوعاً من الطلاقة للروح والمتعة للعقل، وكم تكون سعادة العالم كبيرة حين يلوح له مخرج من نفق مظلم، أو بداية طريق ظليلة في صحراء مهلكة؟!

ومهما ذكرنا من وصف السعادة الغامرة التي تنشرها المعرفة الأصيلة فإن الحقيقة ستظل أكبر؛ فهذه الملذات تتأبى على النعت؛ إذ ليس لها سوى الذوق إفشاء!!.

(٢) أية معرفة ننمي؟

لا بد من القول ابتداء: إن مجتمعاتنا بحاجة ماسَّة إلى نوع من التوسع المعرفي الرأسي والأفقي؛ حيث إن لدينا أعداداً كبيرة من الأميين الذين لا يقرؤون، ولا يكتبون، كما أن لدينا تسرباً عالياً من المدارس في بلدان كثيرة. وأكثر الذين يقرؤون ويكتبون ليس لديهم اهتمامات ولا عادات قرائية، فمعرفتهم بالقراءة والكتابة أشبه بسيف لم يفارق غمده في يوم من الأيام!.

ولدينا مشكلات معرفية على مستوى المثقفين وطلاب العلم..

لا يعني كل هذا أن المعرفة لدينا في فوضى تامة، فالرقي المعرفي شيء نسبي، والمعرفة نفسها تتأثر تأثراً بالغاً بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في أي مجتمع، لكن علينا في كل الأحوال أن نسعى إلى ترسيخ مفاهيم ثقافية[١] ومعرفية، ترقى بالفرد والمجتمع، وتساعد على تلبية الشروط الموضوعية للعيش في عصر يشهد انفجاراً معرفياً هائلاً. وهذا السعي يجب ألا يتوقف؛ لأنه لن يبلغ مداه في يوم من الأيام، حيث تفرز البنى المعرفية الموجودة في أية ثقافة نقائصها وعقابيلها على نحو مستمر.

وهذه أهم السمات التي نرى أنه يجب توفيرها في معرفة المستقبل.

---

(١) الثقافة هي ذلك الجو من العادات والأذواق والقيم التي تؤثر في تكوين شخصية الفرد، وتحدد دوافعه وانفعالاته وصلاته بالناس والأشياء. أما العلوم فإنها ذلك التعبير المنظم عن ما يدركه الإنسان في مجالات الحياة المختلفة. وعلى هذا فإن المعرفة جزء من الثقافة، أو الجزء الأكثر تنظيماً ووضوحاً فيها. وفي كثير من الأحيان تُطلق كلمة (ثقافة) ويراد منها المعرفة والعلم، من باب تسمية الجزء باسم الكل.

١ ـ معرفة مشدودة إلى الأصول:

إن هناك قدراً من المعرفة يُعدُّ ضرورياً لصحة إيمان كل مسلم، وهناك قدر ضروري لاستقامة عباداته ومعاملاته وعلاقاته وتحديد أهدافه الكبرى. وهذا القدر ضروري لكل مسلم، مهما كان تخصصه، ومهما كان عمله... والمفترض أن التربية البيئية بالإضافة إلى المناهج الدراسية توفر هذا اللون من المعرفة قبل الانتهاء من المرحلة الابتدائية أو بعدها بقليل.

ثم باعتبارنا أمة مسلمة تدين لله ـ تعالى ـ بالعبودية، فإن من المهم ألا يسود فينا أي لون من ألوان المعرفة التي تخدش الانتماء لهذا الدين، أو تصطدم بإطار من أطره العامة، أو تشوه الرؤية العامة للأمة في تعاملها مع بعضها أو في إدراكها لواجباتها وأهدافها....

أنا لا أطلب من مدارسنا أن تلقن الطلاب الخلافات الفقهية، ولا المناظرات العقدية والفلسفية، ولا أخبار الفرق والمذاهب التي بزغت في تاريخنا، لكنني أطالب بأن يتم زرع حب الله ورسوله في قلوب الناشئة، وتوقير الشريعة، وأهمية الالتزام بها، والانتماء لهذه الأمة، وضرورة السعي الحثيث نحو القيام بالواجبات والكف عن المحرمات...

إن عصرنا يتطلب الكثير من المعارف، ومن ثم فإنني أدعو إلى تعميم معرفة شرعية وكونية منسجمة ومتوازنة وعملية، لا تهتم بالكثير من التفاصيل، وتركز على الأصول والمبادئ والأحكام الكبرى؛ لا تأسر العقل في إطلاقاتها، لكنها لا تؤدي بالناشئة والشباب إلى الضياع، وفقد الاتجاه.

وهذا كله لن يتم إلا من خلال إثراء الساحة العلمية بالإنتاج المعرفي المتميز، في شتى العلوم؛ فالأجود يحاصر الجيد، والطيب يكشف عورات الخبيث، ويطرده.

إن الأصول التي يجب أن تدور معرفتنا في فلكها لا تقتصر على الأصول العقدية والتشريعية، وإنما تتسع لتشمل الأصول والفروض الحضارية التي تساعد أمة الإسلام على الالتزام بدينها وعيش عصرها بكرامة وكفاءة،

من نحو تحقيق العدل والحرية وكرامة الإنسان وتكافؤ الفرص والإعلاء من شأن العمل والإبداع والاعتزاز بالانتماء الإسلامي والتحصُّن ضد الاستلاب، والاقتداءِ بالغرب، والانحدار نحو لهوه ومجونه، وما شاكل ذلك مما هو أساسي ومحوري في تبلور شخصية الأمة، وتحقيق ولايتها على نفسها...

إن الأصل لم يكن أصلاً إلا ليكون منارة يُهتدى بها، وإلا ليكون مطلقاً، تُنسب إليه الفروع، وتقاس عليه المستجدات، وتعتبر به الطوارئ والمتغيرات. والدوران في فلكه يعني الإحساس القوي به واستهدافه والتضحية بالفرعيات من أجله، وإيجاد الوسائل لتحقيقه....

٢ ـ معرفة منصفة ومتوازنة:

التراكم المعرفي المتسارع سوف يوسع دائرة الاجتهاد، ويثري الساحة المعرفية بالكثير من الأفكار والآراء والمذاهب. وكلما كثرت الاجتهادات كان إمكان الانتقاء والحذف والتعارض والتجاهل والاختلاف أكبر.

وهذا يلقي علينا أعباء صياغة معرفة تتسم بالتوازن والإنصاف.

أما التوازن فإننا نعني به عدم التركيز على جانب معرفي وإهمال الجوانب الأخرى؛ إذ كثيراً ما يحدث أن يركز بعض مثقفينا على النقل المحض وتكديس النصوص والنقول والأخبار، دون محاولة فقهها والاستنباط منها، وتوظيفها في رؤية حضارية معاصرة...

وفي الوقت نفسه نجد من يعتمد على العقل والتجربة ومعطيات الدراسات المعاصرة في تكوين الرؤى والأحكام، دون أية محاولة لدعمها بالنصوص، ودون السؤال عن مدى ملاءمتها لأطر الشريعة ومبادئها الأساسية.

بعضنا يعتمد في توجهه الثقافي والمعرفي هيكلاً معرفياً محلياً بحتاً، ولا يحاول أن يطعِّم ثقافته بخبرات ومعارف الآخرين، فيضيق على نفسه واسعاً، ويحرم فكره من كثير من التفتح والتجدد. ونجد في جوارهم من انغمس في الثقافة الغربية، وظن أنه استخرج منها الدرر، ونوادر الأفكار مع

أن كثيراً من ذلك موجود بصورة واضحة في أدبياتنا وتراثنا!.

هذه الوضعية أوجدت نوعاً من الخلل في نتاجنا المعرفي، كما أوجدت نوعاً من الاضطراب في موقف القراء والمعلمين؛ وتم تصنيف المفكرين والعلماء على أساس إنتاجهم، وأقبل على كل طائفة نوع من الناس، وساد التحزب والتناحر والاستخفاف المتبادل!

نحن بحاجة إلى معرفة تستفيد من الخبرة الإنسانية كاملة مع نوع من الانفتاح وممارسة النقد وفق معايير شرعية وحضارية ومصلحية.

وممارسة النقد لما عندنا، ولما عند غيرنا قد تزعج بعض الناس إلى درجة الاعتقاد بأنه نوع من الهدم والتحطيم؛ وهم يميلون إلى ثقافة وفاقية مسالمة، تمسك بالعصا من الوسط في كل موقف؛ مع أن النقد يبلور وعي الثقافة بنفسها، وهو على كل حال لا يؤذي إلا الحالات المريضة!

إن فقد التوازن المعرفي، مسؤول عن نشأة مذاهب فكرية ومعرفية عديدة، ما زلنا نعاني منها إلى اليوم. فالتركيز على الفروع وبعض الشكليات والتدقيقات دفع بعض الصوفية إلى تجاوز المعايير الشرعية النصية كلها، واعتماد معايير ذوقية ووجدانية، كثيراً ما تكون بعيدة عن أي ضابط شرعي. والتأكيد على النقل والنصوص دون إعمال كاف للعقل في الفهم وتلمس مقاصد الشريعة العامة ـ دفع فريقاً من الناس (المعتزلة) إلى التعويل على العقل والاستخفاف بأمر النقل في مواضع كثيرة[١].

وهكذا نتأرجح بين أفعال وردود أفعال، وننتقل من شطط إلى آخر نتيجة غياب الرؤية المعتدلة والبعيدة المدى.

ونقصد بالإنصاف أن نكون صرحاء في نسبة الفضل لأهله، ولو كان عدواً لنا، ولو كان ذلك سيُضعف موقعنا إمامه. ولا ينبغي أن يمنعنا جحود العلمانيين أو الغربيين من أن نشيد بالأفكار والإسهامات الممتازة، كائناً من

---

(١) انظر قضايا التجديد: ١٠٣.

كان مصدرها؛ فالمسألة ليست مسألة مصلحة، وإنما مسألة مبدأ.

ومما علمنا ربنا ـ جل وعلا ـ في الكتاب العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾[1].

إن مما يساعدنا على إنصاف الثقافات الأخرى أن نبحث في الخصائص المشتركة بين المعارف والمذاهب والنظريات والأفكار المختلفة والمتضادة، وبمجرد الحصول على أرضية مشتركة فإن الخلاف سوف يصبح نسبياً، وسينفتح باب للنقد والحوار والترجيح، وستزول أوهام كثيرة أدت إلى التقاطع والتدابر دون مسوِّغ مشروع في كثير من الأحيان.

إن من المؤسف أن بعض الطيبين يبحث بجدية نادرة عن أوجه الخلاف بيننا وبين غيرنا، وينفخ فيها، حتى يجعل منها حواجز لا يمكن تخطيها أبداً، ويظن أنه بذلك يسعى إلى التميز. وبما أننا أصحاب رسالة ومنهج فإن الحدود والحواجز تؤذينا أكثر من أن تنفعنا.

ومع أنني ضد تمييع الأمور إلا أنني أعتقد أن تحويل الجزئيات والمسائل الاجتهادية والخلافية إلى محاور للمفاصلة والمناضلة، لن يخدم منهجنا، ولا مجتمعاتنا، وإنما سيستهلك الطاقات، وسيجعل منشار المفاصلة لن يقف عند حد من الحدود، إلى أن يصبح أتباع الفكرة الواحدة والمذهب الواحد أشلاء ممزقة!

وليس من النادر أن يدمر الغلو وضيق الأفق مصادره وحماته، بل ذلك سنة الله في الذين خلوا من قبل!!

٣ ـ معرفة تجريبية:

دفع المنهج الإسلامي الأصيل بالإنسان إلى محاورة الطبيعة، وأوجد لديه العقلية الواقعية العملية؛ ومن ثم فإنه حصل لدينا قبل كل الأمم تقدم

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨.

علمي ضخم في مجالات العلوم والكيمياء والفيزياء والفلك والطب. . . لكنني أزعم أن السابقين لم يستوعبوا بشكل جيد مرامي المنهج الإسلامي في الحث على السير في الأرض، وإجراء التجارب، واستخلاص المعرفة منها، ومن ثم فإن التراجع عن ذلك المنهج كان سهلاً.

وبسبب قلة الدراسات التي تستهدف معرفة سنن الله ـ تعالى ـ في الأنفس والمجتمعات كانت خبرة السابقين بالضروريات والحاجيات والتحسينيات ليست على الدرجة المرجوة من النضج والكمال؛ مما جعل أخذها بعين الاعتبار عند الربط بين النصوص ومقاصد الشريعة الكلية ضعيفاً.

وقد أدى هذا وذاك مع أسباب فنية أخرى إلى جمود الواقع الحضاري ثم تدهوره، وصعوبة النهوض به بعد ذلك.

لا أدري اليوم لتحريك المعرفة لدينا، وفتح نوافذها للتغيير والتجديد سبيلاً سوى الاتجاه نحو التجربة واستقراء الواقع عن طريق الإحصاء والمقارنة والاهتمام بجزئيات الوقائع وربطها بأصولها، ثم استخلاص الأحكام والنتائج، وذلك في سبيل فهم أفضل للسنن، وفي سبيل تلمس وجوه الانسجام بين الكتاب المقروء (القرآن) والكتاب المفتوح (الكون) بكل ما فيه. . .

إن من أسباب عزوفنا عن التجربة ومحاورة الطبيعة أن التخلف يمد الناس عادة بأجوبة وهمية، ويُضعف شهيتهم نحو التساؤل!

لا ريب أن كثيراً من التجارب يحتاج اليوم إلى عتاد ومواد ومال وصبر. . . وكثير من هذا ليس متوفراً لدى الشعوب الإسلامية على نحوٍ كاف؛ لكن المجال الأهم لفهم السنن هو السلوك الإنساني على صعيد الفرد، وعلى صعيد الجماعة. والدراسات والتجارب في هذا المجال تحتاج إلى باحثين أكثر من أي شيء آخر، وهم لدينا كثر؛ وبإمكانهم أن يكشفوا عن الكثير إذا توفرت القناعة بأهمية ذلك.

إنه إذا كان المطلوب من المعرفة أن تنهض بمجتمعاتنا، وتخدمها فإن عليها أن تتجه إلى الحياة، تسبر أغوارها، وتفهم نظمها، وما فيها من اعتماد

متبادل وتكيف ومرونة وصرامة وإمكانات للمناورة والمحاورة.

٤ ـ معرفة متجددة:

المعرفة اليوم أهم الأسلحة المستخدمة في الصراع الأممي؛ فعن طريقها يتم تطوير كل الأسلحة الأخرى، وعن طريقها تتم السيطرة على عقلية الخصم واحتلال نفسيته وروحه. ولم يسبق للمعرفة أن تطورت في أي عصر من العصور بالسرعة والصورة التي تشاهَد بها اليوم. وصارت الشيخوخة تصيب المعلومات، وهي في صباها، وذلك بفعل الإنتاج المعرفي الهائل، والتقنيات الجديدة المستخدمة في صناعة المعرفة.

هناك دراسات عديدة حول تحديث المعلومات وتقادمها، وكلها ينطق بقصر عمرها وتقلص مدة صلاحيتها. وتفيد بعض التقديرات أن نحواً من ٩٠٪ من جميع المعارف العلمية قد تم استحداثه في العقود الثلاثة الأخيرة. وسوف تتضاعف هذه المعارف خلال (١٢) سنة[١]!

ويقول أحد الباحثين: إن على المتخصص المعاصر أن يضع في حسبانه دائماً أن نحواً من ١٠ ـ ٢٠٪ من المعلومات التي في حوزته قد شاخ، وعليه أن يجدده. ويرى عدد من الباحثين أن أعراض الشيخوخة تعتري المعلومات بنسبة ١٠٪ في اليوم بالنسبة للجرائد، و١٠٪ في الشهر بالنسبة للمجلات و١٠٪ في السنة بالنسبة للكتب[٢].

إن تقادم المعلومات يأخذ أشكالاً مختلفة، فتارة يتجلى في ظهور زيف المعلومات أو عدم دقتها، وتارة يتجلى في عدم ملاءمتها للخطط الجديدة، وأحياناً بتحول الاهتمام عنها؛ لأنها لم تصبح ذات قيمة في البناء المعرفي نظراً لفرعيتها أو هامشيتها، أو وجود ما يشغل الأذهان وصنّاع المعرفة عنها.

هذه الوضعية شملت كل أنواع المعرفة التراثية والمعاصرة. ولا ريب أن

---

(١) نصر بلا حرب: ٣٢٥.

(٢) القراءة أولاً: ٧١.

المعلومات الأساسية في كل فن تستعصي على التغيير السريع، لكن ليس هناك أية وسيلة لصونها من القراءة الجديدة، والتي قد تغير الكثير من دلالاتها ومعطياتها. كما أن توظيفاً جديداً للمعلومات القديمة قد يغير في النتائج المستقاة منها.

هذا كله يعني أن من الواجب على كل واحد منا أن يتابع الاطلاع والقراءة المنظمة الواعية؛ حتى لا يشعر في يوم من الأيام أن المعلومات التي لديه صارت بمثابة (نقود) سحبت من الأسواق، ولم تعد صالحة للتعامل!.

إنني من المؤيدين لكل ما يمكن أن يؤدي إلى تحديث المعرفة لدى الناس، وإلى كل ما يتيح لهم الاطلاع على الجديد في كافة فروع العلم ومجالات الحياة. وقد يكون من الأطر والآليات التي تخدم هذا الهدف إحداث فصول إضافية في الكتب المدرسية، تتناول الأرقام والأخبار والأفكار الجديدة الطارئة على المادة التي يتناولها الكتاب؛ وإن كانت ما زالت في حيز الظني وغير المستقر. ويجب أن تقدم للطلاب على أنها كذلك، من أجل توسيع آفاقهم، وزرع حب التشوف إلى الجديد في أنفسهم.

ويمكن لأجل هذه الغاية إقامة دورات تنشيطية لمدرسي المراحل التعليمية تتضمن على نحو رئيس تقديم الأفكار والمعلومات الجديدة التي يقومون بتدريسها. . . .

إن البنية المعرفية والذهنية لكل واحد منا تأخذ في التآكل إذا لم يستطيع أن يجددها عن طريق المعلومات والخبرات الجديدة، على ما نراه لدى الذين بينهم وبين الجديد نوع من العداء!

٥ ـ معرفة لا يختلط الظن فيها باليقين:

المنهج القرآني صارم في ضرورة الفصل بين القطعيات والظنيات، بين ما يشاهده المرء وبين ما يتناقله الناس، بين ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً من الفهم وبين ما يحتمل وجوهاً عديدة.

فقد نهى الله ـ سبحانه ـ أهل الكتاب عن الإفاضة في الجدل دون علم حقيقي حيث قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥﴾[1].

ونهى المؤمنين عن استخدام الظن في بناء المعلومات والمواقف حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[2].

إن من أهم مقاييس التخلف المعرفي فقدَ الناس للدقة، ولحاسة التفريق بين القطع والظن، وما هو من قبيل الوهم، بين الموضوعي والذاتي، بين ما هو من قبيل التحليل الشخصي وما هو من قبيل الأخبار المتداولة...

إن مفردات اللغة وتراكيبها ـ بصورة خاصة ـ ظنية الدلالة، وتتيح وجوهاً عديدة من الفهم، أو تفيد علماً ليناً يحتمل التأويل بحسب عقلية المتلقي. وبسبب ضعف الخبرة و(الطيبة الزائدة) قد نقف مع الدلالات المباشرة للألفاظ، ونتلقاها على أنها المفهومات الوحيدة، ثم نبني عليها مواقفنا وردود أفعالنا.

وقد بذل علماء أصول الفقه ـ على نحو خاص ـ جهوداً مشكورة في سبيل بلورة بعض القيود التي تحول دون الاندفاع نحو الفهم السطحي لظاهر ما نسمع فإذا كان النص قطعي الثبوت، قطعي الدلالة؛ فإنه يفيد القطع واليقين[3].

الحكم العقلي الثابت يفيد اليقين أيضاً عند المسلمين وعند غيرهم. أما الإجماع فقد يكون قطعياً، وقد يكون ظنياً، والقياس لا يكون إلا ظنياً[4].

وقد حاول بعض الفلاسفة تحديد بعض السمات التي يجب أن تتوفر

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٥.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٢.
(٣) هناك تفصيل وخلاف في إفادة أخبار الآحاد للعلم، وفيما إذا كان الظني يندرج تحت أصل قطعي. انظر الموافقات ٣:١١.
(٤) السابق...

في المعرفة حتى تكون يقينية، وذكروا من تلك السمات:

١ ـ أن تكون واضحة صادقة متميزة.

٢ ـ أن تكون متوافقة مع الوقائع الموضوعية.

٣ ـ أن تساعد في الاستشراف والتنبؤ وإجراء البحوث المستقبلية.

٤ ـ أن تمكن صياغتها في قوانين عامة.

٥ ـ أن تكون متسقة ومنطقية وقابلة للاختبار(١).

هذه السمات مهمة في الوقوف على المعرفة اليقينية، وإن كانت ليست قاطعة في دلالتها. كما أنه يبقى (تحقيق المناط) كما يقول الأصوليون، أي متى تكون معرفةً متميزة أو متسقة، أو مما يساعد على التنبؤ....؟

وفي ظني أن نوعية التركيب العقلي، وبعض قوانين الفكر بالإضافة إلى وعي المجتمع وخبرته هي الضمانات الحقيقية للتمييز بين أنواع المعرفة ومستوياتها.

لا ينبغي أن يُفهم من هذا أننا ضد الظن العلمي والحدس والتخمين، واستشراف حدود المعرفة اليقينية والمغامرات العلمية، فهذه كلها ضرورية من أجل إثراء عمليات التحليل المعرفي، وفتح آفاق جديدة للخبرة المتجددة، لكن المحظور دائماً هو الخلط بين الأمور، ووضع الأشياء في غير موضعها الصحيح، وذلك باستيلاد نتائج قطعية من مقدمات ظنية، أو بناء مواقف مترددة على معطيات يقينية وحاسمة.

٦ ـ معرفة موسوعية عبر التخصص:

إن العيش في مجتمع يولِّد المعرفة، وإن معالجة مشكلات الحياة تحتاج أيضاً إلى المعرفة. والأصل أن تكون هناك معرفة واحدة تمتزج فيها

---

(١) علم اجتماع المعرفة: ١١.

الإنسانيات بالطبيعيات والأخلاقيات والتطبيقات. . . . لكن الذهن البشري لا يستطيع أن يستوعب المعرفة دون تقسيمها إلى تكوينات متقاربة ومترابطة ومتسلسلة؛ ومن ثم فإن تقسيم المعرفة هو تقسيم اصطناعي أملته ضرورة الاستيعاب والفهم. ومن هنا فإني أعتقد أن التقدم المعرفي الصحيح ينبغي أن يقوم على نوع من إعادة تركيب المعرفة حول محاور محددة، ولنا مع هذه السمة الوقفات التالية:

أ ـ الوضعية الحالية للسواد الأعظم من القراء عندنا هي الاطلاع غير المنظَّم على عدد واسع من العلوم والمعارف؛ فترى الواحد منا يقرأ في اليوم الواحد في علوم متعددة، وهو قلما يقرأ كتاباً إلى نهايته! وإذا قرأ فإن قراءته ملوَّنة ومجزّأة، لا تربط بين مفرداتها رابطة، وقد تغيب عن الواحد منهم عشرين عاماً، ثم لا تجد عند رؤيتك له أي تغيير جوهري في ثقافته وتكوينه الذهني والمعرفي! والسبب في هذا واضح، وهو عجز ذهنه عن الإمساك بهذا الشتات من المعارف والمعلومات ذات الطبائع والانتماءات المختلفة، والتي وردت إليه أيضاً عبر سياقات ومناسبات وقنوات شتى. . .

هذا اللون من التثقف لا يتيح للمرء الشعور بمباهج المعرفة، ولا يساعده على التقدم المعرفي، كما لا يُسعفه في أي لون من ألوان الإبداع العلمي.

والأهم من كل ذلك أنه لا يؤدي به إلى تقدم عقلي جيد، ولا يملّكه نماذج فكرية خاصة به

والقارئ ذو الاطلاع المشتَّت وغير المنظَّم لا يملك الحماسة للاستمرار في القراءة، كما لا يملك أهدافاً محددة لها؛ وربما كان فقد حماسته ناتجاً من فقد أهدافه المعرفية.

ب ـ عندنا فئة ثانية من المثقفين، وهي تعمل في حقول معرفية متعددة، وهذه الفئة تتكون أساساً من أساتذة الجامعات والباحثين وغيرهم من ذوي التخصصات. ويقرأ كل فرد من أفراد هذه الفئة في علم واحد كالعربية أو التاريخ أو الفقه أو الفيزياء. . . .

وهذه الفئة ذات أثر بالغ ورئيس في تقدم المعرفة؛ حيث يتطلب التقدم الرأسي في العلم التخصص الدقيق ـ على ما يبدو ـ وتركيز الفكر والخبرة في بؤرة معرفية ضيقة؛ حتى يمكن الوصول إلى شيء جديد. هذا ما يغلب على ظننا دائماً معاشر المتخصصين. إن التخصص هو أن يتبنى الإنسان معرفة مدققة في موضوع ما مكتفياً بالمعرفة العامة في باقي الموضوعات. وهذا التدقيق بجعله يعرف عدداً مترابطاً وقليلاً من التكوينات بمستوى أفضل مقارنة بباقي التكوينات(١).

وإذا ارتفعت درجة التخصص لدى إنسان ما فهو يتعامل بصورة مستمرة مع حقائق فرعية، إنه ينحو منحى الدقة لا التعميم. والمتخصص المبالغ في التخصص سوف تتوقف معرفته في النهاية ما لم يتمكن من إضافة حقائق جديدة، حيث إن هناك حداً أقصى هو المحيط الخارجي لمنحنى المعرفة(٢).

وإذا كانت القواعد الفرعية هي مجال عمل إنسان ما فإن تأثيره في الواقع يظل محدوداً؛ ذلك لأن رصيده من النماذج سوف يكون محدوداً(٣)؛ وذلك لأن الواقع مزيج من النماذج المختلفة المتباعدة والمتقاربة، ويصعب على من يملك جزءاً منه أن يؤثر في مجموعه.

ومن الواضح أن كثيراً من فروع الدراسات العليا يواجه أزمة موضوعات؛ وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن معرفة المتخصص سوف تتوقف ما لم ينفتح على العلوم القريبة من تخصصه على الأقل.

لم يكن السلف يفرقون بين العلوم الشرعية والتجريبية، فقد كانت الفاعلية الحضارية تمزج النظري بالعملي، ليمثل الأوّل روح الثاني. ونعاني اليوم من مشكلة (تفتت المعرفة) فتأتي النظرة للحياة دائماً نظرة جزئية ضيقة، مع أنه كلما تعرَّف الإنسان على قوانين أكثر كانت قضية عمران الحياة على الأرض أيسر(٤).

---

(١) المدرَك والغامض: ١٢٠.
(٢) السابق: ١٢٢.
(٣) السابق: ١٤٤.
(٤) فقه الدعوة: ٧٢.

إن كثيراً من الباحثين لدينا يضيعون أوقاتاً ثمينة في بحث قضايا فرعية جداً لا تسهم في تقدم العلم؛ لأنها مبتورة الصلة بأسس العلم الذي تنضوي تحته، وذلك نظراً لفرعيتها الشديدة. إن أولئك الباحثين يصدق فيهم قول القائل: «يعرفون كل شيء عن لا شيء»!.

جـ ـ الفئة الثالثة هي الفئة التي تملك ثقافة موسوعية عبر التخصص، إن ثقافتهم ليست (منفلتة) كثقافة الفئة الأولى، ولا هي (مغلقة) كثقافة الفئة الثانية. ثقافة هذه الفئة هي الجديرة بالتنمية؛ لأنها هي المعرفة المنتجة والقابلة لأن تطور ذاتها، وأن تطور المجتمع من حولها.

إن المتخصص من هذا النوع هو إنسان خاص، إنه ذلك الباحث الذي يستطيع أن يوسِّع معرفته كماً وكيفاً[1]. إنه يعرف عدداً كبيراً من التكوينات مع دقة عالية. إن لديه بين الدقة والسعة علاقة جدلية إيجابية؛ فهو يستفيد من سعة معارفه والعدد الكبير من الأسس التي يعرفها في خدمة تخصصه والتقدم فيه، كما يستفيد من تقدمه الرأسي في تخصصه في مراجعة أسس علمه الذي تخصص فيه، وتطوير تلك الأسس والأصول بما يمثل إضافات حقيقية للمعرفة.

إن انفتاح هذا المتخصص ينبغي أن يتم بصورة أساسية على الثقافة الإسلامية وأصول العلوم الشرعية؛ لأنها تمثل البنية المعرفية العميقة بالنسبة لكل العلوم عندنا؛ وبإمكانها أن ترشِّد حركة المعرفة، وتحدد أهدافها، وأن تشكل مرجعاً تأصيلياً بالنسبة لها.

وانفتاح المتخصص بالعلوم التطبيقية على الواقع أمر في غاية الأهمية؛ لأن ذلك هو الذي سيساعد على تغيير مقولات تخصصه واختبارها، وسوف يمده بآفاق واسعة من المعرفة الجديدة. والواقع التقني الهزيل في العالم الإسلامي هو الذي خنق العلوم التطبيقية لدينا، وجعل كثيراً من الناشئة لا يرى أية فائدة من كد الذهن في استيعاب مسائلها!.

(١) المدرَك والغامض: ١٢٢.

وسيظل انفتاح المتخصص مهماً للغاية على نوعين من المعارف: المعارف التي يمكنها أن تؤثر في التخصص، والمعارف التي يمكن للتخصص أن يؤثر فيها؛ لأن هذين المجالين يشكلان امتدادات طبيعية للتخصص، وهما أعظم قدرة على تعريفه بنفسه من أي مجال آخر.

فالمتخصص في العربية سينتفع انتفاعاً عظيماً من خلال القراءة المكثفة في علم النفس والاجتماع والتاريخ والجغرافيا واللغات السامية والأسلوبية الحديثة والمنطق القديم والحديث؛ حيث إن في هذه العلوم من المعطيات والتطورات ما يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتطوير بما يمكِّن من تقدم علوم اللغة على اختلافها على نحو مدهش.

إن التطوير الحقيقي لأي علم من العلوم ينبغي أن يتم على مستوى الأسس، وإن كل المجددين في الماضي والحاضر، في أمتنا وفي غيرها من الأمم ليسوا أولئك الذين يعالجون الفروع، ويوجدون تقسيمات جزئية جديدة وإنما أولئك الذين يعالجون المبادئ الكبرى والأطر العامة؛ بما يتيح إيجاد منطق جديد لنمو المعرفة موضع المعالجة. ومعالجة الأسس لا تتطلب درجة عالية من التخصص، وإنما تحتاج إلى رؤية متسعة ومدققة. إن اتجاه النمو دائماً نحو الدقة والاتساع، الدقة تعني أنني أستطيع أن أقترب من الرؤية المطلقة للتكوين بمعرفة جزئياته الأدق، وارتباطاته الأدق. واتساع مجال الرؤية يعني أن أرى تكوينات جديدة في هذا الكون، كما أبدعه الخالق - جل وعلا[١] -.

إن تنويع مصادر المعرفة شرط لخصوبة الذهن، ولكن لا بد أن يرافق التنويع تأصيل فلسفي وفهم روح العلم والتزام بمناهج البحث، وإلمام بكيفية بناء النظريات وإدراك حسن لطبيعة المعرفة البشرية[٢].

من هذا كله يتضح أنه لا بد من اشتمال برامج الدراسات العليا على

---

(١) السابق: ١٣٥.

(٢) بنية التخلف: ١٣٧.

مواد ومعارف تمثل الامتداد الطبيعي للتخصص الذي يدرس فيه الطالب؛ حتى يمكن له أن يدرك مدى الفائدة التي يجنيها من وراء توسيع معارفه التخصصية.

وعلى نحو ما ذكرنا من قبل، فإن خصائص الشيء تتعرض للتعديل عندما يوضع في تركيبة جديدة.

د ـ إن مسألة الموسوعية عبر التخصص ينبغي أن تصبح فكرة محورية لدى قرائنا؛ حيث إنها تكاد تكون أفضل وسيلة لمعرفة مركَّزة ومنظَّمة، كما أنها السبيل الأفضل لإثارة حماستنا للقراءة والمطالعة؛ لأنها ستكون آنذاك قراءة بنيَّة الإضافة للمعرفة. ومن خلال التجربة تبين أن أكثر الناس صبراً على معاناة القراءة هم أولئك الذين يقرؤون من أجل التأليف والبحث والتحقيق؛ حيث إن القراءة صارت مشدودة لديهم إلى أهداف واضحة.

إن لدينا أعداداً هائلة من القضايا التي تحتاج إلى دراسات وإحصاءات ومعالجات جادة؛ وتلك القضايا منها الشرعي، ومنها التاريخي والاقتصادي والصناعي والاجتماعي.... ولدينا إلى جانب هذا ملايين القراء النهمين إلى المعرفة، وبإمكان كل واحد منهم أن يصبح مختصاً من خلال الاهتمام بقضية من القضايا، ثم القراءة الموسوعية حولها؛ بما يجعل منه مرجعاً فيها. إن الإنسان لو قرأ في أية قضية من القضايا كل يوم نصفَ ساعة، فإنه يصبح أستاذاً فيها بعد خمس سنوات!

ولتقريب المسألة إلى الأذهان نقول: إن الطلاب في قسم اللغة العربية يقرؤون في مادة (النحو)[1] ما يقارب (٤٥٠) ساعة، ويتخرجون بهذا القدر من الساعات مدرسين للعربية في المرحلة الثانوية. ولو أن المرء قرأ في (النحو) كل يوم نصف ساعة لمدة خمس سنوات فإنه يكون قد قرأ أكثر من (٩٠٠) ساعة!.

---

(١) يكاد يكون هذا هو الحد الأقصى؛ وفي بعض الجامعات لا يقرأ الطالب إلا نحواً من ثلثي هذه الساعات في هذه المادة.

إنني لا أريد أن يدرس القارئ كل أبواب النحو، لكنني أريد منه أن يتناول مشكلة من المشكلات النحوية، كأن يدرس قضية تطوير مادة (النحو) أو يدرس الصعوبات التي يواجهها الطالب في مرحلةٍ ما تجاه هذه المادة، أو يحاول تحديد المحتوى المناسب تدريسه من هذه المادة لطلاب مرحلة من المراحل...

إن بحثاً جاداً حول قضية من هذه القضايا سيجعل من الباحث حجة في هذه القضية، وسينتفع بدراسته جهات تعليمية عديدة، وذلك حين يعتمد على دراسات وإحصاءات وبيانات جيدة في صلب الموضوع، وحين يثري رؤيته له من خلال الاطلاع على العلوم والمواد اللصيقة به، وحين يستطيع فلسفة الأسس التي تقوم عليها معالجة القضية التي يُعنى بها.

إن الواقع السيِّئ للأمة هو نتاج وجود مئات أو ألوف المشكلات والأوضاع السيئة؛ ولو أن كل واحد عني بحل مشكلة لوجدنا تحسناً واضحاً في حياتنا ولكن....!

٧ ـ معرفة مستقبلية:

إن العالم يتغير بسرعة هائلة لم يسبق لها مثيل، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى الأمام، وإلى مسافات بعيدة، بشكل يتناسب مع السرعة الفائقة لهذا التحول الكوني العظيم في كل شيء!.

إن من حق الإسلام علينا، ومن حق الأجيال القادمة من أبنائنا أن نفكر ملياً في الآتي، وأن نضبط سلوكاتنا وتصرفاتنا في ضوء متطلبات المستقبل لكل منهما.

إن بعض الفلاسفة يرى أنه لا يوجد سوى زمانين: ماضٍ ومستقبل، وأما الحاضر فهو وهمٌ. ولم يكن هذا القول أقرب إلى الصواب في يوم منه في هذه الأيام!

إن النظر إلى الأمور بعيون مستقبلية منهج إسلامي صميم، وإن المسلم

يضبط إيقاع حركته في الحياة كلها وفق متطلبات الفوز بالجنة الموعودة في الآخرة[1].

وقد كان من المأمول أن يتولد من هذا المنهج نظر مستقبلي فريد لدى المسلم في كل أمور الحياة، لكن يبدو أن انتفاع المرء بمبادئه لا يتأتى بطريقة عفوية، وإنما يحتاج إلى نوع من الفاعلية الذهنية والشعورية التي لا توفرها إلا درجة معينة من التحضر.

إن المعرفة المستقبلية تعني مزيداً من الفهم للحاضر، حيث إنه سوف يظهر في المستقبل بصورة من الصور. والنقص في فهم الحاضر سوف ينعكس على فهم المستقبل بصورة مكبَّرة. وإن الواقع الذي نعيشه على درجة عالية من التعقيد بحيث لا يمكن فهمه من غير تفتيت وإعمال للإحصاءات والدراسات فيه.

العالم اليوم مشغول بالمستقبل، وهو يخطط لاستيعاب الأحداث المتوقعة فيه، واحتلال مواقع متقدمة كلما كان ذلك ممكناً.

ويذكر على سبيل المثال أن (السويد) أنشأت وزارة تابعة لرئيس الوزراء للاهتمام بالمستقبل، وذلك منذ عام ١٩٧٣، كما أنه بلغ عدد المؤسسات المهتمة بالدراسات المستقبلية في أمريكا وحدها نحواً من (٦٠٠) مؤسسة. ويذكر بعضهم أن الدراسات المستقبلية تشكل حالياً نحواً من (٤١٥) مقرراً دراسياً موزعة على (١٨) ولاية أمريكية[2].

السؤال الملحّ الذي على علمائنا ومفكرينا الإجابة عنه هو: ما نوعية المسائل والمشكلات المحورية التي علينا أن ننمي معارف أطفالنا وشبابنا حولها؛ حتى يتمكنوا من خلالها من معايشة المستقبل بطريقة فاعلة ومؤثرة؟

---

(١) يروى عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لا تغبطوا الأحياء إلا على ما تغبطون عليه الأموات». وهذه نظرة تقويمية رائعة للأمور بحسب مآلاتها، وهل النظر المستقبلي شيء غير هذا؟!.

(٢) تحضير الطفل العربي لعام ألفين: ٢٦.

ومع أن لكل بلد إسلامي همومه الضاغطة، والتي يوليها أهمية خاصة، إلا أن المحاور والهموم المشتركة كثيرة جداً. إن كل تفكيرنا المستقبلي يجب أن يتمحور حول موضوع أساسي، هو كيفية توفير الشروط النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تجعل المسلم يحيا حياة كريمة، تمكنه من القيام بأمر الله ـ تعالى ـ والتمكين لدينه في الأرض.

ما يجب أن ننمي معارفنا حوله كثير، لكن يمكن أن نقتصر على بعض المهم منه، في المحاور التالية:

أ ـ إذا ما أردنا استشراف المستقبل ببصيرة وصدق فإن علينا، أن ندرك أن خير ما يمكن أن نفعله في سبيل ذلك هو تحسين قرارات الحاضر؛ إذ لا ينبغي أن تخدعنا الأوهام، ونظن أن جهودنا الحالية في التنمية، وحديثنا بملء الفم عن المستقبل سوف تحسِّن من فرص العيش الكريم في قابل الأيام؛ إذ من غير المألوف أن نستولد مستقبلاً جيداً من واقع رديء.

إن الأمة بحاجة ماسة إلى أن تحسِّن من أداء أجهزتها المختلفة، وتوفر الأجواء التي تمكِّن الفرد من بذل أقصى جهده مع الشعور بالانتماء وروح الإخاء. وتقدم الحياة المعنوية والمادية معاً، يتطلب المزيد من التضحية والتعاون والكفاءة والشورى والانفتاح والحرية والشعور بالمسؤولية والسيطرة على عوالمنا الداخلية... وما لم نوفر القدر الضروري من كل ذلك فإن المستقبل لن يكون أكثر إشراقاً من الواقع؛ بل قد يصبح أكثر بؤساً وقتامة!.

ب ـ مما يحتاج إلى دراسات مستقبلية قضية الالتزام بالإسلام وتبليغه في عالم شديد التواصل والتنافس. وإن علينا أن نجيب على أسئلة كثيرة في هذا الصدد، منها: كيف نجعل الالتزام بالإسلام حقيقة واقعة في حياة المسلمين؟ وما هو جوهر الالتزام؟ وما حدوده في ظروف صعبة محفوفة بالضرورات والظروف المعاشية الصعبة؟ ما الذي ينبغي أن يتجلى في السلوك الظاهري والواقع الشكلي للمسلم؟ وما حدود المروءة والحشمة؟ ما هي أصول الحركة بهذا الدين باعتباره رسالة لإنقاذ العالم؟ وما الطروحات والأدبيات والوسائل والأهداف المرحلية التي ينبغي تبنيها في دعوة غير

المسلمين للإسلام، وفي العلاقات الخارجية بين المسلمين وغيرهم...؟

جـ - هناك مشكلات مشتركة بين دول العالم، ومشكلات خاصة بالعالم الإسلامي، ومشكلات خاصة بالبلد الواحد؛ وهناك دول إسلامية تعاني من مشكلة قلة الموارد وضيق مساحة الأرض، وبلاد تعاني من الأمية وأخرى من النعرات الطائفية، ودول تعاني من شح المياه العذبة والتلوث البيئي.... والمطلوب من أهل كل بلد أن يحددوا المشكلات الأخطر في حياتهم، وأن يثقفوا الناس بها، وينشروا الوعي بطرق معالجتها؛ حتى يسهم كل واحد بجهده للتخفيف من آثارها.

العالم الإسلامي يعاني من مشكلات الغزو الثقافي الخارجي والفقر والبطالة وضعف أداء النظم والديون الخارجية... وهذه المشكلات تتفاقم في أكثر بلدان العالم الإسلامي، ولا بد من عناية خاصة بها.

وخلاصة القول أن المعرفة المستقبلية هي معرفة ملتصقة بتطلعات الأمة ومشكلاتها وهمومها، إنها قرون الاستشعار الممدودة في جوف المستقبل وعلى مقدار تحسسها له والتصاقها به تكون كفاءتها وصلاحيتها.

(٣) كيف ننمي المعرفة؟

إن تنمية أي جانب من جوانب الحياة هو في الحقيقة عمل جزئي، لا يتم في فراغ، ولا من غير اعتبارات وشروط متعددة؛ فمن الصعب مثلاً أن تجعل الناس يقرؤون بنهم وتعطش وهم يكدون بياض النهار وجزءاً من سواد الليل من أجل سد الرمق. . . . ومن العسير أن يوجد لدينا مراكز مجانية لتدريب الناشئة على استخدام الحاسب الآلي وبعض الدول لا تستطيع تقديم الكتب المدرسية لتلاميذها، أو لا تستطيع تأمين أماكن لهم في المرحلة الابتدائية. . . .

إن نظرة الناس للمعرفة عندنا ما زالت تصنفها مع الأمور الثانوية، ومن ثم فإن قلة من الناس أولئك الذين سيضغطون على مصروفهم الشهري من أجل شراء كتاب!.

وإن رؤية الناس لهشاشة تأثير المثقفين في مسيرة الحياة الاجتماعية سوف تدفعهم إلى الزهادة بالعلم، وكل ما يدلي إليه بسبب.

مع هذا فإن التأكيد على بعض الأطر والوسائل التي تساعد على تنمية المعرفة سيكون، مفيداً، وهو جزء من العلاج الذي نتشوف إليه. ويمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ ـ تأسيس علم الجهل:

كان العلم في الماضي ـ على اتساعه ـ محدوداً بالنسبة لما هو موجود اليوم، وإن ما لدى طالب في كلية الطب من معلومات اليوم أكثر وأدق مما كان لدى شيوخ الأطباء في العصور الماضية، وليس هذا دليلاً على شيء سوى كثرة المعلومات وتحسن إمكانات اختبارها.

إن من الواضح أن جهلنا يزيد، حيث تتضاعف المعرفة فيما بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة! وإن نصف العلماء الذين عرفهم العالم في تاريخه الطويل يعيشون بيننا الآن! وعلى هذا فإذا كانت معلوماتي الآن هي واحد على الألف، فستكون بعد خمس عشرة سنة واحداً على ألفين، في أحسن الأحوال!.

إن من الضروري أن نغرس في أذهاننا جميعاً أن ما لدينا من العلم - مهما كان كثيراً - قليل. ودقته وعمقه وصدقه، كل ذلك نسبي وظني في أكثر الأحيان ولا بد - على هذا - من أن نقدم المعرفة للناس بصياغة مفتوحة قابلة للإضافة والتعديل، كأن أقول: هذا ما أراه أنا، وهذا ما يغلب على ظني وهذا ما هو ثابت عندي حتى الآن. . . .

ولا بد مع هذا من إشعار الأجيال التي نعلِّمها بأن يعرفوا أكثر وأكثر حتى لا تتفاقم نسبة انتشار الجهل وفجاجة المعرفة بينهم.

إن على الواحد منا أن يكافح في سبيل ألا يصاب بالتهميش العلمي، ويفقد سيطرته على المعرفة، ويفلت الزمام من يديه!.

٢ - لا بد من جهود جماعية لتوفير الكتاب:

الخطوة الأولى على طريق الارتقاء بمعرفة الناس وعلمهم - توفير الكتاب لهم بسعر مناسب أو تمكينهم من استعارته بيسر وسهولة للانتفاع به فسيظل الكتاب - على الرغم من كثرة قنوات التثقيف - الوسيلة الأهم، حيث يمكن للقارئ أن يختاره، كما يمكن التثقيف به في مساقات ومناهج مترابطة، والتعامل معه لا يحتاج إلى وساطة تقنية. . .

ومهما كانت إمكانات الحكومات ضخمة، فإنها ستظل دون مستوى الوفاء بمتطلبات الناس من وسائل المعرفة، ومن ثم فإنه لا بد من أن تساهم الهيئات المختلفة في تأسيس المكتبات، مثل النوادي والنقابات والاتحادات والغرف التجارية والصناعية ومجالس الأسر ومجالس الأحياء والبلديات والشركات والمؤسسات والمصانع والموانئ، ولا بد من تعميم المكتبات في المساجد وتطويرها بما يلبي الحاجات المعرفية الجديدة.

ويمكن أن تُوضع بعض النظم التي تُلزم بعض الجهات التي ذكرنا بإنشاء مكتبات فيها ذات أحجام تتناسب معها؛ ليجد المواطن نفسه محاطاً بالكتاب أينما ذهب.

وقد اتبعت هذه الطريقة في (رومانيا) حيث أمكن توفير شبكة ضخمة من المكتبات الأهلية والحكومية، كانت تمتلك في نهاية عام ١٩٧٣ رصيداً من الكتب يبلغ نحواً من (١٢٤) مليون كتاب، يستفيد منها نحو من ثمانية ملايين قارئ[١].

لا بد من أجل تحقيق مشروع تعميم الكتاب من تشكيل مجلس وطني لإقامة المكتبات ودعمها وتطويرها. وإني أعتقد أن كثيراً من الناس مستعد لوقف مكتبة على طلاب العلم أو الوصية بها بعد موته، لو توفرت لهم النوعية الكافية وبعض الضمانات باستمرارها على شرط الواقف.

وقد قام بعض الموسرين بعمل مشكور؛ إذ خصصوا مباني ملحقة ببيوتهم، ووضعوا فيها كتباً، وهيئوا قاعات للمطالعة من أجل خدمة طلاب العلم!.

وفي أيامنا هذه صار كثير من الكتب يحوي معلومات سهلة الهضم، وهي أقرب ما تكون إلى معلومات الجرائد والمجلات، حيث لا يعود إليها القارئ مرة أخرى؛ فيمكن إهداء هذه الكتب إلى المكتبات العامة؛ ليطلع عليها من لم يقرأها من الناس.

تأجير الكتاب بسعر رمزي وسيلة مساعدة على الاطلاع. ويمكن للجامعات والمدارس أن تتبنى مثل هذا العمل.

وأنا على يقين أننا حين نضع تثقيف الناس ضمن أولوياتنا فسوف نجد أساليب عديدة لتحقيق ذلك.

---

(١) التنمية الثقافية: ٣٧٦.

٣ ـ الجامعات المفتوحة والدارات (التلفازية):

حين نرى أن رفع السويّة المعرفية للناس ضرورة حيوية، فإننا حينئذ سنلجأ إلى كل الوسائل المتاحة. ومن أهم الوسائل التي يمكن أن تدفع الناس دفعاً إلى التعلم (الجامعات المفتوحة) والدراسة بالمراسلة، وفتح أبواب الانتساب في الجامعات على مصراعيها لكل من يرغب في تحسين مستواه العلمي واكتساب مهارات جديدة[١]، وكذلك استخدام الدارات التلفازية المغلقة والمفتوحة وشبكات الحاسب الآلي...

كل ذلك وسائل فعالة في التعليم. ويجب أن يُوجَّه كثير من هذه الأنشطة إلى الريف والمناطق النائية. ويمكن مع شيء من التنسيق والتنظيم أن تكون كل هذه الأطر مكمِّلة لما هو موجود في التعليم الجامعي.

إن ربط الترقيات في الوظائف بالحصول على شهادات معينة، أو بحضور دورات وبرامج تثقيفية سوف يدفع الناس إلى التعلم في الجامعات وغيرها.

لا بد من نشر ثقافة التعلم المستمر[٢] بين الناس، وتوفير الأطر والمراكز التي تؤمن لهم ذلك؛ حتى يستطيع الواحد منهم الاستمرار في الترقي الإنساني والمهني والتربوي.

٤ ـ تقريب المعرفة سبيل الوحدة الثقافية في المجتمع:

المستوى المعرفي للناس في العالم الإسلامي يميل إلى الانخفاض؛ فقلَّة قليلة أولئك الذين يقرؤون كتاباً كل شهر، وأقل منهم الذين يقرؤون كتاباً كل أسبوع. والسواد الأعظم لا يقرؤون أصلاً، أو يقرؤون بشكل منقطع،

---

(١) كثيراً ما يدفعنا إلى تضييق نطاق القبول للمنتسبين الخوف من هبوط المستوى. وفي تصوري أن الاختبارات الجيدة في الفروع النظرية سوف تبدد هذا الخوف، حيث إن اعتماد الطالب في الجامعة على أساتذته محدود.

(٢) يقدر بعضهم أن ١/٨ من السكان في السويد يشاركون في شكل من أشكال التعلم المستمر. وهذه نسبة عالية جداً. انظر التنمية الثقافية: ٤١٨.

وغير منظم. هذه الوضعية هي البوابة الرئيسية للتمزق الاجتماعي؛ حيث يكون من العسير تعميم المفاهيم الإسلامية والاجتماعية والحضارية عامة على أبناء المجتمع الواحد.

كثيراً ما نعتب على المفكرين؛ لأنهم لا يكتبون بلغة سهلة؛ حتى ينتفع بكتابتهم أكبر عدد ممكن من الناس؛ لكن ذلك في الحقيقة عمل شاق جداً، وقد يكون غير صحيح؛ فالأفكار المعقدة الراقية يصعب التعبير عنها بلغة سهلة مبسطة، وحين يتم ذلك، فإنه إن لم يؤدِّ إلى تشويهها، فإنه يحرمنا من طاقاتها الموحية. . . .

ومن هنا فإن الحل الأمثل يتمثل في سياسات تقريب المعرفة، وإيجاد مؤسسات وأطر وبرامج نشر متخصصة في ذلك، حيث إن بإمكان كاتب قصة أو مسرحية أن يستخدم لغة سهلة قريبة في التعبير عن الحقائق العلمية والأفكار والمفاهيم الشرعية والإنسانية.

وطرح سلاسل من الكتيبات في الأسواق، مهمتها توفير المعلومات حول القضايا المختلفة سيكون عملاً جليلاً، ولا سيما إذا تحملت الدولة أو بعض الجهات بعض نفقات تكلفتها! ومع أن لدينا جهوداً طيبة في بعض البلدان في هذا المجال إلا أنها ما تزال دون المستوى المطلوب.

إن بإمكان الجامعات أن تقدِّم خدمات جليلة للعلم إذا جعلت من جملة أنشطتها في خدمة المجتمع إصدار بعض الكتيبات في التخصصات التي تدرِّسها من أجل تعريف الناشئة وذوي الثقافة المتواضعة من الكبار بها، وذلك بأسلوب سهل وجذّاب. ويمكن لبعض تلك الكتيبات أن يقتصر على الأسس وبعض الحقائق والمعلومات، على حين يمكن أن تشتمل كتيبات أخرى على الجديد في كل تخصص. وهذه الأعمال لا تكلف الكثير، بل يمكن للجامعات أن تجني بعض الأرباح من ورائها، لكن الذي نحتاجه دائماً هو الوعي والاهتمام!.

يمكن بصورة مماثلة للمكتبات التجارية الكبرى والنوادي والنقابات

والمصانع.. أن تسهم في إشاعة المعرفة السهلة من خلال إصدار النشرات والكتيبات وإقامة المسابقات وتقديم الحوافز المختلفة.

إن التقدم الحضاري والتماسك الاجتماعي مرهون بسيادة مفاهيم اجتماعية محددة، وبوصول رسالة المجتمع إلى جميع أفراده. ولن يتم ذلك إلا من خلال حركة ثقافية موّارة، تلبي حاجات الأفراد المعرفية بالأسلوب الذي يناسبهم.

ـ لنجعل القراءة عادة لكل مسلم:

أول كلمة في الرسالة الخاتمة كلمة (اقرأ)، وما ذاك إلا لأن القراءة هي مفتاح التعلم والدرجة الأولى في الرقي الفكري والشعوري... الاهتمام بالكتاب والوله به واحترامه والحرص عليه عادات تتكوّن لدى الطفل في المنزل ـ غالباً ـ فالطفل الذي في منزل والديه مكتبة يفتح عينيه على الكتاب، والحديث عنه، ويجد نفسه محاصراً بالكتب حيثما تجوَّل في البيت. كل كتاب جديد يثير موجة من القراءة والتلخيص والنقاش والنقد؛ إنه ضيف مثير وطريف!

ولذا فإن الخطوة الأولى على طريق إشاعة القراءة هي انتشار مكتبة (المنزل)[١].

وإن مما يسهِّل ذلك تخصيص ميزانية شهرية لتزويد مكتبة المنزل بالجديد النافع من الكتب. إننا ننفق على الأطعمة والأشياء الاستهلاكية الكثير من المال، فماذا لو خصصنا ٢٪ شهرياً من جملة مصاريفنا لهذا الغرض النبيل؟

إن المعرفة هي التي تجعل الميل للاستهلاك ضعيفاً، والجهل هو الذي

---

(١) تدخل بيوت بعض الأثرياء، فتجد أمامك مكتبة أنيقة منظمة، ومحتوياتها نظيفة، تلمع، ولا شيء بعد ذلك؛ فلا صاحب البيت ولا ذريته ممن يستهويهم العلم، لكن ما يسمعونه من التنويه بفضل العلم والعلماء دفعهم إلى هذا!! والحكاية قديمة، وفيها قصص وطرائف متداولة!!.

يولد الفراغ، الذي يحاول الناس ملأه عن طريق اقتناء الأشياء وإنفاق مزيد من المال في شراء ما لا يحتاجونه!

يمكن للمدارس والجامعات والمراكز الثقافية والمصانع والنوادي. . . أن تنمي عادة القراءة من خلال المسابقات العلمية وحلقات الحوار حول الكتب الجديدة، وتقديم عرض عنها من مؤلفيها أو غيرهم، ومن خلال الدعوة إلى تلخيصها وتقديم دراسات حولها. . .

حين نعتقد أن ما نكتسبه من المعرفة هو أهم ما نرثه من الذكاء والإمكانات العقلية من آبائنا فإننا سوف نبادر آنذاك إلى القراءة وتوفير الأجواء والظروف التي تشجع عليها.

إن الأمة ستظل تعيش على هامش التقدم العلمي ما لم تحاول إكساب أبنائها عادة القراءة وحب الكتاب واصطحابه في كل مكان!.

(٤) عقبات في طريق تنمية المعرفة

إن النهوض بأي جانب من جوانب الحياة يتطلب أموراً عديدة، من أهمها تسليط الضوء على المشكلات والتأزمات والمعوقات التي تكتنف عمليات التحسين لذلك الجانب.

إحساس الناس بأن التزود من العلم شيء كمالي يجعلهم يعرضون عنه كلما كانت الظروف غير مواتية للتعامل مع الكماليات! ولذا فإن الفقر وطغيان المادة والاضطراب السياسي وانخفاض الوعي والتأزم الاجتماعي، كل ذلك ينعكس بصورة سلبية على التقدم العلمي، ويدفع الناس إلى مجافاة المعرفة والاستخفاف بها!.

وسوف نسلط الضوء هنا على بعض المشكلات التي نظن أنها تعوق النمو المعرفي، وذلك فيما يلي:

١ ـ خمود جذوة الشوق إلى المعرفة:

كان سلف هذه الأمة ينظرون إلى العلم نظرة فريدة، لم تشركهم فيها أمة من الأمم القديمة أو المعاصرة، فهو عندهم عبادة، بل أفضل من كثير من العبادات؛ وقد سطر علماء هذه الأمة من المآثر في الوله بالعلم والصبر عليه والاحتفاء به ما يثير الإعجاب ويستحق التقدير!..

فقد كان منهم من يقسِّم ليله إلى ثلاثة أقسام: ثلث للقراءة والتأليف، وثلث للنوم، وثلث للصلاة والذكر. ويذكر عن الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أنه كان إذا لقي شيخه أبا زرعة يقتصر على صلاة الفريضة؛ ليغتنم وجوده لأنه يرى أن طلب العلم أفضل من صلاة النافلة؛ ولأن بإمكانه أن يتنفَّل متى شاء!

وكان العلماء لا يعرفون لطلب العلم أمراً ينتهي إليه، ولا يعترفون بشاغل يشغل عنه، فهو عبادة، وهي لا تتوقف إلا عند انقضاء الأجل! وقد كان أحدهم يحفظ أبياتاً من أحد المتون، وهو في حالة شديدة من المرض، فقال له ابنه: يا أبت أهذا أوان هذا؟! فقال: إني أحب أن ألقى الله ـ تعالى ـ وأنا أطلب العلم!!.

ويمكن القول: إن ضعف الوازع الديني، وضعف حضور الآخرة في حسِّ كثيرين منا أدى إلى الإحساس بأن العلم وسيلة لانتزاع منصب أو وظيفة أو مال، وصار الحصول على العلم أشبه بثمن لا بد من دفعه في صفقة تجارية، ومن ثم فالعلم للشهادة، والشهادة للوظيفة، والوظيفة للمال، ومن ثم التمتع بالحياة!..

حين ينظر إلى العلم نظرة تجارية فإن الناس يبذلون الحد الأدنى من الجهد للحصول عليه، وإذا نجح الطالب أو حصل على الشهادة التي يدرس من أجلها بدأ ما حصله من العلم بالتراجع التدريجي؛ فهو لم يتعلم ليصبح عالماً، ولكن ليصبح موظفاً!

وقد كان بعض السلف يقول: إذا لم تعط العلم كلك لم يعطك بعضه.

ولو فتشنا عن الأعمال الجليلة التي نراها في ميادين المعرفة المختلفة لوجدنا وراءها رجالاً تَمَلَّكهم حب المعرفة، واستولى عليهم الشوق إلى التعرف على الحقيقة؛ فمن ثَمَّ بذلوا عظيم التضحيات!

يقول أنشتاين: «إن أولئك الأفراد الذين ندين لهم بأعظم الأعمال العلمية كانوا جميعاً تواقين عقلياً إلى المعرفة، ولو لم يكن لهم هذا الاقتناع الجياش بالمعرفة لما استطاعوا الانقطاع الدائب الذي يستطيع وحده أن يدفع المرء إلى القيام بجلائل الأعمال»[1].

إن العزوف عن العلم هو في حد ذاته مشكلة، لكن المشكلة ستكون

---

(١) بنية التخلف: ١٢٦.

أعظم حين نصاب بالزهد في العلم في زمان تُقبل فيه الشعوب على التهام المعرفة؛ وذلك لأن التواصل العالمي جعل أية ميزة فائقة عند شعب أو دولة تمثل مشكلة للدول الأخرى؛ لأن تلك الميزة سوف تستخدم للضغط على الآخرين الذين حُرموا منها.

في هذا السياق نستطيع أن نعرف موقعنا بين قراء العالم من خلال بعض الأرقام[(١)] التي تشير إلى أعداد القراء أو نسبهم، أو بعض ما يتعلق بصناعة النشر المكتبي بشكل عام. وقد تساءل بعض الكتّاب الغربيين: هل يستطيع المرء أن يعيش بدون قراءة؟ وراحوا يستطلعون الآراء، فجاءت النتائج عندهم أن:

٢٥٪ يقرؤون كتاباً كل شهر.

٥٠٪ يقرؤون كتاباً كل عام.

٦٥٪ يقرؤون مجلة أسبوعية بانتظام.

٨٠٪ يقرؤون صحيفة يومية بانتظام.

والباقون يكتفون بمشاهدة التلفاز، والاستماع إلى وسائل الإعلام الأخرى[(٢)]، أما نحن فليس عندنا أية أرقام، وفي ذلك بعض الخير؛ حتى لا ينكشف المستور!

وتُظهر بعض الدراسات في الغرب أن الرجال في أمريكا يقرؤون في المتوسط (٣٩) دقيقة يومياً، على حين تقرأ النساء ما متوسطه (٢٦) دقيقة. ويقرأ ٧٢٪ من الناس في بريطانيا (عام ١٩٨٣) جريدة يومية. وبلغ معدل الاستعارة من المكتبات العامة في بريطانيا (٦٥٠) مليون كتاب. أي حوالي

---

(١) لا ينبغي تلقي أية أرقام تنشر على أنها أرقام يقينية، وذلك لاعتبارات عديدة؛ وإنما يجب أن تفهم على أنها مؤشرات لوضعيةٍ ما، ليس أكثر.

(٢) القراءة أولاً: ٥٤.

٢٦ كتاباً لكل من يقرأ كتاباً على الإطلاق. هذا عدا الكتب المشتراة والمستعارة من الآخرين[(١)].

أما إذا أردت أن تعرف ماذا يباع لدينا من الكتب، فاسأل المؤلفين والناشرين الذين سوف يخبرونك أنه في المتوسط يباع من الكتاب الواحد - غير المقرر في معهد أو كلية - نحو من ألف نسخة في العام، مع أنه يكون موزعاً على مئات المكتبات، ويشاهده الملايين مرصوصاً على رفوفها!.

٢ - غثائية ما يُنشر، وما يُقرأ مشكلة أخرى:

إننا نؤمن أن الدين للحياة، وأن العلم ينبغي أن يكون من أجل النهوض بالإنسان: عقله وروحه وجسده والوسط الذي يعيش فيه.... ونؤمن مرة أخرى أن العلم للعمل، حتى التاريخ فلم تندفع الأمم إلى قراءته والتعرف على أحداثه إلا من أجل تدعيم ذاتها الشاعرة، وأخذ العبرة منه لتحسين قرارات الحاضر والمستقبل.

إن النبي ﷺ أخبر أن أمة الإسلام ستمر بمرحلة الغثائية، حيث يتضاءل الكيف، على حين يتضخم الكم؛ فهل الغثائية تكون عامة، فتمسّ كل شيء. الحقائق والرجال والأفكار والكتب والمعارك والجامعات... فيكون كل شيء مسمّى بغير اسم، أو يكون أصغر من اسمه؟!.

هذا هو الظاهر؛ فالناظر فيما تعرضه المكتبات من علوم ومعارف يرى رأي العين هشاشة ما يُعرض وفقره، وعدم صلاحية كثير منه لأي شيء!.

القرّاء لدينا نوعان رئيسان:

نوع خبرته ومعرفته سطحية؛ فهو يندفع إلى كل سطحي لشرائه وقراءته؛ ليزداد بذلك ضغثاً على إبالة، وجهالة على جهالة؛ لأن الكتاب السطحي لا يستنفد مال القارئ ووقته فحسب وإنما يشوِّه رؤيته للأشياء؛ حيث يثري النماذج الذهنية السطحية لديه، ويعطيها شواهد جديدة على رصانتها وأهميتها!.

---

(١) سيكلوجية السعادة: ١٠٠، ١٠١.

أما النوع الثاني، فيغلب عليه الرقي المعرفي والتعطش إلى شيء جديد يغني معرفته، ويضيف إليها. وهذا الفريق - إلا ما ندر - يُضطر إلى أن يقرأ مئات الصفحات؛ حتى يجد فيها صفحة أو صفحتين، مما يناسب حصيلته المعرفية؛ فهو كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش!.

والسبب قلة الرواد والمفكرين العظام الذين يمتلكون رؤية نقدية لواقع الأمة، ويعرفون حاجاتها المعرفية الأساسية في المرحلة الراهنة، فيحاولون تلبيتها، يملكون رؤية جيدة لأحوال العالم، فيصورونها بصدق وأمانة.

قلة هذا الصنف من المؤلفين أدت إلى أن يصبحوا هم وكتاباتهم وقراؤهم غرباء في حشود من القراء والكتّاب الذين يؤثرون الصيد على السواحل أو في المقلاة، ويظنون أن أمة تعاني من مشكلات كبرى - تنهض بها الفكرة القريبة، والمعلومة الجزئية والنظرة العجلى والاهتمامات المشتتة!!.

إن الزغل في العلم لا يقتصر على طرح المعرفة الهشَّة والهزيلة، وإنما يتجاوزه إلى الإطناب في بحث القضايا الجزئية، وشغل الناس بها، على حين أن الناس تركوا الأصول، وابتعدوا عنها مسافات بعيدة!.

كثيراً ما ننسى أن طاقة (الوعي) محدودة، وأن من السهل الانحراف بوعي العامة وكثير من الخاصة عن الاهتمام بجلائل الأمور إلى صغائرها.

وقد لاحظنا في السنوات الخمس عشرة الأخيرة تصاعد وتيرة التأليف والنشر في قضايا كثيرة تناولها القرآن الكريم والسنة النبوية بالإيجاز والاختصار، وحول قضايا ليس لها أدنى أولوية في تدين الأمة أو في نهضتها؛ بل إن بعضه ينشر الشقاق والفرقة، في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى بلورة الأصول، وجعل القضايا الكبرى تسيطر على مشاعر الناس وأذهانهم؛ حتى يتسنى لنا أن ننهض جميعاً بواجباتنا ومسؤولياتنا الجسام.

كتب كثيرة تبلغ المئات، تغزو الأسواق اليوم، يتحدث بعضها عن الجن والعفاريت والسحر والتنجيم والروح، ومن تحدث بعد الموت (!)

وبعض آخر منها يتحدث عن قضايا فرعية، ينفخ أصحابها فيها بصورة عجيبة؛ حتى يظن القارئ أن القضايا التي تتناولها من القضايا المصيرية أو قضايا الولاء والبراء؛ كتب تتحدث عن وضع اليدين على الصدر بعد الركوع وعن النزول على الركبة وعن الجهر بالبسملة وجلسة الاستراحة... ومنها كتب في منسك العالم الفلاني وعقيدة العَلَم الإمام....

إنني لا أرى لأهل العلم أن يتفقوا على كل شيء، وليس هذا بالممكن، ولكن لا ينبغي ملء الساحة العامة بالخلافيات والفرعيات التي هي مناط الاجتهاد، واتفاق الأمة عليها غير ممكن، واختلافها حولها لا يضر.

إن هناك عشرات الملايين من المسلمين الذين لا يعرفون عن جوهر التوحيد، ولا عن أركان الإسلام شيئاً، ونحن لا نعرف الأسلوب الأمثل لخطابهم وتعليمهم والوصول إليهم!

وهناك أمثالهم ممن نهبت حقوقهم وطُمست هوياتهم، وآخرون هائمون على وجوههم في الأرض شردتهم المجاعات والحروب الأهلية.... وهناك قبل كل ذلك أمة تعاني من التبعية والتخلف والتمزق وقهر الأعداء...

إن من أعظم الخيانة للمنهج الذي نؤمن به أن نصرف وجوه الناس عن جوهره لنشغل الناس بأشباح مشكلات وأشباح قضايا! وإن من أعظم الخيانة للأمة التي ننتمي إليها أن ننشغل عن إنقاذها بتحقيق طموحات شخصية والانتصار لعصبيات جاهلية، ونزعات ضيقة، وتحقيق مكاسب آنية وهامشية...!!.

٣ ـ التخلف يعطيك أجوبة، ويحرمك من التساؤل:

السؤال مفتاح العلم، لكن المقدرة على التساؤل ليست متاحة دائماً؛ فالعقل لا يستطيع أن يتصور أشياء لم ير لها مثيلاً أو شبيهاً؛ إذ كيف يتساءل عن معدات وآلات تتعلق بـ(القمر الصناعي)، وهو لم ير ولم يسمع شيئاً عنه؟.

ومن هنا فإن البيئة الفقيرة بالمعارف والأدبيات والخبرات والموضوعات لا تمد العقل بشيء ذي قيمة ولا تشغّله، ولا تدفعه إلى التساؤل والاكتشاف...

هذه الوضعية توجد نوعاً من الفراغ والجمود والاختلال، ومن ثم فإن (المخيلة الشعبية) تنشط لسد الفراغ وإقامة نوع من التكامل والتوازن للعناصر الثقافية المختلفة. ولن تكون المواد المستخدمة في ذلك سوى مزيج من الأساطير والخرافات والمقولات المشبَعَة بالتأملات الخاصة ومحرَّف الاعتقادات... فيشعر المرء أن عنده كل شيء، وفي ثقافته وحياته جواب لكل شيء، وفلسفة لكل مبدأ، وتعليل لكل ظاهرة...

على العكس من هذا كله يؤجج العلم الصحيح نار التساؤل، ومحاولات الفهم والرقي في مدارج المعرفة؛ فقد فجَّر القرآن الكريم في الوسط الأمي المحدود كل ينابيع الحكمة، ونفض عن الوعي والشعور والعقل كل ما علق بها من أوهام الجاهلية، وأسس يقيناً جديداً، وصار كل شيء موضع تساؤل وتفهم... ونما العلم نمواً لا نظير له.

وحين أخذت الأمة في التراجع الحضاري بدأ الناس في تحضير أجوبتهم الخاصة النابعة من السكون والفوضى والانحراف عن المنهج الرباني الأقوم.. وهكذا فأحوالنا الراهنة طبيعية جداً، ولا يجوز التساؤل بشأن مسبباتها، ولا جذورها والمراحل التي مرت بها؛ فما نحن فيه قضاء وقدر محتوم، لا خيار لنا فيه! ثم إننا بذلنا جهدنا، ولم نستطع أن نفعل أكثر مما فعلناه، ولا نظن أن الإمكانات المتوفرة بين أيدينا تؤهِّلنا لأكثر مما نحن فيه. وما نحن فيه ليس سيئاً جداً، فإدمان المخدرات لدينا أقل، وكذلك الأمراض الوبائية، والترابط الاجتماعي لدينا أفضل... ثم إن الحضارة الغربية مادية، وهي ولو بعد حين إلى زوال...

وهكذا وهكذا أوجدنا كل الأجوبة التي تسوِّغ ما نحن فيه، وأسكتنا كل الأفواه التي تضج بالشكوى من سوء الأحوال!!.

وتأتي رسوم التعليم القائم على التلقين ورسوم العلاقة بين الأساتذة والطلاب، لتكمل الحلقة، ولتكبت ما فطر البارئ - جل وعلا - الطفل عليه من حب للتساؤل والتطلع إلى فهم ما حوله؛ فكثرة الأسئلة قد تكون من أجل حب الظهور على الأقران، وهي قد تسبب الحرج للمدرس، وقد يكون السؤال منطوياً على شيء من سوء الأدب، وقد يكون الجواب عليه مما يخدش الحياء، وقد يكون السؤال أكبر من سن الطفل، فالأولى تأخير الجواب عليه. وقد يقال للطالب: إنك لم تستوعب المسائل السهلة، فكيف تسأل عن المسائل الدقيقة؟ وسؤالك خارج الموضوع، وربما قطع سلسلة أفكار المدرس. وإذا كان السؤال من طالب علم لشيخه حول دليل ما يقوله، فهذا دليل عدم الثقة في الشيخ...!! وهكذا فهناك مجموعة من السيئات تصاحب كل سؤال، وكل تساؤل، وأفضل الخيارات هو الصمت والتأمين على ما يقوله الأساتذة وغيرهم!

كل هذا ونظريات التعليم والتفكير الحديثة تعد القدرة على طرح الأسئلة أمارة على الذكاء وجودة الفهم، كما أن من أفضل طرق تنمية التفكير أن نطرح أعداداً كبيرة من الأسئلة حول القضية موضع المعالجة أو الآلة موضع التطوير، ثم نبحث عن أفضل الأجوبة عليها!!

٤ ـ سحب الثقة من العلم:

ما الدليل على أن من شروط الخلاص الفردي والجماعي مزيداً من العلم والمعرفة ونحن نرى كثيراً من المهنيين والحرفيين أحسن حالاً من طلاب العلم وحملة الشهادات؛ وما دمنا نرى كثيراً ممن يؤلفون، ويتحدثون في كل مكان لم ينفعوا أحداً سوى أنفسهم، وهم دائماً يصوِّرون للناس أن كل شيء على ما يرام!

ولماذا العلم ونحن نرى الجامعات لا تخرج باحثين، وإنما طلاب وظيفة يصطفون على أبواب الدوائر الحكومية والشركات يبحثون عن طاولة وكرسي لقضاء باقي العمر عليه؟!

إن هذه الوضعية أدت إلى سحب الثقة من العلم، والبحث عن مخرج يمكن أن يكون أي شيء إلا العلم!

أسوأ ما في الإحباط ليس سحب الثقة من العلم باعتباره شرطاً للتقدم وإنما انسحاب الأفراد من المجتمع، وبحث كلٍ منهم عن سبل خلاصه الشخصي بعيداً عن أي حساب لمصلحة الجماعة ـ المجتمع ـ حيث تنتهي جاذبية المجتمع، وينتهي تأثيره في صهر أفراده في بوتقة واحدة!

إن الناس إن لم يروا ثمار العلم تتجسد في المزيد من الرقي الفكري والشعوري ورشاد السلوك وتصحيح الأخطاء وفتح آفاق جديدة للعمل ـ فإنهم لن يقبلوا عليه، ولن يضحوا بشيء من أجله. ولذا فلا بد من إعطاء انطباع جديد عن مهمة العلم في الحياة إذا ما أردنا له أن يستعيد حيويته في الحياة، وهذا من مسؤوليات المثقفين والمخططين للحياة العامة.

إن المشكلات التي تعوق تنمية المعرفة عديدة، لكننا لا نريد الاستقصاء، وإنما تنبيه الأذهان إلى المحاور الأساسية في كل قضية.
وعلى الله قصد السبيل.

الفصل الرابع

في
تنمية الشخصيّة

(١) الشخصية وأهمية تنميتها .

(٢) شروط أساسية لتنمية الشخصية .

(٣) مبادئ وآليات في تنمية الشخصية .

(١) الشخصية وأهمية تنميتها

يختلف علماء النفس وعلماء الاجتماع اختلافاً واسعاً في تعريف (الشخصية)؛ حتى ذكر بعضهم أن للشخصية نحواً من أربعين تعريفاً.

مصطلح (شخصية) مصطلح مُحْدَث لم يكن مستخدماً لدى القدماء، وقد يستخدمون كلمة (الشخص) للدلالة على كل جسم له ارتفاع وظهور. وغَلَب في الإنسان.

ويطلق الفلاسفة لفظ (الشخص) على الذات الواعية لكيانها المستقلة في إرادتها.

والشخصية في أبسط تعريفاتها: صفات تميز الشخص من غيره. ويقال: فلان ذو شخصية قوية: ذو صفات متميزة، وإرادة وكيان مستقل[١].

ويفهم بعضهم الشخصية على أنها تنظيم عقلي ثابت، وبناء نسق ينطوي إما على مجموعة من العوامل الدافعية الداخلية، أو على نمط من الاستجابات الخارجية[٢].

ولعل أوضح تلك التعريفات أنها: «مجموعة الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والاجتماعية التي تظهر في العلاقات الاجتماعية لفرد بعينه، وتميزه عن غيره»[٣].

ونعني بتنمية الشخصية هنا: السير نحو الأحسن والأكمل بمختلف أبعاد

---

(١) المعجم الوسيط: مادة (شخص).
(٢) دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية: ٢٨١.
(٣) القيادة والتغيير: ٢٢٦.

الإنسان: الروحية والعقلية والنفسية والجسمية على الصعيد الفردي الذاتي، وعلى صعيد العلاقات مع الآخرين.

لماذا نهتم بتنمية الشخصية؟

إن فكرة (التسخير) التي أبرزها القرآن الكريم في مواضع عديدة منه[1]، لا تهدف إلى حث المسلم على شكر الله ـ جل وعلا ـ والاعتراف بفضله فحسب، وإنما تهدف أيضاً إلى تقرير (مركزية الإنسان) في هذا الكون والسلطان العظيم الذي أمده الله ـ تعالى ـ به؛ ليستثمر كل ما حوله لصالحه، وليقوم بتوجيه إرادته وطاقاته كلها نحو الحصول على رضوان الله ـ تعالى ـ وليعيش في كنف العبودية له.

إن الحضارة الإسلامية إنسانية النزعة، وذلك ليس من خلال الرموز والأدبيات فحسب، وإنما من خلال الأحكام والمعايير أيضاً؛ حيث لا توجد شريعة أعلت من شأن الإنسان، وصانت حرمته وحقوقه كهذه الشريعة الغراء. وفي هذا السياق يروى عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال في مسلم قُتل: لو اجتمع أهل صنعاء عليه لقتلتهم به!

وأفتى بعض علماء المسلمين بوجوب بذل الأموال في افتداء أسرى المسلمين لدى الكفار، ولو أدى ذلك إلى استنفاد جميع ما في خزينة الدولة المسلمة من مال، وبقطع النظر عن مدى صواب هذه الفتوى وإمكان تطبيقها اليوم؛ فإنها تنمُّ عن الرؤية الإسلامية العامة في مسألة كرامة الإنسان والحرص على حياته وحقوقه.

إن الطبيعة البشرية تحمل في تكوينها الأعمق أشواقاً خاصة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي ـ إلى أشياء عديدة غير مادية، ولا يمكن للمادة أن توفرها. وإن حكماء العالم وعلماءه لا يختلفون في أنه ينبغي

---

(١) في مثل قوله ـ سبحانه ـ: **﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾** سورة الجاثية، آية: ١٣.

أن نعيش في عالم يكون الإنسان فيه مقياساً لكل شيء على العكس من الواقع العالمي المنكوس الذي بات الإنسان فيه غريباً، ويحيا مقهوراً من أجل كمال الوسط المادي الذي يعيش فيه!!.

إن النمو الفسيولوجي للإنسان إلى جانب مواد عديدة أخرى ـ غير قابل للاستمرار. أما النمو الروحي والعقلي، فإنه غير مسوَّر بتحديدات في المجال أو الإيقاع[1]؛ مما يعني أن خلاص الإنسانية الأكبر سيكون في السموّ بالإنسان وتحسين ذاته وإدارتها بشكل أفضل، وليس في تنمية الموارد المحدودة والمهددة بالنفاد الكامل.

وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية كشفت بعض الدراسات عن أن للعلاقات الاجتماعية تأثيراتها المستقلة، حيث تتحسن الصحة العقلية بفضلها بقطع النظر عن وجود بعض المشاق ـ وبالطبع دائماً في الحياة بعض المشقة ـ كما أن العامل الحاسم في تخفيف العناء هو الدعم الاجتماعي الذي ينشأ من شعور الفرد باندماجه الشديد مع الآخرين. وإن الاضطراب العقلي ينشأ من اجتماع درجة عالية من المشقة مع درجة منخفضة من الدعم الاجتماعي[2].

إن أفعالنا وأقوالنا تنطق بمعان محددة، لكن يظل الأهم هو ما توحي به (شخصية) الواحد منا، أو الوضعية العامة التي هو فيها. ومن ثمَّ فإن تنمية الشخصية تعني مزيداً من تحسن الوضعية العامة، وهي تعني مزيداً من التأثير في الآخرين؛ وهذا مهم جداً للدعاة وقادة الرأي الذين يستهدفون تشكيل اتجاهات المجتمع، وتوجيه قيمه وتحركاته.

إن الإنسان يظل يحيا في وسط قاهر من الحتميات الوراثية والمؤثرات البيئية التي طبعت حيثيات نشأته وتربيته الأولى، إلى جانب البيئة المتولدة من ظروف العمل وقوانين المجتمع والسياسات المحلية...

---

(١) حاجات الإنسان الأساسية: ٤٢٣.

(٢) سيكلوجية السعادة: ٤١، ٤٧.

وهذه الأنواع من الحتميات كافية لجعل الإنسان إمّعة وعالة ومتخلفاً عن الوضعية اللائقة به باعتباره خليفة ومكرَّماً - ما لم يجاهد بكل ما أوتي من قوة، لتشكيل ذاته على نحو يمكنه من الإفلات من أسر حتميات الوراثة والطبيعة والعادة والتاريخ والتقاليد والقصور الذاتي؛ لتكون حياته وأنساكه ومواهبه وإمكاناته لله رب العالمين.

إن الرائع في تنمية الشخصية أنها لا تحتاج إلى مال ولا دولة ولا فكر معقَّد...

إنها هبة الله - تعالى - للفقراء والمعوزين والمحدودين وأهل العاهات والظروف الصعبة؛ فمن خلال الجهد المستمر يصبح هؤلاء أفضل بكثير ممن أوتوا بسطة في المال والجاه والمتاع، لكن أبرز ما فيهم هو الإهمال لحياتهم الروحية والعقلية والاجتماعية!.

إن الأمة تواجه اليوم ضغوطات خارجية هائلة على المستوى المعنوي والمادي، وهي إلى جانب ذلك تعيش ظروفاً معيشية صعبة؛ وإن أدبياتنا تعلمنا أن أفضل طريقة لمواجهة الخارج هو تدعيم الداخل وإصلاح الذات، واكتساب عادات جديدة والسعي إلى مزيد من التضحية والتعاون والانفتاح والالتزام والتفتح ونكران الذات والاقتصاد والمحافظة على رأس المال الوطني إلى أن تمر العاصفة، وينتهي الظرف الاستثنائي. وفي هذا يقول - جل وعلا -: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[1].

إن الأمم المنتصرة على أعدائها، هي أمم حقَّقت نصراً داخلياً أولاً، وحقق كل واحد من أبنائها نصراً على الصعيد الشخصي من خلال تغييره ما في نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

(١) سورة آل عمران، آية: ١٢٠.
(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

(٢) شروط أساسية لتنمية الشخصية

إن التنمية الجادة للشخصية عبارة عن مقاومة الإنسان لرغباته وعاداته وأهوائه، وعبارة عن صقل لجوانبها المختلفة، وهذا كله يعني نوعاً من تحكم المرء بنفسه، وذلك في الحقيقة ليس بالأمر اليسير ما دامت النفس نزاعة إلى الفوضى والكسل واستثقال الواجبات. . .

لا بد من القول ابتداء: إن نمو الشخصية شيء حاصل لدى جميع الناس، فالمرء لا يفتأ يتعلم، ويكتسب الخبرات، ويأخذ العبرة من أحداث الحياة. .

وهذا يعني أن شيئاً من أسباب النمو موجود لدى الناس الأسوياء؛ لكننا لا نتحدث عن النمو العضوي أو العادي، وإنما نتحدث عن التنمية المطلوبة لجعل الإنسان سبّاقاً، وجديراً بالخلافة في الأرض. إنه الإنسان الصالح المتكامل المقدر للمسؤوليات المنوطة به. وهذا النوع من الناس لا يمكنه أن ينمو دون أن تتحقق فيه جملة من الشروط، التي سنذكر أهمها في النقاط التالية:

١ ـ وجود هدف أعلى:

لا يواجه المسلم مشكلة تحديد هدف نهائي للحياة؛ فذاك شيء تكفل به الإيمان نفسه، فالمسلم يعمل في اتجاه واحد طول حياته، وهدفه الأسمى حيازة رضوان الله ـ تعالى ـ لكن يبدو أن الغرق في تفاصيل الحياة الكثيرة يجعل إحساسنا بهدفنا الأكبر رتيباً أو ضعيفاً، ممل يجعل إثارة الهدف للحماسة والطاقة التغييرية لا تصل إلى المستوى المجدي والمطلوب لتنمية الذات.

لن يكون الهدف كبيراً إلا إذا كان يسمو فوق المصالح والغايات الدنيوية، بل ينبغي أن يكون على مستوى يُضحىٰ بالحياة كلها من أجله! هذا في الحقيقة ما يفعله الشهيد، وهذا ما يفعله الملتزم صارماً. . الشهيد والملتزم هما أعظم الناس نفعاً للبشرية؛ لأنهما يعطون للحياة، ولا يسحبون من رصيدها، وإنما يسحبون من رصيد آخر، هو رصيد الآخرة!.

إن الهدف الأسمى ليس ضرورياً لإثارة الحماسة للعمل فحسب، وإنما لإضفاء نوع من التوحد على حياتنا وإزالة التناقض منها.

هل يمكن القول: إن سبب بلادة الإحساس بالوقت والمخاطر والتحديات. . . يعود أساساً إلى عدم وجود أهداف واضحة على المستوى الفردي والمستوى الوطني؟.

هذا صحيح إلى حد بعيد، وينبغي أن يقال أيضاً: إن عدم وجود أهداف محدودة يمكن إنجازها في مدة قصيرة سبب آخر أساسي وجوهري لما نحن فيه من ترهل الذات. إن الأهداف البعيدة تولِّد القناعة بضرورة الترقي وبذل الجهد، لكن الأهداف القريبة هي التي تثير الحماسة، حيث يرى المرء نتائج عمله، ويغريه كل نجاح بالسعي إلى نجاح آخر. . . من هنا فإن من الحيوي أن نُخضع أهدافنا الكبرى إلى عدد من الأهداف المرحلية الواضحة. كما أن من الضروري وضع برامج لتحقيق تلك الأهداف، وإلا فسيظل الهدف عبارة عن منارة تلوح من بعيد، لكن لا توجد أية آلية أو وسيلة إلى الوصول إليها.

٢ ـ وجود قناعة بضرورة التغيير:

هذا الشرط على درجة عالية من الأهمية؛ إذ إن كثيراً من الناس يظن أن ما هو فيه جيد ومقبول، أو أنه ليس الأسوأ على الأقل. بعض الناس يعرف أن ما هو عليه ليس بالجيد، لكنه يعتقد أن ظروفه سيئة، وإمكاناته محدودة؛ لذلك فإن ما هو فيه لا يمكن تغييره ـ الآن على الأقل ـ وفي هذه الحالة فإنه لا جدوى من النصائح والمواعظ، ولا من التأنيب والتوبيخ. وهذا

يعني أنه لا بد من توفير أساس فكري لقيام قناعةٍ ما لدى الواحد منا. والأهم من ذلك وجود حاسَّة المقارنة الجيدة بين الأوضاع المختلفة؛ إذ الشعور بالرضا أو السخط لا ينبع من داخل الإنسان، وإنما من خلال مقارنة الإنسان لأوضاعه مع أوضاع الآخرين. وفي هذا المقام، فإننا نعتقد أن المرء لن يعدم وجود أناس هم أسوأ حالاً منه؛ ولذا فإن المحك النهائي في هذا الموضوع هو شعور المرء بتفوقه على ذاته، وبأن يومه خير من أمسه. إن على الواحد منا أن يساعد نفسه على تحسين ذاته؛ لأنه إذا لم يساعد نفسه لم يساعده أحد.

٣ ـ قبول الذات:

حتى يحدث شيء من تنمية الذات فإن على الواحد منا أن يشعر بقوة أنه لا مجال أمامه للخيار بين ذاته والآخر، وبين أمته والأمم الأخرى، وبين ثقافته ومعطيات العصر[١]. فالقبول بالذات على مستوى الفرد، وعلى مستوى الانتماء لأمته شرط أساسي لتطوير الذات. وحين يرفض المرء نفسه رفضاً تاماً، ويعتقد أنه لا يصلح لشيء تكون محاولات التحسين التي ندعو إليها غير ذات معنى بالنسبة له!.

إن اليأس والإحباط وانسداد الآفاق يولِّد نوعاً من الشعور بكراهة المرء لنفسه وازدرائه لها؛ مما يجعله لا يقيم أي وزن لكل النصائح التي تُسدى إليه. وهذا الشعور مبالغ فيه دائماً، إذ إنه مهما ساءت الأحوال، وتضاءلت الإمكانات يظل هناك مجال لتخفيف الضرر وتحسين الوضع؛ والله ـ جل وعلا ـ جعل اليأس من سمات الكفار؛ إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[٢].

إن اليأس خطأ منهجي، لا يقع فيه المسلم الحق؛ وإن تنمية الذات ـ كالسياسة ـ هي دائماً فن الممكن.

(١) الوعي الذاتي: ١٣٦.
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

٤ ـ الشعور بالمسؤولية:

حين يشعر المرء بجسامة الأمانة التي رضي بحملها تنفتح أمامه آفاق لا حدود لها للمبادرة بالقيام شيء ما، إنه يرنو دائماً إلى اللحظة التي سيقف فيها بين يدي الله ـ جل وعلا ـ ويسأله عما كان منه. . .

في حالة الوعي بحقيقة التكليف لا يلتفت المرء إلى المتلكئين ولا إلى المثبطين، وإنما يستحضر حالة السبّاقين من أولي العزم الذين أمّروا عليهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين كان يطلي إبل الصدقة بالقطران بيده، وحين كان يقول: والله وددت لو أني خرجت منها ـ أي الخلافة ـ لا علي ولا لي. والذي كان يقول: والله لو عثرت شاة في أرض العراق لخشيت أن يسألني الله عنها، يقول: لِمَ لَمْ تعبد لها الطريق؟!!.

في حالات التخلف يصبح التهرب من المسؤولية ديدن الناس، ويندفعون إليه بالغريزة دون تفكير[1]، وينتظر كل واحد من الناس من الآخرين أن يفعلوا شيئاً، ويكون السواد الأعظم في مقاعد النظارة!.

إن ضعف الشعور بالمسؤولية لا يخلف وراءه سوى الشعور بالتفاهة والفراغ، وإن كثيراً مما يسمى مشكلات عاطفية وعقلية، ليس في جوهره سوى أعراض لذلك الشعور[2]!

إن علينا أن نوقن أن بزوغ (الشخصية) لا يتم إلا من خلال الشعور بالمسؤولية، وإن التقزم الذي نشاهده اليوم في كثير من الناس ما هو إلا وليد تبلد الإحساس بالمسؤولية عن أي شيء!.

٥ ـ الإرادة الصُّلبة:

يعطينا الرياضي نموذجاً طيباً في إرادة الاستمرار، فالتدريب الشاق

---

(١) يروى أن سلطاناً طلب من أهل قرية ملء بحيرة بالحليب خلال الليل، ووعدهم على ذلك بمكافأة سنية، وقد شرع أحدهم بصبِّ الماء في البحيرة بدل الحليب، على أمل أن ذلك لن يظهر، ولن يؤثر. وسرت الفكرة لدى الجميع. . . وحين لاح الصباح وجدوا أنفسهم أمام بحيرة من ماء لا بحيرة من حليب!!

(٢) العادات السبع: ١٠٢.

يُكسب المرء لباقة، وقوة في العضلات، وحتى لا يفقد لياقته، أو تترهل عضلاته، فإن عليه أن يواصل التدريب. وهكذا فإن تنمية الشخصية لا تعني شيئاً أكثر من الاستمرار في اكتساب عادات جيدة والتخلص من عادات سيئة.

ليس بالأمر اليسير الوفاء بالالتزامات كافة في المنشط والمكره، حتى الالتزام الجزئي فإنه يحتاج إلى إرادة لا تلين!

إن المشكلة أن صلابة الإرادة تكاد تكون إحدى نواتج التحضر، حيث يحدد رقي المجتمع وتخلفه المستوى العام من الإرادة اللازمة للعيش فيه بكرامة. وفي هذا السياق، فإن المجتمعات المتخلِّفة تحدد سقفاً منخفضاً من الإرادة الصُّلبة، على عكس المجتمعات المتقدمة. وهنا يأتي دور جيل (الرواد) الذين ينهضون بمجتمعاتهم، ويبنون بسلوكهم الفذ النموذج الأمثل، ويدعون الناس إليه. إن الرواد أقوام أفلتوا من حتميات مجتمعاتهم، ثم انفتلوا إليها، ليحرروا الناس من أوهاقها!.

إن تنمية الذات تحتاج إلى صبر، وإلى نَفَس طويل، وقد قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[(١)].

٦ ـ شيء من التحدي:

مهما كان الوعي النقدي يقظاً، ومهما تكن الأفكار عظيمة فإن تأثير الظروف والأوضاع العامة يظل أعظم أثراً في سلوك الناس وأحوالهم؛ ومن ثم فلا بد لتنمية الذات من وجود نوع من (معاكسة الظروف)؛ إذ إن السهولة عدو لدود لكل إبداع وكل تقدم!.

ليست المشكلة الجوهرية في عدم وجود التحديات ـ فهي موجودة ـ لكن المشكلة في طريقة الإحساس بها؛ إذ إن نعمة (التكيُّف) التي زود الله ـ تعالى ـ بها بني البشر تجعلهم يتلاءمون مع الصعوبات التي تواجههم تلاؤماً سلبياً، فيوطدون أنفسهم للتعايش معها ظناً منهم أنه شيء طبيعي، أو شيء

(١) سورة السجدة: آية ٢٤.

يصعب الخلاص منه. وفي كلتا الحالتين فإن قوى التغيير الكامنة تتبلد، وتضمر مع مرور الأيام.

هنا يأتي دور المفكرين وذوي البصيرة الذين يبرزون للناس المشكلات التي يعانون منها، ويحاولون وضعهم في مواجهتها، كما يدلونهم على الوضعية الصحيحة التي ينبغي أن يكونوا عليها. إن فقر أمة الإسلام إلى (الكتلة الحرجة) من أولئك المفكرين، جعلها لا تكتشف بطريقة صحيحة حجم التحديات والمخاطر التي تحيط بها، ومن ثم فإنها لم تستنفر قواها المخبوءة الهائلة للمقاومة والإبداع والترقي؛ بل إنَّ فينا من يقوم بوظيفة المخدِّر؛ حتى يستحكم الطوق، ونصل إلى نقطة اللاعودة!.

(٣) مبادئ وآليات في تنمية الشخصية

ربما أخذ طابع الحديث هنا شكل الموعظة والنصيحة، وهما ثقيلتان على النفوس، لكن يبدو أنه لا حيلة لنا في ذلك حيث تصطبغ كل الأحاديث عن التنمية بهذه الصبغة وأرجو ألا يحسب القارئ أن كاتب هذه السطور قد فرغ من الامتثال لكل ما يراه القارئ هنا، ثم انصرف إلى تنبيه الناس إلى محاسنه وضرورة الالتزام به، فنحن جميعاً في طريق واحدة، نستشرف أهدافاً واحدة، ونكافح من أجل التخلق بالأخلاق التي تليق بالمسلم، كما نكافح من أجل الخلاص من الوقوع في أحابيل الشهوات، وما تعودناه من سيئ العادات؛ ولا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه.

من الواضح أننا بفضل المبادئ والقيم السائدة بالإضافة إلى العلاقات الاجتماعية المختلفة ـ ننتقل من طور الطفولة إلى طور النضج، ومن التوحش إلى الإنسانية. ومن هنا فإن المطلوب تنميته في شخصيتنا ينقسم إلى قسمين:

قسم خاص بتنمية السمات الفردية، وقسم يتناول تنمية العلاقات الاجتماعية مع الآخرين. ولا يقل القسم الثاني أهمية عن القسم الأول؛ حيث إن النجاح فيه ذو أهمية بالغة لكل واحد منا؛ بالإضافة إلى أنه مرآة تعكس النجاح والتقدم الذي يحققه الناس على الصعيد الفردي.

وسنذكر ـ بحول الله تعالى ـ في كل قسم من القسمين بعض الأفكار والأساليب التي نظن أن من شأنها تنمية الشخصية والارتقاء بها إلى المستوى اللائق.

أ ـ تنمية الشخصية على الصعيد الخاص:

١ ـ لا بديل عن التمحور حول مبدأ:

إذا أراد المرء أن يعيش وفق مبادئه، وأراد إلى جانب ذلك أن يحقق مصالحه إلى الحد الأقصى فإنه بذلك يحاول الجمع بين النقيضين! إنه لا بد في بعض المواطن من التضحية بأحدهما؛ حتى يستقيم الآخر.

إن تحقيق المصلحة على حساب المبدأ يعد انتصاراً لشهوة أو غرض آني. أما الانتصار للمبدأ على حساب المصلحة فإنه بمثابة (التربع) على قمة من الشعور بالسعادة والرضا والنصر والحكمة والثقة بالنفس.... وقد أثبتت المبادئ أنها قادرة على أن تكرر الانتصار المرة تلو المرة، وأن الذي يخسر مبادئه يخسر ذاته، ومن يخسر ذاته فإنه لا يصح أن يقال: إنه كسب بعد ذلك أي شيء!

ماذا لو قبل النبي ﷺ بعروض قريش من الجاه والمال والنساء، إنه لا يعدو آنذاك أن يكون واحداً من ساداتهم، لكنه قال قولته المشهورة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته؛ حتى يُظهره الله، أو أهلك دونه»!.

إن المبدأ أشبه شيء بـ(النظّارة) إذا وضعناها على أعيننا فإن كل شيء يتلوّن بلونها. فصاحب المبدأ له طريقته الخاصة في الرؤية والإدراك والتقويم. وحين يتقاتل الناس على الاستحواذ على شيء ما، فإنه ينظر إليهم نظرة استغراب؛ لأن مبدأه يعلمه أن المكاسب المحرَّمة ليست مكاسب، وإنما هي مصائب تنزل في نفوس المستحوذين عليها وديارهم[١].

بعض الناس يتمحور حول سمعته في سوق العمل، وبعضهم يتمحور حول زوجه، وبعضهم حول المال أو المتعة أو الجاه فيكون ما يتمحور حوله هو أساس كل تفسير لأنشطتهم المختلفة. إن شعور الانحطاط والهزيمة يلازم

---

(١) انظر حول ميزات التمحور حول المبدأ العادات السبع: ١٢١.

هذا الصنف من الناس، ويكون اجتياح ذلك الشعور متناسباً مع الفجوة التي تفصل بين مبادئهم وسلوكاتهم!

إن طبيعة المبدأ أنه يمد صاحبه ـ كلما تحقق به ـ بقوى وإمكانات خارقة وخارجة عن رصيده الفعلي!.

التمحور على المبدأ هو الذي يمنح الحياة معنى، ويجعلها تختلف عن حياة السوائم الذليلة التي تكافح من أجل البقاء المجرد والتكاثر. المبدأ هو الذي يُضفي على تصرفاتنا الانسجام والمنطقية، وهل للاستقامة معنى سوى ذلك؟

نحن لا ننكر أن الظروف الصعبة توهن من تأثير المبادئ في السلوك، لكن تلك الظروف نفسها هي التي تعطينا العلاقة الفارقة بين أناس تشبعوا بمبادئهم؛ حتى اختلطت بدمائهم ولحومهم، وبين أناس لا تمثل المبادئ بالنسبة لهم أكثر من تكميل شكلي لبشريتهم واستحقاقهم العيش في مجتمع!!.

٢ ـ ركز اهتمامك في دائرة تأثيرك:

إن المسائل التي نواجهها تنحصر في ثلاثة مجالات:

مجال السيطرة المباشرة وهذا تقع فيه المسائل المتعلقة بتصرفاتنا الخاصة. ومجال السيطرة غير المباشرة، وتقع فيه المسائل المتعلقة بتصرفات الآخرين. وسيطرتنا غير المباشرة في هذا المجال تتفاوت تفاوتاً عظيماً؛ إذ إن هناك فارقاً بين أن يكون ذلك الآخر جاراً لي، وبين أن يكون شخصاً محتكراً لسلعة ما، ويعيش في قارة أخرى.

المجال الثالث هو مجال انعدام السيطرة، مثل تأثيرنا في قضايا ماضية[١]، ومثل المحددات الوراثية التي يرثها الأبناء عن الآباء، ومثل التأثير في المناخات والتيارات العالمية.

---

(١) السابق: ٧٥ وما بعدها.

إعطاء كل دائرة من هذه الدوائر ما تستحقه من الاهتمام أمر مهم للغاية، إذ إن طاقاتنا محدودة، ودوائر اهتماماتنا في حالة من الاتساع الدائم، حيث صارت أخبار العالم تلج البيوت دون استئذان؛ وتشتيت جهودنا على دوائر اهتمامنا كافة دون تركيز أو تمييز سوف يكون من الأخطاء الكبرى في حياة الواحد منا!.

وهذا الخطأ الفادح يقع فيه ـ مع الأسف ـ السواد الأعظم منا حيث تجد كثيرين يقضون أوقاتاً طويلة في معرفة أخبار العالم الإسلامي، وأخبار أسعار العملات والكوارث في أنحاء العالم... دون أن يقع شيء من ذلك في دائرة التأثير المباشر أو شبه المباشر لأي منهم!

إن أوقاتنا وإمكاناتنا وثرواتنا وعاداتنا هي مجال تأثيرنا المباشر، ومن ثم فإنه ينبغي إعطاؤها الاهتمام الأشد والأكبر؛ لأن استثمار العناية والاهتمام فيها سيكون ذا فائدة عظيمة. ومهما تكن حيلتنا قليلة ومحدودة في هذه الدائرة؛ فإن استخدام ذلك القليل سيوسع دائرة التأثير، بمعنى أن سلطاننا يمتد باستمرار ليغطي مساحات جديدة من دائرة اهتمامنا، من المجالين الثاني والثالث. ومن المهم أن نعرف كيف يتم ذلك.

إذا اتجهت أنا وغيري من المسلمين في بلد ما إلى التركيز على دائرة التأثير؛ فهذا يعني أننا سوف نكون أفضل في سلوكنا ومعرفتنا واقتصادنا وفهمنا لمحيطنا؛ لأن هذه الأشياء جميعاً هي ضمن دائرة تأثيرنا، وهذا يعني أننا سنقدم قدوة صالحة ونموذجاً حسناً لأبناء مجتمعنا، وللمسلمين في البلاد الأخرى، كما يعني أننا سنفهم مشكلات العالم الإسلامي بشكل أفضل، كما أننا نستطيع تقديم نوع من الدعم، والمساندة لهم على مستوى الخبرة والمعونة المادية.

ويعني نجاحنا في مجالنا الخاص أيضاً أننا نستطيع أن نؤثر في مجالات بعيدة جداً عنا. فإذا ارتفعت أسعار بعض السلع المستوردة ـ مثلاً ـ أمكننا أن ننشر في دوائر تأثيرنا وعياً بضرورة التقليل منها أو الامتناع عن استهلاكها،

وذلك سيؤدي غالباً إلى تخفيض سعرها[1]. فعملية النجاح في الإقناع بضرورة الاعتقاد عملية محلية ضمن دائرة التأثير المباشر، لكن النجاح يعني التأثير في دائرة بعيدة، هي دائرة المصدِّر لتلك السلعة.

أما المجال الثالث الذي لا نملك حياله أي شيء فإننا في حالة التحسن والتقدم في المجال الأول نستطيع أن نؤثر فيه بعض التأثير؛ فبالنسبة للماضي ـ مثلاً ـ نستطيع فهمه بشكل أفضل، وأن نأخذ العبرة منه، ونفهم مدى تأثيره في تشكيل الحاضر، كما أننا نفهم الأفكار المغلوطة المتسربة منه والمفاهيم الشائعة عنه، ونعرف ما كان منه ابتلاء، وامتحاناً ربانياً فنرضى به، وما كان منه متولداً بسبب أخطاء السابقين، فنحاول اجتنابها... وهكذا فبتأثيرنا في مجالنا المباشر يصبح ما يُظن أننا لا نملك أية حيلة تجاهه ـ ضمن نشاطات تأثيرنا.

لا يعني كل هذا الانصراف الكلي إلى الدائرة المباشرة، لكنه يعني أن ننزع إلى (العملية) ونستثمر جهودنا فيما يمكن أن يحقق نتائج ملموسة.

٣ ـ الفجوة الكبيرة بين الطموح والإنجاز مصدر شقاء:

مع أن أحوال كثير من الناس أفضل من أحوال آبائهم في السكن والطعام والشراب... إلا أن شعور الآباء والأجداد بالرضا والسعادة كان أعظم! وربما كان السبب في ذلك أن طموحات السابقين في اقتناء الأشياء والاستحواذ على الثروات كانت أقل، وآفاق شهية التملك كانت أضيق. وتؤكد الدراسات أن الظروف الموضوعية ليست ذات تأثير كبير في الشعور بالرضا، وأن اتساع أطماع الناس أكثر مجلبة للشقاء لهم من سوء الظروف المعاشية التي قد يعانون منها[2].

---

(١) كان إبراهيم بن أدهم إذا قيل له: غلا الشيء الفلاني ـ يقول: أرخصوه بالترك، وينشد:

وإذا غلا شيءٌ عليَّ تركتُه ... فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا

(٢) سيكلوجية السعادة: ٢١٤.

يزداد الشقاء والإحباط لدى الناس عندما يتخذون قراراتهم على أفضل التصورات وأحسن الاحتمالات، ثم يُصدمون بعد ذلك؛ فالتجارة للربح والدراسة للنجاح، والسفر للمتعة والترويح، ولا يُحسب أي شيء آخر ربما يقع! ولذا فإن التفاؤل الذي يزيد عن حده سرعان ما ينقل إلى يأس وإحباط!.

اتساع الفجوة بين الطموحات والإنجازات مصدر شقاء واحتقار للذات لدى كثير من أبناء الجماعات الإصلاحية؛ حيث يتخيل كثير منهم أن بإمكان جماعته قلب أحوال مجتمع بأكمله، مع أنها تكون في حالة لا تتمكن فيها من (لملمة) نفسها والحفاظ على رأس مالها من أبنائها وأتباعها.

في الحديث عن النبي ﷺ: **«قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنَّعه الله بما آتاه»**(١).

وروي عنه أيضاً: **«ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»**(٢).

ليس فيما نقوله دعوة إلى أن يعيش المسلم دون طموحات، ولكن دعوة إلى أن تكون الطموحات مشروعة ممكنة التحقيق، ومتناسبة مع الإمكانات المتاحة.

٤ ـ حافظ على الصورة الكلية مهما كان العمل الذي تقوم به مهماً:

المنهج الإسلامي في بناء الشخصية يقوم على الشمول والتكامل، وهناك نصوص كثيرة جداً تشير إلى ضرورة تنمية كل أبعاد الشخصية: العقلية والروحية والبدنية والعاطفية... والملاحظ أن لدى الإنسان قابلية عجيبة للانجذاب نحو محور من المحاور، وترك باقيها غفلاً دون أدنى اهتمام. وهذا مشاهد لدى السواد الأعظم من الناس؛ إذ ليس من النادر أن ترى من

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان.

يصرف كل اهتمامه إلى (الرياضة) على حين أنه لا يقرأ كتاباً واحداً في السنة أو جزءاً من القرآن في الأسبوع. ونجد في المقابل كثيراً من أبناء الدعوة وطلاب العلم، لا يقيمون للياقة البدنية أي وزن، بل إن بين بعضهم وبين الرياضة نوعاً من العداء!

وهناك من ينهمك في المسائل الفكرية والتنظيرية، لكنه يعاني من جفاف روحي وبرود عاطفي قاتل! وهناك من يقف على النقيض...

إن المرء ينتزع الإعجاب عندما يجتمع فيه ما تفرَّق في غيره، وإن العناية الزائدة بجانب من الجوانب على حساب جانب آخر، هي نوع من التنمية المشوَّهة، والتي تظهر في بعض الأحيان كما لو كانت نوعاً من البراعة النادرة، لكنها في النهاية تشويه وتبديد لفضيلة التكامل، كما لو كان لأحد الناس يد طولها خمسة أذرع، فمع أن ذلك لا يخلو من بعض الميزات إلا أنه بعيد عن الكمال والجمال!

حتى لا نفقد الصورة الكلية للوضعية التي ينبغي أن نكون عليها يجب أن نقوم بأمرين:

الأول: أن ننظر دائماً إلى خارج ذواتنا، من أجل المقارنة، ومن أجل أن نستشرف ما نحن عليه عن كَثَب؛ إذ إن الرؤية تتشوه عندما نعزل ذواتنا وأوضاعنا عن السياق الاجتماعي والتاريخي.

الثاني: أن ننظر دائماً إلى أهدافنا الكلية ومدى خدمة بنائنا لأنفسنا لتحقيق تلك الأهداف.

٥ ـ اقطع على نفسك عهوداً صغيرة، وحاول الالتزام بها:

إذا كان البحر عبارة عن تجمع لقطرات الماء، وإذا كان الجبل تجمعاً لحبات الرمل ـ فلا يوجد إذن شيء لا أهمية له؛ فالأعمال الطيبة الصغيرة حين تتراكم تصنع من الرجل إنساناً عظيماً!.

من خلال التجربة وجدنا أن أفضل السبل هو محاولة الالتزام بعادات

وسلوكات محددة، كأن يقطع المرء على نفسه أن يمشي كل يوم نصف ساعة مهما كانت المشاغل والأجواء، من أجل تجديد بعده البدني، وكأن يلتزم بأن يستيقظ قبل الفجر مرة كل أسبوع، وكأن يلتزم أن يقرأ نصف ساعة كل يوم في موضوع محدد وهكذا...

والحرفية مذمومة إلا في هذا حيث إن الالتزام الحرفي هو السبيل الوحيد للاستمرار في الأعمال الطيبة.

يجب أن يكون ما نُلزم به أنفسنا ميسوراً وضمن الطاقة، لكن إذا قررنا الالتزام، فليكن صارماً إلى أبعد حدود الصرامة والدقة.

وفي الحديث: «**عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه**»(١).

٦ ـ إهمال التافه يحوّله إلى شيء ملحّ ومهم(٢):

الأعمال التي ينبغي علينا أن ننجزها تنقسم إلى قسمين: أعمال ملحَّة لا يجوز تأجيلها، وأعمال غير ملحَّة، يصح تأجيلها إلى وقت آخر.

ما يجب إنجازه الآن لا يشكل مشكلة، لكن المشكلة في الأشياء غير الملحَّة والتافهة، حيث إننا تعودنا أن نعاملها بإهمال تام، بل قد نستغرب ممن يهتم بها وهذا الإهمال يؤدي إلى أمرين سيئين:

أولهما: أن كثيراً من الأشياء التافهة يتحول إلى أشياء مهمة بل قاتلة.

الثاني: أن حياتنا تصبح مزدحمة بالأشياء المهمة، وهذا يعني أن نظل دائماً مأزومين ومغلوبين لمتطلبات الحياة المتعاقبة!.

ما زال الشفاء من مرض السرطان متوقفاً إلى حد كبير على المرحلة التي يُكتشف فيها، وكلما كانت مبكِّرة كانت إمكانات الشفاء أكبر ـ بإذن الله ـ

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) انظر العادات السبع: ١٥١.

وعدم الالتفات إلى أعراضه قد يحوله من مرض ممكن العلاج إلى مرض مستعص. . .

أسنان المرء يكون علاجها سهلاً ما دامت هناك متابعة فإذا أهملها شكلت له قضية مزعجة. . . خلل يسير في سيارة الواحد منا قد لا يكلف إصلاحه شيئاً إذا تمَّ في وقته، لكن إهماله قد يخرب أجزاءً أخرى مهمة، وقد يفضي إلى وقوع كارثة!.

لنجرب التفكير في الأشياء غير المستعجلة، ولنتعود التعامل معها بجدية حتى لا تتوالى علينا القضايا المنغِّصة.

٧ ـ اعمل ما هو ممكن الآن، ولا تنتظر تحسُّن الظروف:

في تراثنا العربي أدب، يسمى (أدب الشكوى من الزمان) فقد كان الناس باستمرار يشكون من سوء الأحوال وتكدر الزمان، وكان الناس، وما زالوا يعتقدون في كل عصر أنهم وصلوا إلى القاع، وأنه ما مرَّ على غيرهم زمان أسوأ مما هم فيه. ويظل في حسِّهم أن ما هم فيه مؤقت، وأن الغمَّة سوف تنقشع ولو بعد حين!.

فهل الناس في وهم تجاه هذه القضية؟

لا شك أن جزءاً من إحساس الناس صحيح، حيث يسعى الوعي البشري إلى شيء من الثبوتية، ويجفل من التغييرات الطارئة، ويقلق بشأنها، ويدرك السلبي منها على حين تكون حساسيته نحو ما تحمله من إيجابيات ـ غالباً ـ ضعيفة!.

الشعوب المحسودة اليوم كانت في يوم من الأيام في أوضاع أسوأ مما نحن فيه، ومن خلال مباشرة الممكن والتخطيط والتنظيم والإبداع والتضحية وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

علينا أن نفترض دائماً أننا لم نصل إلى الهاوية بعد، وأن الأسوأ ربما يكون في الطريق، وأن التحسن الذي قد يطرأ على أحوالنا لا ندري متى

يكون ـ فذلك غيب ـ ولا ندري هل سندركه لنعمل في أجوائه أو لا؟ وإذا أدركناه، فهل أوضاعنا الشخصية الخاصة تمكِّننا من الاستفادة منه؟

ويجب علينا بعد ذلك أن نتحلى بروح الإيجابية من خلال الإدراك بأن كل تحدٍ يسبب أزمة، لكنه في الوقت نفسه يمنح فرصة، ويتيح لأولي العزائم السبّاقة أن يكتشفوا في أنفسهم والأدوات التي بين أيديهم والظروف الموضوعية من حولهم ـ إمكانات جديدة للعمل والحركة والنفع والأداء الجيد، وهذا واضح في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾[1].

ليكن شعارنا دائماً: (باشر ما هو ممكن الآن). وإذا عملنا بهذا الشعار فسوف نكتشف أن الصعوبات التي نواجهها مترابطة، وأن مباشرة الممكن سوف تجعلنا نمسك بطرف الخيط، ونبني رأس جسر للعبور إلى باقيها. إذا فعلنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكناً غداً!

ولنراقب دائماً ردود أفعالنا على المشكلات فإنه خلاصة تربيتنا وعلمنا واستيعابنا.

٨ ـ العمل نعمة وليس مجموعة مشاق:

تداعب خيالَ الكثيرين منا أمنيات الفراغ والخلو من المسؤوليات، والتحكم المطلق بأوقات النوم والراحة والسفر... وبعض الناس يخطط للوصول إلى هذه الوضعية!

كل الخبرات والدراسات يؤكد أن الظن بأن الخلو من الأعمال يجلب السعادة هو مجرد وهم؛ فالعمل بالإضافة إلى كونه مصدراً للرزق ـ يوفر نظاماً لاستخدام الوقت، وقيام اتصالات اجتماعية ـ من خلال الزمالة ـ خارج نطاق الأسرة، بالإضافة إلى ربط المرء بأهداف وغايات محددة، وتوفير مستوى مرتفع من النشاط[2].

---

(١) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

(٢) سيكلوجية السعادة: ٨٦.

وعلى العكس من هذا فقد أفادت بعض الدراسات أن فقد العمل يورِّث الشعور بالملل والغضب من المجتمع والشعور بالوحدة وقلة الحيلة[1].

كما وجد أن العاطلين يصبحون أكثر ميلاً إلى إدمان الكحول، كما أن هناك علاقة بين البطالة والاضطراب العقلي[2].

ولا ريب أن من الأعمال ما يخلو من كثير من هذه الميزات، فالأعمال الرتيبة والشاقة جداً والأعمال الآمنة والمنخفضة الأجور ـ كل هذه الأعمال لا توفر البهجة والراحة، وعلى المجتمع أن يتساعد في تحسين ظروف العمال الأسوأ وضعاً.

٩ ـ لنحاول تحسين لغتنا وعباراتنا:

قديماً قالوا: تكلموا تُعرفوا. وإن كثيراً من الناس نأخذ عنهم انطباعاً أولياً جيداً إلى أن يتحدثوا، فحينئذ إما أن يترسخ ذلك الانطباع، وإما أن نلوم أنفسنا عليه!.

طيب الكلام وإلانته أدب إسلامي رفيع، فقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[3]. وفي الحديث: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة؛ فمن لم يجد فبكلمة طيبة**»[4].

كما أن وضوح الكلام وإعادته إذا اقتضى التفهيم ذلك أدب من آداب النبوة، وقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**كان كلام رسول الله ﷺ كلاماً فصلاً، يفهمه كل من يسمعه**»[5].

من الآداب الإسلامية الرفيعة الابتعاد عن الألفاظ التي قد تخدش الذوق

---

(١) السابق: ٢٧.
(٢) السابق: ٧٤، ٧٨.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.
(٤) أخرجه الشيخان.
(٥) أخرجه أبو داود؛ وإسناده حسن.

العام التي تجد في السمع نوعاً من النبوة وفي هذا جاء قوله ﷺ: «**لا يقولنَّ أحدكم: خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي**»[١]. فقد حثَّ على استخدام كلمة (لقست) بدل (خبثت) مع أن معناهما واحد.

وهناك عبارات نستخدمها للدلالة على حالات معينة، وقد تُشعر الآخرين بعجزنا أو تأزمنا أو تهجمنا عليهم، والأفضل أن نعدل عنها إلى غيرها من نحو[٢]:

العبارات المفضولة	العبارات الفاضلة
يتحتم علي..	أنا أريد أن... أنا أختار..
سأحاول إنجازها يوماً ما	سأنجزها إن شاء الله اليوم أو الآن
هذه مخاطرة	هذه فرصة
كلامك غير واضح	أعني على الفهم
أشعر بالعجز	أود الحصول على مساعدتك
فهِّمني	ساعدني على الفهم
هذا ما أنا عليه	إمكاناتي للتحسن هي...
هذا صعب للغاية	هذا يمثل تحدياً

إذا أعجب الواحد منا بشيء فليظهر إعجابه، وإذا ساءه شيء، فلينقده بأدب، ودون تجريح. لنحاول سماع المتحدث، وعدم مقاطعته، وعدم الانشغال عنه، ولنحرص على عدم الاستئثار بالحديث...

لنتذكر دائماً أن كلمة واحدة قد تداوي جراحاً غائرة، وأن أخرى قد تؤدي إلى نشوب حرب! وفي الحديث الشريف: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يُلقي لها بالاً، يرفعه بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) دليل التدريب القيادي: ١٨٧.
(٣) أخرجه البخاري.

١٠ ـ لنحاول مراجعة معايير النجاح:

إن الانتقال في مجال الأخلاق والسلوك من الموضوعي إلى الذاتي ربما كان أسوأ انتقال في العصر الحديث. وهذا الانتقال حدث في الغرب أولاً، ثم انتقلت عدواه إلينا. فقد كانت الأدبيات السائدة في الولايات المتحدة ـ مثلاً ـ قبل خمسين عاماً، ولمدة مئة وخمسين عاماً تركز على ما يمكن أن يسمى (المزايا الأخلاقية) مثل الاستقامة والتواضع والإخلاص والاعتدال والشجاعة والنزاهة والصبر والمواظبة والبساطة...

وهذه السمات تؤكد جميعاً أن هناك مبادئ أساسية للحياة الفاعلة، وأن تحقيق أي نجاح حقيقي متوقف على استيعاب هذه الأخلاق والالتزام بها.

بعد الحرب العالمية الأولى تحولت النظرة الأساسية للنجاح من المزايا الأخلاقية إلى ما يمكن أن يسمى (المزايا الشخصية) حيث صار النجاح مرتبطاً بالمواقف والتصرفات والمهارات والتقنيات التي تسهِّل التعامل بين الناس. والإنسان الناجح شخص له سمتان: القدرة على بناء علاقات اجتماعية ناجحة وواسعة، والوضع الذهني الإيجابي.

لقد صار الدافع الأساسي هو فن التأثير السريع، واستراتيجيات القوة، والمهارة في الاتصالات والمواقف الإيجابية[١].

حين يصبح تعريف الإنسان (الناجح) هو الذي يحوز ثروة أكبر، ويؤثر في الناس أكثر، ويستطيع الفوز في المناقصات بصورة غير عادية، فإنه لا توجد قوة أرضية تمنعه من أن يصبح النموذج الأسوأ في مجتمعه؛ حيث يقترب النجاح من أن يكون نوعاً من اللصوصية والخداع وخيانة الضمير!!.

إن النجاح الدنيوي الذي لا ينسجم مع النجاح الأخروي ليس بنجاح، وإنما هو نوع من البروز الشكلي والمؤقت؛ والعاقبة للتقوى.

إن سريان المبدأ في كل خطوة بناء هو الضمان الوحيد لبقائنا على طريق التقدم الحقيقي!.

---

(١) انظر في هذا العادات السبع: ١٠، ١١.

١١ ـ احرص على كتابة بيان المهمات الشخصية:

هناك نوع من (الوصايا الصغرى) التي ينبغي أن تكون ذات حضور دائم في حياتنا اليومية. وتلك الوصايا كثيرة جداً، لكن سنذكِّر هنا بمفردات مهمة منها؛ لعل ذلك يثير التفكير في تهيئة الوسائل والظروف المساعدة لتجسيدها في السلوك؛ وذلك فيما يلي:

- اسع لمرضاة الله دائماً.
- لا تساوم على مبادئك.
- حاول أن تستحضر النية الصالحة في كل مباح.
- لا تجادل في خصوصياتك.
- النجاح في المنزل أولاً.
- حافظ على لياقتك البدنية، ولا تترك عادة الرياضة مهما كان الظرف.
- لا تساوم على شرفك وكرامتك.
- استمع للطرفين قبل إصدار الحكم.
- تعوّد استشارة أهل الخبرة.
- دافع عن الغائبين.
- كن مخلصاً، ومع ذلك حازماً.
- طوّر مهارة جديدة كل عام.
- خطط اليوم لعمل الغد.
- كن إيجابياً دائماً.
- كن مرتباً في شخصك وعملك.

- لا تخش الخطأ، واخش الاستمرار عليه.
- راقب ردود أفعالك.
- كن هادئاً.
- كن مبتسماً.
- سهل نجاح مرؤوسيك.
- أعدَّ نفسك للعمل ضمن فريق.
- استمع ضعف ما تتكلم.
- ليكن لك دائماً أهداف مرحلية قصيرة.
- افتح عينيك على الوقت جيداً، لا يمرّ دون فائدة.
- حاول دائماً أن تتخلص من العادات المسببة للإدمان.
- أخضع دوافعك لمبادئك.
- وفّر شيئاً من دخلك للطوارئ وللاستثمار.
- لا تقترض من أجل أشياء استهلاكية.
- حاول أن يتحسن وضع التنفل والتعبد لديك.
- أخضع رغباتك لإمكاناتك المادية[١].

بإمكان المرء أن يكتب بعض هذه العبارات على لوحات في منزله أو سيارته وأتمنى لو أنه كُتب بعضها، ووضع في المساجد والمدارس والجامعات وعلى مفارق الطرق والأماكن العامة؛ لأنها تمثل دستوراً للإنسان المستقيم السبّاق.

---

(١) انظر في بعض ما سبق العادات السبع: ٩٩ ـ ١٠١.

١٢ ـ ليس الترفيه أمراً ثانوياً:

يمكن تعريف الترفيه بأنه: ممارسة نشاط مختلف عن النشاط المعتاد، نختاره بحرية ـ أي بدون احتياج ـ لكي نحسِّن من أوضاع النفس والجسد. وإذا وافقنا على هذا التعريف، فهل يكون الترفيه كمالياً[(١)]؟.

إن من المؤسف له أن بعض الناس لا يعرف من الترفيه سوى ارتياد أماكن اللهو والفجور، وبعضهم يقف على الطرف المقابل، فينظرون بشيء من الجفاء إلى الأنشطة الترفيهية والكشفية، بالإضافة إلى الضبط الزائد لإيقاع الحركة ضمن مؤسساتهم وأنشطتهم الخاصة..

إن من هديه ﷺ أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة، أي يتلمس أوقات نشاطهم، فيحدِّثهم فيها، ويعرض عن تحديثهم في بعض الأحيان خشية السآمة عليهم.

وكان بعض علماء السلف يخرجون إلى البساتين، فيمرحون، ويلعبون ويجددون حيويتهم، ليعودوا بهمة جديدة إلى حياة العلم والتعلم[(٢)].

إن من الحيوي جداً أن يكون للمرء سويعات يقضيها في اللعب مع أولاده، وسويعات يخرج فيها في رحلة قصيرة، وأوقات يقضيها مع إخوانه في ملاطفة ومسامرة فالقلوب إذا كلّت عميت، وفقدت الحياة بعض معانيها. إن الأنشطة الحرة تجعل المرء يشعر بالتجدد والاستقلالية والتأنق، وتقوّي لديه روح المبادرة الفردية، كما أنها تكسر رتابة الحياة التي تفرضها أجواء العمل.

إن الترفيه حاجة من الحاجات النفسية والعقلية والبدنية، ومن ثم فلا بد من توضيح أطره وضوابطه الشرعية للناس، بالإضافة إلى إرشادهم إلى

---

(١) المدرَك والغامض: ١٧٠.

(٢) يذكرون في ترجمة ابن مجاهد شيخ قراء بغداد أنه خرج إلى البستان مع بعض كبار علماء بغداد، وصاروا يلعبون بإدارة دولاب كان هناك. فنظر إليهم بعض الناس مستغرباً فقال له ابن مجاهد: التعاقل في البستان كاللعب في المسجد!

استثمار أوقات الفراغ على نحو مبدع مفيد، وهذه من المسؤوليات الرئيسية لكل الجهات التثقيفية والإعلامية.

١٣ ـ تعوَّد تأجيل الرغبات:

ركون النفس إلى الكسل والخمول والهروب من الواجبات وأشواقها إلى العبِّ من الملذات لا حدود لها. والذي يتبع هواه في إرواء رغباته كالذي يشرب من ماء البحر، كلما شرب ازداد طمأ!.

إن ديننا يعلمنا بناء (العقل) المستقبلي من خلال التضحية بالحاضر في سبيل القادم، وبالزائل في سبيل الباقي، وهل الالتزام شيء غير هذا؟

كثيرون منا أولئك الذين ينشغلون بالتوافه عن الأعمال الجليلة، وكثير أولئك الذين ينقطعون عن (القراءة) لأدنى طارئ، وأولئك الذين يقضون قسطاً كبيراً من أوقاتهم في التسوق وقضاء حاجات ثانوية، يمكن تأجيلها إلى آخر الأسبوع...

ليسجل كل واحد منا على نفسه كم مرة في اليوم استطاع تأجيل رغبة ملحَّة للقيام بعمل مهم. وكم مرة قطع عمله من أجل خاطر خطر على باله، وهو لا ينطوي على أي شيء مستعجل أو ذي قيمة!

ليحاول كل واحد منا أن يحرز بعض التقدم في هذه السبيل. إننا لو حسبنا الأوقات التي يمكن أن نكسبها فيما لو سيطرنا على عالمنا الداخلي، لوجدناها أكثر بكثير مما يُظن! إن تأجيل الرغائب دليل واضح على اتزان الشخصية وتماسكها ونضجها، كما أنه دليل على أن للمرء أهدافاً واضحة، ينشدُّ إليها، ولا يمكنه أن يتخلى عنها بسهولة. ولا يخفى أن بعض النزوات لا يحتاج إلى تأجيل، وإنما إلى شطب كلي؛ لأن الاستجابة لها مدمرة!.

١٤ ـ لا تكن شخصاً عادياً:

لا يكون المتدين الحق إنساناً عادياً؛ إذ إن طبيعة الالتزام الصحيح تقتضي التفوق؛ فالسلوك المستقيم والحرص على الوقت والمنافسة في الخير

والتفكير الدائم. . . . كل ذلك يُخرج المرء من صفوف العاديين إلى صفوف المتفوقين. وإذا رأينا شخصاً ظاهره التدين، ثن رأيناه لا يختلف عن غيره من العامة فلنعلم أن تدينه منقوص، وأن جانباً من جوانب التدين لديه ما زال ضامراً أو مشوَّهاً.

لا بد من القول: إن السواد الأعظم من الناس أشخاص عاديون؛ لأن ذلك هو الشيء الذي لا يحتاج إلى أي جهد، والتميز يحتاج دائماً إلى جهود خاصة واستثنائية.

بإمكان كل واحد منا أن يكون متميزاً في جانب من شخصيته أو عمله أو سلوكه.

وعلى كل واحد أن يحاول أن يعرف أوضاع نفسه، وأن يرفع من قدرها بمزيد من التميز والتفوق والسبق.

كتب أحد الباحثين حول الوضعية العامة للإنسان العادي: «ولد السيد العادي سنة ١٩٠١، وكانت درجاته الدراسية دون المتوسط، وتزوج الآنسة «وسيطة» في سنة ١٩٢٤، ورزق بطفل سماه «العادي الأصغر» وابنة سماها «العاديَّة». قضى أربعين سنة في خدمة لا شأن لها، وشغل عدداً من المراكز التافهة، لم يجرب أبداً أية مخاطرة، ولم يغتنم أية فرصة، وتعمّد ألا يطوِّر مواهبه، ولم يشترك مع أحد في شيء، كان شعاره المفضل «لا دخل لي في هذا»، «ابتعد عن الشر وغنِّ له».

عاش ٦٠ سنة بدون هدف ولا خطة، ولا رغبة ولا ثقة ولا عزم ولا تصميم. كتبوا على قبره.

هنا يرقد

السيد/ العادي.

ولد سنة ١٩٠١، ومات سنة ١٩٢١ ودفن سنة ١٩٦٤

لم يحاول أبداً أن يفعل أي شيء.

طلب من الحياة القليل.

ودفعت الحياة ثمنه[1]!!.

١٥ ـ التدين مصدر هناء:

لا يحتاج الملتزم بدينه التزاماً صحيحاً إلى قراءة هذه الفقرة؛ لأنه يعيش تحت أفياء هذه النعمة العظمى، وهل يحتاج من يغتسل بشلالات الضياء في وهج الظهيرة إلى من يذكره بطلوع الشمس!!.

إن المتدين يتمتع براحة الضمير وتناسق السلوك مع الداخل، كما أنه في حصن من الاضطراب النفسي والعقلي وازدواج الشخصية، حيث ليس له سوى وجه واحد وموقف واحد!. وبنيته العقدية تمد خيوط النور في داخله، وتفتح له أبواب الأمل المتجدد، ومن ثم كانت الظاهرة الإسلامية المعروفة: «المسلم لا ينتحر»!.

وقد دلت بعض الدراسات على أن كبار السن أكثر تديناً، وأن هناك علاقات قوية بين التدين والهناء لديهم، فالمتدينون أكثر سعادة. الخوف من الشيخوخة الذي يسيطر على أعداد كبيرة من الناس ما هو إلا فرع من الخوف من الأمراض المزمنة ومن الموت. وتخفف قوة العقيدة الدينية من تأثير الخوف من الموت. يفيد التدين الصحة؛ إذ تبين أن لدى المتدينين معدلات أكثر انخفاضاً لعدد من الأمراض، ولا سيما أمراض القلب والرئة وتليف الكبد وبعض أنواع السرطان وبعض أنواع الأمراض الفتاكة، مثل (الإيدز).

إن التدين مصدر لحالة من سلام النفس وتخفيف التوتر[2].

إن على أهل الخير أن يعكسوا ما يشعرون به من رفاه وسعادة داخلية على سلوكهم ومظهرهم وعلاقاتهم مع الآخرين حتى يجذبوا المزيد من التعساء إلى واحة التدين الغنّاء!.

---

(١) دليل التدريب القيادي: ٢٧٠.

(٢) سيكلوجية السعادة: ٢١٠، ٢٥١.

١٦ ـ كن فعّالاً:

يعرّف أحد الباحثين الفعالية بأنها: «القدرة على تحقيق أقصى إنتاج ممكن باستخدام الموارد المتاحة أحسن استخدام ممكن»[١].

يؤكد القانون الثاني لـ(الديناميكية الحرارية) أنه لا يمكنك تحويل الطاقة الحرارية إلى عمل من غير أن تفقد جزءاً من هذه الحرارة. وهذا ينطبق على بني البشر أيضاً[٢]، فاستثمار الطاقات والإمكانات سيظل ناقصاً ونسبياً، وفاعلية الناس بالتالي نسبية. ولا بد للمرء حتى يستثمر إمكاناته والفرص المتاحة له على الوجه الأمثل أن ينتبه إلى عدد من المبادئ والإجراءات والوسائل التي تساعده على ذلك ومنها:

أ ـ إن ناتج الإنسان على أي صعيد لا يوصف بأي وصف على نحو مطلق، ولكن لا بد من النظر إليه من زاوية الإمكانات المتاحة لصاحب المنتج، والوقت الذي تم فيه الإنتاج، وحينئذ يمكن الحكم على كفاءة الشخص أو الجهة صاحبة الإنتاج.

وبما أن المرء تظل أمامه إمكانية لعمل شيء ما مهما تكن الظروف سيئة؛ فإن على الواحد منا أن يتساءل دائماً: ما هو الشيء الذي بإمكاني أن أفعله الآن ثم لا أفعله؟

إنني على يقين أن أكثر من ٣٠٪ من أوقاتنا يشتمل على إمكانات جيدة لأن نفعل بها شيئاً ما، لكن مع الأسف يُنظر إليها على أنها أوقات غير صالحة لأداء أي شيء!! وإذا أصبح هذا السؤال عادة يومية لنا فسوف نعثر كل يوم على إمكانية جديدة كانت ضائعة، وسوف تتغير حال الواحد منا، وإذا سرت العدوى إلى عدد كبير من الناس، فربما تغيرت حال أمة بأسرها!.

ب ـ لا بد لمن يريد أن يكون فعالاً من أن يتجاوز (العقل المجرد) إلى

---

(١) القيادة والتغيير: ٢٢٧.

(٢) ثقب في جدار التخلف: ١١٤.

(العقل العملي) أي أن يكون لديه في جوار المبادئ الكبرى عدد من الأفكار الصغرى التي تنقل القضية من حيز التمثل الذهني إلى حيز الواقع العملي؛ حيث لا تظهر فاعلية المرء إلا من خلال تجسيد أفكاره في نشاطه العام. وهذا مع الاعتراف بأن دوائر النظر تظل أوسع من دوائر الفعل. ونستطيع أن نقول: إنه على مدى التاريخ كانت لدينا أفكار جميلة، لكن لم يكن هناك برامج لتطبيقها. وكانت لدينا مقترحات وأفكار رائعة لكن لم نفكر كثيراً في توفير الظروف الملائمة لجعلها واقعاً حياً!.

جـ ـ لو تأملنا في حياة السلف لوجدنا أن أعظمهم نشاطاً وحركة وعطاء كان يتمتع بطاقات روحية فذة[1]. وقد شكل هذا في الحقيقة النفس الأولية لثقافة العمل لدى المسلم، ومن ثم فإن تنشيط الجانب الروحي لدى المسلم ربما كان شرطاً لتمتعه بكفاءة وفعالية عالية. ويؤسفني في هذا أن كثيراً من كتابنا لم ينتبهوا إلى هذا، فراحوا يحاولون تحريك همة المسلم، ودفعه إلى العمل الجاد عن طريق أدبيات غريبة عن ثقافته وتكوينه العقدي، كتلك التي يتعلمها موظفو العلاقات العامة ومندوبو المبيعات!!.

د ـ حتى يكون المرء فعّالاً، فلا بد أن تكون أولوياته واضحة، حيث إن الأشياء التي تحتاج إلى إنجاز كثيرة، وأبواب الخير كثيرة أيضاً. وتحديد الأولى والأحق بالإنجاز منها هو الذي سيجعل نتائج جهود الإنسان ماثلة للعيان.

حين يحدد المرء أولوياته، ويعرض عليه القيام بأعمال أخرى، فإنه يقول (لا) بحزم وإصرار حتى لا تتشتت الجهود. ليحاول الواحد منا أن يركز جهوده في أقل قدر ممكن من الأعمال، فإذا أنجز الأهم انتقل إلى المهم.

---

(١) الصحابي الذي ألقى التمرات التي كانت في يده، وأسرع إلى ساحات الجهاد كان على درجة عالية من التوتر الروحي. وقد حث الله ـ جل وعلا ـ على الذكر في مواطن لقاء العدو الذي يتطلب قمة العطاء والنشاط ليوفر التموين الروحي والمعنوي لذلك الموقف المهيب حيث قال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيراً**﴾ سورة الأنفال، آية: ٤٥.

هـ - اغتنام الفرص المتاحة شرط آخر لاتصاف المرء بالفعالية، والشخص الفعال هو قناص فرص من الطراز الأول. الفرص تعني دائماً ظروفاً أكثر ملاءمة للقيام بعمل ما، وهذه الظروف لا تتاح دائماً، بل إن الفرص الكبرى قد لا تتاح لشخص أو أمة إلا مرة واحدة في الحياة. اللقاء بعالم فذ، وتحمل مسؤولية كبيرة، وخلخلة في صفوف العدو، والوقوع على كتاب لكاتب مبدع.... كل هذه فرص؛ والإنسان الفعال هو الذي يعرف أن كل إمكانية وكل طاقة لديه هي شيء مؤقت وزائل[١]. والسعيد من وفق للعمل قبل فوات الأوان.

و - الإنسان الفعال مرهف الحساسية تجاه (الوقت) إذ إنه الوعاء الذي سيتم إنجاز كل شيء فيه، ومن دونه لا نستطيع أن نعمل أي شيء. إن الطريقة التي نقضي بها أوقاتنا هي نتيجة مؤكدة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا. لو تساءلنا: ما هو الشيء الأطول والأقصر في آن واحد، والأسرع والأبطأ في آن واحد معاً، والذي نهمله جميعاً، ثم نأسف عليه، ولا شيء يمكن أن يتم بدونه، وهو يبتلع كل صغير وكبير، وينمي كل ما هو عظيم، لكان الجواب: إنه الوقت[٢]!.

إن الأمم المتقدمة تحسب تكلفة السلع من خلال ساعات العمل التي تنفقها فيها، إذ لا تختلف قيمة الوقت عن قيمة المواد الأولية المستخدمة فيها.

الوقت أشبه بـ(الزئبق) يصعب القبض عليه، وأخطر شيء في تفلته منا هو اللحظات القصيرة التي لا نلقي لها بالاً[٣]. إن اقتناص نصف ساعة كل

---

(١) هذا واضح في الحديث المعروف: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك...».

(٢) دليل التدريب القيادي: ١٩٣.

(٣) تذكر بعض الإحصاءات أرقاماً طريفة عما نقضيه من أوقات في بعض الأنشطة؛ إذ تشير إلى أن المرء ينام في حياة متوسطة نحواً من ٢٠ عاماً، وفي ضغط أرقام الهاتف شهراً، وفي مشاهدة التلفاز ١٠ سنوات، وفي ربط الأحذية ٨ أيام! السابق: ١٩٦.

يوم لإنجاز عمل سيعود علينا خلال خمس سنوات بنحو (٩٠٠) ساعة عمل. وهي كافية لتأليف كتاب متوسط، وكافية لأن يصبح المرء مرجعاً في قضية كبرى!.

لا بد من تدابير للحفاظ على الوقت إذا ما أراد الواحد منا ألا يذهب عمره باطلاً في غير فائدة. ومن تلك التدابير:

- خطط ليومك كلّ صباح بكتابة الأشياء التي ستنجزها فيه، واشطب كل عمل تم إنجازه أثناء اليوم.
- لا تقم على الإطلاق بزيارة صديق دون أن تبلغه بذلك، أو تحادثه هاتفياً.
- احتفظ دائماً بقلم وورق أو مفكرة صغيرة في جيبك لتسجيل الخطط والأفكار خلال أوقات الفراغ.
- استفد من وقت الفراغ في القراءة أو الحفظ أو عمل أي شيء بنّاء.
- حينما ترتب موعداً تأكد أن الطرفين يفهمان الوقت والمكان والعنوان بالضبط.
- وفّر كل المواد والمراجع اللازمة بين يديك قبل أن تبدأ العمل سواء أكان العمل طهواً أو قراءة كتاب أو إعداد خطبة.
- تجنب الذين يسرقون وقتك بأنانية وحماقة.
- لا ترتب رحلة لإنجاز عمل ما إذا كان بوسعك إنجاز ذلك العمل بخطاب أو محادثة هاتفية[1].
- ألزم نفسك بوقت محدد للقراءة يومياً مهما كانت الظروف.

---

(١) السابق: ١٩٧.

إن المسافة التي تفصل بيننا وبين الأمم الأخرى شاسعة، والهوة تتسع، وإن علينا مضاعفة السير والاستفادة من كل دقيقة إذا ما أردنا للأمة ألا تنحدر نحو الأسوأ!. والله ولينا.

ب ـ تنمية الشخصية على صعيد العلاقات مع الآخرين:

يظل الإنسان كائناً قابلاً للتعلم، بل الإنسانية كلها تتعلم باستمرار والجزء الأكبر من التعلم يحدث من خلال علاقات الناس بعضهم مع بعض، حيث تنعكس عليها مبادئ المجتمع ومفاهيمه وتأزماته وهمومه....

التكوين الفردي الخاص لكلٍّ منا، وحاجة المرء للنضج يدفعان في اتجاهين مختلفين؛ فالإنسان يريد أن يحتفظ بشخصيته واستقلاليته، إلى جانب حاجته إلى الاندماج في مجتمعه، من أجل تمثل قيمه والاستفادة من خبراته.

هاتان الحاجتان هما مصدر التأثير والتأثر اللذين يسودان كل مجتمع، وهما منبع التوازن الاجتماعي أيضاً.

إن كل كسب أدبي أو مادي يحققه أي مجتمع، يعود شيء منه ـ لا على التساوي ـ إلى كل فرد من أفراده، كما أن كل خسارة تصيب المجتمع تنعكس على الأفراد على نحوٍ ما في وقت ما. وهذا كله حافز قوي لنا جميعاً كي نجعل ذواتنا في الموقع والموقف الصحيحين، مع الحرص على إرسال رسائل طيبة لكل أولئك الذين تربطهم بنا علاقة حتى نخفف من التوترات التي تنشأ بشكل آلي عن اجتماع الناس بعضهم مع بعض. وهذه بعض الأفكار والخبرات التي نظن أنها تساعد على تنمية العلاقات الشخصية التي ننسجها مع الآخرين نوجزها فيما يلي:

١ ـ علينا قبل أن نحسِّن علاقاتنا مع الآخرين أن نحسِّن أنفسنا أولاً:

في داخل كلٍ منا قوة دافعة، تدفعه نحو الخارج باستمرار؛ فنحن نطلب من الآخرين أن يفهمونا بشكل جيد، كما نطلب منهم تقدير ظروفنا والإحسان إلينا...

وقليل أولئك الذين يطلبون هذا من أنفسهم! وهذا هو السبب في حالات التلاوم الدائمة التي تسود مجتمعاتنا.

مهما حاولنا تحسين العلاقات مع الآخرين، فإن ذلك سيكون محدود الفائدة ما لم نرفع من سوية أنفسنا أولاً؛ لأنه يفقد الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه. إن الأساس العميق للعلاقات الجيدة يتمثل في الجاذبية والإعجاب، وكل علاقة تقوم على غير هذا تكون إما شكلية، وإما مؤقتة!.

أساس الجاذبية هو التميز، فالشخص الذي يثير الإعجاب هو شخص اجتمعت فيه صفات لا تجدها في أكثر الناس إلا متفرقة. وهذا هو سر العاطفة الجياشة التي يحملها المسلم أينما كان نحو النبي ﷺ حيث حاز ـ بأبي هو أمي ـ من الكمال والرفعة ما جعله مهوى الأفئدة ومرمى الأبصار!.

إن الأب الذي يريد من ابنه أن يكون باراً مطالب بأن يكون أباً عطوفاً أولاً. وعلى الزوجة التي تريد من زوجها أن يكون لها محباً ومقدراً أن تفعل ذلك معه. وعلى الجار الذي يريد من جيرانه العون أن يبذل العون لهم وهكذا. . .

على كل منا أن يرفع شعاراً: «البداية من عندي» وسيأتي بعد ذلك خير كثير؛ فقطرة الماء على وهنها حين تستمر تحدث في الحجر الصُلب ما يعجز عنه المسمار!.

٢ ـ النضج والتكافؤ أساس العلاقات الاعتمادية:

يشكو السواد الأعظم من الناس من أنه يلقى الإهمال من الآخرين ـ أو من بعضهم على الأقل ـ وأنه يستحق من التقدير والاهتمام أكثر مما ينال. والحقيقة أن الأصل في العلاقات الاجتماعية أن تقوم على الاعتماد المتبادل، لكن الاعتمادية لا تتم دون نوع من التكافؤ؛ حتى في إطار الجماعة أو القبيلة؛ حيث إن هناك ظروفاً واعتبارات كثيرة خفية تنظم العلاقات بين الناس. ولا ينبغي على هذا أن يتوقع المرء أنه يستطيع بناء علاقات جيدة وعميقة مع جميع أفراد جماعته، ما لم يكن الجميع على مستوى عال من

النضج والاستقلالية. وهذا ما لا يكون موجوداً عادة ولذلك تنشأ بين علاقات الجماعة الواحدة علاقات فرعية، وعلى مستويات مختلفة، وليس هذا أمراً مستغرباً ولا شاذاً.

إن الاستقلالية الشخصية شرط أساسي لإقامة علاقات جيدة مع الناس. وإن مشكلة التمزق التي يعاني منها العرب والمسلمون، وعجزهم عن إقامة أطر وحدوية قوية تعود في جوهرها إلى مشكلة (التبعية)، والتبعية حتمية للتخلف الذي يضرب أطنابه في عالمنا الإسلامي!.

٣ ـ أرسل إشارات غير لفظية لإخوانك وأحبابك:

ليس وعي الناس ثابتاً، وليست أحكامهم نهائية. صحيح أن بعض الناس يصدر حكماً طويل الأمد على شخص أو شيء أو عمل، لكنهم جميعاً مستعدون في النهاية لتغيير آرائهم إذا تبدت لهم حقائق جديدة.

الإشارات اللفظية التي نرسلها للآخرين معتبَرة، فشكر الناس والدعاء لهم والدفاع عنهم.... كل ذلك مقدَّر لديهم، لكن الإشارات غير اللفظية أهم وأبلغ في الدلالة على صدق المودة وإخلاص القصد.

عيادة المريض والسؤال عن الصحة، وإرسال باقة ورد في مناسبة، وتقديم يد العون في أزمة، والصفح عن زلة.... كل ذلك ذو أثر بالغ في كسب ودِّ الإخوان وإقامة علاقات جيدة معهم. ولهذه الأعمال الطيبة قيمة كبرى عند الله ـ جل وعلا ـ لأنها من أنواع البر والإحسان التي ينبغي أن تشيع في المجتمع المسلم.

بعض الناس لا يحسن شيئاً مما ذكرنا، ومن ثم فإنه بحاجة إلى أن يدرِّب نفسه ويجاهدها حتى يتطبع بأخلاق وعادات جديدة. ولا بأس بأن يقرأ كتاباً في (قواعد الصداقة) إذا كان محدود الخبرة فيها.

٤ ـ لا بد من أخ نترك بيننا وبينه مسافة قصيرة:

العلاقات بين المرء والآخرين تتوزع على دوائر عديدة تبعاً لاعتبارات

عديدة. وعلى كل حال فإن المرء ـ في العادة ـ لا يستطيع أن يحصل على أصدقاء كثر من الدرجة الأولى. وإذا وجد المرء خمسة من إخوان الصدق والملمات، فهو محظوظ للغاية. والأمر كما قال النبي ﷺ: **«الناس كإبل مائه، لا تكاد تجد فيها راحلة»**[١].

وحاجة المرء إلى أخ يسقط معه مؤونة التكلف حاجة ماسة. ولا يعوض عنه عند فقده أي شيء[٢].

وتشير بعض الدراسات إلى أن الأشخاص الذين يفتقدون شخصاً يثقون به، ويكون قريباً منهم ـ يظلون أكثر عرضة للاكتئاب[٣].

إذا وجد المرء الأخ الحميم؛ فليحسن عشرته، وليؤد حقوقه، وعليه أن يقدر مشاعره، ويمد له يد العون. . .

كثيراً ما يفترق الأصدقاء نتيجة الخلطة الزائدة واقتحام الخصوصيات وسوء التقدير. . لذا فلا بد من ترك مسافة قصيرة بين الإخوة وهامش للتحرك والتصرف الخاص.

٥ ـ شيء من العزلة ضروري لتجديد شخصية الفرد:

ما من شك في أن الاختلاط بالناس مفيد وضروري، وينطوي على اكتساب خبرات وخيرات كثيرة، لكن مع هذا لا بد لكل واحد منا من أن يمتلك طاقةً ما على اعتزال الناس والبعد عنهم، من أجل توليد أفكار جديدة، ومن أجل نوع من استشراف أرض المعركة من خارجها!.

إن شدة الاختلاط بالناس تستهلك الشخصية، وتستنفد الطاقة الفكرية والنفسية لدى المرء، وليس لتجديدها من سبيل سوى شيء من الابتعاد

---

(١) أخرجه أحمد وغيره.

(٢) يروى عن عبد الملك بن مروان ـ فيما أظن ـ أنه قال: ما من لذة من لذات الدنيا إلا ذقتها سوى لذة واحدة. قيل له: وما هي؟ قال: أخ أطرح بيني وبينه مؤونة التكليف.

(٣) سيكلوجية السعادة: ٢٦٩.

والترفع حتى يصقل الإنسان ذاته، ويستعيد جاذبيته ولمعانه، ويفكر بطريقة أكثر كفاءة في أحوال العالم من حوله.

لا فائدة من تلك العزلة إذا لم تكن في عبادة وفكر وقراءة ومحاكمة عقلية وتخطيط للمستقبل. . . وإلا فإن العزلة قد تكون نوعاً من السلبية والعطالة. وستكون العزلة أكثر ضرراً إذا كان الدافع إليها نوعاً من ازدراء الآخرين والاستخفاف بهم!.

٦ ـ كل منا بحاجة إلى الاعتراف والتقدير(١):

من الأقوال الرمزية: كل شخص يولد وعلى جبهته علامة تقول: «من فضلك اجعلني أشعر أنني مهم». ويقول هيجل: «يلتقي الإنسان مع الحيوان في الحاجة إلى الأمور الأساسية، كالأكل والشرب والنوم. أما الإنسان فإنه يرغب فوق كل شيء في رغبة الآخرين، أي في أن يريده الآخرون، أو في نيل الاعتراف والتقدير».

كلما وقع اتصال بين الناس، تناقلوا بينهم رسالة صامتة، تقول: «فضلاً زكّني»، «لا تمرر بي غير آبه»، «أرجوك اعترف بكياني».

في كل مرة لا ترد على خطاباتهم، أو على رسائلهم الهاتفية، فإنك في الحقيقة تسقطهم من الاعتبار، وتقول: «لا وجود لكم»!.

لقد أرشدنا إلى منح التقدير والاعتبار والاهتمام نبينا ﷺ من خلال أقواله ومن خلال هديه وسمته. وقد قال: **«الكلمة الطيبة صدقة»**. وقال: **«تبسمك في وجه أخيك صدقة»**.

وكان ﷺ إذا خاطب شخصاً انفتل إليه بكل جسمه، وكان يسلِّم على الصبيان إذا لقيهم في الطريق، وربما مازح بعضهم. وكل ذلك من أجل إشعارهم بأهميتهم.

---

(١) انظر في هذا دليل التدريب القيادي: ١٨٥ ونهاية التاريخ: ١٣٥.

وقد أضفى ﷺ على كثير من أصحابه ألقاباً وصفات خاصة، ليُعرفوا بها، وليكافأهم الناس على تميزهم. من ذلك قوله ﷺ: «**سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر**»[1]. ووصف عمر بالفاروق، وعثمان بالحياء، وأبا عبيدة بأنه أمين هذه الأمة، وأبا ذر بالتميز بالصدق. . . .

إن اكتشاف الميزات لدى الناس يحتاج إلى نوع من الفراسة والإبداع، وقبل ذلك الاهتمام؛ وهو ضروري جداً لتزييت العلاقات الاجتماعية.

٧ ـ كن على حذر إذا أقمت علاقة مع من يحمل نفسية العبد:

ليس كل العلاقات التي نقيمها علاقات طوعية؛ فمنها ما هو مفروض بحكم القرابة أو الزمالة أو الجوار. . . هناك أشخاص نشأوا في ظروف سيئة، وآخرون لوت أعناقهم مطامع لا حدود لها، وفريق ثالث يغلب عليه طابع الحذر الشديد.

هؤلاء الفرقاء الثلاثة تغلب عليهم نفسية العبد الذي يكر ولا يفر، والذي لا يقوم بأدنى مخاطرة، ويرضى من كل شيء بأقله، ويخاف من كل شيء. . .

هذا الصنف يحسّ بالنقص في أعماقه، وهو حتى يجعل وضعه يظهر على أنه طبيعي يحاول أن يجعل عدداً ممن يحيطون به عبيداً على شاكلته!.

وهو يتوسل إلى ذلك بأقوال وأمثال وحكم وبراهين متسقة منطقياً، لكنها لا تحمل أية معنى عند من يرى رأس ماله الحقيقي كامناً في كرامته وحريته ومروءته!.

لا شيء يكرّس العبودية مثل الفضاءات التي نمنحها إياها، ونجعلها مصدراً لتنفسها وتغذيتها! ومن تلك الفضاءات مديح العبودية، والاستفادة من بعض منافعها، والركون إلى من يشعرون أنهم يحملونها بين جوانحهم. . .

---

(١) الخوخة باب صغير كالنافذة الكبيرة. وقد كان بعض الصحابة قد أحدثوا خوخات بين بيوتهم والمسجد.

إن العبد ومن يلوذ به تظل شروطه في الحياة دون الحد الأدنى لما تتطلبه الحياة الكريمة، وإن همه دائماً قريب من هموم السوائم الذليلة!.

وعلى المرء أن يحذر من شرر العبودية، لكي لا يحرق جوهره النفيس.

٨ ـ ليست المشاعر حتميات يجب أن نخضع لها:

كثيرون أولئك الذين يبدون مشاعر الكراهية وعدم الارتياح تجاه بعض الناس، ولا يتخيلون أنهم يستطيعون التخلي عن تلك المشاعر في يوم من الأيام، إنه ـ في نظرهم ـ أشبه بالحتميات التي لا حيلة لهم تجاهها!

الله ـ جل وعلا ـ يعلمنا أن المشاعر عبارة عن (ثمرات) وليست أشياء حتمية، علينا أن نخضع لها. وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[١]. فمقابلة الإساءة بالإحسان تخلص المرء من بعض مشاعره تجاه الآخرين، لكن ذلك لا يقدر عليه إلا من وفقه الله ـ تعالى ـ إليه.

وفي الحديث الصحيح: **«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»**[٢].

إن أعمال الإحسان والمعروف والبر هي الأرض التي تنبت فيها المشاعر الجميلة النبيلة، وإن بإمكاننا أن نزرع الكثير منها!

٩ ـ أهِّل نفسك للعمل ضمن فريق:

كثير من الأعمال التي نقوم بها يمكن إنجازها على نحو فردي، لكننا نعيش اليوم في عالم يزداد الاعتماد فيه على المجموعات في إنجاز الأعمال؛ حيث إن تشعب التخصصات وتعقد المهمات يقتضي أن يقوم بالعمل الواحد

(١) سورة فصلت: آية: ٣٤.
(٢) أخرجه مسلم وغيره.

فريق متناسق ومتفاهم وحتى يتأهل الإنسان للعمل ضمن فريق بشكل بنّاء ومنتج، فإن عليه أن يقوم بأشياء عديدة، منها:

- حسن الاستماع والإصغاء لوجهة نظر الآخرين.
- فهم طبيعة العمل بشكل ممتاز، وفهم دوره في ذلك العمل.
- فهم الخلفية النفسية والثقافية للمجموعة التي يعمل معها.
- استشارة أفراد المجموعة في كل جزئية في العمل المشترك، تحتاج إلى قرار أو تصرف غير عادي.
- الاعتراف بالخطأ ومحاولة التعلم منه.
- عدم الإقدام على أي تصرف يجعل إخوانه يسيئون فهمه.
- عدم إفشاء أسرار العمل، والحرص على ألا يتحدث عن أشياء ليس من اختصاصه التحدث عنها.
- المبادرة إلى تصحيح أي خطأ يصدر من أي فرد من أفراد الفريق، أو أي انحراف، يصيب العمل، وفق آداب النصيحة وشروطها.
- تحمل ما يحدث من تجاوزات وإساءات من بعض أفراد الفريق، واحتساب ذلك عند الله؛ تعالى.

إذا وجد أن الاستمرار غير ممكن فعليه أن يفارق إخوانه بإحسان، وأن يستر ما قد يكون رآه من خلل وهفوات، ويترك مجالاً للتعاون معهم على مستوى معين، أو في مهمات أخرى.

١٠ ـ لا تعامل الناس على أساس الماضي، وامنح الثقة، ثم ارقب:

إن الله ـ تعالى ـ الخبير بشؤون عباده، يعرف قصورهم، ولذلك فتح لهم باب التوبة والتغيير كي يتركوا ماضيهم وراءهم، ويستأنفوا وضعاً جديداً متى ما أحسّوا بضرورة ذلك، وكثير من الناس يستجيب لهذه الدعوة، ويغير

الكثير من سلوكه في مرحلة النضج والرشد؛ لكن كثيراً منا يأبى أن يستوعب هذه الحقيقة، ويعامل الناس على أساس ما يعرفه عنهم منذ عشرين سنة!

والسبب في ذلك هو افتقاد المرونة العقلية الكافية لالتقاط صور جديدة عن حياة الآخرين!

والعجيب أن بعض الناس يعرف أن الآخرين تغيروا، لكن تتملكه رغبة جامحة في تذكيرهم بماضيهم، كأنه يقول لهم: ما الضمانة ألا تعودوا لما كنتم عليه!

هذه الوضعيات الخاطئة أثارت كثيراً من الشكوك من غير مسوّغ مقبول، وجعلت من يرغب في تأسيس وضع جديد، لا يجد أي حافز لذلك من مجتمعه.

إن علينا أن نتفاءل دائماً، وأن نوقن أن الإنسان كلما تقدم في السن اكتسب مزيداً من الرشد، وأن في داخل كل مسلم سائقاً وحادياً نحو الخير والأوبة إلى الحق.

لنحاول منح الثقة لمن يعلن التوبة؛ إذ إن بإمكان الثقة أن تستخرج أفضل ما في نفسية البشر من نوازع الخير؛ فلا ينبغي أن نبخل بمنحها، ولا أن نتوانى في تدريب إخواننا ومن يلوذ بنا على أن يكونوا أهلاً لها.

لا يعني هذا الكلام ترك الحذر، وتصديق كل مدعٍ، فمن حق التائب علينا أن ننظر إليه نظرة جديدة، ومن حقنا أن نراقب مدى صحة وضعنا لتلك النظرة في موضعها الصحيح.

١١ ـ أعقل الناس أعذرهم للناس:

هذه المقولة مروية عن رجل أحسبه أعظم رجال (الاستراتيجية) في الإسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إنها نظرة من خبر الحياة، ورأى الأنماط العديدة التي يفكر وفقها البشر.

إن معرفتنا بالأسباب والجذور التي تأسست عليها تصرفات الناس ستغير

مشاعرنا نحوهم على نحو جذري، ومن ثم فإن التماس الأعذار لهم يجب أن يكون هو الأصل، وقد ورد في الحديث الصحيح: «**لا أحد أحب إليه العذر من الله**»[1].

لا يعني هذا إقرار الناس على ما هم عليه، لكنه يعني فهم خصوصيات أحوالهم، وعدم الطلب منهم أن يتطابقوا دائماً في مواقفهم مع وجهات نظرنا.

إن المصلح سيستفيد فائدة جلى من معرفة الخلفيات الكامنة حول الأوضاع المختلفة ـ في إيجاد رأس جسر ومدخل للإصلاح.

إن حدود الحق والباطل واضحة ـ ولله الحمد ـ لكن الأناة والتريث والتفهم قبل إصدار الأحكام أدب إسلامي رفيع، لا ينبغي تجاهله. وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) أخرجه البخاري.

الفصل الخامس

في التنمية الروحية والأخلاقية

(١) أهمية التنمية الروحية والخلقية.

(٢) حال الأخلاق اليوم.

(٣) ما العمل؟

أهمية التنمية الروحية والخلقية

إن أمة كأمة الإسلام لا تحتاج في الأصل إلى من يبرهن لها على ضرورة التمسك بالخلق القويم، ولا إلى من يبرهن لها على أهمية الحيوية الروحية، لكن تهمش الأنشطة الروحية، والضغوط الرهيبة التي تتعرض لها المبادئ الأخلاقية، والصعوبات الحياتية التي تواجه كل من يرفض المساومة على أخلاقه واستقامته، كل ذلك جعل لفت الأنظار إلى (مركزية) الأخلاق في أية تنمية متكاملة ـ أمراً بالغ الأهمية.

ولعلنا نسلط الضوء على ما يوضح ما نعتقده من إعطاء التنمية الروحية والأخلاقية العناية والاهتمام في الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ بما أن النبي ﷺ هو النموذج الأسمى لاجتماع المبدأ والسلوك فإن أعظم المسلمين شبهاً به هم أولئك الذين ضاقت الهوة بين سلوكهم وبين مبادئ الإسلام وآدابه وتوجيهاته السامية. وقد عبَّر عن هذه الحقيقة بشكل جلي قوله ﷺ: **«إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»**[١]. وقوله: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»**[٢].

فالنبي ﷺ هو المقياس التام للخيرية والكمال، وحسن الخلق هو الذي يدني المسلم من كمال الإيمان وتمام الخير.

إن ظاهرة النفاق التي تحدَّث عنها القرآن الكريم والسنة النبوية بشكل مطول تعني خللاً في مطابقة الأقوال للمعتقدات، وهذا هو النفاق الاعتقادي

---

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

الذي يُخرج صاحبه من الملة. أما التباين بين الأقوال والأفعال، فإنه يُعبَّر عنه بـ(النفاق العملي) وهذا يقع في سلوك المسلم. وكلا النوعين مذموم، وفيه خروج ومخالفة للمبدأ أو المعتقَد. ومهمة التنمية الأخلاقية تطهير حياة المسلمين من رجس النفاق، وانحطاط الهمجية والانحراف.

٢ ـ إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع ما يعتقد، حيث يشعر المرء بتيّار يجتاحه من البهجة والارتياح والأمن كلما تخطى عقبة من العقبات التي تحول بينه وبين (التماهي) مع مُثُله وقيمه العليا.

إن الملذات لا تخترق غشاء القلب، بل ولا تحوم حوله، لكن الذي يسربل كيان المرء كله بالسرور والطمأنينة هو نشوة الانتصار على الأهواء والمغريات وضغوطات الشهوات والمصالح.

إن السعادة لا تُجلب أبداً من الخارج، وإنما هي شعاع من نور، يولد، ويكبر في داخل الإنسان، ويضيء جوانب الحياة كلها، ويجعلها أكثر اتساقاً ومنطقية، وأكثر تهيؤاً للنمو والتقدم والاستمرار، وكل ذلك مرهون بأوضاع تسود فيها الأحكام الأخلاقية، ويعلو فيها صوت الالتزام والاستقامة، وترفرف في أرجائها إشراقات الروح!.

٣ ـ إن القاعدة الروحية الأخلاقية في أي مجتمع هي التي تتحمل الأثقال التي تنتج عن طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة.

إن هذه القاعدة هي التي تمكن الناس من تحمل لأواء الظروف الصعبة دون أن يتحللوا أو ينحرفوا؛ فحين يُصاب الناس بضائقة اقتصادية شديدة فإن القاعدة الأخلاقية تدفعهم إلى إغاثة الملهوف وإطعام الجائع، والصبر على المدين المعسر، إلى جانب التماسك الشخصي، وعدم الرضوخ لمقتضيات الظروف الصعبة؛ فنجد المسلم يمتنع عن الرشوة والسرقة والغش وكل أنواع الكسب المحرم مع ما فاقته الشديدة، وذلك اتكاءً على ما لديه من قيم ومقاومة روحية لدواعي التحلل!

إن هذه القاعدة هي الرصيد الاحتياطي الضخم الذي تعتمد عليه الأمم في ترميم العديد من جوانب شخصيتها وحياتها. ومن هنا ندرك حجم الجريمة التي ارتكبت في حق هذه الأمة حين دُفعت دفعاً على مستوى التنظير، وعلى مستوى العمل إلى أن تجعل القيم الأخلاقية والروحية في المرتبة الدنيا من اهتماماتها؛ فلما واجه الناس ما واجهوه من ضائقات في العيش، ومن شح في متطلبات الحياة الكريمة لم يجدوا لديهم سنداً خلقياً قوياً يعتمدون عليه في الصمود أمام المغريات ومحفِّزات الانحدار المختلفة!.

٤ ـ إن الذين نكنُّ لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون الكثير من المال أو الدهاء والمكر أو القوة الجسدية الخارقة، وإنما أولئك الذين يملكون خلق (التسامي) والترفع عن سفاسف الأمور، وأولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، وأولئك الذين يملكون قوة الانتظار والتضحية بالعاجل في سبيل الآجل، والإيثار مع مسيس الحاجة...

إن بالإمكان القول: إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع روحي أخلاقي، أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع بشكل أساسي من طابع الاستقامة والنبل والتضحية... وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران.

ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال التبعية يكون عن طريق إحداث (انتفاضة) روحية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية للوضع الحضاري الراهن، ويلتفت إلى إثراء حياته بوسائل، لا تحتاج إلى المال.

٥ ـ إن دراسة الحضارات توقفنا على حقيقة كبرى، وهي أن مصير الإنسان كان يتوقف دائماً على أمرين: علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان[1]. والبعد الروحي الأخلاقي هو المركز والمحور في هاتين العلاقتين. وحين ينحطّ الإنسان يتحول عن عبادته لربه إلى عبادته لذاته وشهواته. وتسود علاقتَه بالآخرين القوةُ بدل الرحمة، والتعانف بدل التفاهم،

---

(١) انظر مختصر دراسة التاريخ: ٤:١٢٨.

وينصرف عن العناية بالروح إلى العناية بالجسد، وعن الاهتمام بالمبدأ إلى الاهتمام بالمصلحة، ويتحول المجتمع كله إلى غابة يحسّ كل واحد فيها أن من حقه افتراس الآخرين، كما أنه من الممكن أن يكون فريسة لأي واحد منهم «آكلٌ اليومَ ومأكول غداً»!.

والطريق الوحيد للحيلولة دون هذه الحالة يكمن في تدعيم الرقابة الذاتية وتعزيز علاقة العبد بربه ـ جل وعلا ـ وتحفيز الإرادة الخيرة في الناس. وهذا الحل وإن كان مكْلفاً على المدى القريب. فإنه سفينة نوح على المدى البعيد!.

لن يكون بإمكان أفضل النظم الاجتماعية، ولا في إمكان أقسى العقوبات الصارمة أن تقوِّم الاعوجاج، ولا أن تملأ الفراغ الناشىء من ذبول الروح، وانحطاط القيم؛ فالعقوبات لا تنشيء مجتمعاً لكنها تحميه. والنظم مهما كانت مُحكَمة ومتقَنة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها، وتأويلها بما يجهضها، وكل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدةً على نفسها بالعقم والعجز!

٦ ـ لا بد أن نكون على يقين من أن تيار الشهوات والنزوات الجارف لا يمكن أن يقابل إلا بتيار روحي متدفق من المشاعر والأحاسيس الإيمانية؛ فوظيفة الفكر الدلالة على الطريق، وعلى الأساليب والأدوات المناسبة للعمل؛ لكن الذي نستمد منه الطاقة على الاندفاع في طريق الخير، والطاقة على كبح جماح الشهوات هو الروح والإيمان العميق ورصيدنا من المشاعر الحميمة!.

وإن كثيراً من الشباب الذين جرفهم تيار الجنس والمجون والخلاعة لم يكونوا بحاجة إلى أدلة على فضل العفة والاستقامة، وإنما كانوا بحاجة إلى شيء من المعاني التي تفيض على القلب بسبب تذوق طعم العبودية الحقة والإحساس الصادق بمعية الله ـ تعالى ـ لهم واطلاعه عليهم!.

٧ ـ حين يبلغ التقدم التقني أقصى مداه، ويشعر المرء بالتخمة من

أدوات (التحكم عن بعد) وكل ما يجعل الحياة خالية من التحديات ـ آنذاك تنبعث أشواق قديمة جديدة، هي أشواق الروح وما وراء المادة، عالم العودة إلى التراحم والتعاطف والتضحية ببعض المكاسب من أجل استمرار حياة الجميع.

إن الأخلاقيين اليوم هم المستقبليون غداً، وهل يُعرف فضل الماء إلا عند اشتداد الظمأ؟!

إن الإسلام يعلمنا أن بالإمكان تصحيح المسار قبل أن نرتطم بقاع الهاوية، كما يعلّمنا أنه بإمكاننا أن نتحول من الخسارة إلى الربح قبل أن يصبح رصيدنا صفراً؛ وذلك إذا أصغينا إلى نداء الفطرة في أعماقنا، وضغطنا على بعض حاجات الجسد من أجل إنعاش الروح، وفكّرنا ملياً بما هو آت!.

(٢) حال الأخلاق اليوم

لا بد من القول: إن المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق هي (إطارها المرجعي) بمعنى المصدر الذي نستمد منه الحكم على حسن الخلق أو قبحه، والجهة التي ستتولى الإثابة أو العقوبة على ذلك الخلق.

في العالم الغربي تحول الإطار المرجعي للأخلاق من (الوحي) إلى (العقل)، ولم يبق أي مجال للفرار من (النسبية الأخلاقية)، حيث أصبح الطريق ممهداً لتطور الأخلاق الفاضلة، وإمكان تحولها إلى (رذائل في ثوب فضائل).

وسيفرض ذلك التقدم الاقتصادي الذي صار هو الصنم الذي تُقدم له كل القرابين!.

ولا نستطيع اليوم مهما حاولنا أن ننجو من تأثيرات ذلك التحول الأخلاقي الكبير؛ فالاتصال الكوني الهائل وضع العالم فيما يشبه الخلاطة الكبيرة!

لا شك أن لدينا جهوداً ضخمة لإحياء وتوليد أخلاق جديدة تلبي شروط العيش في عصر معقد، وتستند في الوقت نفسه إلى المبادئ الإسلامية، وتتواصل مع أخلاق إسلامنا بصورة من الصور، وقد تحقق لدينا بعض النتائج، إلا أن التقدم الحاسم في المجال الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى إحراز تقدم في المجالات السياسية والحضارية، حيث إن (التخلف) نفسه يحول دون الإبداعات الأخلاقية الأصيلة.

في أواخر عهد الدولة العثمانية وأثناء موجات الاستقلال الوطني التي

أعقبت الحرب العالمية الثانية ـ اتجهت النخب الثقافية والاجتماعية التي تشربت الإعجاب بالغرب إلى الدعوة إلى تبني القيم الثقافية والسياسية الغربية، وحتى يتم لهم ذلك شنوا حملات إعلامية مكثَّفة على النظم الثقافية الشعبية والمحلية بحجة أنها استمرار لقرون الظلام، وقد نجحوا في تلك المرحلة في تبديل الكثير من القيم في صفوف المثقفين وأرباب المال وذوي المصالح المرتبطة بالغرب. وقد أدركوا ما هدفوا إليه، وبسطوا سلطانهم على رقاب العباد، وحولوا المجتمعات إلى (لمامة) من الناس!! آنذاك انتقلوا بشكل سريع إلى النكوص عن القيم التي تغنوا بها طويلاً من أمثال: الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان والمساواة وتكافؤ الفرص.. وصاروا إلى القول: إن تلك القيم لا تناسبنا، أو إن مجتمعاتنا غير مؤهّلة لممارستها!

وهكذا كانت الاستعارة من الخارج عظيمة الفائدة عندما ساعدت النخب على تركيز سلطتها، وأصبحت الآن مُضرَّة، لأنها تذكر الجماعة الشعبية بحقوقها المدنية والإنسانية[1]!!.

وقد كان الموقف الراشد في هذا، يكمن في التوجه إلى النظم الأخلاقية الموجودة، ونفض ما تراكم عليها من موروث العادات، وتطويرها لتصبح على مستوى المنهج الرباني، ولتلبي متطلبات الحياة المعاصرة... لكن المسألة كانت خدعة ليس أكثر!.

ومما لا يخفى أن الأدبيات العلمانية وكثيراً من الأدبيات القومية أهملت الميدان الأخلاقي إهمالاً شبه تام، وذلك نتيجة التأثر بفلسفة سوقية وضعية، جعلت (العلمَ) هدف كل تقدم، وصار العلم علماً وأخلاقاً وأدباً! وصارت الأخلاق تُصوَّر على أنها قيود مفروضة بقوة الجهل وعطالة التقاليد على العقل والجسد والخيال معاً، وأنها سبب فقدان العرب مقدرتهم على استيعاب الحضارة العلمية، ومنشأ روح العبودية فيهم!.

وصارت الأخلاق كما يصورها الفكر الحديث تعني سذاجة الشخص

(١) اغتيال العقل: ١١٣.

وبساطته، وتثير الشك في صدق موقفه، بل ربما دفعت إلى اتهامه بـ(المحافظة) ومسايرة الأوساط الدينية[1]!

نتيجة لتهميش كثير من كتابنا للقضايا الأخلاقية ونتيجة لسوء التخطيط وسوء الظروف المعيشية لكثير من الناس ـ سادت لدينا أمراض أخلاقية عديدة وخطيرة، نذكر بعضاً منها على سبيل لفت النظر إلى أهمية إحراز تقدم جيد على الصعيد الأخلاقي:

إن كثيراً من الناس يعيش اليوم دون أية أهداف سامية، فتأمين الحاجات الضرورية هو شغلهم الشاغل، وامتلاك بيت يعد نصراً في معركة شرسة!

وقد صار الواحد منهم أشبه بالحيوان البريِّ الذي يقضي حياته في حديقة حيوانات، فهو ليس معزولاً عن بيئته الطبيعية فحسب، بل إنه معزول عن أعماق ذاته[2]!.

ويعاني السواد الأعظم من المسلمين من ضعف الإحساس بـ(الواجب) وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية؛ ليعكس تسامي الإنسان، أو قدرته على الالتزام تجاه غيره، والتضحية في سبيله.

وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الجماعة (الأمة) وبالرغبة في التماهي معها. فإذا عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرِّمه على غيره[3].

وهناك فريق من المسلمين يعاني على الصعيد الحضاري من ذبول روح المدنية لديه، وهو ينزع باستمرار إلى نوع من الانطواء على الذات والأسرة والقبيلة والحي والقرية، وهو نزوع ذو أثر سلبي على الإحساس بالمصلحة الوطنية والمصلحة العامة عموماً.

---

(١) السابقة: ٢٥٦، ٢٥٨.
(٢) إنسانية الإنسان: ٤٩.
(٣) اغتيال العقل: ٢٥٨.

وإلى جانب ذلك هناك عادات سيئة عديدة تتعلق بالعمل والاستهلاك؛ إذ إن كثيراً منا ينظرون نظرة ازدراء للعمل الفني اليدوي، كما أن هناك رغبة قوية في الاكتناز بشراء العقارات وبناء القصور وشراء السيارات الفاخرة والحلي والإنفاق الترفي والبذخي الذي لا تتحمله موارد الأمة[1].

وهناك أمراض خلقية كثيرة على صعيد العلاقات بين الناس، مثل قطع الرحم والجفاء بين الأهل والجيران، ومثل الحسد والتكبر على الناس وحب الاستئثار والانفراد بالخيرات العامة والمشتركة...

وإنني أعتقد أن مشكلات الزحام وشح الموارد وتراجع التربية الخلقية وضعف الإحساس بالأهداف الكبرى... سوف تولِّد المزيد من التأزم الروحي والمزيد من الأمراض الخلقية، وذلك يحتاج إلى تأمل عميق من المصلحين وإلى البحث عن سبل للعلاج والخلاص...

---

(١) التنمية والتخلف في العالم العربي: ١١٩.

(٣) ما العمل؟

لا ينبغي أن يُظن أن تنمية أخلاق مجتمع أمر ميسور، يمكن أن يتم من خلال تحديد بعض المبادئ وبعض الأساليب والأدوات؛ فالمسألة في الحقيقة أعقد من ذلك بكثير.

إن المعالجة لأي جانب إنساني في الحياة هي دائماً معالجة معقَّدة، وحين تكون المعالجة متعلقة بمجتمع أو أمة فإنها تكون أكثر تعقيداً، وربما كانت بعض جوانب المشكلة غير قابلة للرؤية في بعض الأحيان!

إن المتأمل للتاريخ يجد أن بعض مفردات الأخلاق كان يدخل في دورات أشبه بالدورات الاقتصادية، حيث تتجلى في سلوك الناس بقوة في بعض الحقب، على حين يتفلت منها المجتمع في مدد أخرى. وذلك إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن تجسُّد المبادئ الأخلاقية في السلوك يخضع لعوامل خارجة عن جوهر تلك المبادىء، وبعيدة عن ميادينها؛ بل إني أكاد أجزم أن الرقي الروحي والخلقي ليس سوى ثمار تجنيها الأمم من نجاحات حققتها على الصعد السياسية والتربوية والاقتصادية... حيث إن الانحدار الأخلاقي كثيراً ما يكون صدىً غير واع لتأزمات يمر بها المجتمع؛ فقد تنتشر الجريمة بسبب ضائقة اقتصادية أو كبت شديد، أو وجود نماذج اجتماعية مغرقة في البذخ والترف، أو بسبب كثرة حوادث الطلاق..

وهذا كله يوصلنا إلى قناعة بضرورة عدم عزل معالجة القضايا الأخلاقية عن معالجة جوانب الحياة الأخرى، وهذا ما نغفل عنه في أحيان كثيرة!

أمر آخر جدير بالاهتمام، هو أن البنية الأخلاقية هي في الأصل بنية ثبوتية أقرب إلى الجمود، ولذا فإن عدداً كبيراً من السمات الخلقية، هو عبارة

عن وصايا اصطبغ بها الوعي الإنساني منذ زمن بعيد، واعتادت الأمم تناقلها جيلاً بعد جيل؛ ومن ثم فإن معظم الناس يتلقَّى بشيء من الإنكار الضمني أيَّ لفظ يدل على التطور أو التجديد الأخلاقي؛ لأن ذلك يعني في حدس كثير من الناس تطوير أشياء لا تقبل التطوير!

لكن لا ينبغي لهذا أن يشتت انتباهنا عن حقيقة أخرى، تتصل بالمسألة الأخلاقية، وهي أن لكل أمة (سلماً قيمياً) ترتب فيه أخلاقها في ضوء أمرين: مبادئها وحاجاتها؛ فظروف الصحراء والبداوة حملت العرب على وضع الشجاعة والكرم في أعلى السلَّم القيمي؛ وحين جاء الإسلام لم يُخرج هاتين الخصلتين من سُلَّم الفضائل، لكنه غيَّر من موقعها في التشكيل الجديد، حيث صارت (التقوى) معياراً أهم في الدلالة على الفضل والسبق.

وفي المجتمعات الصناعية الحديثة هناك ميل قوي إلى جعل الدقة والفاعلية والإنجاز والمهارة والنجاح ـ في أعلى السلم القيمي، وهكذا...

والذي نريد أن نقوله أننا بحاجة اليوم إلى إيجاد مدخل جديد للتنمنة الأخلاقية، يقوم على منح بعض الثوابت القيمية والأخلاقية معاني جديدة أو اهتماماً خاصاً ببعض مدلولاتها، بغية التخفيف من حدة وطأة التخلف الذي يجتاح حياة المسلم، فـ(التقوى) في حياتنا المعاصرة بحاجة إلى إثراء مفرداتها لتتناول بعض الفروض الحضارية، مثل الإسراع إلى العمل والمحافظة على الوقت والدقة في تنفيذ الأعمال والالتزام بالمواعيد، وحسن التصرف بالإمكانات المتاحة...

ويمكن من خلال التربية والموعظة والإلف جعل المسلم يشعر بحلاوة الإيمان والالتزام من خلال القيام بالأعمال التي ذكرناها، كما يشعر بها عند وضع صدقة في يد فقير، أو التهجد في السحر والناس نيام!

فالتجديد الروحي والأخلاقي ليس عبارة عن نسخ لأخلاق وإحلال لأخلاق أخرى في موضعها، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفاهيم الأخلاقية، وبلورتها والتربية عليها، ومنحها أهمية أكبر في النسق الأخلاقي العام.

ومع إدراكنا العميق للصعوبات الجمة التي تواجه من يريد إحداث تقدم أخلاقي ممتاز في وسط متأزم ـ فإننا لا نجد بداً من ذكر بعض المبادئ والشروط والأساليب والوسائل التي نظن أنها ذات تأثير في تحسين المستوى الروحي والخلقي لأمتنا والرقي به؛ وذلك في النقاط الموجزة التالية:

١ ـ الأخلاق الفاضلة تتهمش ما لم تُوظَّف:

لا توجد أمة ليس لها مبادئ محددة، تعوِّل عليها في الضبط الاجتماعي، وفي ترجيح ممكن على ممكن آخر. كما أنه ليس هناك أمة تخطط لجعل واقعها حرباً على مبادئها، لكن الذي يحدث أن الأمم في غمرة تطلعها إلى تحسين واقعها قد تقف مواقف غير متعمدة، تؤدي إلى إهمال بعض أخلاقها، أو تؤدي إلى إيجاد ظروف جديدة، لا يكون لأخلاقها أي تأثير توجيهي فيها. ولا توجد أية ضمانات لتلافي ذلك سوى السعي إلى إيجاد الأطر العملية التي تتيح لأبناء المجتمع أن يجسِّدوا أخلاقهم ونوازع الخير فيهم في واقع حياتهم اليومية من خلال أعمال تطوعية ومبادرات فردية ذاتية. وقد ضربت أمة الإسلام أروع الأمثلة في هذه السبيل[(١)]، مما ليس له نظير في العالم إلى يوم الناس هذا!

مبدأ (الإحسان) إلى الخَلْق ونفع الآخرين مبدأ متغلغل في ثقافة كل مسلم، لكنَّ المبادئ لا تعمل في فراغ، ومن ثم فإن مما يساعد على ظهور خلق (الإحسان) وجود جمعيات ومؤسسات ينشط من خلالها الشباب ومحبو الخير كافة في التعبير عن إرادة الخير فيهم؛ فنحن نعلم ـ مثلاً ـ أن في كل بلد مسلم ألوف الناس الذين يعانون من تعطل الكُلى، وهم بحاجة إلى متبرعين، وإلى أموال لزراعتها؛ فماذا لو وجد إطار يعمل من خلاله طلاب المدارس والجامعات في إجازاتهم الدراسية، وفي أوقات الفراغ على جمع الأموال وحث الناس على التبرع، كما هو مشاهد في كثير من دول العالم؟ إن الأهم ليس النتائج الطيبة التي سنحصل عليها من وراء هذا النشاط، وإنما

(١) انظر ما ذكره الدكتور مصطفى السباعي من ذلك في كتابه «روائع من حضارتنا».

بعث إرادة الخير وتشغيلها وإبقاء المثل والأخلاق الإسلامية حيَّةً بين الناس.

إكرام الجار والإحسان إليه، وتفقد حاله خلق إنساني رفيع، وحين كان الناس يسكنون في القرى، وفي تجمعات صغيرة كان إمكان تحقيق ذلك المبدأ كبيراً، لكن كيف يمكن تحقيق ذلك اليوم في عمارة مؤلفة من عشرة طوابق، وفي غمرة انشغال الناس بأنفسهم، بل ذهولهم عنها؟!

إنه إذا لم توجد آليات جديدة مثل مجلس أو نادٍ لأهل الحي، يتم من خلاله تعرف الناس بعضهم على بعض ومساعدة من عنده مشكلات منهم... فإن النتيجة ستكون إماتة شبه كاملة لهذا الخُلق، كما هو حاصل الآن!.

نحن نعرف أن بعض الناس يستغلون بعض أعمال الخير لتحقيق مصالح شخصية لكن هل يوجد خير لا يخالطه شيء من الشر؟ وهل الحل هو إغلاق فصل دراسي لأن فيه طالباً مشاغباً؟.

تدخل أحد البلدان غير الإسلامية، فتجد فيه الألوف من المؤسسات والجمعيات ذات النفع العام، مع أنه ليس هناك أي مانع يحول دون استخدامها ضد ما أوجدت له، ولم يجدوا أن الحل يكمن في إغلاقها، ولكن في ترشيدها وتوجيهها ومساعدتها على أداء رسالتها، إن الحل يكمن في تدعيم العناصر الخيرة والممتازة فيها من أجل تهميش العناصر الشريرة.

٢ ـ الإقلاع الحضاري يحتاج إلى فعالية روحية خاصة:

الطائرات في بداية إقلاعها تحتاج إلى قدر كبير من الوقود، وتأسيس الأعمال التجارية يحتاج إلى قدر كبير من الجهود، وهكذا البدايات تكون دائماً مكلفة ومربكة، ثم تميل الأمور إلى اليسر والسهولة.

وأمة الإسلام اليوم تحاول أن تنطلق نحو آفاق واسعة المدى، تجدد مضامين الانطلاقة الأولى التي أشعل شرارتها النبي ﷺ وأهل القرون الخيرة من بعده. وهذا في الحقيقة يحتاج إلى رواد من نوعية خاصة، ومع أن كثرة عددهم بحيث يشكلون كتلة حرجة ـ أمر مهم جداً، إلا أن نوعية المواصفات

والأخلاق التي يجب أن يتحلوا بها تظل أهم؛ فالصحابة الكرام الذين تلقوا تربية مكثَّفة ومتميزة عن النبي ﷺ قد لا يتجاوزون بضعة ألوف، ولكن خصوصية سماتهم وأخلاقهم جعلت منهم قاعدة فريدة، أمكنها أن تحمل بناء ضخماً متطاولاً، وما زلنا إلى اليوم نقبس من رمزية تلك القاعدة وهديها.

لا أريد هنا أن أذكر سمات أولئك الرواد الفكرية والثقافية، وإنما أريد أن أشير إلى بعض خصائصهم الروحية والخلقية؛ ومن تلك الخصائص:

أ ـ صلة قوية بالله ـ جل وعلا ـ تغمر كيان المسلم، وتنقل إيمانه من حيز الدائرة العقلية والتصديق القلبي إلى حيز الشعور، والمعبَّر عنه في حديث مسلم بـ(الإحسان): «**أن تعبد الله كأنك تراه**». وهذا لن يتأتى إلا من خلال العبادات المكثَّفة، حيث إن الإيمان أشبه شيء بشجرة وارفة الظلال، وكلما أردنا لهذه الشجرة أن تكبر، وتمد أغصانها في كل اتجاه كان علينا أن نسقيها أكثر؛ وماؤها هو العبادات والنوافل والأذكار. . .

وهذه السمة كانت واضحة جداً في حياة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ والسلف الصالح عامة، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى نوع من العزوف الكلي عن الدنيا والاستغراق في العبادة، مما حدا بالنبي ﷺ إلى تحذيرهم من ذلك، وأمرهم بلزوم سنته: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

إن الإيمان الحي المتدفق هو الطاقة العظمى التي نحتاجها في مرحلة الإقلاع، وليس ثمة بديل لذلك، ومن ثم فإن الأخذ بأسباب تنميته يعد من الأولويات.

ب ـ الصبر وطول النَفَس، حيث إن الواقع الرديء الذي نعيشه ما هو إلا خلاصة لتراكمات أخطاء قرون عديدة؛ وحتى يتحسَّن ذلك الواقع بصورة جيدة، فإنه يحتاج إلى زمن وجهد. وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى حين قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[1].

---

(١) سورة السجدة، آية: ٢٤.

أحياناً يسيطر علينا اليأس بسبب طول الطريق ومشاقّه، وبسبب شعورنا بأن التحسن ضعيف أو معدوم. أما الرواد فإنهم لا ينظرون أبداً إلى ما قطعوه من الطريق، ولا إلى ما تبقى منه، وإنما يستغرقهم، ويسيطر عليهم الانشغال بواجب الوقت وأدبه، والانشغال بتصحيح المسيرة ومراجعتها، وهم من بعد ذلك يشعرون أنهم لم يقدموا سوى جزء يسير من المطلوب، ولكنه جهدهم وما في وسعهم، وينتظرون من الله ـ تعالى ـ أن يتقبله، ويبارك فيه.

جـ ـ الإعراض عن متاع الدنيا وشهواتها؛ ومع أن قدراً من ذلك مطلوب من كل مسلم، إلا أن للرواد شأناً آخر، فهم أحق الناس بالتقلل ـ قدر الإمكان ـ من الفرش والأثاث والرياش وأطايب المأكولات، بما لا يصل إلى حد الحرمان؛ ويظل المهم هو شعور الناس بتميز هذه الفئة المباركة في أسلوب عيشها، وفي مقاييسها للرقي الاجتماعي.

إن الأمة في هذه المرحلة بحاجة ماسّة إلى المال، كي تشيد المرافق العامة والمدارس والجامعات... وهي بحاجة إلى من يوضح لها بطريقة عملية منهجيَّةً جديدة في العيش بعيدة عما اعتاده كثير من الناس من البذخ والترف وإنفاق المال بغير حساب، ولا أدنى شعور بالمسؤولية!

د ـ التضحية والعطاء السخيّ والكرم الذاتي وروح المجانية سمات مهمة في الرائد، فعلى الرغم من أن هذه المعاني عميقة في ثقافة المسلم ومتجذرة في وجدانه إلا أن الناس يبحثون دائماً عن القدوة والنموذج المحسوس. ولو أن المبادئ تغيّر حياة الناس لما بعث الله ـ تعالى ـ الرسل، ولأنزل الكتب والصحف بين ظهراني الناس، لكن مضت سنته بأن لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وأن المحسوس أسهل في الإدراك وأعظم في التأثير من المعنوي.

٣ ـ اللاواقعية شرط لتحسين الأخلاق:

لا نقصد بـ(اللاواقعية) عدم فهم الواقع، ولا عدم الاعتراف به، وإنما نقصد عدم الرضا به والاطمئنان إليه. وفي هذا السياق نجد أن الناس فرقاء:

فريق لا شغل له سوى الثناء على قبيلته وأوضاعه وإنجازاته، وقد تعوّد أن يرضى من كل شيء بأقله، وأن يقارن نفسه دائماً بمن حالهم أسوأ، فمهما ساءت الأحوال في بلده، فإنها لم تصبح بعد مثل (رواندا) ولا مثل (الصومال)!!

وهناك فريق آخر لا يميز بين الأشياء، وهو يكاد يكون معدوم الحساسية، ولم يتعود أبداً أن يُحسِّن حسناً، ولا أن يقبِّح قبيحاً، فهو دائماً تبع لغيره مستكين للحالة التي هو فيها.

وفريق ثالث دائم النقد، كثير الشكوى، متبرم من الحالة التي تعيش فيها الأمة...

ونحن نقول: إن التطرف في كل شيء غير حميد، وإن الاعتراف بالإيجابيات وتنميتها شيء مطلوب؛ وكل المصلحين العظام يفعلون ذلك؛ بيد أننا نقول من وجه آخر: إن فقد أية أمة لفضيلة (النقد) والمراجعة والموازنة ليس فقداً لشيء يسير، وإنما هو داهية من الدواهي العظمى؛ وكيف يمكن أن نحقق أي تقدم ما دمنا نعتقد أننا على ما يرام، وهل يذهب من يتمتع بالصحة إلى طبيب!؟.

إن عدم الرضا عن الواقع ـ مهما كان حسنه ـ يفتح لنا طريقاً لا يفتحه غيره، وهو إمكان (التفوق على الذات) وضرورة التقدم المستمر.

إن في القرآن الكريم والسنن المطهرة نصوصاً عديدة تتضمن نوعاً من الحث على عدم الرضا عن النفس وتزكيتها؛ لأن ذلك سوف يفتح الطريق أمام الإحساس الداخلي بضرورة التغيير، وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾[2].

---

(١) سورة النساء، آية: ٤٩. اتفق المفسرون على أن المراد بهذه الآية هم اليهود، وإن اختلفوا في المعنى الذي زكوا أنفسهم به. وقد ذكروا من ذلك ثناء بعضهم على بعض، وقولهم: لا ذنوب لنا. انظر فتح القدير: ١:٤٧٧.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٢.

وقد كان النبي ﷺ يغيِّر الأسماء التي تشعر بنوع من التزكية لأصحابها، حيث أخرج مسلم وغيره عن زينب بنت أبي سلمة أنها سميت برَّة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم، سموها زينب**».

لو لم يكن لعدم الرضا عن الواقع من فضيلة سوى التنبيه على سوء استخدام الإمكانات المتاحة، والدلالة على بعض البدائل لأساليب حياتنا، لكان كافياً.

٤ ـ نحو أخلاق تستهدف الأزمة:

لا أحد اليوم يُشكِّك في أننا نمر بأزمة، وليس ذلك بغريب، ولا بشرّ خالص؛ فالإنسان لم يتقدم عبر تاريخه الطويل إلا من خلال الأزمات ولا شك أن الأفراد كالأمم ليسوا سواء في امتلاك الموارد الكافية للتغلب على الأزمات وتجاوزها، لكن لا نختلف أيضاً في أن أية درجة من النهوض سوف تخفف من غلواء الأزمة، كما أنها سوف تسهِّل الحياة الإسلامية.

والعلماء الفاقهون والمفكرون العظام هم عتاد الأمة في تحديد ماهية الأزمة التي تمر بها، وتحديد حدودها ومداخل معالجتها. هذه التحديدات هي التي سترشدنا إلى نوعية (الأخلاق) التي يجب أن نؤكد عليها أكثر من غيرها في سبيل مواجهة أفضل للأزمات التي نعاني منها. ولنوضح ذلك من خلال مثالين:

أ ـ حين نشعر أن كثيراً من المسلمين يميل إلى نوع من التراخي والتقاعس عن بذل الجهد الكافي في عمارة الأرض وامتلاك ناصية الحياة، وذلك ليس عن زهادة، وإنما نتيجة ضعف الحواس الحضارية لديهم، وعدم تقدير واجبات الوقت. في هذه الحالة فإن علينا أن نضغط باتجاه أخلاق محددة تستهدف الخلاص من هذه المشكلة، مثل الحفاظ على الوقت والدقة والإتقان والتوفير وحسن التدبير... وليس الناس آنذاك بحاجة في هذه المرحلة إلى من ينصحهم بأخذ إجازات أكثر ـ كما هو الشأن في اليابان ـ كما أنهم ليسوا بحاجة إلى من يلقنهم دروساً في الترويح عن النفس، وفي الرفاهية وفنون الاستمتاع...

ب ـ حين يخيم جمود الفكر على مجتمع من المجتمعات، ويشيع فيه التقليد، وتموت روح الاجتهاد والإبداع والاستنباط، فإنه لا يكون آنذاك بحاجة إلى من يبين له مخاطر عدم الانضباط في الفتوى وأخطار خروج آراء جديدة غير مؤصلة؛ لأن ذلك يعني نوعاً من تكريس الأزمة والتأصيل لها، لكن الحاجة تكون ماسَّة إلى من يدفع طلاب العلم إلى الاجتهاد والانعتاق من ربقة التقليد، والتحلي بالشجاعة الأدبية، والعودة إلى الأدلة ومحاولة الخروج برؤى وأحكام جديدة؛ حتى إذا رأينا أن الأمر تجاوز حدوده، واقترب من التفلت والفوضى صرنا آنذاك إلى التشديد في شروط الاجتهاد حتى لا يتجرأ عليه غير أهله.

لا يعني هذا أن أقطار العالم الإسلامي تمر بمرحلة واحدة فيما ذكرناه؛ فأوضاعها لا شك متفاوتة، ومن ثم فإن مفكري كل بلد يقومون بتحفيز الناس على تبني الآراء والأخلاق التي تساعدهم على تجاوز أزماتهم الأكثر أهمية وإلحاحاً.

٥ ـ علينا أن نبني خطوطاً أخلاقية أولية للحيلولة دون الاحتراب الداخلي:

يعاني العالم الإسلامي بطوله وعرضه من موجات من الاحتراب الداخلي، وتعالي روح القسوة، واللجوء إلى التعانف في إدارة دفة الحياة، وفي حل المشكلات والوصول إلى الحقوق، والخلاص من الظلم والجور...

هذه الحالة البائسة جعلت الناس لدينا يشعرون باضطراب الوعي والحيرة في اختيار الوسائل المناسبة للخلاص من الأزمات الراهنة!

أما صورتنا في الخارج المنطبعة في أذهان الشعوب الأخرى، فهي صورة في غاية البشاعة والتشوه؛ فالمسلم متوحش دموي عدواني فوضوي شهواني، فهو في أدنى سُلَّم الرقي البشري!!

هذه الصورة القاتمة شكَّلها الإعلام الصهيوني والإعلام المتعاطف معه في الغرب؛ وقمنا نحن بتقديم المادة الأولية التي سوف يستخدمها ذلك

الإعلام، ويستغلها أسوأ استغلال، وهذا التشويه يستهدف صد الناس عن الدخول في الإسلام، وتسهيل ضرب مصالح العالم الإسلامي والاعتداء عليه. مهما حاولنا تحسين الصورة الشائعة عنا فإننا لن نستفيد شيئاً ما لم نتغير نحن، ونُرسي قواعد حضارية في تعامل بعضنا مع بعض.

ولا ريب أن الأشياء التي يجب أن نفعلها كثيرة جداً، بل إن الأسلوب المتحضر لأية أمة من الأمم هو ثمرة نجاحاتها في أصعدة مختلفة. وإن الإسلام باعتباره بنية تحضيرية قد وضح لنا كثيراً مما ينبغي أن نقوم به في هذا الصدد. إن علينا أن نبني من خلال التثقيف المستمر خطوط دفاع أولية ومتقدمة، تحول دون مقاتلة المسلم مهما كانت الظروف والمسوغات. نحن بحاجة ماسَّة لحماية أنفسنا من أنفسنا، وهذه الحماية، تتمثل في تربية النائشة على الإحساس بالطبيعة والتعاطف معها، ومع الحيوان والشجر والنبات والماء، وتنمية كل ذلك والمحافظة عليه، واستخدام الألفاظ التي تشعّ الحب والألفة...

إن المسلم الذي يتحرَّج من إيذاء هرة أو قطع شجرة من غير حاجة سوف يتحرج كثيراً من إيذاء مسلم أو غير مسلم؛ لأن بنيته الثقافية والنفسية العميقة بُنية خيرة، تبني ولا تهدم، وترحم ولا تشمت، وتعطي أكثر مما تأخذ!

إن حمايتنا للطبيعة هي في جوهرها أكثر من أن تكون محافظة على وسط صالح للاستمرار، إنها نوع من التطوير للصفات الإنسانية التي نحتاجها في حماية حياتنا الإنسانية من الوحش الكاسر الكامن من نفوس كثير منا.

إن لدينا فيضاً من النصوص والآداب والتعليمات التي تساعدنا على بناء ما نحتاجه من الخطوط الدفاعية التي أشرنا إليها، لكننا بسبب البعد عن جماليات هذا الدين، وبسبب قسوة الحياة المعاصرة نسينا كنوزنا، وأخذنا نتخبط!!.

وسنذكر هنا بعضاً من النصوص التي تؤكد على حرمة المسلم وصيانة

دمه، وبعضاً آخر من النصوص التي تبني التعاطف مع الحيوان والطبيعة على النحو التالي:

أ ـ بإمكان الباحث أن يقف على قدر كبير من النصوص التي تؤسس العلاقات الإنسانية القائمة على المودة والرحمة والاحترام، والمحذِّرة من المسارعة إلى التسفيه أو التكفير أو إيذاء المسلم بأية صورة من الصور. ومن تلك النصوص ما يلي:

ـ قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[1]. وعنه ﷺ: «**لأن يجلس أحدكم على جمرة، فتحرق ثيابه، فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر**»[2]. وفي الحديث: «**إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه**»[3].

وفي الحديث أيضاً: «**لعن المسلم كقتله**»[4].

ومما يبني الاحتياط والدقة في استخدام السلاح قوله ﷺ: «**لا يُشرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار**»[5].

ب ـ في دائرة التعاطف مع الحيوان ورحمته وعدم إيذائه نجد أيضاً نصوصاً كثيرة، منها قوله ﷺ: «**بينما رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً، فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثلُ الذي بلغ بي. فملأ خُفّه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في**

---

(١) سورة الإسراء، آية ٧٠.
(٢) رواه مسلم.
(٣) أخرجه الشيخان.
(٤) أخرجه الشيخان.
(٥) أخرجه الشيخان.

البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد رطبة أجر»[١].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**عُذبت امرأةٌ في هرَّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[٢].

وروي أن النبي ﷺ مرَّ عليه حمار قد وُسِم في وجهه، فقال: «**لعن الله الذي وسمه»**[٣].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمَّرة معها فرخان فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تعرِش (ترفرف) فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها» ورأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: من حرَّق هذه؟ قلنا: نحن. قال: «لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار»**[٤].

جـ ـ ويتجاوز هدي الإسلام التعاطف والتواصل مع الإنسان والحيوان إلى التعاطف مع الطبيعة والجمادات التي لا تملك أي إحساس بنا، ولكن القصد ـ كما قلنا ـ هو أن يسمو الإنسان، وتنمو فيه عاطفة الخير والإحسان والمسالمة، ونجد في هذه الدائرة أيضاً عدداً من النصوص الهادية الجميلة، منها نهيه ﷺ رجلاً يسرف في استعمال الماء لوضوئه، فقال الرجل متعجباً: أفي الوضوء إسراف؟ فقال النبي: «**نعم وإن كنتَ على نهر جار»**[٥]. وروي عنه ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم غرس غرساً، فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان**

---

(١) أخرجه البخاري. ومن المعروف أن أرض (معرض دمشق الدولي) كانت تسمى (المرج الأخضر) وقد كانت هذه الأرض الرحبة مخصصة لرعي الدواب العاجزة. كما أنه كان في دمشق دار لرعاية (القطط العمياء) ومثل هذه الشواهد الإنسانية كثيرة في حضارتنا الزاهية.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٥) أخرجه أحمد وابن ماجه.

له صدقة»[١]. وثبت عنه ﷺ نهيه عن سب (الحمّى) وعن سب الريح، كما ثبت نهيه عن البول والتغوط في الماء الراكد وفي طريق الناس وأماكن استظلالهم[٢].

إن علينا إشاعة هذه الآداب في المجتمع المسلم وربطها بإطارها التوجيهي العام، ليشيع فينا خلق الرفق والرحمة واحترام الموارد والمحافظة عليها وتنميتها، وكل ذلك في سبيل إحساس أقوى بكرامة المسلم ومعرفة حرمته وحقوقه والكف عن أذاه. وعلينا أن نستخدم كل الوسائل المتاحة لجعل هذه المعاني حاضرة في ثقافتنا وفي حسّ أبنائنا، لعل الله ـ تعالى ـ يسعفنا بالحماية من نزوات الهمجية ونوازع الجاهلية!

٦ ـ علينا أن نتيح الفرصة لتدعيم الوازع الداخلي:

كل من يعيش في مجتمع يقف موقفين متضادين من ذلك المجتمع، فهو حتى يتواصل مع الجماعة، يحاول أن يشعرها بتماثله معها، لكنه في الوقت نفسه يخاف من الذوبان في الجماعة، ويحاول أن تكون له ذاته وخصوصياته؛ وهكذا فنحن في حياتنا الاجتماعية في توتر دائم بين شد وجذب وانقياد وتمرد.

في طبقة (اللاوعي) من الشعور الجمعي نزوع قوي نحو الاستحواذ والسيطرة على كل فرد في الجماعة؛ ليكون عنصراً مساعداً في زيادة تماسكها، لكن علينا أن نكون على حذر ونحن نعطي التماثل الاجتماعي أهمية كبيرة؛ إذ إن التماثل الشديد ربما كان مصدراً للتحلل الذاتي. وعلى العكس من ذلك فإن السماح للتفتح الأخلاقي الخاص، ومخالفة المجتمع ونقده قد يكون من أكبر عوامل تجديد المجتمع، كما يعد عاملاً مهماً في وعيه بذاته وحله لمشكلاته.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) كما في حديثين أخرجهما مسلم.

إن في داخل كل منا ملكة للإقرار والاستهجان والشعور بالمبادئ والتمييز شبه الفطري بين الخير والشر؛ وإن مسؤولية المجتمع تكمن في ترقية هذه الملكة وتدريبها ومدها بالخبرة والثقافة التي تساعدها على الصدور عن رؤية راشدة. إن هذه الملكة أشبه شيء بـ(العضلة) نموها في استخدامها، وإن الرقابة الحرفية والتأنيب الشديد مما يسبب ضمور هذه الملكة، ويحوِّل الفرد إلى إمَّعة، وقد دلتنا التجربة أن عدم إفساح المجتمع للفرد باتخاذ قراراته قد يدفعه إلى نوع من التماهي الشكلي، فيظهر الفرد أمام الناس في مظهر المواطن المثالي، لكنه في خلواته يفعل كل المحرمات وكل ما يضاد قيم المجتمع الذي يعيش فيه. وهذا يعني نوعاً من الانهيار الداخلي غير المنظور، والذي ينتظر الفرصة ليعبِّر عن نفسه في صورة انهيار كلي!.

وبالطبع فإنه لا ينبغي أن نفهم من هذا الدعوة إلى تساهل اجتماعي تجاه المنكرات والمحرمات، فهذا من عوامل التخريب الكبرى، لكن المقصود أمران:

الأول: عدم ملاحقة المجتمع لأفراده في أمور يتحملها التنوع الثقافي، كما في بعض أشكال الملابس وبعض عادات المشي والأكل والشرب والضيافه والزيارات... وما شاكل ذلك مما تواضع عليه الناس دون أن يكون فيه حكم شرعي محدد. وقد رأينا مجتمعات عديدة أفضى بها التشدد حيال بعض العادات إلى أن تفرِّط بأوامر ونواهٍ شرعية كثيرة في سبيل المحافظة على تقاليد وأوضاع رسمتها لنفسها!

الثاني: تدعيم التربية المنزلية والفردية التي تجعل المرء ينزع إلى الخير، ويبتعد عن الشر في خلواته حيث يكون بعيداً عن أعين الناس. ولا يخفى أن شعيرة الصيام تهدف إلى هذا النوع من التربية الوجدانية.

إن المجتمع الذي يضغط على أفراده من غير عناية بالتربية مجتمع يشوبه النفاق العملي، وهو مجتمع ظاهره خير من باطنه، حيث تكثر عاداته وتتضاءل عباداته!

إن لغة التنبيه والتوجيه التربوي ينبغي أن تعلِّم الطفل المعايير الأخلاقية الذاتية المستقلة، وليست (النسبية)، فإذا ما وقع في خطأ ما وجب أن نقول له: هذا حرام، أو هذا خطأ، أو هذا ضارّ... هذه اللغة تؤسس في العقلية والنفسية خطأ الأشياء في ذاتها، ووجوب الامتناع عنها في السر والعلن.

كثير من الناس يستخدم لغة أخرى، فيقولون لأطفالهم: هذا عيب، وهذا منتقَد من الناس، وماذا سيقول عنا الناس إذا علموا به...

وهذه اللغة توحي إلى جانب الحث على الكفِّ بشيءٍ مرافق، هو: إن استطعت أن تنجو من لوم الناس فافعل، أي: ليكن موقفك في السرّ غير موقفك في العلن!!.

إن تكوين خلق (الشعور بالمسؤولية) لا يمكن أن يتم إلا من خلال إتاحة قسط من الحرية، وجعل المرء يتمتع بلذة الموقف الأخلاقي الذي اختاره، واندفع إليه. وإن الإكثار من الأوامر والنواهي ومحددات الحركة يحوِّل المرء إلى آلة. والأسوأ من ذلك أن تُستخدم القسوة والشدة في التربية؛ حتى يفقد الطفل أو الشبل الإحساس بالكرامة، فلا تنفع فيه الموعظة، وتشتد فيه نوازع الانتقام!.

وأصغِ إلى لغة النبي ﷺ في خطابه لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ لترى كيف يؤسس خطابُه عقليةَ الارتباط بالله ـ جل وعلا ـ ومحاكمة الأمور إلى ثوابت قطعية خارجة عن مراقبة الناس؛ فقد أخرج الترمذي عن ابن عباس أنه قال: «**كنت خلف النبي ﷺ فقال لي: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله ـ تعالى ـ لك. وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله ـ تعالى ـ عليك. رُفعتْ الأقلام وجفَّت الصحف**».

٧ ـ نحو أخلاق جميلة:

إن الجمال هو الحيوية التي لها إمكان دخول المجالات كلها، مادية كانت أم معنوية. وهو الذي يسهم في كمال الأشياء ظاهراً وباطناً[١].

مهما قيل في تعريف (الجمال) ومهما تحدث الناس في حقيقته فإنه يظل مقياساً من أهم المقاييس الحضارية، وهو مصدر من مصادر فرح الخاطر وابتهاج النفس. إنه الظل الذي يأوي إليه المكدود في وقت الظهيرة، وقطرة الماء التي ترطب جوف اللاهث الظمآن، إنه المسحة على رأس اليتيم ولمسة الوفاء لمن أسدى إلينا معروفاً، إنه قبل ذلك وبعده ضرب من ضروب الإحسان والإتقان والكمال والتناسق والسمو. إنه الأشياء والأحوال والسمات في قمة نضجها بعد أن تخلصت من الضرورات والنواقص والعيوب...

إن إضفاء المسحة الجمالية على سلوكنا وأعمالنا وتعاملنا ومظهرنا ليس أمراً ثانوياً، ولا مختصاً بقوم دون قوم، ولا فرد دون فرد. إنه مطلب عام على كل مسلم أن يلبيه، وفي كل موقف، وذلك دليل إيمانه وحسن إسلامه.

ليس أدل على حاجتنا إلى زرع أهمية صنع الجمال والإحساس به من أن الله ـ جلا وعلا ـ أرشدنا إلى تجميل أعمال وأمور ذات طبيعة خشنة وقاسية، ربما ظن بعض الناس أن الإتيان بها على أي وجه من الوجوه يعد أمراً طيباً؛ فالصبر أمر شاق على النفس، فكيف إذا كان على فقد عزيز، ومع هذا فإذا صبرت فليكن صبراً جميلاً، وفي هذا القول ـ سبحانه ـ على لسان يعقوب: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[٢].

وفي الحديث: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليُرِحْ ذبيحته**»[٣].

---

(١) الظاهرة الجمالية في الإسلام: ٢٤.
(٢) سورة يوسف، آية: ١٨.
(٣) رواه مسلم.

إن ذبح الشاة موقف أبعد ما يكون عن الجمال، ومع ذلك فعلينا أن نجعله جميلاً، وذلك بالإحسان إلى الذبيحة بإحداد الشفرة، وعدم جعلها ترى شاة تُذبح أمامها، وبالإسراع في الذبح، وعدم قودها بعنف.

إن الحرص على أن يكون الشيء جميلاً يعني قبل ذلك أن يكون تاماً، إذ الجمال صفة زائدة على صفة الوجود، وكأن الجمال في الأشياء يشير إلى تجاوزها حدود الكفاية والضرورة إلى حدود الرفاه والتأنق، وشيء من هذا مطلوب في أمة تسعى إلى أن تكون نموذجاً يُحتذى في الخير والحق والجمال.

إن نصيحة المسلم مطلوبة، وبإمكاننا أن نكسوها حلل الجمال، إذا جعلناها سراً، وبأسلوب لطيف، ومن غير استعلاء، وفي وقت نلمس فيه الاستجابة لها.

من حقنا أن نستخدم منبه السيارة عند خشيتنا إلحاق الأذى بأحد المارة. ولكن لنستخدم هذا الحق مع الحد الأدنى من الإزعاج لمن نريد تنبيهه.

لنجعل وجودنا كله شيئاً جميلاً، فنلبس الثياب ذات الألوان المتناسقة، ولنجعل مجالسنا عامرة بالحكمة واللطف والألفاظ الجميلة، ولنشعر من نسلِّم عليه بالاهتمام وحرارة اللقاء. لنجعل كل ما يتصل بنا نظيفاً ومنظماً ومنسَّقاً يوحي بالعناية الخاصة.

لنجعل مسحة الجمال على كل تعبير من تعابيرنا: من الأحسن أن تقول كذا، ومن الأفضل أن تفعل كذا، والأحسن ألا تلتقي بفلان، وقد أخالفك فيما تقول، وأعتقد أن هذا غير مناسب... وما شابه ذلك من تعبيرات تحمل طابع الإحساس المرهف!

قد يكون (الجمال) في الشكل، وقد يكون في المضمون، فلنحاول أن نزيد الجمال جمالاً بمطابقة الشكل للمضمون؛ لأن ذلك هو الكمال، والكمال جمال.

لنحاول صنع الجمال حتى فيما لا شأن له، كالمشي والعطاس والنداء والاستفهام حتى تصبح حياة أمة الإسلام طرية ندية زكية.

إن المعاصي بأنواعها لا يمكن أن تكون إلا شكلاً من أشكال القبح، لأنها قبل كل شيء تعبير عن الفوضى، وتعبير عن انعدام التناسق بين المعتقدات والأقوال والأفعال، وهي بعد ذلك تعبير عن العجز والنقص. وكيف يمكن إضفاء الجمال على الأشياء الناقصة؟.

٨ ـ لا حدود لفضل الإرادة الخيِّرَة:

أكثر الأخلاق لها حدود شرعية أو عرفية، إذا تجاوزتها انقلبت من فضائل إلى ما يشبه الرذائل، أو ما يعد منافياً للحكمة؛ فالشجاعة إذا زادت عن حدود معينة صارت تهوراً، والكرم يصبح تبذيراً، والحلم قد يصبح نوعاً من الذل.

أما إرادة الخير والنوايا الحسنة التي تتجه إلى عمل الصالحات، ونفع الخلق، والكف عن الشر، فيبدو أنه لا حدود لفضلها، فكلما كانت نية المرء ومقاصده ثرية بالتطلع إلى أعمال الخير كان صاحبها أنبل، وكان أجره عند الله ـ جل وعلا ـ أعظم.

صحيح أن النوايا الطيبة قد تجلب لأصحابها بعض المتاعب في بعض الأحيان إلا أنها في جوهرها تظل توجهاً أخلاقياً كريماً، يُحمد صاحبه عليه.

إن النوايا الخيرة ثمرة من ثمار استقامة الفكر ونضج الوعي وصفاء القلب، وهي في الحقيقة لون من ألوان الإحساس بالواجب والتطلع إلى ما ينبغي إنجازه، ومن ثم فإنه ليس في وسع كل أحد أن ينوي عمل الخير، وكيف يداوم على نية الاستيقاظ قبل الفجر للتهجد من لا يعرف شيئاً اسمه الصلاة، وكيف يداوم على نية النصح للمسلمين من هو غارق في المعاصي إلى أذنيه؟!

ومع هذا فإننا نعتقد أن غرس التوجه إلى الخير وملازمة نية فعل

المعروف يظل مطلوباً؛ حيث يبدو أن هناك علاقة جدلية بين النية والعمل؛ فالنوايا الخيرة تجد فرصاً لتحقيقها في أحيان كثيرة، وكأنها تدفع المرء إلى الاستجابة لها، وتجسيدها في سلوكه. وفي المقابل فإن انخراط المسلم في الأعمال الطيبة المباركة يولد المزيد من حب الخير، والأمل في الإكثار منه. وإن أفضل النيات الصالحة موجود في الحقيقة عند أولئك الخيِّرين الذين استقام سلوكهم، وحسنت أعمالهم.

إن الشريعة السمحاء حريصة كل الحرص على ترسيخ التوجه نحو الخير في نفوس المسلمين؛ لأن ذلك هو المقدمة لاصطباغ سلوكهم به؛ ونجد في ذلك نصوصاً كثيرة، منها: قوله ﷺ إذا كان في غزاة مع أصحابه: «**إن بالمدينة رجالاً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض**» وفي رواية «**شركوكم في الأجر**»[١].

وقال ﷺ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همّ بحسنة، فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها، فعملها كتبها عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة**»[٢].

لنحاول أن نعقد نياتنا دائماً على الخير، ولنحاول جعل (أمانينا) دائماً في أعمال البر، ولنحاول أن نجمع في العمل الواحد عدداً من النيات الطيبة، كأن ينوي المرء إذا ذهب تاجراً إلى بلدة أن يزور بعض الصالحين، أو ينوي إصلاح خلل أو خدمة أخ...

٩ ـ أخلاقية الشعور بالواجب:

الشعور بالواجب عصب مهم في الأخلاق، بل هو العنصر النووي الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله؛ إذ ما فائدة الأخلاق لدى شخص، لا يشعر بأي التزام نحوها؟

(١) أخرجه مسلم وغيره.
(٢) أخرجه الشيخان.

إن الواجب التزامٌ، تشعر به ذاتٌ حرَّة، وهذا يعني أن الشعور بالحرية يكاد يكون شرطاً للشعور بالواجب، وتحمل المسؤولية.

صحيح أن الالتزام يحدّ من مجال الاختيار، وأحياناً يُلغيه، لكن الشعور بالالتزام، يصدر عن إرادة حرة تُلزم نفسها بنفسها(١).

ظلت مسألة الشعور بالواجب من أخطر المشكلات الأخلاقية التي عانت منها الأمم على مدار التاريخ، وبسبب فقد هذا الشعور دخل كثير من المجتمعات أنفاق التفكك والفوضى واللامبالاة، وبالتالي (التخلف)!.

وليس لدى المسلم مشكلة في تحديد الجهة الملزمة بالواجبات والمسؤوليات، إذ إنه مستسلم لأمر الله في المنشَط والمكره، وإنما تكمن المشكلة الأساسية لدينا في صعيد المعرفة والشعور، ثم في صعيد الالتزام؛ إذ من السهل على المرء أن يتناسى بعض الواجبات، أو يتساهل بها في زحام المسؤوليات والواجبات، واشتباكها مع الحقوق، وتوقف بعضها على بعض. ومن السهل عليه أن يعلل عدم التزامه بها...

وقد حدثنا القرآن الكريم عن أولئك الذين يذعنون للحق عندما يكون لهم فيه مصلحة، وعن أولئك الذين يكيلون بمكيالين، وأولئك الذين يلتزمون بالأمر الرباني في أوقات الرخاء، ويتقاعسون عنه في أوقات الشدة(٢).

الأمم العلمانية التي استدبرت الوحي نقلت مصدر (الالتزام) من الشرائع السماوية إلى العقل والعرف والقانون، وما تحدده الثقافة. وقد تم ذلك في ظروف مواتية وأحياناً مثالية، ولا ريب أن كثيراً من المواطنين الغربيين

---

(١) الأخلاق النظرية: ١٢٧.

(٢) نجد كل ما سبق في نحو قوله تعالى: **﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾** سورة النور، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

وفي قوله سبحانه: **﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾** سورة المطففين، الآيات: ١ ـ ٣. وقال سبحانه: **﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا﴾** سورة التوبة، آية ٨١.

يشعرون بشيء من الخضوع للقانون، ويقومون بالمحافظة عليه؛ لكن لا توجد أية ضمانة للاستمرار على ذلك، بل إن وتيرة عصيان القانون والتحايل عليه آخذة في الاشتداد ونعتقد أن ساعة الامتحان لم تدق بعد. وحين تلتف حبال الضائقات الاقتصادية حول الأعناق سيشعر الغرب بفداحة الخطأ (الاستراتيجي) الذي وقع فيه حين حوَّل مصدر الإلزام من الوحي إلى العقل!

وتبذل الآن في العالم الإسلامي جهود تخريبية هائلة، تستهدف نقل المجتمعات الإسلامية إلى عين الزاوية الحرجة التي وضع الغرب نفسه فيها؛ وقد حققت تلك الجهود نجاحات غير قليلة. ويتم الحديث الآن عن المواطن الصالح والإنسان المتحضر والناجح والمحب لوطنه والشريف...

وواضح تماماً أن هذه الألفاظ لم ولن تحرك في أية حماسة للقيام بأي عمل نبيل!

هل نستطيع القول: إن كثيراً من أبناء المسلمين صار كالمرأة المعلَّقة، ـ كما يقول الفقهاء ـ لا هي مزوَّجة ولا هي مطلَّقة؛ فلا بنية إيمانية وشرعية يستمدون منها الشعور بالواجب، ولا بنية حضارية عرفية تعوض عن تلك البنية ـ ولو جزئياً ـ ومن ثم فإن هناك أزمة عميقة وحيرة واضطراباً تنتج عنها رؤية أخلاقية غائمة!

ونود أن نقول باختصار: إن من العسير الحصول في بلاد الإسلام على أشخاص كثيرين، يتحملون المسؤوليات، ويشعرون بالواجبات، ويؤرقهم الوفاء بالالتزام ـ ما لم يكن أولئك الأشخاص صالحين بالمقاييس الشرعية. وحتى نحصل على التزام بأداء الحقوق والواجبات، فينبغي أن تنتهي تلك الواجبات إلى نوع من الوجوب الشرعي، أو تكون دائرة في فلكه على الأقل.

إن كل الثقافات القومية والوطنية المنتشرة في ديار المسلمين كانت قد أفرغت كل ما لديها من طاقات التحريك والكبح في الثقافة الإسلامية، وإن أية ثقافة تخاطب عقل المسلم ووجدانه، لا تستند إلى الثقافة الشرعية بصورة

من الصور، لا تستطيع أن تبعث فيه روح التضحية، ولا روح الانضباط، ولا طاقة إلجام النزوات.

من أجل أن يعود إلى الإنسان المسلم ما كان لدى أسلافنا من الإحساس بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية يجب أن تشيع في مجتمعاتنا أمور عديدة، منها:

أ ـ تعميق مفاهيم الواجبات الشرعية لدى المسلم على الصعيد الفردي والأسري والاجتماعي، وهذه المفاهيم منها ما هو مباشر، ومنها ما قد يحتاج إلى شرح وتوضيح، وإن القرآن الكريم ينبهنا إلى مسؤولية المرء عن أعماله، وعن الآثار السيئة التي تركتها في نفوس الآخرين، وسلوكهم، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾[1].

وفي الحديث: «**ومن سنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»[2].

إن النصوص الكثيرة في هذا الشأن توسع دوائر المسؤولية، وتحفِّز المسلم على أن يقيم رقيباً من ذاته على ذاته، حتى لا يعمل أعمالاً، تجلب له السيئات وهو في قبره!

ب ـ الوعي بالواجبات الحضارية التي يقوم عليها تقدم الأمة اليوم، وهذه الواجبات تحتل دوائر أوسع من دوائر الواجبات الشرعية؛ فتعقد الحياة وكثرة متطلباتها جعلت ما هو مطلوب منا من علم وثقافة وجهد أعلى بكثير مما كان مطلوباً من أسلافنا؛ وعلى سبيل المثال فإن درجة الدقة المطلوبة منا في لغتنا ومواعيدنا وألوان إنتاجنا أعلى بكثير مما كان مطلوباً من السابقين،

(١) سورة النحل، آية: ٢٥.
(٢) رواه مسلم.

وإن ما هو مطلوب معرفته من قبل (المفتي) اليوم أكثر بكثير مما كان مطلوباً في وقتٍ سابق، حيث إن عليه أن يكون على دراية جيدة بالواقع الذي يعيش فيه، كما أن عليه أن يكون شديد الحذر حتى لا تستخدم فتواه في العدوان على بريء، أو قطع السبيل على أعمال خيّرة.

إن المشكلة في موضوع الوعي بالفروض الحضارية أنه يحتاج إلى رؤية كلية لجميع أجزاء الصورة، كما أنه يحتاج إلى فهم طبيعة الآثار والتداعيات الخطيرة التي تترتب على التقصير في القيام بتلك الفروض.

جـ ـ القدوات والنماذج ذات أثر بالغ في إشعارنا بواجباتنا. والحقيقة أن الإحساس بالمسؤولية كثيراً ما يكون هبة المجتمع المتقدم لأبنائه البررة؛ فالإرادة الصُلبة والعزيمة الماضية والإصرار على الوفاء بالالتزامات، كل ذلك يخضع بصورة أساسية للموقف الاجتماعي العام؛ فهو الذي يحدد سقف هذه الأمور، كما أنه هو الذي يُصدر معايير القبول والرفض للأحكام الأخلاقية.

وهنا يبرز أثر الرواد والعظماء الذين ينورون للأمة طريق الالتزام والإحساس بالواجب من خلال أنوار الهداية الساطعة في منطقهم، وقبل ذلك في سمتهم وهديهم وسلوكهم؛ فهم الذين يكسرون المعادلات الاجتماعية الصعبة.

د ـ إن علينا أن نتعلم، ونعلِّم كل رجل وكل امرأة القيام بتحديد نصف ساعة لأداء واجب معين، يخدم المصلحة العامة على الصعيد الاجتماعي أو الدعوي أو الاقتصادي أو الخدمي؛ حيث إن الالتزام بتنفيذ شيء من الواجبات على الأرض على نحو مستمر هو أكبر برهان على استيعابنا لما يجب علينا إنجازه تجاه الأمة.

هـ ـ التقوى عنصر مهم في الالتزام، وإلا فمن أين سنملك الطاقة والحيوية الكافية لجعل سلوكنا يتطابق مع عقائدنا وقناعاتنا، وسوف نتكلم عن هذا الموضوع باستفاضة بعد قليل.

وأخيراً فإن المبادرة إلى تحمل المسؤوليات والقيام بالفرائض المختلفة

هو المقياس الدقيق لتقدم الأمة، فعلى مقدار ما يتحرك الفكر، وتعمل اليد في دروب الخير تكون حيويتها ورقيها، وعلى مقدار ما يكثر الهروب من أداء الواجبات، ويكثر الطلب على الحقوق، ويسود الجمود والتقاعس يكون التخلف والانحسار!.

١٠ ـ انتصار الروح:

ظلت مسألة الموازنة بين الروح والجسد، والشكل والمضمون، والظاهر والباطن مضطرَباً واسعاً للخلل وسوء التقدير، ولو نظرنا في أحوالنا لوجدنا نوعاً من الانحياز غير المسوّغ إلى جانب الجسد على حساب الروح، والشكل على حساب المضمون، ويبدو أن هذا هو الطبيعي؛ حيث إن حاجات الجسد أكثر إلحاحاً ـ مع أنه ليس كل ملحّ مهماً ـ وحيث إن لمس المحسوس والمجسَّد أسهل من لمس الروحي والمعنوي.

إن إدراك حاجات الروح يحتاج إلى شيء من التسامي والشفافية والوعي، وقد أضعفت الحياة المادية الكثيفة التي نعيشها كل هذه المعاني؛ وقد صار من الواجب تجديدها وإحياؤها مهما كلف ذلك من ثمن!.

إنني أعتقد أن تحسين البنية الأخلاقية في أمة الإسلام يحتاج إلى نوع من التوثب الروحي الذي يقوم أساساً على حب الله ورسوله ﷺ وعلى التذكر والارتباط الجيد بما يؤول إليه مصيرنا في الآخرة، إلى جانب مراقبة دقيقة للجوارح، والقيام بالمزيد من النوافل.

وسوف نذكر في المفردات التالية ما نظن أنه يساعدنا على مزيد من الانتصار للروح وعلى مزيد من إطلاق طاقاتها الهائلة:

أ ـ إن علينا أن نتذكر دائماً الهدف الأسمى الذي نعيش من أجله، إذ إن كثرة المشاغل قد تُنسينا المهم، وتجعلنا ننهمك في تلبية الحاجات المؤقتة والتافهة. والهدف الأسمى لنا هو نيل رضوان الله ـ تعالى ـ وإن كل تحركاتنا وأهدافنا المرحلية والصغرى يجب أن تصبَّ فيه، وتكون في خدمته، وآنذاك فقط سوف نشعر أن لحياتنا قيمة ومعنى، كما أن طاقات إضافية سوف تتفجر في أعماقنا مع الأمل ببلوغ النهاية بأمن وسلام!

ب ـ إذا ما أردنا الانتصار للروح وإيقاظها من سباتها، فإن علينا أن نشجع كل ما يؤدي إلى الثراء الذاتي، وذلك من خلال تشغيل أجهزتنا الفكرية والنفسية والجسمية، وأن يزداد التعبير عما نفعله، لا عما نملكه؛ في حالة الإفلاس الشخصي يميل الميزان إلى صالح الامتلاك والاستهلاك، ويكثر المرء من قول: أنا أكلت، وأنا اشتريت، وأنا لبست...

أما في حالة الثراء، فلغة المرء تتمحور حول: أنا أقول كذا، وأنا أحب كذا، وأنا فعلت وفكرت...

لن نصبح أثرياء إلا إذا أصبحنا عاملين نشطين، لكن ينبغي أن تكون أعمالنا دائماً على صلة بأرواحنا وأهدافنا ودواخلنا، فهي أنشطة هادفة وواعية وحميمة!

جـ ـ إن عدوى الأرواح قريبة من عدوى الأجسام، وحتى نرفع من معنوياتنا، ونطلق طاقتنا المعطَّلة والكامنة؛ فإن علينا أن نختار جلساءنا كما نختار ثيابنا، وكما نختار تخصصاتنا؛ فالعلاقات الاجتماعية مصدر كبير للثراء أو الشقاء. وإن أكثر مجالس الناس وأحاديثهم واهتماماتهم أقرب ما تكون إلى أن تكون تافهة، وإن كثرة غشيانها ستكون عاملاً مهماً في شعورنا بالضآلة والانحسار؛ ولذا فإن قراءة كتاب كثيراً ما تكون أجدى من صرف الأوقات في اللقاء بالناس، ولنركز في هذا المقام على قراءة سير العظماء من رجال هذه الأمة، ولنحاول الانفعال بأخبارهم ومواقفهم والتأسي بهم.

د ـ لا شيء يُنعش الروح، وينمي مشاعر الخير والحب كالأنشطة التعبدية، كما أنه لا شيء يقوي الجسد، وينمي، عضلاته كالأنشطة الرياضية. وليس ما سنذكره من تلك الأنشطة يستهدف تدعيم الحالة الروحية فحسب، وإنما يستهدف في الحقيقة تدعيم كياننا كله؛ فالصلة بالله ـ تعالى ـ لا تصقل الأرواح وحدها، وإنما تنير لنا طريق الهداية أيضاً.

إن كل ألوان التعبد خير وإحسان، ولا سرف في الخير، لكننا نشترط فيها جميعاً أن تكون منضبطة بهدي النبي ﷺ وسنته، إذ إن من طبيعة الأنشطة الروحية أنها تُغري صاحبها بنوع من الاندفاع والحماسة التي قد تخرجها عن سنيتها، وتُدخلها في باب الابتداع، وأحياناً فيما هو أسوأ!.

وسنعدد في السطور التالية بعض النوافل والأعمال التي يمكن من خلالها تدعيم الحالة الوجدانية للمسلم، ومن تلك النوافل:

- الاستيقاظ في السحر والناس نيام شعار الصالحين، ونعمة خاصة يصطفي بها الله - تعالى - من شاء من عباده المتقين، وقد وصف الله تلك الصفوة بقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[(١)].

وحين رأى عبد الله بن عمر رؤيا قصّها على أخته حفصة - رضي الله عنها -، وقصَّتها هي على النبي ﷺ فقال: «**نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل**» فكان عبد الله لا ينام من الليل إلا قليلا[(٢)].

هذا الوقت من الزمان ذو مزية ظاهرة، وفرصة ذهبية لمن أراد الاغتنام، فقد ورد في الحديث: «**ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[(٣)].

إذا لم يستطيع أحدنا الاستيقاظ كل سَحَر، فلا يفته ذلك كلّه أسبوع مرة، وإذا استطاع أن يوقظ أهله فليفعل، فلعل الله - تعالى - ينظر إلى أهل ذلك البيت نظر رحمة، فيفوزوا بسعادة الأبد!

- الإكثار من الاستغفار والتحميد والتسبيح والتهليل والصلاة على النبي ﷺ فإن آثار ذلك في جلاء القلوب وإطلاق الروح عظيمة جداً؛ وقد كان الحسن البصري يقول: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة: في الصلاة والذكر وقراءة القرآن». وقد فتح البارئ - جلا وعلا - أبواب خير للذاكرين، لا حدود لها ترغيباً في الإكثار من ذكره، على نحو ما ورد في الحديث: «**خرج رسول الله ﷺ من عند جويرية بكرةً حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: «ما زلتِ على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث**

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) أخرجه البخاري. وانظر فتح الباري: ٣: ٦، ٧.

(٣) أخرجه الشيخان.

مرات، ولو وزِنتْ بما قلتِ منذ اليوم لوزنتهنَّ: سبحانه الله وبحمده عددَ خلقه، ورضاءَ نفسه، وزنةَ عرشه، ومدادَ كلماته»[١].

ـ الإكثار من الدعاء والانكسار لله ـ تعالى ـ وطلب كل شيء منه، فإنه ـ سبحانه ـ لا يزداد على كثرة السؤال والإلحاح إلا كرماً وجوداً. وليحاول الواحد منا أن يدعو بالدعوات المأثورة فإن ذلك أرجى للقبول، وهناك ألفاظ جامعة لأبواب كثيرة من الخير، يستحسن للمرء أن يدعو بها؛ وقد ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربي؟ فقال: «**قل: اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك**»[٢].

وليكثر المرء من الدعاء لوالديه وإخوانه في ظهر الغيب، فإن ذلك قمن بالإجابة، فقد ورد في الحديث: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل**»[٣].

وهناك أبواب أخرى كثيرة لتنشيط الحالة الروحية، مثل الصدقة والاعتكاف في المسجد ومواصلة الإخوان في الله... ولا نريد أن نطيل في ذكر هذه الأمور، لكنني أود أن أقول: ليجعل المرء لنفسه برامج ودورات روحية مركزة، يكثر فيها مما ذكرناه من أشكال التعبد، فقد يخصص المرء أسبوعاً أو يوماً يركز فيه على قراءة القرآن أو الذكر أو الدعاء... وقد يرتب الإنسان لنفسه أوراداً من الذكر المأثور المشروع... والمهم هو الانتظام وشعور المرء أنه لا يشكو من جفاف روحي، ولا من بُعدٍ عن خالقه.

إن من واجب الجماعات والمجموعات أن تولي هذا الجانب الحي من شخصية المسلم الاهتمام، وأن تساعد أفرادها بكل وسيلة على صقله وتنميته حتى يجدوا موارد من الطاقة والعزيمة لأداء الواجبات والكف عن المحارم والنشاط في أعمال الخير والبناء؛ وعلى الله قصد السبيل.

---

(١) رواه مسلم. والمِداد من المدد، وهو ما كثُرت به الشيء. وهذا مجاز عن المبالغة في الكثرة، وإلا فكلمات الله لا تُحصى عدداً.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

الفصل السادس

في
التنمية الاجتماعية

(١) مدخل إلى التنمية الاجتماعية .

(٢) مبادئ وشروط في تنمية المجتمع .

(٣) سمات المجتمع الإسلامي المنشود .

(٤) أساليب وأدوات في تنمية المجتمع .

(١) مدخل إلى التنمية الاجتماعية

ضعف إحساس الناس بفضل مجتمعاتهم عليهم، وضعف معرفتهم بمدى النفع الذي يعود عليهم من وراء رقي مجتمعاتهم، سببان رئيسان في زهادتهم بالشأن العام، بل إنهم قد يتهمون ذوي النشاط الاجتماعي بالرياء ومحاولة استغلال المجتمع لمصالح شخصية!

ومن الواضح أن الحياة الاجتماعية كلها عبارة عن استجابات حية للحاجات الإنسانية، والنظام الاجتماعي هو الشكل الذي ينظم الحياة الاجتماعية وفقاً لتلك الحاجات[١].

تقدم مجتمعاتنا وتحضرها هو تحضر لكل فرد منا؛ حيث إن التعامل الدولي والشعبي في العالم لا يتم اليوم على أساس الفرد، وإنما على أساس المجموع؛ فحين تكون في أحد المطارات الدولية لا تعامل على أساس شخصك، وإنما على أساس ما هو مكتوب في جواز سفرك، وعلى أساس الجنسية التي تحملها، وهكذا السلع والمنتجات المختلفة كثيراً ما ينظر إلى بلد المنشأ أكثر من النظر إلى خصائصها الذاتية؛ فالسلع الألمانية تستقبل بالثقة والارتياح، ويدفع الناس فيها غالي الأثمان، مع أنه لا توجد أية ضرورة تجعل تخمين الناس وتقديرهم دائماً في محله.

إن تنمية مجتمعاتنا وإصلاحها ودعمها والدفاع عنها، هو مطلب شرعي أولاً، وهو استثمار طويل الأجل ثانياً حيث يتوفر المناخ الآمن الصالح للعيش الكريم وتفتح الشخصية ونموها.

---

(١) اقتصادنا: ٢٩٨.

إن هناك مفاهيم عديدة تتعلق بالمجتمع والتنمية، لا بد من توضيحها بغية استيعاب ما سنذكره بعدُ من جوانب (هذا الموضوع). ومن تلك المفاهيم:

١ ـ إن المجتمع في جوهره تعبير إنساني عن مجمل العقائد والمفاهيم والأعراف والعلاقات والمصالح التي تسود رقعة مكانية معينة، وتخضع لها مجموعة بشرية محددة.

وعلى هذا فإن تعريف المجتمع على أنه: الفرد المتكرر يعد تعريفاً قاصراً؛ لأن وجود أعداد كثيفة من البشر في أرض واحدة، لا يشكل بمفرده مجتمعاً ما لم يخضع هؤلاء جميعاً لمعايير واحدة، وإنما هو حشد أجساد، أضفتْ عليه عبقرية المكان شيئاً من التعاقد والتفاهم الشكلي!

٢ ـ إن للعقيدة دوراً مهماً في تحديد ماهية الفعل الاجتماعي، إذ إنها تحدد اتجاهه، كما أنها تفسره، وتظهر مسوغاته، وتكشف عن منطقيته، كما أنها تحدد أهدافه، وترشد إلى كثير من نظمه ووسائله[(١)].

وإن كثيراً من التمزق والتيه الذي أصاب مجتمعات المسلمين، هو بعض نتائج ضمور عقيدة (التوحيد) على مستوى تمثلها وفهمها، وعلى مستوى فاعليتها في حياة الناس.

والسبب في هذا الضمور يعود في تقديرنا إلى أن أكثر الدول الإسلامية لم تهيّىء، ولم تتح ما يكفي من التثقيف والتعريف بالإسلام عقيدة وشريعة وما هو موجود في مناهج الدراسة مشوَّه أو قاصر في أكثر الأحيان!.

ومع أن جهوداً شعبية كثيرة تبذل لتلافي النقص، إلا أن الصحيح أن (الثقافة) التي لا تتبناها دولة تتهمش؛ حيث إنها الأقدر على القيام بهذه المهمة.

٣ ـ يتميز (علم الاجتماع) عن علوم أخرى كثيرة بأنه: العلم الذي

(١) انظر علم اجتماع المعرفة: ٩٥.

يبحث عن نفسه. ومع اكتشاف عدد كبير من المقولات والنواميس التي تحكم الظواهر النفسية الاجتماعية، إلا أن هناك الكثير الكثير مما ينبغي عمله بغية فهم أفضل لواقع مجتمعاتنا. ومهمة عالم الاجتماع أن يدرك الظواهر التي تتكرر في حياتنا، ثم القيام بشرح تلك الظواهر وتعليلها ضمن قوانين عامة[1].

إن كثيراً من الدراسات التي حاولت الكشف عن السلوك الاجتماعي تمت في الغرب، وعلى أسس وأصول، وفي إطار مفاهيم وافتراضات غربية ولذا فإن تلك الدراسات والكشوفات قد تفيد المجتمعات الغربية، لأنها خرجت من رحم ثقافتها. أما نحن فإن الدراسات النفسية الاجتماعية لدينا محدودة جداً، وما يتم منها يُجرى على أسس علمية أجنبية عن ثقافتنا؛ مما يجعل استيعابها لواقع المجتمعات الإسلامية قاصراً، كما أن قدرتها على توجيه سلوك المسلم أيضاً ضعيفة.

إن فهم واقعنا على نحو جيد يتطلب معايشة ممتازة له، من خلال دراسات وتقنيات خاصة وكثيفة، وفي إطار مفاهيم ومعطيات إسلامية ومحلية.

ولا بد إلى جانب هذا أن نكون قادرين على التحرر من كثير من العادات والتقاليد والتراكمات التي شكلت رؤيتنا للحياة بعيداً عن المنهج الرباني.

ولا بد من هذا وذاك من التمتع بخيال خصب يخترق حواجز المحسوس، ويساعد على رؤية الأشياء من وجهات نظر عديدة. وستظل النتائج ـ مهما كنا حريصين على القراءة الدقيقة ـ ظنية وقاصرة عن احتمال تعميمات واسعة؛ وذلك بسبب الطبيعة الرخوة والمرنة لكل ما يتصل بالإنسان من أحوال وشؤون.

---

(١) انظر المجتمع الصناعي: ٩، ١٣.

٤ ـ للفكر دور مهم في بناء المجتمعات، وفي تغييرها، فعن طريق المفاهيم والقضايا المنطقية يمكن تقديم تفسير واضح للفعل الاجتماعي إذا ما تم ربطها بقيم المجتمع ومصالحه وخبراته الإنسانية، كما أن الفكر هو الذي يتيح دراسة المجتمع ونقده؛ حيث يوفر لنا الأدوات التي تمكننا من استيعاب الواقع الاجتماعي؛ حيث يستحيل التعامل مع أي واقع اجتماعي إلا من خلال تكوين صورة ذهنية عنه، والفكر هو الذي يشكل هذه الصورة.

وعلى الرغم من هذه الوظائف المهمة؛ فإن علينا ألا ننخدع، وألا نعطي الفكر أكثر من حقه؛ حتى لا نصاب بالإحباط، وحتى لا نسحب الثقة من العلم والفكر جميعاً في نهاية الأمر!.

إن المجتمع بطبيعته يميل إلى الجمود؛ وذلك لأسباب جوهرية، إذ إن الحالة الاجتماعية ما هي إلا تعبير عن قوة التوازنات الثقافية والفكرية والاقتصادية والسياسية السائدة في ذلك المجتمع؛ ومن ثم فإنه لا يتغير إلا إذا حدث تغير ملموس في هذه التوازنات.

إن الأفكار تظل محدودة القيمة على الصعيد الاجتماعي العملي ما لم تُحدث تغييراً في مؤسسات المجتمع ونظمه. وعلى سبيل المثال، فإنه إذا ساد المجتمع نوع من الخوف من المستقبل وعدم الاطمئنان إليه، فإن الحل لا يكمن في دعوة الناس إلى الاطمئنان، وإنما في إنشاء أوضاع اجتماعية يشعر معها الناس بالأمن عن طريق تقوية الإيمان بالله ورحمته بخلقه، وعن طريق تدعيم العلاقات الاجتماعية والقرابية وإنشاء بيوت لرعاية كبار السن، وتكفل الدولة بضمان الحد الأدنى من العيش الكريم لكل مواطن.

إن قيمة (الحقيقة) في الفلسفة والعلوم شيء، وفي علم الاجتماع شيء آخر؛ فقيمتها في الفلسفة والعلوم تنبع من كونها حقاً أو باطلاً، أما في علم الاجتماع فتنبع قيمتها الأساسية من قوة تأثيرها في تحريك الواقع الاجتماعي الساكن، وذلك لا يكون إلا إذا توفرت للفكرة أو الحقيقة ملاءمة زمانية وبيئية وظرفية[١]. وإلا إذا كان الناس يتطلعون إلى التغيير والخلاص مما هم فيه.

(١) انظر التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: ٣١٢.

وعلى هذا فقوة الظروف هي التي تغير الحالة الاجتماعية الراهنة، وليست قوة الأفكار.

وفي النهاية فإن الفكر لا يملك أية ضمانة للمحافظة على نفسه وطروحاته في مجتمع مفكك منهار؛ إذ من الممكن لمجتمع مدبر أن ينتج أفكاراً تدميرية تزيد في مآسيه ومشكلاته، وأن يطمس الأفكار التي تساعده على بلوغ الأمان.

ونستطيع أن نقول بعد كل ذلك: إن مأساة كثير من دعاتنا ومفكرينا تكمن على مدى حقب متطاولة في الاتكال على صحة الأفكار، والتقاعس عن توظيفها، وإيجاد الظروف المناسبة لعملها. إن ما نعاني منه من المفارقة بين صحة الأفكار وجدوى عملها يمثل موضوعاً محزناً للقراءة!!.

٥ ـ إن بين علماء الاجتماع اتفاقاً تاماً على أن الفرد بدون عضويته في الجماعات المختلفة لا يستطيع أن يتجاوز المستوى (الحيواني) بل يظل عند أصله (البيولوجي)، كما هو الشأن في الطفل المتوحش الذي ماتت أمه، وأرضعته غزالة في غابة، فإن ما يملكه من رصيد إنساني لا ينمو بل يتدهور وعلى هذا فإن الراهب والانطوائي والمنعزل والذي يخاف من إقامة علاقات سوية مع الناس، هم بمعنى من المعاني أدنى من مستوى إنسان، لأن نمو ذواتهم لا يأخذ كل أبعاده، ولأن خبراتهم تظل جزئية وناقصة.

ويمكن أن نصور الوظائف الأساسية للمجتمع في النقاط التالية:

أ ـ تأمين الشروط الأساسية للحياة المادية؛ فمن حق كل من يعيش في مجتمع أن يلقى من الرعاية والحماية والتكافل ما يمكنه من الاستمرار في الحياة. والإسلام أول دين شرع القتال من أجل الفقير، وأخذ حقه من الغني! وعلى الدولة أن تضع نصب عينيها تحقيق الكفاية من ضرورات الحياة، ومن التعليم والتدريب والصحة وإيجاد فرص العمل لمواطنيها، واتخاذ كل التدابير لتأمين ذلك، وعلى كل القادرين في المجتمع أن يساعدوها في تحقيق هذه الأهداف. وإن المجتمع الذي لا يقوم بالحد الأدنى من حاجات أفراده، هو مجتمع مريض.

ب ـ توفير شروط الحياة المعنوية والروحية، إذ من حق المسلم على مجتمعه أن يجد فيه الحرية والحفاظ على الحقوق ودفع الظلم وتكافؤ الفرص والنصح والتوجيه، وتأمين كل ما يحفزه، ويساعده على القيام بأمر الله ـ جل وعلا ـ. . . .

جـ ـ تنظيم الطاقة الحيوية للفرد من خلال وسائله في ضبط أفراده ورقابته عليهم، بمعنى أن يحول المجتمعُ الفرد من شخص غرائزي يجري خلف شهواته ومصالحه إلى شخص مكيَّف يمارس حرياته، ويصرف طاقاته ويؤمن مصالحه ضمن القواعد التشريعية والأخلاقية والسلوكية التي يحددها مجتمعه.

د ـ إدارة التكامل، وحل التوترات التي تحدث بين المكونات المختلفة للحياة الاجتماعية؛ حيث إن حياتنا تخضع لنظم عقائدية وتربوية وتعليمية واقتصادية متعددة؛ ومن ثم فإن المتوقع حدوث نوع من الخلل والتصادم في علاقة هذه الأنساق بعضها ببعض، مما يؤدي إلى تشويه الشخصية الاجتماعية وفقدها للتوازن. وهناك توترات تنشأ بسبب البغي والنهم إلى المكاسب غير المشروعة، وبسبب شح الموارد واشتداد الطلب عليها؛ ومن واجب المجتمع إدارة تلك التوترات، والتخفيف منها بقدر الاستطاعة. ولا يستطيع مجتمع أن يفعل شيئاً ذا قيمة من كل ما سبق ما لم يعتمد في تعامله أسلوب المفاتحة والنقد والمراجعة، وقبل ذلك الشفافية والرحمة وتطبيق العدالة المطلقة.

٦ ـ إن من المهام الأساسية للتنمية الاجتماعية دعم العلاقات الاجتماعية: علاقات الأخوة والقرابة والجوار والزمالة والضيافة، وتنمية مفاهيم التقدير والتسامح والفهم المتبادل. . .

كل التعاليم والآداب الإسلامية تهدف إلى تقريب الناس بعضهم من بعض، ومن ثم فإن هذه المسألة يمكن أن تكون معياراً مهماً لمدى التقدم الذي يحدثه أي مجتمع مسلم. وعلينا في هذا السياق أن نلاحظ أمرين:

الأول: هو كيفية ترجمة المكاسب الاقتصادية التي حصلت عليها شرائح

عديدة في مجتمعاتنا إلى مكاسب اجتماعية واضحة؛ إذ من الممكن أن تكون تلك المكاسب عامل تخريب اجتماعي، حيث يُستخدم المال لاستفزاز الفقراء، وإشاعة نفسية التسلق الاجتماعي، إلى جانب الحسد والحقد والكبر وتبديد الثروات... وهذا كله سوف يحدث إذا لم نملك من الحنكة والنباهة ما يمكننا من تحويل التقدم الاقتصادي إلى تقدم أخلاقي واجتماعي من خلال بث روح تحمل المسؤولية والرقابة الداخلية، والتوجه إلى نفع الناس، وإيجاد آليات جديدة في التواصل والتراحم والتعاون...

الثاني: هو تلطيف الثمن الاجتماعي الذي سندفعه نتيجة اتساع المدن وتراجع الحياة الريفية[١]، ودخول التقنيات الحديثة في حياتنا، ومن الواضح أن المجتمع لا يستقبل آلات وتقنيات فحسب؛ وإنما يستقبل معها أيضاً أساليب معيشية وعلاقات جديدة؛ وهذه كلها تولِّد لدى المجتمعات المحلية نوعاً من التقليد الطائش للبلدان المنتجة للسلع الترفيهية؛ وهذا كله يؤدي إلى تفكيك عرى التضامن، ويضرب الوحدة العميقة للمجتمع[٢].

إن كثيراً من دول العالم الإسلامي يشهد نزوحاً هائلاً من الريف إلى المدن؛ مما أدى إلى نشوء أحزمة من السكن العشوائي المتخم بالفقر والفوضى؛ وقد تم بذلك قلع أعداد ضخمة من البشر من جذورها، وإبعادها عن بيئاتها الطبيعية! وكل هذا بسبب تمركز الوظائف والأعمال الصناعية والخدمية في المدن، وبسبب تدهور الحياة الريفية والزراعية.

ولذا فلا بد من حلول لمعالجة الهجرة المتزايدة، ولإعادة إعمار الريف وإنعاشه، إذا أردنا للمأساة أن تقف عند حد معين!.

---

(١) انظر التربية والتقدم: ١٠٤.

(٢) انظر فلسفة لتنمية جديدة: ١٩١.

(٢) مبادئ وشروط في تنمية المجتمع

لله - جل وعلا - سنن تحكم حياة الفرد، وسنن تحكم حيوات الأفراد مجتمعين؛ وفي إطار هذه وتلك جاء التكليف الرباني للعباد، وابتلاؤه لهم.

السنن التي تحكم حياة الفرد غير السنن التي تحكم حياة الجماعة، وهذا يعني أن مصالح الفرد، قد لا تتطابق دائماً من مصالح الجماعة؛ وهنا يكمن جوهر الابتلاء في الحياة الاجتماعية.

إن مما لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن المبادئ لا تعمل في فراغ، وإنما تحتاج كيما تصوغ حياتنا، وتكون حاضرة فيها - إلى شروط موضوعية وفنية، علينا أن نعمل على توفيرها، وهي شروط تخضع في مجملها للنواميس الاجتماعية.

وسنذكر هنا بعض المبادئ والشروط والنواميس التي نرى أن استيعابها ضروري لتنمية حياتنا الاجتماعية؛ وذلك في المفردات التالية:

١ - الاستقامة شرط لوجود الفائض الاجتماعي:

يمكن القول: إن أحد أهم مقاييس استحقاق حشد من الناس اسم (مجتمع) هو ما فيه من أفراد ومجموعات تُعنى بالشأن العام، وتتجاوز حركتُها اليومية دوائرَ مصالحها الخاصة إلى الانشغال بمصالح الجماعة. وبما أن كل مجتمع لا يخلو من هذه الشريحة؛ فإن المهم هو الحجم الذي تمثله في مجتمعها، وأدوات التأثير التي تملكها.

ومعيار كفايتها هو الوضعية الاجتماعية العامة؛ فإذا وجدنا الأمور المشتركة بين الناس مخدومة بعناية، وإذا وجدنا الخطأ والانحراف محاصرين

على نحو جيد، فإن هذا يعني أن ما هو مطلوب موجود ومناسب وإذا وجدنا أن المظلوم لا يجد ناصراً، والضعيف لا يجد معيناً، والمفسد لا يجد رادعاً؛ فإن هذا يعني أن كتلة أهل الخير غير كافية، ولا فعالة؛ ومن ثم فإن ما نسميه مجتمعاً هو مجتمع ناقص ومهدد، وهو أقرب إلى أن يكون تجمعاً.

وجود هذه الشريحة المباركة هو التعبير الحي عن وجود فائض اجتماعي، حيث توفَّرت طاقاتٌ زائدة على ما تتطلبه الحياة الفردية لبعض الناس. والسؤال الدائم والملح؛ كيف يمكن إيجاد هذه الطائفة؟

في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾[1] إشارة إلى أن الذين يتمسكون بالكتاب هم المصلحون؛ فالإصلاح يتأتى من وراء الالتزام بمضمون الكتاب وهذا ما تشهد به وقائع الحياة الملموسة، ؛ فالذين يتبرعون، ويبنون الجمعيات الخيرية والمشافي المجانية وملاجئ الأيتام، هم في غالب الأمر من الملتزمين بالنهج الإسلامي القويم.

وهذا يُعيدنا إلى حقيقة مسلَّمة، هي أن الفرد هو جوهر المجتمع؛ ولا نستطيع أن نحافظ على ترابط مجتمعاتنا ونقائها بغير إشاعة الالتزام بين الأفراد، وتكثير سوادهم، وما قل الملتزمون الصالحون في مجتمع إلا ضرب فيه النهب والفساد والانحلال الخلقي أطنابه. وما أجمل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾[2]. فالاستقامة شرط لاستفاضة الخير وتماسك المجتمع.

٢ ـ يستمد العامل الإصلاحي قوته من الظروف المحيطة به:

حين تنسد الآفاق أمام الناس، فإنهم يبحثون عن مخرج، ويغلب عليهم

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٠. وسنة العرب في كلامها تقضي بأن يقال: (أجرهم) لكن كلمة (المصلحين) جاءت لإفادة هذا المعنى الكريم من الشهادة لهم بالإصلاح، ولولاها لما فهم ذلك.

(٢) سورة الجن، آية: ١٦.

الإدراك الأحادي للحلول؛ لأن تركيبتهم العقلية تميل إلى أن تكون بسيطة؛ ومن ثم فإن منهم من يعتقد أن شح المال وقلة الموارد يمثل رأس المشكلة، فإذا ما توفر المال حُلت المشكلة، ومنهم من يرى أن فقد القيادات السياسية والإصلاحية الفذة هو أساس المشكلة؛ ولذا فإن الخلاص منوط بوجود شخصية سياسية مثل شخصية عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أو قائد عسكري بارع مثل صلاح الدين أو مصلح كبير مثل ابن تيمية أو العز بن عبد السلام.

ومنهم ومنهم... وهذا كله وهم، وهو إلى جانب ذلك نوع من أنواع الهروب من المسؤولية، ومظهر من مظاهر العجز!

ونحن لا ننكر ـ بداهةً ـ الأثر الذي قد يحدثه الفرد الفذ المتميز، والفرصة العالمية النادرة، والثروة المالية الطائلة... من آثار وتغييرات في حياة الأمم والشعوب، لكن الوضعية العامة للأمة تظل أهم بكثير؛ فإذا كانت مقبولة، ومنطوية على إمكانات إيجابية، فإن أضعف العوامل شأناً يمكنه أن يدفعها إلى الأمام، وإذا كانت على خلاف ذلك، فإن أقوى العوامل تأثيراً يفقد فاعليته، ويتلاشى تأثيره[1].

هناك أحداث تعد تافهة جداً في الأحوال العادية، تكتسب أهمية استثنائية عند التقائها ببعض الظروف والأوضاع. إن زلة لسان، أو كبوة فرس، أو تأخر قائد في النوم، أو مرض عالم، إن هذه الأشياء الصغيرة قد تسبب نكبة لمجتمع، لا يستطيع الخلاص منها عبر عقود عديدة!!.

إن الذي أريده من وراء هذا الكلام هو أن نزيح عن طرق تفكيرنا العامل الوحيد والسبب الوحيد والطريقة الوحيدة، وأن ننزع من نفوسنا الرغبة الجامحة في الحلول الآنية الجزئية والسريعة، ونصير عوضاً عن ذلك إلى تشغيل كل فرد من أفراد الأمة بشيء نافع، ولو كان صغيراً، فذاك هو الطريق

---

(١) يروى أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سُمع يدعو في آخر حجة له بهذه الكلمات: اللهم لقد اتسعت رعيتي، ووهنت قوتي فاقبضني إليك غير مفرط!.

الأقصر إلى تحسين الوضعية العامة للأمة، وذاك هو الذي يمنح التقدم شيئاً من الاستقرار والثبات والتراكم؛ وآنذاك تتحول كل العوامل والمؤثرات المحدودة إلى عناصر إيجابية بناءة.

٣ ـ عند انتشار الظلم لا يبقى شيء مقدّس:

قد تعودنا أن ننظر بعين الاستغراب والاستهجان إلى تقاتل شقيقين على منصب، أو مبارزة ابن لأبيه على مغنم، أو استعداء بعض الناس لقبيلة أخرى على قبيلتهم لأي سبب كان؛ فهذا كله ليس مقبولاً ولا مسوَّغاً تحت أي ظرف من الظروف.

أما اليوم فقد تغيرت أشياء كثيرة حيث حلَّ في موضع مفاهيم التاريخ القديم تاريخ كوني عام، وقيم ومطالب كونية، وثقافة جديدة سائدة، وأصبح من السهل تغيير اللغة، وتغيير الأحلاف والولاءات، والالتزامات إذا تبدلت المصالح. ولم تعد تجد هذه الفئة أو تلك أي حرج في التعامل مع فريق أجنبي لضمان المصالح المادية[١].

ويسهل مرة أخرى تجاوز كل تقاليد الاحترام والتفاهم والولاء حين يشعر المرء بغبن فادح، حيث يصبح على استعداد لعمل أي شيء؛ إذ لم يبق هناك تصرفات لا تقبل التعليل والتسويغ، وعلى هذا فإن المجتمعات التي لا تستطيع إيقاف المتنفذين والمتغولين، وأرباب الشهوات والمطامع عند حدودهم، مجتمعات تضع مصيرها في مهب الريح؛ فالوازع الداخلي لدى أكثر الناس قد ضعف، وصار معقد الانتماء والولاء للجماعة يرتكز على مدى تأمينها لحقوق أفرادها، وعلى مدى حمايتها لهم؛ فإذا لم تستطع ذلك، فإنه لا معنى للحفاظ عليها، والدفاع عنها. وهذا هو العامل الحاسم في مظاهر التوحش والهمجية التي نجدها اليوم لدى كثير من المجتمات.

إن المنطق السائد والقناعات الراسخة اليوم تبيح لمن وقع عليه الحيف

---

(١) اعتيال العقل: ١٧١.

دون مناصرة المجتمع له أن يفعل ما يستطيعه لدفع ذلك الحيف، ولو كان التآمر، والتهديد للكيان كله! إن الظلم ظلمات في الدنيا ويوم القيامة، وعلى الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم أن يستعدوا لدفع أفدح الأثمان!!.

٤ ـ التوازن الاجتماعي رهن بالتبادل:

كل من يعيش في مجتمع يطمح إلى أن تكون علاقته مع أفراد مجتمعه علاقة (تبادلية) ذات اتجاهين. والواقع الاجتماعي، هو دائماً واقع تبادلي على مستوى السلع والحاجات، ويرغب الناس على نحو مستمر في تعميم هذا الواقع على الحياة المعنوية بكل صورها، إنهم يرغبون في أن يأخذوا ويعطوا، ويتأثروا، ويؤثروا، ويتعلموا ويعلِّموا(١)...

والحقيقة أن هذه هي الطريقة الوحيدة لحفظ توازن المجتمع، وصونه من السقوط.

وحين يُوقف هذا التبادل، وتتكلس الوضعيات المختلفة، يتباطأ تقدم المجتمع، وتتفاقم مشكلاته، وتكثر انقساماته، ويصبح الناس ما بين متمرد غالٍ، وما بين إمَّعة مقلِّد، وما بين متكبر متجبر، وما بين مستضعَف مطموس الشخصية والحقوق. ويصبح من المألوف أن ترى أقواماً لا يحسنون إلا الكلام، وآخرين لا يتاح لهم إلا الاستماع، وأقواماً خُلقوا للثراء والوجاهة، وآخرين خُلقوا ليكونوا في السوقة، وعلى حواشي الحياة، دون أية فرصة للتحسن والترقي!.

في هذه الحالة يصبح كل شيء شكلياً، وتصبح الكلمات لا معنى لها، وتفقد الحياة طعمها؛ وعلى كل واحد أن يبحث عن مصيره بشكل منفرد...!!

في ظل المدن الكبرى والمجتمعات الواسعة ما عاد مجدياً ترك التبادل

---

(١) هذا كله في حالة السواء الاجتماعي، أما في حالات انتشار الأمراض الاجتماعية من الاستبداد والظلم والتقاطع فإن ذلك ينحسر، ويتقزم.

الاجتماعي يجري على نحو عفوي من غير قصد، ولا تنظيم، كما كان عليه الحال في الماضي، بل لا بد من بناء مؤسسات وأطر شورية وبحثية وثقافية، يتم من خلالها التفاهم والتبادل بين الناس بطريقة حضارية وسلمية، حتى لا تترك الساحة الاجتماعية لقوى الشر، وأصحاب النزوات، يحركونها لحساب مصالحهم الشخصية!

لا بد أن تظل آفاق الصعود والترقي الاجتماعية مفتوحة للأفضل والأعلم والأنفع، حتى يستمتع الناس بثمار جهودهم وملكاتهم، وإلا فليس أمامنا إلا الخمول والموت البطيء، أو التحلل والانفجار الداخلي!

إن النظم الاجتماعية تعمل بطريقة قريبة من عمل النظم الطبيعية، فالقضاء على العصافير ـ مثلاً ـ قد يؤدي إلى زيادة الديدان، وإن تكاثر الديدان قد يقضي على المحاصيل؛ وإن الحل يكمن في ترك التوازن البيئي والاجتماعي يخضع لسنة المدافعة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[1].

٥ ـ تنحط النخبة حين تتخلى عن واجبها تجاه مجتمعاتها:

مهما ترقى المجتمع، وتعاظمت خبراته، فإنه سيظل ينقسم إلى خاصة وعامة، وتابعين ومتبوعين. وهذا التنوع ضرب من ضروب التوازن والتكامل الاجتماعي، كما أنه مظهر من مظاهر الابتلاء. العامة وأشباههم قاصرون عن إدراك الواقع وتشابكاته وتداعياته، ومن ثم فإنهم يعتمدون على الصفوة في اختيار الموقف الملائم، ورد الفعل المناسب...

إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يسأل على مقدار ما يعطي، وميزات الصفوة ليست مداخل للوجاهة والمنافع المادية فحسب، وإنما هي مناط للمسؤوليات الشرعية والأدبية والأخلاقية أيضاً.

ومعالم تلك المسؤوليات عديدة، منها: توجيه الناس وإرشادهم

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥١.

وتعليمهم وتبيين مراشد الحق ومناهج الهدى لهم، حتى يحيا من حيَّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة؛ وفي هذه المسؤولية عهد وميثاق لله ـ جل وعلا ـ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[1].

ومنها: تكوين عقلية الناس تكويناً متوازناً ببسط كل جوانب الصورة، وذكر الإيجابيات والسلبيات لكل قضية كبرى تمس حياة الأمة ومستقبلها.

وهذه القضية من أخطر مسؤوليات الصفوة، حيث إن القيام بها قد يجر عليهم بعض المتاعب، وقد يفوِّت عليهم بعض الغنائم، ولكن لا خيار لهم في ذلك. وإذا لم يستطع الواحد منهم أن يفعل ذلك، فليتق الله ـ تعالى ـ وليلزم الصمت، فإنه لا يُنسب إلى ساكت قول. والخلل في القيام بهذه المهمة هو الذي أفقد مجتماعتنا توازنها وحدسها أمام مختلف القضايا، والأحداث الكبرى، وهو الذي شوَّه رؤيتها للوضعية المثلى التي ينبغي أن تكون عليها[2]!.

إنني أقول بكل صدق: إن الأمة الفقيرة ليست هي التي لا تملك المال أو الموارد الكافية، وإنما هي الأمة التي تتلفت في أيام شدتها وحيرتها، فلا ترى عندها مفكرين عظاماً أمناء ينصحون لها، ويدلونها على طريق الخلاص وينمُّون خبراتها النقدية.

إن أوَّل شرط ينبغي توفره في أولئك المفكرين هو أن يتمتعوا بالحد الأدنى من صفات (الرجولة[3]) وإلا فما أسهل أن يصبحوا تجاراً بمستقبل الأمة وأمنها وكرامتها وحقوقها، وآنذاك فإنهم لا يستحقون اسم صفوة أو نخبة؛ لأن الصفوة التي لا تدافع عن مبادىء الأمة وحقوقها ليست صفوة،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٢) بسطنا هذه القضية في كتابنا: (فصول في التفكير الموضوعي).

(٣) قال أحدهم: إن الذكور كثير، والرجال قليل!!

وإنما هي شريحة اجتماعية منحطة بائسة، اختارت لنفسها التجارة بالممنوعات والمحرمات، فما أخسرها من تجارة؟!

إن أعلى نقطة في قمة الجبل هي أدنى نقطة إلى التدهور نحو القاع، وإن زلة العالِم زلة العالَم، لكن يبدو أن غلبة الأهواء، والانجذاب نحو المصالح الخاصة قد أفقد الكثيرين الحساسية تجاه كل شيء!!.

٦ ـ لنتعلم من عالم (الحشرات) شيئاً من التفاني في خدمة مجتمعاتنا:

في القرآن الكريم سورتان، سميتا باسمي نوعين من الحيوان، هما النمل والنحل، ومجتمعا هذين النوعين من أرقى مجتمعات الحيوان تنظيماً وتعاوناً وتفاهماً، والله ـ جل وعلا ـ وضع فيهما من الغرائز ما جعلهما يعملان في حياتهما الأسرية والاجتماعية أعمالاً سامية، يعجز عنها الإنسان، وعلى الواحد منا أن يتعلم منهما كيفية الامتثال لمبادئه، وأن يتعلم روح التضحية في سبيل الجماعة.

وظيفة الملكة في مجتمع النحل وضع البيض، ومصدر غذائها تفرزه لها النحلات العاملات من غدد خاصة في رأسها! وللجماعة الواحدة ملكة واحدة؛ فهي لا تشكو من مشكلة انقسام القيادات!

أما النحلات العاملات فهن عُمُد الخلية، وهن يقمن بمعظم العمل؛ فعلى الرغم من كونهن (عاقرات) إلا أنهن يتولين تربية الصغار وإطعامها وتنظيف المستعمرة وتهويتها... إن الجهود الهائلة التي يبذلنها تجعل أجسامهن لا تقوى على الاستمرار في الحياة؛ ولذا فإن متوسط عمر الواحدة منهن قرابة ستة أسابيع فقط!!

والذكور مع أنها تموت بعد عملية التلقيح مباشرة، إلا أنها تقدم عليه، وكأنها تفدي النوع بحياتها!!

إن شعار النحل والنمل المرفوع دائماً: لا قيمة لحياتي عند تعرض سلامة الجماعة للخطر، وهذا هو شعار الشهداء في أمة الإسلام!

إن هذه الحشرات تتصرف بغريزتها دون استخدام للتفكير، وكأن الله - تعالى - بث فيها تلك الغرائز ليرشدنا إلى العمل الجماعي الأمثل في حياتنا؛ حيث التعاون والتفاهم وتقسيم العمل والتضحية والإيثار!

٧ - وضوح أهداف المجتمع شرط لحفزه:

في دوامة التخلف والمشكلات المتلاحقة لا يدري المصلحون ماذا يعملون؟ ولا بأيها يبدؤون؟ ومن ثم فإنه لا بد من إيجاد نوع من الإجماع الشعبي على الأهداف الاجتماعية التي ينبغي تحقيقها خلال عشر سنوات أو عشرين سنة - مثلاً - وتحديد الزمن يساعد على تحديد البرامج والآليات التي ينبغي وضعها واستخدامها.

لكل دولة، ولكل جماعة أهداف معينة، تسعى إلى تحقيقها، لكن المشكلة الأساسية أن تلك الأهداف تكون واضحة لدى شريحة ضيقة جداً، قد لا تتجاوز القيادة، وبعض المخططين!

إذن تكون البداية بوضع خطة حضارية اجتماعية، تتضمن أبرز الأهداف الاجتماعية وأكثرها إلحاحاً.

كل أشكال القصور والانحراف موجودة في كل مجتمع على وجه الأرض، لكن بعضها لا يشكل في بعض المجتمعات مشكلة ملحَّة، أو ظاهرة عامة، أو وضعاً استثنائياً؛ فعلى حين يعاني مجتمع من ارتفاع نسبة المدخنين، يعاني مجتمع آخر من انتشار البطالة أو الرشوة...

وهناك أهداف اجتماعية ثابتة لكل الأمم، والكمال فيها دائماً نسبي؛ لذا فإنها تحتاج إلى نوع من المجاهدة المتصلة، وذلك من نحو: توسيع قاعدة المشاركة الشعبية في تسيير دفة الأمور العامة، وتوسيع نطاق الاستفادة من خدمات التعليم والتدريب والصحة والرعاية الاجتماعية، والانفتاح، وحل المشكلات عن طريق التفاهم، وتدعيم التواصل الاجتماعي...

بعد تحديد الأهداف بدقة، ووضعها في سلم التنفيذ بحسب أهميتها

وإلحاحها تأتي مرحلة نقل تلك الأهداف إلى الثقافة الشعبية، حيث تخفق كثير من الدول في تعريف مواطنيها بما يجب أن يعرفوه من قضايا ومشكلات.

ولن يتحقق تثقيف الناس بدون تكاتف كل وسائل التثقيف الاجتماعي؛ حيث يُحاصَر الفرد من قبل المسجد والمنهج الدراسي والصحيفة والتلفاز والإذاعة واللوحات المبثوثة في نواصي الشوارع، والشعارات المثبتة على السيارات والجمل القصيرة المكتوبة على إيصلات الماء والهاتف والكهرباء، وحيث تُعقد الندوات والمحاضرات.

ويضاف إلى هذا تشجيع الناس على نقد السلوكات الخاطئة، والتصرفات غير اللائقة...

لا ريب في أن تحقيق حملات التوعية والتثقيف لغاياتها سيكون مرتكزاً على درجة الوعي التي بلغها المجتمع، وقبل ذلك على درجة رضا الفرد عن مجتمعه، ومدى اعتزازه بالانتساب إليه.

إن هذا الذي ذكرناه من توعية الأمة بأهدافها ـ ربما كان الفرصة الوحيدة لتحقيق تقدم، طال انتظاره!.

٨ ـ الأسر المحطَّمة تثبِّط الهمة، وتفسد الخُلُق:

مهما كانت إرادة الفرد صُلبة ومهما كانت إمكاناته الفطرية ممتازة، فإن للظروف السيئة أثراً بالغاً في إفساده وإرباكه، وإجهاض إمكاناته...

والظروف الحسنة المواتية هي التي تخفف من محدودية الإنسان، وهي التي تمكنه من توظيف جيد لإمكاناته ومواهبه.

مدن (الصفيح) في عالمنا الإسلامي آخذة في الانتشار عاماً بعد عام، وفي تلك المدن ترى العجب العجاب، حيث الزحام، والحرمان من الماء النقي والكهرباء والصرف الصحي، فضلاً عن الطبابة والدواء.

في تلك المدن يتوفر شيء واحد هو البيئة المثالية للتحلل الأخلاقي

والفساد السلوكي، وإدمان المخدرات والنزاع والشجار... إنها أفضل بيئة لقتل الهمة، حيث المحيط ذو سوية منخفضة، وطموحات محدودة.

في هذا الوسط البائس ينشط أهل الخير لترقيع ما أفسده الوضع الصعب، لكن حملات الإنقاذ التي يقومون بها لا تؤتي إلا أقل القليل من الثمار لأنها تعالج الآثار، وتهمل الجذور والأسباب التي تقف وراء تلك الحياة المهينة! ولضربةٌ واحدة على الجذور أنفع من ألف ضربة على الأغصان!

وهكذا فالخلاص من المشكلات الأخلاقية قد لا يكون في بعض الأحيان عن طريق معالجات تربوية، وإنما بأدوات اقتصادية وعمرانية ومعيشية.

٩ ـ حاجة المجتمع إلى الإجماع حيوية:

لا يستطيع الناس التعايش من غير معايير يتعاملون على أساسها[١]، ولا بد لهذه المعايير أن تكون مرتكزة على معتقداتهم ورؤيتهم للحق والباطل، والصواب والخطأ.

وكما هو الشأن في كل العلوم، وكل المجالات العملية هناك أصول وفروع، وقطعيات وظنيات. وكما أنه لا ينبغي الاختلاف في الأصول، كذلك لا ينبغي السعي إلى تحصيل الإجماع على الفروع؛ فذاك غير ممكن، وغير مفيد أيضاً. وطالما حاول بعض الدعاة والمصلحين قطع دابر الخلاف في مسائل استمر خلاف الأمة فيها قروناً، ولم يحصلوا على أية نتيجة؛ لأن ذلك مخالف للسنن الربانية، ومخالف لطبائع الأشياء أيضاً. ولو أن الداعية أو طالب العلم امتلك القدر الكافي من البصيرة ووضوح الرؤية لما ضيَّع الممكن في طلب المستحيل!

---

(١) لو أن مجموعة من الصبية الصغار اشتركوا في لعبة من الألعاب، فإنهم سيكتشفون بعد قليل أنهم لا يستطيعون المضي فيها دون وضع بعض القواعد التي سيلعبون على أساسها.

إن التربية الاجتماعية يجب أن تتمحور حول توحيد الناس على الأصول والكليات، التي تمثل المقاصد الكلية للشريعة، من مثل حفظ الدين والنفس والمال والعرض[1]، وما يستتبع هذه الضروريات من أدبيات وأخلاقيات ومسائل تكميلية.

يجب علينا أن نركز في تربيتنا الاجتماعية على المتفق عليه، ونجعل ذلك شغلنا الشاغل؛ فإذا ما امتثل الناس لما هو موضع إجماع، لم يضرهم الجنوح إلى قول إمام من أئمة الهدى في مسألة من المسائل، ولو كان في قوله شيء من التساهل والترخص؛ إذ إن الالتزام الصارم بالأصول، وبالمتفق عليه يكسو صاحبه حلية التقوى، ويصبغ سلوكه بصباغ عام خيِّر لا يؤثر فيه ما يقع من تباين نتيجة التقليد للآراء المختلفة. وفي واقعنا وتاريخنا الإسلامي أشكال من الشجار والقطيعة والتدابر بسبب سنة من السنن أو هيئة من الهيئات، وقد حصل بسبب ذلك انشغال هائل عن قضايا كبرى، وأدواء دوية، تنخر في جسم الأمة؛ وذلك كله من قلة الفقه وغبش الرؤية!.

١٠ ـ ليس انخفاض الكفاءة الاجتماعية داءً لا دواء له:

إن الدعم الذي يتلقاه الفرد من مجتمعه يخفف من ضغوط المشكلات والظروف المعيشية الصعبة، وإن مما يخفف الشعور بالغربة والخوف من المستقبل ما يوجه إليه الإسلام من تضامن أسري، وترابط قرابي، وتعاون أخوي.

ولا يخفى أن ما يأمله المسلم اليوم من دعم اجتماعي آخذ في التراجع، نظراً لتعقد أنماط الحياة، وكثرة مطالبها ونظراً لما هبَّ علينا من رياح الغرب الذي فقد نظامُ القرابة فيه أكثر المعاني الإيجابية.

وعلى كل حال، فلا ينبغي أن نظن أن مجرد العيش في مجتمع يجعل

---

(١) نظمها بعضهم بقوله:

وحفظ دين ثم نفس مال نسب ومثلها عقل وعرض قد وجب

المرء يستحق المساعدة؛ فذاك كرم قد انتهى، وحلَّ محله ما نسميه بـ (المقايضة الاجتماعية) فليس من حق الذي لا يصل رحمه، ولا يعاون جاره ولا يزور زميله أن يتوقع اليوم معاملة أفضل؛ وهذا يعني أن شرط نيل الدعم الاجتماعي هو التمتع بكفاءة اجتماعية عالية؛ مما يولِّد تبادلاً وتواصلاً وتعاوناً أكبر.

إذا ما نظرنا إلى نشاط المسلم في الحياة العامة، وجدناه أقرب ـ على نحو عام ـ إلى السلبية والخمول والانكفاء على الذات. وهذا ليس صدى لعقيدة المسلم، ولا للمبادئ التي يؤمن بها، وإنما هو رد فعل فطري، واستجابة غير واعية للظروف الصعبة التي يعيش فيها، إنه ينكمش ويتكيس، كما تتكيس بعض البذور عند وجودها في ظروف غير ملائمة للإنبات! إن جانباً من عدم اندماج الإنسان المسلم في الحياة العامة يعود إلى نوع من اليأس من جدوى المشاركة، ومن شعوره بعقم فاعليته، واعتقاده بأنه ليس هناك أية ضمانات للحصول على ثمار جهوده. وهذا ما نشاهده واضحاً من إعراض أكثر الناس عندنا عن المشاركة في (الانتخابات) حيث يعتقد أن النتائج معروفة سلفاً، وأن مشاركته، ومشاركة غيره لن تغير من حقيقة الأمر شيئاً! وهذا موقف منطقي وطبيعي.

إن تداعيات الواقع وإيحاءاته ومتطلباته هي مصدر تجديد الوعي، وإذا كان الواقع سيئاً فإنه لن يكون قادراً على الارتقاء بوعي الفرد إلى الآفاق المأمولة، بل يدفعه إلى التقزم والإحباط.

إن إلحاحنا الدائم على الناس بأن يكونوا رجال واجبات، لا رجال حقوق، وأن يتجاوزوا السقف الحضاري لمجتمعاتهم سيظل محدود التأثير والثمار ما لم تحل مشكلة النظام الاجتماعي اقتصادياً وتربوياً وسياسياً؛ فهذا هو المحور الذي يجب أن تتركز حوله كل الجهود.

على سبيل المثال إذا كان نظام تأجير المساكن ظالماً، ومائلاً لمصلحة المستأجر ـ كما هو الشأن في عدد من الدول[1] ـ فإن الظلم سوف ينتشر مع

---

(١) في بعض الدول الإسلامية يدفع المستأجرون أجرة لمساكنهم لا تختلف عما كانت عليه =

علم المستأجر أنه جائر في موقفه، لكن ما دام القانون يجيز ذلك، فإن الظلم سيقع، وإن الذين سيمنعهم الخوف من الله ـ تعالى ـ من الاتكاء على القانون الجائر ـ سيكونون قلة قليلة!

إن فوائد كل الأفكار الإصلاحية، ستكون محدودة جداً إذا كانت الفكرة لا تجد المجال الذي يجعلها تبلغ منتهاها، ويضعها على المحك النهائي؛ حيث يتم قبول الفكرة ورفضها لذاتها، لا لأي اعتبار آخر، وحيث يمكن لأصحابها أن يدعموها، ويدافعوا عنها بالطريقة التي يرونها مناسبة.

إن فقد المناخ الصالح للتجديد والتغيير وتلاقح الأفكار جعل صنيع كثير من الدعاة والمصلحين أشبه بصنيع الطائر الذي يبيض في غير عشه!!

= الأجور منذ ثلاثين سنة، حيث لا تساوي أجرة السكن في الشهر أكثر من ثمن رطل من السكر!!

(٣) سمات المجتمع الإسلامي المنشود

النظرة الإسلامية التي تنظم العلاقة بين الفرد والمجتمع تقوم على أسس عبادية قبل كل شيء؛ فالمسلم يتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بخدمة الجماعة ـ المجتمع ـ والدفاع عنها، والجماعة بمؤسساتها المختلفة، وجهودها الفردية ـ تسعى إلى توفير الشروط الموضوعية والنفسية التي تتيح لملكات الفرد أن تتفتح ولطاقاته أن توظَّف، وتستثمر؛ وهي تستحضر في ذلك المسؤولية الشرعية، وتستهدف نيل رضوان الله، تعالى.

هذا التعاقد لا يقوم على الاتفاق، كما أنه لا يقبل النقض، وإنما هو ثمرة الإيمان بالله ـ تعالى ـ والخضوع لشريعته، وثمرةُ العيش في كنف الجماعة المسلمة.

إن كل مجتمع يدرك السمات التي ينبغي أن يتحلى بها من خلال عقائده وأدبياته وأهدافه ومشكلاته، ومن خلال الأوضاع الاجتماعية السائدة لدى المجتمعات الأخرى.

وسنحاول نحن من خلال كل هذا استجلاء أهم السمات التي ينبغي توفيرها في المجتمع المسلم، وذلك في النقاط التالية:

١ ـ الالتزام بالمنهج الرباني هو الصفة التي ينبغي أن تكون غالبة:

حين ينقسم المجتمع على نفسه يفقد السمات المشتركة التي يتطبع بها كل فرد من أفراده، فلا تستطيع أن تقول: إنه مجتمع متدين، ولا متحلل، كما أنك لا تستطيع أن تقول: إنه مجتمع غني أو فقير...؛ فهو عبارة عن جزر معزولة، وبؤر مشتتة. ولا يحصل مثل هذا إلا عندما يفقد المجتمع أهدافه، وتصاب معابر التبادل فيه بالتكلّس.

إن المجتمع الذي يفقد التجانس على مستوى المبادئ والأفكار والأهداف، يستهلك طاقاته في التناحر الداخلي، حيث يسوده نوع من العنف والصراع الصامت؛ إذ لا يمكن أن تتجاور المتناقضات الصارخة في أي مجتمع دون أن ينشغل في هدم كياناته وإنجازاته، والأرضيات المشتركة التي يقف عليها.

إن أية محاولة سنقوم بها لإنقاذ أي مجتمع، ينبغي أن تنطوي على تأكيد الصفة الغالبة عليه إن كانت موجودة، وتكوينها إن كانت معدومة[1]. ولو تساءلنا عن ماهية (الصباغ) الذي ينبغي أن نصبغ به أي مجتمع إسلامي، لوجدنا أن الصباغات اللغوية والعرقية والإقليمية والوطنية والقومية والمصلحية - غير صالحة جميعاً لأن تكون محاور للتربية الاجتماعية، أو لتكونَ قواسم مشتركة بين أبناء المجتمع المسلم، إذ إن بعضها عامل تفتيت وشرذمة، نظراً لكون المجتمع المسلم الواحد مؤلفاً من أعراق وأجناس مختلفة، كما أن بعضها مثل الوطنية لا يلامس البنية العميقة لثقافة المسلم، ومن ثم فإنه عاجز عن أن يكون طاقة اجتماعية، محركة. وقد جربت بعض الدول الإسلامية أن تجعل من القومية والوطنية منبع إلهام وإبداع اجتماعي، فرجعت بخفي حنين، وظل النزوع لدى رعاياها قوياً نحو المضامين التي تحملها الثقافة الإسلامية، وهي مضامين عالمية، غير محلية ولا قطرية!.

إن السمة الوحيدة القابلة للتدعيم والتعميم في أي مجتمع إسلامي، هي سمة (الالتزام) إذ يمكن لإعلان التمسك المطلق بالمنهج الإسلامي روحاً ونصاً أن يقود الخطى نحو (أسلمة) المجتمع على كل المستويات، وأن يساعد على تجاوز كل عوامل التشتت والتمايز الاجتماعي.

وإنني لا أشك في أن كل جهود تبذل لإصلاح حال مجتمعاتنا، لا تقوم على أساس تعميم صفة (الالتزام) المطلق العام - ستُولَد ميتة؛ لأن لدى المجتمعات المسلمة مناعة داخلية قوية ضد أية تغييرات، تشوّش اتجاهها العام، أو تبعدها عن مبادئها ومقاصدها الكبرى!

---

(١) انظر المدرَك والغامض: ٢٢٤.

٢ ـ العقيدة والمفاهيم والعواطف تشكِّل أرضية المجتمع الإسلامي:

إن العقيدة هي القاعدة المركزية في حياة المسلمين، وهي التي تمنح الأفكار والمفاهيم قوامها وفضاءاتها، وتحدد وجهتها؛ وهذا يعني أن صفاء العقيدة ووضوحها شرط أساسي لصفاء الأفكار واستقامتها.

لا يكفي أن يكون دور العقيدة هو رسم الفضاء النظري للمسلم، وإنما يجب أن تتجاوزه إلى أن تكون عاملاً في توجيه السلوك، ومصدر دفع إلى العطاء والتضحية؛ فالعقيدة جسم وروح، وإن روحها كامن في حيويتها وفاعليتها، بل إنني أقول: إن العقيدة لا تستطيع أن تحافظ على صفائها ما لم تكن حيَّة، وقادرة على الحث والكف. العقيدة واحدة، لكن تجلياتها متعددة، وحيويتها وحدَها هي التي تجعلها تتجلى في كل زمان وفي كل مكان، في صور توحيد للمجتمع، وتوجيه لفاعلياته الكبرى، وتمييز له عن غيره من مجتمعات الأرض.

الاتساق الاجتماعي ينشأ من خلال تطابق المفهومات والمبادئ المشتركة، أو تقاربها، وهذه المبادئ حتى تكون عامل توحيد لا بد أن ترتكز على عقيدة واحدة، وإلا كانت مظاهر تشتت وانقسام بدل أن تكون مظاهر تنوع وثراء!

حين تشكل العقيدة القاعدة الأساسية للحياة الفكرية، تتوحد نظرة الناس إلى قضايا عديدة، مثل الحلال والحرام والموت والجزاء والمال والجاه والنفوذ، وأسس التفاضل والنجاح، وقطعيات الخطأ والصواب... وهم بحاجة إلى جانب ذلك إلى نوع من التطابق المنطقي، أي أسلوب النظر إلى الأشياء، وأسلوب المحاكمة العقلية.

وحدة العقيدة، ووحدة المفاهيم تولِّدان اتجاهاً موحداً للعواطف، وتحددان معاقد التراحم والتقدير والاحترام والتواصل الاجتماعي.

بناء أرضية المجتمع الإسلامي تحتاج إلى جهود حثيثة على صعيد أضلاع هذا المثلث: العقيدة، والمبادئ، والعواطف من خلال المناهج

ووسائل التثقيف المختلفة. وتجب مقاومة كل الأفكار والتصرفات التي تُحدث الفوضى والتشويش في آلية تأثير هذا النسق في سلوك الناس وعلاقاتهم.

٣ ـ الانضباط والدقة فيصل ما بين التمدن والتوحش:

لا نعني بالانضباط أن يسير أبناء المجتمع الواحد وفق منهج متطابق بصورة تامة، فذاك غير ممكن، ولا صحيح، لكننا نريد بالانضباط هنا خضوع أبناء المجتمع للأحكام الصارمة، والتحرك ضمن الأطر المباحة، واحترام النظم الحضارية السائدة، ولو استلزم ذلك شيئاً من التضحيات. ليس في المجتمع المتوحش والبدائي أطر واضحة، ولا أحكام تجريدية مستقرة وليس فيه أشخاص مستعدون للتضحية في سبيل انتظام مصالح المجموع أو الرقي العام.

يحدث الانضباط في المجتمع نتيجة امتزاج عدد من العوامل، مثل رقي الفرد، والتزامه، ومثل وجود رقابة اجتماعية جيدة، وبلوغ المجتمع درجة من التنظيم، تجعل فوضوية الفرد منبوذة، وعالية التكلفة.

كلما سار المجتمع في طريق التحضر شعر أن حاجته إلى الانضباط والتقيد بالتوجهات الاجتماعية ـ العامة ـ صارت أشد، وأكثر إلحاحاً. ويظل الوازع الداخلي هو أساس الانضباط الحقيقي، وهذا ما نجده واضحاً في مجتمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ حيث امتثل المجتمع جميعه لنهي النبي ﷺ عن تكليم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، ولم تُسجل حادثة خرق واحدة لذلك(١)!

وقد ضبط الصحابة الكرام إيقاع حركتهم في قضايا ذات طابع شخصي، وذلك خوفاً من الوقوع في محظور يخدش صراحة الإيمان، ونقاء الالتزام، فقد ورد في الحديث أن أم أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قدمت المدينة وهي مشركة، فاستأذنت أسماء النبي ﷺ في صلة أمها وإكرامها، فأذن

(١) قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا واردة في حديث أخرجه الشيخان.

لها[1]. إن هذا من الانضباط العجيب الغريب حيث دفع بمسلمة للاستئذان في بسمة أو كلمة بر توجهها لأمها!!.

كل صور الدقة والانضباط كانت في الحقيقة استجابة لتوجيه القرآن الكريم لهم، وتنظيمه لشؤونهم وأحوالهم في القضايا المهمة، وفيما يظنه الناس مما لا شأن له. وهذا هو القرآن الكريم ينظّم لهم دخول مماليكهم وأطفالهم عليهم، حيث قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ﴾[2].

وقال سبحانه واصفاً ما يليق بالمسلمين من عدم ترك مجلس النبي ﷺ ومشاهده العامة من غير استئذان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ﴾[3].

إن الوتيرة العالية للإيمان المتأجج، والحرص التام على الالتزام المطلق أوجدا لدى السلف الصالح درجة عالية من الدقة والانضباط المتناهي، على الرغم من أن التطور الصناعي، والأوضاع الحضارية العامة لا تتطلب ذلك، بل لا تساعد عليه!.

واليوم على الرغم من التقدم المذهل في التنظيم والدقة في مجتمعات الأرض من حولنا فإن الفوضى ضاربة أطنابها في ديار المسلمين، وهي أشكال وألوان حيث التوتر الروحي في أدنى درجاته، والاستفادة من أشكال الانضباط السائدة لدى الأمم الأخرى شبه معدومة وصرنا ـ كما يقال ـ كالغراب الذي أراد أن يتعلم مشية الحمامة، فنسي مشيته، ولم يتعلم مشيتها!.

---

(١) أخرجه البخاري.
(٢) سورة النور، آية: ٥٨.
(٣) سورة النور، آية: ٦٢.

٤ ـ مجتمع التراحم والإحساس المشترك:

قدرات الناس وظروفهم متفاوتة، وكل واحد منهم يقوِّم وضعيته الخاصة من خلال إدراكه لأوضاع الآخرين. السعادة تنبع من الداخل، أما الشعور بالرضا، فينبع من خلال مقارنة المرء لأوضاعه مع أوضاع الآخرين، وعلى هذا فإن بإمكان كل واحد منا أن يكون مصدر إسعاد للآخرين، ومصدر معاونة على مكابدة لأواء الحياة، كما أن بإمكانه أن يكون مصدر شقاء وتعاسة لهم. إن على كل واحد منا في البداية أن يساعد نفسه، وذلك بأن يقوم بالمقارنة الصحيحة، ومن ثم ورد التوجيه النبوي بأن ننظر في أمور الدنيا إلى من هو دوننا، حتى نشكر الله ـ تعالى ـ ولا نزدري نعمه، وأن ننظر في أمور الآخرة إلى من هو فوقنا؛ حتى نستقلَّ ما نقدمه، ونحاول زيادة الجهد والعطاء. وعلى الناس بعد ذلك أن يقدر بعضهم ظروف بعض، ويحاول كل منهم التخفيف من معاناة أخيه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

إن المجتمع يكون مجتمعاً عن جدارة بمقدار ما يحسُّ أفراده ببعضهم، وعلى مقدار ما يجري فيه من أنواع المراعاة والمعاونة، وعلى مقدار ما يسوده من التعاطف والحب والشفقة. إن في توجيهات النبي ﷺ وسلوكه ما يدل على أن التفكير في راحة الآخرين وسعادتهم ينبغي أن يحتل جزءاً رئيساً من اهتمامات المسلم ووقته وجهده.

لقد كان من شأنه ـ تفديه نفسي ـ أن يخفف الصلاة حين يسمع بكاء صبي خلفه؛ حتى لا تُفتن أمة في صلاتها[١]. وكان يوصي الأئمة بأن يخففوا الصلاة؛ لأن فيمن خلفهم الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة[٢]. وكان يوجههم إلى كل ما من شأنه بث الشعور والأحاسيس المشتركة، كما ورد من توجيهه فيما يرويه البراء بن عازب، قال: «**أمرنا رسول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، وإبرار**

---

(١) روى ذلك الشيخان.

(٢) كما عند البخاري.

المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام. . .»[1].

إن في المسلمين اليوم من يستخدم نعم الله ـ تعالى ـ لإيذاء مشاعر المسلمين واستفزازهم، من خلال الحفلات الفاخرة، والولائم العامرة، والبيوت والمساكن الشامخة، مما يفيض عن الحاجة، ويتجاوز كل حدود!!

ويبدو أن تبلد الإحساس كالحماقة داء لا دواء له!.

٥ ـ مجتمع الكفاية والحماية:

من حق الأفراد الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي ـ سواء أكانوا مسلمين أم لا ـ أن يحصلوا على الحاجات الضرورية التي تكفُّ وجوههم عن المسألة، وتؤمِّن لهم الحد الأدنى من الشروط والمقومات التي تتيح له حياة مطمئنة منتجة.

إن هناك نصوصاً كثيرة تحث الفرد المسلم على بذل المعروف لأخيه المسلم، وهذا موجود لدى كل الأمم، أما المدهش حقاً فهو وجود سوابق تاريخية، تشير إلى التزام الدولة المسلمة بضمان المعيشة الكريمة لرعاياها؛ مما يعد فتحاً حضارياً لا سابقة له! ومن تلك السوابق:

أ ـ روى أبو يوسف أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مر على شيخ يهودي، يسأل، فذهب به عمر إلى منزله، فأعطاه، ثم أمر خازن بيت المال أن يجري عليه من الصدقة، وأمر بوضع الجزية عنه، وقال له: ما أنصفناك: أخذنا منك الجزية وأنت شاب مقتدر على العمل، ثم نهملك عند العجز والكهولة.!

فقد اعتبر عمر بيت المال مسؤولاً عن كفالة ذلك الذمي وكفايته[2].

ب ـ كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ وهو

---

(١) متفق عليه.

(٢) أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي: ٣١٨.

بالعراق ـ أن أخرج للناس أعطياتهم. فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وبقي في بيت المال مال. فكتب إليه: أن انظر كل من استدان مالاً في غير سفه ولا سَرَف، فاقض عنه. فكتب إليه: إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه: أن انظر كل بكر ـ الفتى الذي لم يتزوج ـ ليس له مال، فشاء أن تزوجه، فزوجه، واصدق عنه ـ ادفع المهر عنه ـ فكتب إليه: زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه: أن انظر من كانت عليه جزية، فضعف عن أرضه، فأسلفه ـ أعطه سلفة ـ ما يقوى به على عمل أرضه؛ فإنا لا نريدهم لعام أم عامين[1]. وهذا النص لا يحتاج إلى تعليق!.

وفي مجتمعات المسلمين اليوم من صور كسب الرزق ما يندى له الجبين، فالرشوة والتسول والسطو واللصوصية والنهب والخداع والاحتيال، كل ذلك قنوات واسعة للحصول على المال لعدد كبير من الناس! ولا يمكن قطع دابر ذلك إلا من خلال عدد من الحلول المركبة، وإلا من خلال خطط حكومية بعيدة المدى، تأخذ بعين الاعتبار الأسباب الجوهرية التي دفعت أعداداً كثيرة من المسلمين إلى سلوك تلك الدروب المظلمة!

٦ ـ مجتمع، حدود المباح والممنوع فيه واضحة:

للمسلمين أن يفاخروا أمم الأرض بالصرح الفقهي الشامخ الذي شيده فقهاء المسلمين؛ حيث إنه قد غطى على نحو مدهش كل ما يحتاجه الفرد المسلم في جميع جوانب حياته من الولادة حتى الممات!

أما ما ينظِّم أوضاع المجتمع والدولة، ويوضح حدود العلاقة بينهما؛ فإن ما أنجزه الفقه الإسلامي من ذلك أقل مما ينبغي أن يكون لأمة حكمت رقعة واسعة من الأرض على مدى قرون عديدة.

إن منطقة (العفو) أو ما يسمى بالفراغ القانوني واسعة جداً في كل ما

---

(١) كتاب الأموال: ٢٨٤.

يتصل بالحياة الاجتماعية والسياسية؛ مما يتيح لذوي النفوذ في المجتمع ساحة فسيحة لممارسة نفوذهم؛ وللحق نقول: إن القوانين مهما كانت مفصَّلة وواضحة فإنها لا تستطيع أن تغطي المجالات التي تستخدم فيها الأحكام والتصرفات المرتكزة على المصالح المرسلة، والسياسة الشرعية والموازنات بين المصالح والمفاسد.

إن من معايير المجتمع المتحضر درجة وضوح الحدود الفاصلة بين المباح والممنوع، فالفرد فيه يظل حراً في الحركة والتصرف حتى يقيد حركته ناهٍ شرعي أو قانوني مبني على مصلحة عامة راجحة وواضحة.

إن الفرد في المجتمع المتحضر يتمتع برؤية واضحة لحقوقه وواجباته؛ فإذا قيل له: لا تفعل كذا، قال: ولماذا لا أفعله؟ هل هو حرام أو محظور؟ ويكون الجواب: نعم أو لا.

في المجتمع المتخلف لا يعرف الفرد التصرف الذي سيجر عليه الويلات، وهو يسمع دائماً كلاماً ملفوفاً.

إذا قيل له: لا تفعل كذا، قال: ولم لا أفعله، هل هو ممنوع؟ لا يكون الجواب نعم أو لا، وإنما يقال له: من مصلحتك ألا تفعله. وإذا فعلته جر عليك المتاعب!!.

هذه الوضعية البائسة جعلت الخوف يعشش في نفوس الناس، وصاروا يصطنعون البلاهة والغباء والجهل مع أنهم ليسوا كذلك!.

إن علينا أن نرسِّخ قيماً وقواعد وأعرافاً اجتماعية، تُحترم وإن لم تكن مكتوبة، وهي جميعاً تؤكد ضرورة حفظ حقوق الناس وإعطائهم الفرصة للبحث عن مصالحهم والدفاع عنها، وتمكينهم من الحوار والمناقشة الحرة والمفتوحة، في كل ما يتصل بتلك الحقوق والمصالح.

ويجب أن يتساوق مع ذلك بناء فقه سياسي اجتماعي، يبنيه كبار الفقهاء ذوي الثقافة العالمية الراقية، من أجل توظيف المبادئ الإسلامية، وتقنينها على نحو يضيِّق إلى أبعد الحدود من منطقة الفراغ الفقهي، ويضع النقاط

على الحروف في قضايا لم تنل إلى يوم الناس هذا سوى الإهمال!.

٧ ـ مجتمع يحل مشكلاته عن طريق التفاهم:

كان الناس في الجاهلية يعدون (القوة) أقرب الوسائل تناولاً لحل مشكلاتهم، وربما لم يكتشفوا وسيلة أخرى للوصول إلى الحقوق أو دفع المظالم، ومن ثم فما أسهل أن تقوم الحرب بينهم من أجل (نعجة) أو كلمة نابية!!.

حين جاء الإسلام اختلف كل شيء إذ لم يعد المهم لدى المسلم تحقيق مصالحه أو سلامته الشخصية، وإنما سيطر عليه همّ براءة ذمته من دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم؛ حيث غرس الإسلام في نفوسهم الخوف الشديد من جرم العدوان على الآخرين. وهذا هو القرآن يعلي من شأن حرمة النفس الإنسانية، وعظم إزهاقها بغير حق، حيث يقول: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

صار الناس يتوقّون من أخذ (درهم) من مال غيرهم، كما صاروا يتوقّون من قول كلمة تُحسب عليهم غيبة أو نميمة أو تحقيراً لمسلم، وصار التفاهم والتفاوض هو السبيل الأوحد لنيل الحقوق وحل المشكلات.

إن الجهاد الذي تمت ممارسته على نطاق واسع داخل الجزيرة العربية لم يؤد إلى إزهاق أرواح كثيرة؛ إذ تذكر بعض الإحصاءات أن قتلى المسلمين والمشركين في زمان النبي ﷺ لم يتجاوزوا ألفاً ومئتي شخص! وهذا رقم متواضع جداً في عمل ضخم أدى إلى إخضاع ما يشبه القارة لسلطان حكومة واحدة، ولا سيما أن ذلك تم في بيئة شرعتها القتال وسفك الدماء.

إن خير أيام المسلمين تحضراً ورقياً وإنسانية، تلك الأيام التي عاشها الناس في عهد النبي ﷺ وصاحبيه من بعده، حيث القاعدة الملتزمة بواجباتها

(١) سورة المائدة، آية: ٣٢.

المسامحة ببعض حقوقها، وحيث القيادة المتحرية للحق، الراضخة له، والباحثة عن العدل، والناشرة له. وبعد ذلك بدأ التراجع حيث ارتبك الوعي المسلم، ولم يستطع ابتداع تنظيمات جديدة تعالج مشكلة انخفاض مستوى القاعدة والقيادة، ولا هو استطاع تأسيس مفهومات وتقاليد قائمة على السلم والحوار والمجادلة بالتي هي أحسن؛ ومن ثم انفجر العنف في المجتمع الإسلامي، وبدأت سلسلة من الثورات المتلاحقة!!.

إن العنف هو القوة الكامنة في نفوس أضعف خلق الله، كما أنها كذلك في نفوس أقواهم وأعتاهم، وإن القصور الثقافي والاجتماعي، وانتشار الظلم وانعدام أعراف التفاهم، إن كل ذلك يفتح الباب على مصراعيه لكل الاحتمالات.

إن الفائض الثقافي والاجتماعي والسياسي هو الذي يؤسس فقه العلاقات التبادلية، وفقه المصالح المشتركة، لكن يجب أن نكون على حذر؛ فحين يُدفع الناس إلى الزاوية الحرجة، وتنسد أمامهم آفاق الإصلاح، وتحسين الأحوال، ودفع المظالم؛ فإنهم يفقدون الحدس الشرعي والتاريخي والاجتماعي، ويدفعون بـ (الوحش) الكامن في أعماقهم؛ ليصبح المسيطر على كل مفاصل الحياة الاجتماعية!!.

إن أصحاب الموقف المتطابق مع الحق والعدل يجدون في الحوار والتفاهم والحلول السلمية السلاح الأمضى والأقوى لتدعيم موقفهم، وعلى مقدار بُعد الدول والجماعات والأفراد عن الحق يكون احتياجها لاستخدام القوة والبطش والانغلاق. إن القوة هي التي تملأ الفجوة بين الناس والحق، ومن خلال هذا الميزان، يستطيع أن يعرف المرء أهل الحق وأهل الباطل، كما يستطيع أن يميز بين المجتمع المتحضر والمجتمع المتوحش!

٨ ـ مجتمع يشارك في بنائه الجميع:

في المجتمع الإسلامي المنشود يشعر كل واحد أنه مسؤول عن كل شيء، كما يشعر أن له الحق عن السؤال عن كل شيء، وفهم كل شيء.

وليس المقصود إلغاء الاختصاصات، أو كشف أسرار الدولة، وإنما المقصود أن يكون هناك يقظة عامة، تجعل كل واحد حريصاً على إكمال النقص، وسد الثغرات، وإبداء المقترحات، ومعالجة الأخطاء، وتحمل جزء من تكاليف تشييد المرافق العامة، والمحافظة عليها...

قالوا: إن الاقتصاد أكبر من أن يُترك للاقتصاديين. والحقيقة أن كل شيء هو أكبر من أن يُترك للمختصين؛ فليس من مصلحة أية جهة مختصة أن تشعر أنها معزولة عن باقي الجهات فيما تتصرف فيه؛ فانغلاق ذوي الاختصاص بالشأن التربوي والتعليمي ـ مثلاً ـ عن الجمهور، أو عن قطاعات التنمية الأخرى ـ سيؤدي إلى ضمور العملية التعليمية كلها، بسبب حرمانها من روافد اجتماعية مهمة؛ بل ربما أدى الانغلاق إلى الانحراف؛ وعلى مدار التاريخ كانت الجماعات ومنسوبو المذاهب المنحرفة أميل إلى العزلة والانغلاق، وأبعد عن المفاتحة والحوار...

بمجرد أن تنغلق جهة على نفسها، فإنها تغري الجهات الأخرى بأن تسلك المسلك نفسه.

وقد كان من سنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين ـ بث روح المشاركة، وتعويد الناس إياها؛ وطالما كان المنادي ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس في المسجد، ويُستشارون في الأمور المختلفة، ولا سيما مسائل الحرب والسلم.

بل قد بلغ الأمر بالنبي ﷺ أن يستشير أصحابه في بعض أموره الخاصة، فحين تحدث الناس في واقعة الإفك عقب غزوة بني المصطلق قام ﷺ خطيباً على المنبر، وقال: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي**»[(١)].

---

(١) فتح الباري: ٧:٤٣٣.

إن مما يؤسف له أن مجتمعات المسلمين تقف اليوم من قضاياها الكبرى مواقف سلبية مخجلة، فحين وقعت أحداث (صبرا وشاتيلا) في لبنان، حيث ذُبح الألوف ضجت عواصم العالم، وقام الناس فيها، ولم يقعدوا، أما في السواد الأعظم من المجتمعات الإسلامية، فقد كان موقف الناس أشبه شيء بموقف شياه استسلمت للذبح!!

إن إحجام الناس عن المشاركة في الحياة العامة، لا يعود إلى قصور بنيوي في العقيدة أو المبادئ، وإنما يعود إلى نقص مريع في النضج السياسي والاجتماعي، وفي آليات تنظيم المجتمع وأطره.

ويمكن القول أيضاً: إن ضعف التقاليد الشورية في أكثر البلدان الإسلامية بسبب رئيسي في إحجام الناس، ومع أن بعض المجتمعات الإسلامية قامت فيها صيغ للمشاركة في صناعة القرار، وصار فيها انتخابات شاركت فيها الجماهير، إلا أن أكثر ذلك، يدعو للسخرية، حيث إن جوهر المشاركة الشعبية، يتمثل في الحيلولة دون تكلس السلطة، وهذا لم يحدث في الأعم الأغلب. إن الأسماء في الأنظمة ليست بذات أهمية، فدول أوربا الشرقية في الحقبة الماضية ـ كانت تصف نفسها بأنها (ديموقراطية) وهي قلاع للاستبداد والظلم وسلب الحقوق...

وهناك بلاد أنظمتها (ملكية) لكن فيها انفتاح على الناس أفضل مما هو موجود في بعض الأنظمة (الجمهورية). المهم دائماً هو الجوهر، وهو يتمثل في مشاركة الأمة في صناعة القرار من خلال وضع مؤسسي ملزم.

يجب أن نقول: إنه لا مشاركة للناس في بناء مجتمعهم وتنميته إلا إذا وجدت آلية وثقافة واضحة لمشاركتهم في صنع قراراته. وفي الشعوب الإسلامية حب للخير، وحب للأوطان، وتقدير عظيم للدين، وتشوف قوي إلى مستقبل زاهر، لكن ذلك سيبقى أشياء تتلجلج في الصدور، ما لم تفتح الأبواب على مصراعيها لمشاركتهم في الحياة العامة.

إن التنظير لهذه القضايا ما زال ضعيفاً في صفوف الصحوة، وهذا سبب من أسباب بطء التقدم فيها.

(٤) أساليب ووسائل في التنمية الاجتماعية

ليست المدنية سوى البحث عن حلول للمشكلات العمرانية والاجتماعية المختلفة. وليس التخلف شيئاً سوى الرضا بالأمر الواقع، أو اليأس من إمكان تحسن الأحوال، والاستسلام بالتالي، وإلغاء أسلحة التغيير، والتفرغ لمراقبة السفينة وهي تغوص نحو الأعماق!.

إن كفاءة أية وسيلة لا تنبع من ذاتها، بمقدار ما تنبع من الأسلوب الذي سيتم استخدامها فيه. وإن كفاءة أي أسلوب إنما تظهر من خلال (الخطة) الجيدة، وإن كفاءة الخطة تعود إلى مدى اتساق (الرؤية الشاملة) للإصلاح. والرؤية هي الوعي الجيد بمتطلبات الحاضر والمستقبل، والوعي بالإمكانات المتاحة، والعقبات المتوقعة.

إن علينا أن نكون على وعي بأن كل الآراء والمقترحات والتوصيات والخبرات الجزئية ـ لا يمكنها أن تُوجد بنفسها الشروطَ الموضوعية والمناخات الملائمة لعملها، وتحقيق ذاتها، وإنما الذي يوجدها هو الرؤية الإصلاحية الشاملة، والمحكات النهائية التي يحددها الإصلاحيون في كل المسائل الكبرى موضع الجدل والحوار.

ومن هذا المنطلق يجب النظر إلى ما سنذكره من أساليب ووسائل للرقي بحياتنا الاجتماعية. وسوف نوجز ما نراه من ذلك في النقاط التالية:

١ ـ مسح القيادات المحلية لمشكلات مجتمعهم:

من الواضح أن الناس يحبون التعرف على مشكلاتهم بأنفسهم، ويُظهرون نوعاً من الشك أو اللامبالاة حين يعرفهم بها باحثون أو ناقدون

آخرون؛ ومن ثم فإن من الأصلح أن يقوم المختصون والوجهاء في كل منطقة بدراسات مسحية استقصائية للمشكلات الاجتماعية السائدة في منطقتهم.

ضرورة مثل هذه الدراسات، تنبع من اعتبارات عديدة، منها:

- أن لكل منطقة مشكلاتها الخاصة التي يعدها الناس أكثر إلحاحاً، أو ذات أهمية خاصة؛ فعلى حين تعاني منطقة من نقص المياه، تعاني منطقة أخرى من نقص المساجد، أو ضعف الالتزام، أو انتشار التدخين... ومن طبيعة المشكلات أنها تفرز ثقافة خاصة بها، تكشف عن جذورها وبعض إمكانات حلها، والذين يعرفون ذلك أكثر من غيرهم هم أبناء المنطقة المحليون.

- ومنها زيادة وعي الناس بالمشكلات التي يعانون منها والحيلولة دون تكيفهم معها بصورة سلبية[1]، وذلك من خلال النقد، وعرض النماذج والمقارنة.

- ومنها التخفيف من حدة مقاومة التغيير لدى السكان المحليين، والمعروف أن المناطق الأكثر تخلفاً تكون في العادة أكثر إصراراً على بقاء كل شيء على ما هو عليه، وأكثر نفوراً من الجديد، ولا سيما إذا فُرض عليهم فرضاً.

في عالمنا الإسلامي غموض مقصود حول كل شيء، وهذا الغموض جعل إحساس الناس ضعيفاً بحجم المعاناة التي يرضخون تحت لأوائها؛ والدراسات المسحية الإحصائية المحلية المكثفة - قد تكون هي السبيل المثلى للفهم والمعرفة والإحساس.

٢ - تغيير نظرة الناس للعمل اليدوي والخدمة الذاتية:

لا نكون مبالغين إذا قلنا: إن العربي في الجاهلية كان يبطن نوعاً من

---

(١) ظلت المرأة تعاني معاناة صامتة قروناً عديدة من (المكنسة) حيث يقتضي العمل بها إحناء الظهر، إلى أن جاء من وضع للمكنسة عصا، وصار الكنس بها يتم والكانس معتدل القامة!.

العداء للصنائع، ولكل الأعمال الخدمية التي يباشرها المرء بنفسه. وقد حاول النبي ﷺ اقتلاع هذه العادة السيئة من المجتمع الإسلامي، ومن خلال وسائل عديدة، منها:

سلوكه الشخصي، فقد سئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن أحواله في بيته، فقالت: «**كان في مهنة أهله ـ خدمتهم ـ وكان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويرقع دلوه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه**»(١).

وقد أثمر ذلك عند كبار الصحابة المتأثرين بالهدي النبوي، فهذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يشاهده الناس، يقوم بمداواة إبل الصدقة بنفسه بالقطران، وهو خليفة، لكن ذلك لم يصبح ظاهرة عامة، فما لبث احتقار المهن أن عاد إلى المجتمع العربي عند انخفاض الوتيرة الإيمانية لدى الأجيال اللاحقة؛ ولعل هذا من أهم أسباب تخلف جميع الدول العربية في المجال الصناعي على نحو خاص!.

إن كثيراً من طلب العلم والدراسة في الجامعات لا يقصد منه في كثير من بلاد المسلمين سوى نيل بعض الوجاهة والهروب من الأعمال المهنية!

وقد تساءل أحد المفكرين قائلاً: لماذا نجد رئيس جامعة في أمريكا ـ مثلاً ـ يقوم بإصلاح سيارته في ورشته ودهان سور منزله وتنسيق حديقته، بينما يأنف أصغر موظف في مجتمع العرب من القيام بأبسط الأعمال اليدوية؟

ثم قال: سؤال ساذج؛ لأن الإجابة عليه تكمن في الفروق والفجوات الحضارية بين المجتمع الأمريكي والمجتمع العربي(٢)!

إن برامج التنمية الاجتماعية يجب أن تشتمل على تعليم أولاد المدارس تنظيف مدارسهم وفصولهم، وذهن الأرصفة، وغرس الأشجار... ويجب أن تنشأ مراكز لتعليم الناس ـ مهما كان تخصص الواحد منهم ـ حرفة صغيرة،

---

(١) انظر فتح الباري: ١٠/٤٦١.

(٢) ثقب في جدار التخلف: ٤٧.

كصيانة الأجهزة الكهربائية في المنزل، أو زراعة حديقة المنزل، وما شابه ذلك. وعلينا أن نتخلص من مظاهر (الرقي الشكلي) الذي لا يُخفي وراءه إلا شخصية هزيلة عاطلة عن أي منفعة!.

٣ ـ الاتجاه نحو (اللامركزية):

النظام الإداري هو الفضاء الذي تتنفس فيه النظم التربوية والاقتصادية والاجتماعية؛ وقد دلت تجارب عديدة أن تفويض القضايا التنموية للولايات والمناطق أنسب من جعلها تابعة لإدارة مركزية بعيدة عن ساحة التنفيذ؛ لما يحدث ذلك من المنافسة الطيبة بين الولايات، ولما في ذلك من إحساس أهل كل ولاية بأن جهودهم تصبُّ في ولايتهم، حيث يلمسون التقدم الناتج عن اجتهادهم وبذلهم. ولو أننا نظرنا إلى نظم الحكم الإسلامية عبر التاريخ لوجدنا أنها كانت تميل إلى انتهاج هذا الأسلوب.

إن عملية إدارة التنمية تكون مع النظام (اللامركزي) أكثر سلاسة، كما أن إمكانات المراقبة والمحاسبة والمناقشة تكون أفضل.

ويضاف إلى ذلك إتاحة الفرصة لأهل كل منطقة أن ينمّوا منطقتهم وفق الخصائص والتقاليد التراثية والرمزية الموجودة فيها. ويمكن إقامة بعض الأطر التي تُذكي روح التنافس في الخير والبناء والعطاء بين مناطق الدولة الواحدة، مثل المعارض والمسابقات والمؤتمرات والندوات، وما شاكل ذلك.

٤ ـ توفير أطر محلية لتنمية الحياة الاجتماعية:

هذه قضية على درجة عالية من الأهمية؛ إذ إن الراغبين في الخدمة العامة كثر، ولكن مشكلتهم تتمثل دائماً في فقد الإطار الذي يعلمهم الطريقة المثلى لاستخدام طاقاتهم وأوقاتهم، وينظم لهم مجال الخدمة التطوعية، ويساندهم في أدائها. ولست مبالغاً إذا قلت: إن غنى المجتمع بالجمعيات والروابط والمؤسسات الوسيطة والأندية والجماعات التي تخدم جوانب الحياة المختلفة ـ هو أهم مؤشر على تقدمه، كما أن الفقر الاجتماعي الحقيقي

يتجلى في تضاؤل مثل هذه الأطر. وإنني أعتقد أن كل جانب من حياتنا يحتاج إلى متطوعين من الشباب والشيوخ والنساء؛ فذلك هو التعبير الصحيح عن وحدة المجتمع وكون أبنائه بمنزلة الجسد الواحد.

على سبيل المثال ينذب مجموعة من الناس أنفسهم ضمن جمعية أو رابطة أو مؤسسة للاهتمام بحماية البيئة من التلوث، ومجموعة أخرى لمحاربة الغلاء، وثالثة تهتم بإشاعة القراءة واقتناء الكتاب، ورابعة تُعنى ببناء المساجد، وخامسة لتأمين نفقات التعليم لأبناء الفقراء، أو تعليمهم حرفة، وسادسة للمحافظة على المرافق العامة...

إن مثل هذا الشمول في اكتناف الأعمال الخدمية التطوعية كافٍ لتشغيل كل الطاقات المتوفرة، وكاف لتحويل، مجتمعاتنا إلى مجتمعات حية متعاونة متراحمة نظيفة...

ولا شك أن في كل بلد إسلامي أنواعاً من هذه الأطر، لكن المطلوب أكثر من ذلك بكثير، كما أن الريف شبه محروم منها. إن مما يساعد على تعميم هذه الأنشطة أن ينشأ في كل ولاية أو محافظة هيئة عليا شعبية، تهتم بإنشاء الخدمات الطوعية، وتنشيطها وتوجيهها.

٥ ـ إشاعة روح التعاون الشعبي:

ورثت المجتمعات الإسلامية عادات جميلة في التعاون، ولا سيما في الريف، حيث كان من المتعارف عليه أن يدعو الرجل جيرانه، وأهل حيه أو بعضاً من قرابته إلى مساعدته في أعمال زراعة أو حصاد، أو تشييد منزل، أو شق ترعة، ويقوم هو بتقديم وجبة خفيفة لهم؛ ويكون هو مستعداً لتقديم مثل تلك المعاونة عند الحاجة.

من المؤسف أن مثل هذه التقاليد الحميدة، قد أخذت تتلاشى بفعل التأثر بالحياة الغربية، القائمة على الاستقلالية المبالغ فيها، وبسبب هيمنة أسلوب العيش في المدن الكبرى على الحياة الاجتماعية عامة!.

بالإمكان استعادة كل ذلك، وإضافة أشكال تعاونية أخوية جديدة، تتناسب مع الحياة الجديدة، مثل اشتراك مجموعة من الزملاء أو الأقرباء أو الأصدقاء بجزء من الدخل في صندوق التوفير من أجل مساعدة أعضاء الصندوق في بناء مسكن، أو القيام برحلة إلى الحج، أو إقامة مشروع تجاري، أو افتتاح ورشة... وسيكون في ذلك إغناء لقسم كبير من الناس عن الاقتراض من البنوك الربوية.

ويمكن لجماعة المسجد في كل حي أن يكون لها دور بارز في تنظيم هذه الأعمال الخيرة وهكذا حيث توجد مصالح يمكن للتعاون الشعبي أن ينشط، وعلينا أن نبحث عن تلك المصالح، ونحاول تحقيقها بكل أسلوب ممكن.

٦ ـ إحياء (الوقف[١]) الإسلامي وتطوير وظائفه:

ما عُرفت أمة بالعناية بتأمين موارد ثابتة للإنفاق في وجوه الخير ـ كما عُرفت هذه الأمة، وقد تأنقت في ذلك، فجعلته أشكالاً وألواناً، لنفع الذراري والفقراء والمنقطعين من أبناء السبيل وطلاب العلم والمرضى والمرابطين في سبيل الله؛ حتى البهائم نالها من ذلك نصيب[٢].

شاعت ظاهرة الوقف بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في زمان النبي ﷺ، حتى قال جابر: **«ما بقي أحد من أصحاب رسول الله، له مقدرة إلا وقف»**[٣]. وقد كان الإمام النووي لا يأكل من فاكهة الشام وخضارها؛

---

(١) المراد بالوقف: تحبيس الأصل، وإتاحة منافعه لارتفاق الناس بها. فإذا وقف مسلم أرضاً فإن ما تنتجه من ثمار وزروع، يُوزع بحسب شرط الواقف. أما الأرض فلا تباع، ولا تقسم بين الورثة ولا توهب، وتظل تستغل تحت إشراف قيّم إلى أن يشاء الله.

(٢) وقفت أم المؤمنين حفصة ـ رضي الله عنها ـ حلياً، قيمته عشرون ألفاً على نساء آل الخطاب، فكانت لا تؤدي زكاته. وكان بعض المسلمين يقف القدوم والفأس والكتب وآلات القتال، وأشياء كثيرة، تفوق الحصر.

(٣) الفقه الإسلامي وأدلته: ٨:١٥٨.

لأنه يرى أن أكثر أراضي الشام كان في الأصل وقفاً، ثم استولى عليه الناس!

وقد كان ذلك كله استجابة لحض النبي ﷺ على الوقف ولما ذكره من الثواب العظيم لهذا النوع من أعمال البر. وقد قال ﷺ: «**من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً واحتساباً، فإن شِبَعَه وروثه وبوله في ميزان حسناته**»[1].

لقد سدَّت الأوقاف من الثغرات والخلال، ودفعت بالمستوى الحضاري للأمة أشواطاً بعيدة، هي أكبر مما نظن؛ وكان لذلك أطيب الأثر في التضامن والتكافل بين أبناء المجتمع الواحد.

وقد تراجعت هذه الظاهرة المباركة تراجعاً مريعاً في عالمنا الإسلامي، ولا تكاد تُلمس بشكل واضح إلا في بناء المساجد وفرشها!.

ولهذا التراجع أسبابه الجوهرية؛ وربما كان أبرزها (السلبية) التي صبغت الموقف العام لمسلم اليوم، بالإضافة إلى عدم وجود ضمانات كافية لاستمرار الوقف، واستخدام ريعه في عين ما حدده الواقف من وجوه الخير.

إن كثيراً من أعمال الخير لا يستمر في زماننا هذا، ولا يمكن توسيعه؛ بسبب عدم وجود روافد ثابتة، كما أن كثيراً من الناس يملك فوائض مالية، تُصرف في غير وجهها، ولذا فإن هناك ضرورة حيوية لبعث الاهتمام بهذه المسألة، وجعلها في مقدمة ما يجب إصلاحه وإحياؤه في المجتمعات الإسلامية.

وفي تصوري أنه يجب القيام بأمور عديدة في سبيل ذلك، منها:

أ ـ التركيز على أهمية الوقف وضرورة مشاركة كل مسلم فيه[2] وإشاعة ذلك في جميع الوسائل التثقيفية، كالمناهج المدرسية، وخطب الجمعة، والدروس المسجدية، وسائر الوسائل الإعلامية...

---

(١) رواه البخاري.

(٢) بإمكان المسلم أن يقف كتاباً واحداً في مكتبة مسجد أو جامعة، وبإمكانه أن يقف مروحة في مسجد، أو سجادة في رباط للفقراء، أو يحفر بئراً، يشرب منها الناس.

ب ـ إيجاد أطر عملية كثيرة لاستيعاب ذلك، حتى يجد الراغب في وقف شيء المجال الذي يرغب فيه، والجهة التي تقوم بتحقيق تلك الرغبة، وجعلها شيئاً واقعاً ملموساً. وفي طول العالم الإسلامي وعرضه لجان لبناء المساجد، ونحن بحاجة إلى لجان كثيرة على نمطها لتشجيع ألوان جديدة من الوقف، والقيام على رعايتها.

ج ـ يجب أن تساهم الحكومات في ذلك بخصم الضرائب عما ينفقه المسلم على الوقف ـ إن كان هناك ضرائب ـ وتشجيع كبار الواقفين بإطلاق أسمائهم على المدارس والشوارع والأحياء والمنتديات. . .

د ـ وضع ميثاق شرف إسلامي على أعلى المستويات، يتضمن المحافظة على الأوقاف وضرورة تنفيذ شروط الواقفين ـ ما دامت راشدة ومشروعة ـ وتشكيل مكاتب ولجان مختلفة من جهات حكومية وشعبية للإشراف على مراعاتها، ولحماية الأوقاف من العدوان عليها، واستخدامها في غير وضعيتها الأصلية.

هـ ـ إيجاد برامج متنوعة طويلة الأمد، يساهم من خلالها المسلمون في إعادة ظاهرة الوقف الإسلامي، وتعميمها، كأن يشترك الفرد بمبلغ رمزي شهرياً، على أمل أن يكون لديه قبل وفاته مبلغ يبنى له به مسجد أو مدرسة، أو تنشأ له مكتبة، أو ورشة لتدريب الشباب على حرفة أو. . .

إنني أعتقد أن بإمكان المسلمين أن يجعلوا ظاهرة (الوقف) الظاهرة الأكثر إشراقاً في حياتهم، والأكثر دفئاً ونفعاً وإشاعة للخير، والأكثر دلالة على الارتقاء الحضاري، لو توفر لديهم ما يكفي من العزيمة والوعي!

الفصل السابع

في التنمية الاقتصادية

(١) توطئة.

(٢) أسس ومحكات في التنمية الاقتصادية.

(٣) طرق وخبرات في التنمية الاقتصادية.

(١) توطئة

لا يجادل أحد في أن (المال[١]) هو المحور الرئيس في حياتنا المعاصرة.

ومشكلة التعامل مع أي محور أنه يتحكم في كل الأطراف، وأن عليك أن ترجع إليه في كل تغيير تريد إحداثه في دائرته ومجالاته.

إذا قررنا ـ مثلاً ـ تهميش أثر الثروة والمال في حياتنا الاجتماعية، فإن علينا أن نقوم بإعلاء شأن بعض القيم والمثل، من نحو الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، والاندفاع نحو المتع الفكرية، وإغناء العلاقات الإنسانية...

وحتى تستطيع تغيير النسق القيمي لدى الناس فإنك بحاجة إلى (المال) الذي ستحتاجه البرامج والمؤسسات والهيئات التي ستقوم بهذا العمل الضخم. وهذا يعني أن عليك أن توفر المزيد من المال من أجل تزهيد الناس في المال!!.

وهكذا فالحال كما قال الشاعر:

.... فيكَ الخصامُ وأنت الخصمُ والحَكَمُ

الوضع الاقتصادي لأكثر الدول الإسلامية غير مريح، فهناك نسب عالية في زيادة السكان، ولا يقابلها تنمية جيدة، ومن ثم فإن لدينا المزيد من

---

(١) تحدثنا في الفصل الأول من هذا الكتاب عن شيء من أهمية المال؛ فارجع إليه إن شئت.

العاطلين عن العمل، إلى جانب المزيد من الذين يتوجهون إلى الأعمال التافهة التي لا تؤمِّن دخلاً يناسب أدنى مستوى من الحياة الكريمة. ويتم كل هذا في أجواء تزداد فيها كلفة المعيشة، كما تزيد نفقات الصحة والتعليم والتدريب...

أما الحالة التصنيعية لمعظم الدول الإسلامية، فإن هناك عدداً من المؤشرات التي تؤكد أن البلدان العربية ـ وليست هي الأسوأ في العالم الإسلامي ـ في سنة (١٩٧٠) مشابهة لما كانت عليه بريطانيا في مرحلة ما قبل التصنيع عام (١٨٠٠) ولما كانت عليه فرنسا عام (١٨٤٠)[١].

وتذكر بعض الدراسات أن نصيب الفرد من الدخل القومي لدى شعوب (العالم الرابع) لا يزال أقل من نظيره في أمريكا وبريطانيا عام (١٧٧٦)[٢].

لا أريد هنا أن أذكر الأرقام التي تشير إلى تفاقم أزمة الغذاء والماء في كثير من الدول الإسلامية والعربية منها خاصة؛ فذاك شيء تكتب فيه الصحف اليومية في كل البلاد، وهو معروف مشهور. وإنما أريد أن أشير إلى أن الجهود التنموية التي تبذل الآن ما زالت غير كافية للوفاء بالاحتياجات المتزايدة للأجيال الجديدة؛ وقد آن وقت الفزع والقلق على المستقبل القريب الذي ينتظرها!

الظروف الاقتصادية العالمية الحاضرة:

إن من المهم أن ندرك أن جهود التنمية الاقتصادية المطلوب بذلها لن تتم في ظروف مواتية من الرخاء والانفراج الدولي، وإنما في ظل مآزق عالمية متشابكة، ومتفاقمة. وهذه الظروف ستلقي بكل ثقلها على الحلقات الأضعف في هذا الكون وهي الدول النامية الغارقة في مشكلاتها المتنوعة.

---

(١) التطورات الاقتصادية: ١٧٩. ولا يعني هذا بالطبع أن العرب يحتاجون إلى قرنين من أجل سد الفجوة.

(٢) فقر الشعوب: ٦٢.

إن الأزمات الاقتصادية كانت تقع في الماضي بسبب قلة العرض وعدم كفاية الإنتاج. أما اليوم فإن المشكلة الرئيسة، تتمثل في نقص الطلب الكلي عن العرض، بمعنى حصول فائض بالنسبة للطلب الفعال القادر على الدفع والشراء.

بدأت الأزمة الاقتصادية الحديثة في مطلع السبعينيات، وما زالت مستمرة إلى يوم الناس هذا. وتتسم هذه الأزمة بخصائص عديدة، أهمها:

أ ـ على خلاف الأزمات الاقتصادية التي حدثت بعد الحرب الكونية الراهنة، تتميز هذه الأزمة بأنها عامة في الدول الرأسمالية جميعها تقريباً ـ مما أدى إلى تفاقم مشكلة الخروج من الأزمة، ومما أضعف من أهمية قنوات التجارة الخارجية في موازنة الأزمات الدورية بين دول العالم الرأسمالي.

ب ـ فقد آلية الأسعار لفعاليتها في مواجهة الأزمة، حيث كانت الأسعار فيما مضى تتجه نحو الانخفاض وقت الأزمة؛ مما كان يساعد على التخلص من المخزونات السلعية الراكدة، فكانت آلية الأسعار تسهم بهذا الشكل في مواجهة التناقض القائم بين الإنتاج والأسواق إلى أن يتجاوز الطلبُ العرض بعد وصوله إلى نقطة معينة، فتعود الأسعار إلى الارتفاع، وتجر معها حركة انتعاش جديدة.

أما الآن ففي ظل الكساد تتجه الأسعار نحو الارتفاع، وهذا ما يسمى اليوم بـ (التضخم الركودي).

جـ ـ أزمة الديون الخارجية المستحقة على مجموعة الدول المتخلفة وصلت إلى مستويات خطيرة[1]؛ حيث عجز كثير منها عن سداد (فوائد) القروض. وقد كانت هذه الدول تنمو في الماضي على نحو سريع ومطرد مما مكَّنها من تسديد بعض ديونها، واستقدام استثمارات جديدة. وقد حرمت هذه الوضعية الجديدة الرأسمالية من أحد منافذ الخروج من أزماتها الاقتصادية.

---

(١) كانت ديون الدول الفقيرة عام ١٩٧١ في حدود ٨٦ مليار دولار وقفزت إلى ٨١٤ مليار دولار عام ١٩٨٤!!.

د ـ النهب المستمر، المباشر، وغير المباشر استنزف الفائض الاقتصادي في البلدان الفقيرة. وقد كان ذلك الفائض يساهم فيما مضى في التخفيف من اختناقات الدول المتقدمة. أما في هذه الأزمة فالأمر مختلف؛ حيث إن الجهود الإنمائية قد وصلت في أكثر الدولة المتخلفة إلى طريق مسدود، وهذا يعني أن الأزمة الرأسمالية الحالية مرشحة للاستمرار أكثر فأكثر[١].

فقد ذبح الاستعمار الرأسمالي البقرةَ الحلوب التي كان يعتصرها[٢]، وعليه الآن أن يتدبر أمره!

هذه الوضعية العالمية السيئة أربكت الفكر الرأسمالي الغربي، وأدت إلى نضوب احتياطات النظرية الرأسمالية، كما أنها أدت إلى زيادة الضغط على الدول النامية من أجل أن تُخرج ما تبقى في جعبتها من مال، وما في أراضيها من ثروات؛ لتبيعه بأبخس الأثمان. والغرب لا يتصور كيفية التنازل عن المرفَّهات التي تعودتها شعوبه، ومن ثم فإنه يصطنع لنا الحروب والأزمات، ويفتح شهية شعوبنا لاستهلاك ما لا تحتاجه، ويرسل السماسرة لتسويق تقنيات عالية الكلفة معقدة التشغيل ابتغاء التخفيف من أزمته الطاحنة.

وربما كان مستعداً يوماً ما لخوض غمار حروب طاحنة إذا اقتضت الحاجة!.

هذا كله يقتضي منا حشد الذات والإمكانات، إلى جانب البراعة في حسن التدبير حتى نستطيع تجاوز دوائر الخطر.

تعريف التنمية الاقتصادية:

لكثرة احتفاء كثيرين من كتابنا بتحسين الاقتصاد والحياة المادية ـ صار الذي يتبادر إلى الأذهان من كلمة (تنمية) هو التنمية الاقتصادية دون غيرها؛

---

(١) انظر هذه الخصائص وغيرها في: الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة: ٢٨ وما بعدها.

(٢) يقدر بعض الاقتصاديين أن ما تم نهبه في الخمسينيات والستينيات من قبل الدول الرأسمالية يبلغ نحواً من ٢٠٠ مليار دولار سنوياً! انظر السابق: ٧٠.

وقد كان ذلك في الحقيقة نوعاً من التأثر بأفكار سوقية، تختصر كل أشكال التقدم في التقدم الاقتصادي البحت؛ ومن ثم فإن كثيراً من التعريفات التي يذكرونها للتنمية الاقتصادية، لا يختلف أبداً بين كاتب ينتمي إلى أمة الإسلام، وكاتب ينتمي إلى أمة أخرى!!

ونحن نعتقد أنه لا بد من صبغ تعريف التنمية الاقتصادية بالنظرة الإسلامية لها، وهي نظرة معيارية مقننة، لا ترى في كل نموٍ نمواً، ولا في كل رفاه خيراً.

ويمكن أن نعرِّف التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي بأنها: «مجموعة الأنشطة التي تستهدف تحقيق قدر من الرخاء المادي المناسب لتفتح جوانب الشخصية الإنسانية، بما يؤهلها للقيام بحق الاستخلاف في الأرض».

إن وجود الوفرة المادية في حوزة الأفراد والمجتمعات ليس مطلباً شرعياً مطلقاً من كل قيد، كما أن تحسين الحياة المعيشية ينبغي أن يكون جزءاً من تحسين الحياة الإنسانية عامة، وليس كلّاً قائماً بذاته.

إن حديث: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(١)]. يبعث لنا إشارات واضحة حول النظرة الإسلامية للمال والوفرة؛ فالمال الحلال الكثير ممدوح حين يقع في يد رجل صالح، ينمي به صلاح نفسه، وينفقه في وجوه الخير، وينمي به صلاح الآخرين، ويسدُّ به خلاتهم. وهذا مال يجعل التنمية الاقتصادية في الرؤية الإسلامية جزءاً من «تنمية متكاملة» تنسجم جميع جوانبها، ويعزز كل جانب منها باقي الجوانب، ويتعزز به، ويحكمه كما يُحكم به.

التنمية الفكرية الصحيحة هي التي تساعد على إيجاد وضع اجتماعي وأخلاقي واقتصادي يجعل المجتمع أقرب إلى الالتزام، وتحقيق أهدافه الكبرى في هذه الحياة.

---

(١) أخرجة أحمد في مسنده.

ويقال مثل هذا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية. . .، وإدراك قوانين هذا التكامل وحدوده - لا يستقيم للبشر ذوي الرؤية القاصرة والمعرفة الجزئية، وإنما نستقيه من المنهج الرباني المعصوم المعبر عن المعرفة الكلية المطلقة لـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ والذي ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾.

(٢) أسس ومحكّات في التنمية الاقتصادية

لا يختلف فقهاؤنا واقتصاديونا في أن للإسلام رؤيته الخاصة في التنمية الاقتصادية على مستوى العقيدة والفلسفة، وعلى مستوى الوسائل والإجراءات والتدابير. وككل منهجية شاملة هناك عناصر وأفكار جزئية، هي محل اختلاف واجتهاد، وهناك عناصر، هي محل اتفاق واجتهاد؛ لأنها تمثل صُلب المنهجية وعُمُدها. ونواجه دائماً بعض المشكلات في التعامل مع قضايا ومسائل، هي بطبعها حائرة بين الأصول والفروع، والقضايا المفوضة إلى (الدولة) حيث يتركها بعضهم لما تمليه السياسة الشرعية والمصالح المرسلة، على حين يضع بعضهم عليها بعض القيود.

ولدينا مشكلات أخرى في مجال معالجة قضايا التنمية والاقتصاد الإسلامي ـ عامة ـ ومنها:

ـ أن كثيراً من الباحثين يقفون في معالجة مشكلات التنمية عند الأسس والمنطلقات العامة، دون أن يتساءلوا عن كيفية تطبيقها، وجعلها واقعاً حياً، وقليل منهم أولئك الذين يتساءلون: لماذا نملك أفضل نظرية تنموية، ونعيش في أسوأ واقع مادي؟!

كثيرون يقولون: يجب على الدولة أن تؤمِّن الحاجات الأساسية للناس، ولا يتساءلون من أين تأتي الدولة بالأموال في بلد شحيح الموارد، كثير السكان؟ كما أنهم لا يتساءلون عن الآلية التي تمكِّن من تصحيح القرارات الحكومية التي تنافي النظرية الاقتصادية الإسلامية، أو مصلحة الفقراء والمستضعفين. . .

يقول بعضهم: الندرة ليست مشكلة، مع أنها أم المشاكل، ويقول

آخرون: الإسلام لا يعترف بالفقر، وأكثر أبناء العالم الإسلامي من الفقراء المعوزين!!

إن النزعة المثالية، تسيطر على كثير من كتّابنا، وهذا مفهوم لنا بشكل جيد، حيث إن عهود الانحطاط التي مرَّ بها المسلمون حبست آفاق النظرية التنموية عند حدود ممارسة السلف؛ وحين صحا المسلمون في العقود الأخيرة على واقعهم، وجدوا أنفسهم في وضع حضاري لا يساعد على التنظير الصحيح، كما لا يساعد على تجديد الوعي التنموي!

- ومنها أن لدينا نقصاً مريعاً في القدرة على استخدام نظام الإحالات الذهنية والشعورية المختلفة، بغية الوصول إلى محكّات واتفاقات نهائية؛ فنحن إذ نتحاور يُخيَّل إلى السامع أننا عاجزون عن الاتفاق على أي شيء، وطالما انفضَّ السامر عن مثل ما اجتمعوا عليه من وجهات نظر مختلفة، وإطلاقات عامة كبيرة...

إن مهمة (المحكات النهائية) أن تخلصنا من مجموع القضايا والأفكار الثانوية والجانبية والآنية؛ لتضعنا عند طرْق ما يجب الابتداء به، أو الوصول إليه، أو ما لا يتم الأمر إلا به... ولنذكر مثالاً على ذلك: إذا انتهى بنا النقاش إلى أن لدينا تخلفاً صناعياً، وانتهينا إلى ضرورة الخلاص من هذه الحالة، وجب القول: من أين تكون البداية؟ قد يقول قائل: البداية تكون في توسيع التعليم المهني، وإقامة مراكز البحث العلمي الرائدة؛ من أجل نشر الصناعات المتقدمة، وتحسين مستواها، وخفض تكلفتها. وإذا سلمنا بصحة هذه البداية وجب القول: إن ذلك يحتاج إلى أموال، فمن أين تأتي الأموال؟ قد يقول قائل: تأتي الأموال من الضرائب ومن استثمارات الدولة. لكن المتوفر لدى الدولة من أموال يُنفق في افتتاح مدارس ابتدائية، ومعونات غذائية وصحية، وعلى الدفاع والأمن، وهذا قد تكون له أولوية. ثم إن الضرائب التي ستحصل عليها الدولة ستكون ضئيلة ما لم يكن الناتج الوطني وفيراً. ثم إن التوسع في فرض الضرائب سوف يصد الأموال الداخلية والخارجية عن الانخراط في دورة الإنتاج. ويقال أيضاً: إن الفساد الإداري

جعل الضرائب لا تصل إلى خزائن الدولة، وإنما إلى جيوب محصليها؛ وهكذا فالفائدة من زيادة الضرائب شبه معدومة!.

ويأتي من يقول لك: إن تدبير المال اللازم لمراكز البحث العلمي والتأهيل المهني يتم عن طريق تخفيض الاستهلاك وفرض قيود على السلع الاستهلاكية إلى أن يتكون رأس مال وطني مناسب. وهنا يمكن أن يقال: إن كبار الموظفين يجب أن يقتنعوا بهذا، ويجب أن يبدؤوا بأنفسهم، ويقوموا بتخفيض مرتباتهم، ثم يقوموا بإقناع الناس بضرورة الالتزام بهذه الإجراءات...

وهكذا ننتهي إلى أن تحسين الوضع الصناعي قد يتوقف على تغيير الإنسان، لدينا من خلال تغيير النسق القيمي لديه، ومن خلال إثراء الوعي بالمستقبل ومطالبه ومخاطره[1]...

لا يشترط أن يكون مضمون الإحالات السابقة صحيحاً، إنما هي إحالات منطقية، والمنطق يؤكد دائماً على الصدق الشكلي دون النظر إلى صدق المضامين.

في إطار هذه المقدمة سنقدم بعض الأسس والمحكات التي ينبغي أن نكون على وعي بها، ونحن نقوم بتنمية الاقتصاد في بلادنا، مع الاعتراف بأنني لا أستطيع أن أصنع أكثر من وضع بعض اللوحات الإرشادية، إلى جانب إزاحة بعض الحجارة وقلع بعض الأشواك من طريق صعب وطويل.

١ ـ معالم المذهبية الإسلامية في تنمية الاقتصاد:

إن كثيراً من الأنشطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ـ محكوم بنوعين من الأحكام: أحكام جزئية خاصة ومناسبة لطبيعته، وأحكام عامة نابعة من العقيدة الشاملة والرؤية الكلية للحياة. إن الربا والرشوة والاحتكار ليست

(١) من مقال لنا نشر في العدد ٢٣٥ من مجلة الفيصل تحت عنوان: أسس في منهجية التفكير.

أنشطة اقتصادية فاسدة وسيئة في حد ذاتها فحسب، وإنما هي سيئة أيضاً في نظر البنية العقدية والأخلاقية لدى المسلم. وممارسة هذه الأنشطة ـ لا تؤدي إلى تلويث المجال التجاري وحده، وإنما يتمدد تأثيرها السيئ إلى صفاء العقيدة، وإلى علاقات المسلم الاجتماعية وسمعته بين الناس...

وخطورة الأحكام الكلية أنها تعمل بطريقة خفية ومؤثرة، حيث إنها تعكِّر المزاج العام كله، وربما خربت البنية العميقة لإحساس المسلم بالخير والشر، ولمعاييره العامة في تقويم أحداث الحياة.

لهذه الأسباب يُعد النقل الشامل لأية تجربة اقتصادية من الغرب أو الشرق أمراً غير منطقي وغير مفيد.

لم يكن الغرب يملك رؤية شاملة (لا تاريخية) للحياة، ومن ثم فإنه كان مستعداً لدفع ثمن النمو في هيئة تغيير هيكل الحياة الغربية كلها، كما أنه كان مستعداً للاقتناع بأي تفسير جديد للأنشطة الحياتية، يتطلبه النمو السريع وتراكم رأس المال[1].

والمسلم ليس كذلك؛ فهو يحيا، وينمي البيئة من حوله من خلال منهجية عامة، تبسط سلطانها على كل شؤونه.

المذهبية فلسفة تجيب على: لماذا أعيش باعتباري فرداً، ولماذا نعيش باعتبارنا مجتمعاً، وكيف نعيش؟

وهي عقيدة تتضمن الغيبيات وما وراء الطبيعة، كما تتضمن الواقع المادي والسلوك البشري.

إن المذهبية ذات شقين:

شق مثالي، يرسم أطر الحياة العامة، ويمنح التصورات، ويبعث المشاعر العميقة، ويثير في الناس غرائز الحب والانتماء والإيثار، والانصياع

(١) انظر الغرب وأسباب ثرائه: ٣٩٩ وما بعدها.

لكل ما تقرره التصورات من حقوق وواجبات. إنه يمنح المعايير التي تحكم تصرفات الأفراد مستقلين ومجتمعين.

والشق الثاني يتمثل في مجموعة القواعد العامة والقوانين والنظم التي تجسِّد التصورات المجردة في سلوكات وأنشطة محسوسة، والتي تساعد على تحقيق الأهداف والمثل التي ترمي النظرية التنموية إلى تحقيقها[1].

وإنني أؤثر أن يتخلل الحديث عن (المذهبية الإسلامية) في الاقتصاد أجزاء الموضوع كلها، وإذا كان لا بد من كلمة فإنني أقول: إنها تقوم على أن الخلق جميعاً عباد الله، كما أن الكون بما فيه ملك لله ـ تعالى ـ والإمكانات المتاحة بين يدي الناس ملك أيضاً لله ـ تعالى ـ وهم موكَّلون بالتصرف فيها، وعليهم أن يتقيدوا بتعليمات المستخلِف. والغاية من حياة البشر هي عبادة الله؛ وكسبُ الطيبات من عبادة الله. ويجب أن تسعى التنمية إلى استغناء كل فرد في المجتمع عن الحاجة إلى الآخرين. كما تحث المذهبية الإسلامية على أن يسعى كل فرد في المجتمع إلى نفع إخوانه وجلب الخير لهم[2].

وعلى مستوى الإجراءات هناك عدد من المفردات، مثل: ـ ضرورة تقيد الإنتاج بالطيبات والمباحات؛ وحث المسلم على كسب قوته، والقيام بحق من يعوله من ولدٍ وغيره؛ وتحريم إيقاع الضرر بالآخرين من خلال عملية الإنتاج والتسويق مثل تخفيض الأسعار لإخراج بعض المنتجين من السوق. ومثل ضمان الدولة للحد الأدنى من العيش الكريم لأبنائها، وقيامها بتحقيق عدالة التوزيع بين أبنائها بحسب استطاعتها، وجواز تدخل الدولة لإحداث التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع المختلفة، إلى ما هنالك من تعليمات. . .

ويبقى السؤال الملحّ: كيف يمكن جعل المذهبية الإسلامية في التنمية

---

(١) انظر أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي: ٣٧٠ وما بعدها.

(٢) السابق: ٣٨٣.

الاقتصادية حقيقة واقعة، تؤمّن المطلوب منها مع المحافظة على جوهرها ونقائها؟.

٢ ـ التنمية قرارات كبرى:

إن حالة التخلف التي تصبغ حياتنا في الأصعدة المختلفة، ليست وليدة يوم وليلة، وإنما هي تراكمات تقصير قرون عديدة، خلت.

ومهما كانت الظروف صعبة، ومهما كانت الإمكانات محدودة فإنه يظل أمام القيادات السياسية خيارات عديدة تجاه الأسلوب الذي ستنمي به البلاد والعباد. ويجب أن نعرف أن الزمن ليس مفتوحاً أمامنا؛ لننهي مشكلاتنا في الوقت الذي يروق لنا؛ فما يمكن إنجازه اليوم قد لا يمكن إنجازه غداً؛ وكثير من المشكلات له خاصية التفاعل، والاتجاه نحو التضخم إلى أن يخرج عن السيطرة!.

إن التنمية الجيدة تحتاج إلى مجموعة من القرارات الصعبة والتغييرات الجذرية. ومن طبيعة الناس إلف القديم، والخوف من الجديد، والاستخفاف به إلى أن يثبت نفعه وجدارته. والأهم من كل هذا أن في كل زمان وكل مكان مستفيدين من الأوضاع السائدة ـ مهما كانت سيئة ـ وهؤلاء المستفيدون سوف يستخدمون كل ما يملكون من قوة في سبيل بقاء كل شيء على حاله!

حين تقرر دولة وضع قيود على التجارة، والاتجاه نحو الصناعة، أو تقرر تخفيض المرتبات الكبيرة، أو تقرر تغيير الاتجاه الإعلامي من الثناء على الذات إلى نقدها... فإن عليها أن تواجه كل المتضررين من هذه التغييرات.

ليست هذه هي المشكلة الوحيدة، وإنما هناك مشكلات عديدة أخرى، منها: أن القرارات الكبرى لا تخلو من نوع من المخاطرة، فهي أشبه بقفزة في الهواء، لا يُدرى ماذا بعدها؟ ثم إننا في زمان لا يمكنك أن تتملك فيه شيئاً بدون ثمن، وثمن التقدم الاقتصادي، قد يكون تفككاً اجتماعياً، وقد يكون تفلتاً في السلوك، وقد يكون... ومن ثم فإن من الواجب تحسس الآثار السلبية المترتبة على القرارات الكبرى للتخفيف منها قدر الإمكان. إن

الناس سوف يستوعبون مغزى القرارات الكبرى إذا استشيروا فيها، وإذا شعروا أنها تصبّ في المصلحة العامة، ومصلحة الناس الأكثر حاجة.

إن الدولة حين تتعامل مع الناس بشفافية، وتكون أوضاعها العامة شفافة ـ تستطيع أن تُقنع الناس بجدوى قراراتها التنموية الصعبة، وسوف تلقى المؤازرة من شريحة عريضة منهم.

٣ ـ تنمية التفوق أم تنمية البقاء؟

إن الناظر في جملة تعاليم الإسلام يجد أن المسلمين إذا كانوا في الوضعية الصحيحة ـ كما يريد الله لهم ـ فإن نوعاً من الوفرة سيتحقق لدى أكثرهم؛ حيث إن الإسلام يحث المسلم على العمل واستثمار الوقت، كما يحثه على حسن التدبير والاقتصاد في الإنفاق، والبعد عن إنفاق المال في المحرمات ـ وهي تستهلك أموالاً طائلة في العادة ـ ويضاف إلى هذا ما يتمتع به المسلم الملتزم من الغنى الداخلي؛ مما يخفف من شهيته للاستهلاك وجمع الحطام.

وحتى تكتمل الصورة، فإن قدرة الأمة على المحافظة على عقائدها ومبادئها، وقدرتها على نشر تلك المبادئ والدعوة إليها، وقدرتها على مد نفوذها خارج حدودها. إن كل ذلك يتطلب قدراً من القوة المادية والوفرة المالية.

وعلى هذا فإن على المسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ في مسلكه، حيث كان ينام على الحصير، ويلبس المرقع، ويمضي عليه أيام عديدة دون أن يذوق اللحم أو الفاكهة، لكنه مع ذلك كان يعطي لتأليف القلوب على الإسلام عطاء من لا يخشى الفقر، وكان ينفق على تجهيزات الجيوش كل ما يتوفر لديه، ويتطلبه الانتصار في المعركة. إنه التقشف الشديد في الحياة الخاصة والإنفاق السخي على الحياة العامة!.

إن المذهب الرأسمالي يرى أن المحرك الأساسي للإنتاج هو الطلب، ومن ثم فإن الإعلانات التجارية، تقوم بفتحِ شهية المواطن للاستهلاك، وتلقي

في روعه أنه إذا لم يستهلك السلع المعلن عنها، فسيكون غير سعيد، وغير فعال، وسيظهر بمظهر غير لائق... وهذا كله جعل مجتمعاتنا تلهث خلف سلع كمالية، وتبكي عليها، كما يبكي المولود في طلب الرضّاعة!.

إن المنهج الإسلامي معاكس للمذهب الرأسمالي، وهو يقوم على فلسفة: «استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به» فاستغنائي عن السيارة مثلاً خير من أن أحتاج إلى السيارة، وأن أسعى لامتلاكها، وأن أمتلكها في النهاية.

إن الحضارة لدينا ليست بإيجاد الحاجات، ثم السعي إلى تحقيقها، وإنما بتقليل الحاجات قدر الإمكان؛ حتى لا يُستعبَد المسلم لأي شيء كائناً ما كان.

ومن وجه آخر، فقد ورثنا أدبيات من عصور التدهور والانحطاط، تدعو المسلم إلى أن يكسب الكفاف، وما يقيم الأود، بمعنى أن يقوم بالحد الأدنى من النشاط، بما يوفر له ما يبقيه على قيد الحياة[1]؛ مما جعل مجتمعاتنا نماذج حية للكسل والبطالة والتسيب والجلوس في المقاهي، وعلى آلات اللهو، وعلى أبواب المنازل... وربما زادت ساعات البطالة على الساعات التي يقضيها الناس في المدرسة أو المصنع أو الحقل!!

قد آن الأوان لإبداع حلول غير تقليدية لهذا الأمر، والعودة إلى فلسفتنا ومنهجيتنا في إيجاد الحاجات وإشباعها، وفي الاقتصاد نفي النفقات الخاصة، والسخاء فيما يعود على المصالح العامة بالخير والنفع، وإلا فإن الأيام القادمة ستكون محملة بكل المزعجات، ومن كافة الأصناف!.

٤ ـ تنمية من أجل الأشد بؤساً:

إن تحسين حال الفقراء والوقوف إلى جانبهم، ليس مسألة اجتماعية،

---

(١) يقول الغزالي: «إن الاقتصار على قدر الحاجة فقط يؤدي إلى سقوط الحج والزكاة والكفارات المالية، وكل عبادة نيطت بالغنى. وإذا أصبح الناس لا يملكون إلا قدر حاجتهم، فذلك في غاية القبح...» الإسلام والتنمية الاقتصادية: ١٠٢.

وإنما هو مسألة مبدأ في المقام الأول. وإن الزكاة حق الله في المال، وهي لا تصرف في بناء المساجد، ولا المرافق العامة ـ كما هو رأي الجمهور ـ لأنها لتحقيق نوع من الكفاية للفقراء. وإذا امتنع بلد عن أدائها؛ فإن الدولة المسلمة تدخل حرباً شاملة من أجلها؛ وبهذا تكون دولة الإسلام أول دولة وآخر دولة في التاريخ مستعدة لخوض حرب من أجل الفقراء!!.

وإذا لم تقم الزكاة بحاجة الفقراء؛ فإن الشرع أعطى الحق للحاكم المسلم بتأمين ما يغطي حاجاتهم عن طريق فرض الضرائب المباشرة وغير المباشرة؛ والنصوص والأقوال في ذلك كثيرة[١].

ولدينا نقاط عديدة تتعلق بهذه القضية، منها:

أ ـ لا يمكن أن يشكل الفقر ظاهرة ممدوحة، ما دام الإسلام قد وضع تدابير للخلاص منه. والله ـ جل وعلا ـ جعل الفقر عقوبة لبعض الأمم، كما قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[٢]. وجعل ـ سبحانه ـ اليسار والخير بمنزلة المكافأة على الاستقامة والأوبة إليه حين قال على لسان نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[٣]. وكيف يكون الفقر أمراً مطلوباً، وهو من العوامل المهمة في شيوع الرشوة، وتحطيم النظم الإدارية، كما أن بيئة الفقر تعج بالمفاسد الخلقية والعادات السيئة، من نحو البغاء والتشرد والسرقة وتناول المخدرات[٤].

---

(١) انظر: فقه السنة: ١: ٤١٦ وما بعدها.

(٢) سورة النحل، آية: ١١٢.

(٣) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.

(٤) أوضحت بعض الدراسات الاجتماعية أن ٢٥٪ من أطفال المناطق الفقيرة ـ يجنحون إلى الجريمة، على حين لا تتجاوز النسبة المناظرة في المناطق المتقدمة على ١٪ فقط. وتبين من بحث اجتماعي أجري في كلكتا في بنغلاديش أن ٤ و ١٠٪ من الإناث يحصلن على دخول منتظمة من البغاء (!!). =

إن الفقر ليس عيباً، فأكثر مجتمعات الأرض تعاني منه، وهو ظاهرة طبيعية؛ لكن المشكلة في الأدبيات التي تشجع عليه، وفي هدر الإمكانات والطاقات التي تمكِّن من معالجته!

ب ـ علينا أن ندرك بوعي تام أن المحك النهائي لنجاح خطط التنمية هو التقدم في تحقيق الهبوط بخط الفقر، وذلك بأن تنخفض تكاليف المعيشة اللائقة بكرامة الإنسان مقارنة مع الدخل المتاح.

إن زيادة الرواتب والأجور تظل محدودة الفائدة، ما دامت أسعار السلع والخدمات ترتفع باستمرار بأسرع من ارتفاع دخول الفقراء والمحرومين.

إن أفضل خدمة تُقدم للفقراء هي استشارتهم في تحديد احتياجاتهم الأصلية والملحَّة؛ فهم أدرى بمصادر معاناتهم، وتحديد أولوياتهم، وما يصلح لهم.

إن من المهم أن نوقن أن أي تغييرات أو مكتسبات سياسية أو اقتصادية لا ينتفع بها السواد الأعظم من الناس، هي مكتسبات مؤقتة وغير نهائية، بل ربما أدت إلى تكوين بؤر من الصراع الاجتماعي وإشاعة الإحن والأحقاد!

جـ ـ إن من أخطر مشكلات الفقراء في عالمنا الإسلامي اليوم الهجرة من الريف إلى المدينة، حيث يُقتلع المرء من جذوره، ليذهب ويشكل جزءاً من حزام الفقر إلى المدينة؛ وإن الدولة تملك إمكانات كبيرة للحد من هذه المشكلة؛ إذ من المعروف أن توفير أسباب الرزق في الريف أيسر بكثير من توفيرها في المدينة. ومن ثم فينبغي أن يكون من أولويات أية حكومة بقاء قراها عامرة بالناس؛ فمن خلال توفير رأس مال صغير، يمكن تأمين مصدر

= وحول علاقة الفقر بتعاطي المخدرات أوضحت بعض الدراسات أن أكثر الفئات تعاطياً للمخدرات هم الفقراء ومتوسطو الدخل. وتشير بعض الدراسات أن استهلاك المخدرات في باكستان قد وصل إلى نحو ٣٤ طن متري في العام. وفي أفغانستان وصل إلى ٤٠ طن متري.

انظر: فقر الشعوب: ٢٠٨ ـ ٢١٠.

رزق لأسرة صغيرة، وذلك مثل شراء (بقرة) أو بضع (عنزات) أو بناء بحيرة صغيرة لتربية الأسماك، أو شراء (ماكينة) خياطة، ويمكن من خلال بعض القوانين تمكين الناس الأشد فقراً من الرعي أو الزراعة في أراضي الدولة، كما يمكن تأجيرهم إياها بأجرة رمزية...

سوف نستطيع أن نعمل الكثير حين يصبح همّ الفقراء والمشردين هماً عاماً للمجتمع الإسلامي. وعلى مقدار ما ننجزه في خدمة الضعفاء والمساكين سنكون أقرب إلى التدين الصحيح، وستكون مجتمعاتنا أكثر رقياً وتحضراً!.

٥ ـ الندرة أكبر تحدٍ في وجه التنمية:

يعرف علم الاقتصاد بأنه علم إسداء السلع النادرة[١]. وقد هيأ الله ـ سبحانه ـ للإنسان سبل العيش، ووضع بين يديه الكثير من الإمكانات والثروات، وطلب منه أن يتدبر أمره. وبما أن من سمات الإنسان الأساسية سمة (الاستهلاك) فإن الموارد مهما كانت كبيرة؛ فإن الإنسان سيظل يشعر بنوع من الندرة النسبية في الموارد المتاحة؛ مما يؤدي إلى الشعور بندرة السلع أيضاً.

لولا الندرة ما كان لدينا علم اقتصاد، ولما كانت هناك حاجة إلى خطط تنموية، ما دامت الشعوب تجد كل ما تحتاجه.

والذي دفعني إلى قولي هذا اتجاه كثير من الكتاب الإسلاميين إلى القول: إنه لا توجد لدينا مشكلة ندرة، وإن المشكلة الأساسية هي مشكلة الإنسان نفسه، وليست مشكلة موارد ولا مشكلة سوء التوزيع[٢].

نحن لا نجادل في أن هناك سوء تصرف وهدراً كثيراً، كما نعتقد أن التخلص من الإسراف في الاستهلاك ممكن دائماً، كما أن تنشيط الإنسان، ورفع وتيرة أدائه أيضاً ممكن. لكن لا ينبغي أن يظن أننا إذا فعلنا ذلك،

---

(١) فلسفة لتنمية جديدة: ٢٩.

(٢) اقتصادنا: ٣٠٦.

فسوف تسيل الأرض عسلاً ولبناً، فالدنيا دار تكليف وابتلاء ومحن وشدائد؛ مما يعني أن الفقر سيظل موجوداً؛ وإن الناس سيتوسعون في الاستهلاك عند أول شعورهم بالثراء[١] واليسار، بل إنهم لا يرون أي معنى للوفرة إذا لم يصحبها رفاهية أكثر، وتمتع بالكماليات أوسع؛ وهذا بطبيعته سيؤدي إلى ندرة السلع.

إن الحقبة الذهبية في حياة المسلمين هي الحقبة التي بدأت بتأسيس دولة الإسلام في المدينة، واستمرت إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين ـ على مستوى رقي الإنسان ـ ومما لا شك فيه أنه كان فيها فقراء ومحتاجون، وظلت ندرة السلع والأشياء موجودة، ولو كان الخلاص من الندرة العامة ممكناً لحصل في تلك الحقبة المباركة.

وما تذكره بعض الروايات من أن الخير فاض في عهد عمر بن عبد العزيز، حتى إنهم لم يجدوا من يقبل الزكاة؛ فإن ذلك ـ إن صح ـ فإنه كان في قطر من الأقطار، ولم يكن عاماً في كل أقطار الإسلام؛ وكتب التاريخ والتراجم متواطئة على ذلك.

ثم إنه ليس من مصلحة الأمة الإلقاء في روع أبنائها أن لديها من الموارد والثروات الكثير؛ لأن هذا سوف يولد شعوراً بالاتكال، وتقاعساً عن ضرورة التغيير، وتنشئة إنسان جديد.

لا ينبغي أن نظن أنه يمكن التعامل مع الإنسان، كما يتم التعامل مع الآلة، حيث يمكن بضغطة زر تحويل الناس إلى خلق جديد، ملتزم ومنتج ونشيط منضبط. . .

إن تمتع الإنسان بالإرادة الحرة والعنصر الروحي يجعل نقله من حال إلى حال لا يتم إلا في شروط موضوعية معقدة؛ فهو حتى يستغل الثروات

---

(١) أشار القرآن الكريم إلى طبيعة البشر في تجاوز حدود القصد والاعتدال عند الشعور بالوفرة، حيث قال: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

يحتاج إلى إرادة حضارية، وإدارة عالية الكفاءة، ويحتاج إلى تعليم وتدريب، وأموال طائلة، تستثمر في الصناعة والزراعة والبحث العلمي... ولا أظن أن لدينا من ذلك الكثير!.

إن العلاقة بين الثروات والإمكانات المتوفرة وبين (الوفرة) ليست طردية، فهناك دول لديها ثروات، لكن ليس لديها إمكانات فنية وعلمية واقتصادية لاستخراجها واستغلالها، فيصبح حالها وحال من ليس عنده شيء سواء.

وهناك أمم فقيرة في الموارد الطبيعية، لكن تتمتع بموقع جغرافي متميز، أو بخبرات علمية وتقنية عالية، ومن ثم فإنها أحسن حالاً من أصحاب الثروات الطائلة. إن دخل الفرد في السويد والنرويج والدنمارك واليابان أفضل من دخل الفرد في كندا وأستراليا[١]، مع اتساع مساحات هاتين الدولتين، وعظم ثرواتهما! إن مساحة اليابان لا تساوي أكثر من ١/ ٦٠ من مساحة الاتحاد السوفياتي السابق، إلا أن دخل الفرد في اليابان يزيد أكثر من عشرين ضعفاً على دخل الفرد في الاتحاد السوفياتي[٢].

إن التقدم العلمي الهائل قلل من أهمية كل ما هو فطري وطبيعي، وأعطى قيمة استثنائية لكل ما هو صناعي، ومكتسب، وإن الاستفادة من الثروات تحتاج إلى وقت وجهد ومال وسياسات رشيدة، وقبل ذلك إلى مسلم جديد!!.

٦ ـ التنمية التي تتجاهل البيئة ليست بتنمية:

في النصف الثاني من هذا القرن رأى الإنسان كوكب الأرض من الفضاء الخارجي لأول مرة. وقد بات الإنسان بفضل التقدم العلمي الهائل يفهم الأنظمة الطبيعية على نحو أفضل، وإن كان هناك الكثير من العلاقات الجدلية

---

(١) انظر اليابان اليوم: ٤١.

(٢) نصر بلا حرب: ٤٧.

والخطية الغامضة بين عناصر النظام البيئي؛ لكن ليست هذه المشكلة الأساسية، إنما المشكلة تكمن في أن الإنسان الذي يثبت في كل يوم تقدم عقله وعلمه، يثبت أيضاً ضعف إرادته واستسلامه لشهواته؛ فهو عاجز عن إيجاد التلاؤم بين الأفعال البشرية وبين الطبيعة ومكوناتها المختلفة.

لماذا القلق؟

إن البيئة العالمية واحدة، وتدهور أي عنصر في أي جزء منها سوف يمسّ باقي العناصر في باقي العالم على نحوٍ ما؛ لكن الجهات التي تدير العيش على الكرة الأرضية ليست واحدة، كما أن مصالحها ليست متلاقية، ومن ثم فإن البيئة العالمية مهملة، ولا تلقىٰ الاهتمام الذي يناسب قدر حاجة الأحياء والحياة لها.

إن هناك فترة سماحات طويلة، بين الأسباب التدميرية للبيئة وبين ظهور النتائج، وهذه الآثار قد لا تظهر أحياناً في أقل من عشرين سنة[1]، وهذا كاف لجعل مشاعرنا تترهل حيال نتائج سلوكنا، وأسلوب عيشنا، كما تترهل مشاعر مرتكبي الذنوب تجاه العقاب الأخروي! وهذا مظهر آخر من مظاهر مشكلة تدمير البيئة.

أما المشكلة البيئية على المتسوى المادي الملموس، فإن هناك معطيات عديدة تشير إلى جوانب عديدة من المشكلة، منها:

- تشير التقديرات إلى أن العالم قد خسر خلال نصف قرن مضى فقط خمس التربة السطحية من الأرض الصالحة للزراعة، وخمس غابات المطر الاستوائية، ونحواً من عشرة آلاف نوع من الأجناس النباتية والحيوانية[2].

- انتشرت المواد الكيميائية في الأسواق الصناعية على نحو مذهل،

---

(١) البشرية في مفترق الطرق: ٦١.
(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ١٣٦. هذا ويجب ألا ننسى أن هناك هوامش واسعة للخطأ والاختلاف حول كل التقديرات المتعلقة بالبيئة.

ويوجد الآن في الأسواق ما بين ٧٠ إلى ٨٠ ألف مادة كيميائية، ويدخل السوق كل سنة ما بين ألف وألفين من المواد الكيميائية الجديدة. ويدخل الكثير منها دون أي اختبار سابق كاف، ودون تقويم جيد لآثارها!!.

ـ يؤدي تجمع الأبخرة والغازات والعوادم إلى ارتفاع درجة حرارة المحيط الجوي للكرة الأرضية، وقد ترتب على ارتفاع درجة حرارة ذلك المحيط في العقدين: الثامن والتاسع من القرن العشرين عن معدله المعتاد ظواهر خطيرة عدة من نحو:

أ ـ زيادة حدة الأعاصير التي اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية، حتى بلغت سرعتها في الساعة ٢٠٠ ميل في الساعة، وقد سببت دماراً مضاعفاً عما كانت تحدثه في السابق، حيث كانت سرعتها لا تزيد على ٦٠ ميلاً.

ب ـ حدوث العديد من حالات الجفاف وندرة الأمطار في أمريكا وأفريقيا، على حين زادت حدة الفيضانات في جنوب آسيا مثل باكستان وأندنوسيا وبنغلاديش، فهدمت السدود، وشردت الألوف!

جـ ـ الأثر الأخطر لارتفاع حرارة الأرض، هو ازدياد حركة المد على السواحل بسبب ارتفاع درجة الحرارة في المحيط المتجمد الجنوبي بمقدار ربع درجة (فهرنهايت) ففي جزر المالديف مثلاً زادت حركة المد نحواً من سبعة أقدام عن معدلها العادي. وإذا استمرت حرارة الأرض في الارتفاع، فقد تفقد الأرض دولاً ومدناً على شواطئ البحار والمحيطات(١)!!

لا أريد الاسترسال في الحديث عن الغازات السامة ونشرها أمراضاً خطيرة، ولا عن تلويث المياه ونضوبها، ولا عن التصحر وقطع الغابات، فهي جميعاً تمثل موضوعات محزنة للقراءة!.

---

(١) من كتاب: (أرضنا الغاضبة) انظر عرضاً عنه في مجلة الفيصل العدد ٢٣٥ ص: ٩٢ في محرم ١٤١٧.

إن عدو البيئة الأول هو الدول الصناعية الكبرى، فهي المصدر الأول لتلويث البيئة، حيث إنها تنتج ٩٠٪ من نفايات العالم الخطرة! وفي أمريكا وحدها ٥٪ من التلوث العالمي، وهي تنتج أكبر قدر من ثاني أكسيد الكربون، كما أنها تنتج أكبر كمية من الغازات المدمرة لطبقة الأوزون؛ فهي بحق أكبر عبء على البيئة في العالم!.

وخلاصة القول أن العالم لن يستطيع مواصلة السحب من المحيط الحيوي دون أن ينتهي به الأمر إلى استنفاد رأس المال، وفناء التوازن البيئي إلى غير رجعة!.

ما العمل؟

إن أولى الناس بالمحافظة على البيئة هم المسلمون، حيث إن في ديننا أحكاماً وآداباً إسلامية كثيرة، لا يؤدي الالتزام والاهتداء بها إلا إلى حفظ الموارد، والمحافظة على البيئة، والعمل على تنظيفها؛ فقد أرشدنا الإسلام إلى غرس الأشجار، والاقتصاد في الأكل والشرب واستخدام الماء، كما أرشدنا إلى النظافة في البدن والثوب والمسكن، وحث على إماطة الأذى عن الطريق، وحرَّم على الرجال لبس الذهب والحرير، واستخدام أواني الذهب والفضة، كما حرم الإسراف وكل المظاهر التي تولد الكبر والخيلاء ـ وهي دائماً مظاهر استهلاكية ـ وأمر بالرفق في الأمر كله... وهذا كله سيؤدي إلى تدعيم التوازن البيئي من خلال المحافظة على الموارد، وتقليل التلوث إلى أبعد حد ممكن[1]. لكن المؤسف أن كثيراً من المسلمين محصور بين هوتين، هوة تفصلهم عن الانتفاع بمبادئهم على الوجه المطلوب، وهوة تفصلهم عن عيش عصرهم بكفاءة وفاعلية، وهذا أحد مفرزات التخلف!.

إن المطلوب عمله لحفظ ما تبقى من طاقة الحياة على هذا الكوكب كثير وكثير جداً، لكن أشق الأعمال هي تلك التي تتطلب تغير الإنسان،

---

(١) انظر: الإسلام كبديل: ١٦٢.

ومواجهته لنفسه؛ فقد يملك المرء من العزيمة ما يواجه به جيشاً، لكنه يقف عاجزاً أمام تغيير عادة من عاداته السيئة! ومن المؤسف حقاً أن تغيير سلوك الإنسان هو أكثر المطالب إلحاحاً في المحافظة على البيئة؛ وقد حرضت الثقافة الغربية شهية الاستهلاك في العالم، وهي لا تتسع أبداً إلا على حساب الرصيد الحيوي للأرض.

هناك تدابير ملحَّة يجب القيام بها إذا ما أردنا للتنمية أن تستمر، ومنها:

أ ـ تخفيف شهية الاستهلاك لدى الإنسان من خلال تدعيم الإيمان باليوم الآخر، وإثراء الحياة بالمعرفة والمتع العقلية، وزيادة الحراك الاجتماعي، وتقوية الروابط الأسرية... وكل ذلك في سبيل ألا يتحول الإنسان إلى سجين، لا يجد شيئاً يمارس حريته نحوه إلا الطعام!

ب ـ يجب تشجيع المؤسسات على الاستثمار في إجراءات وقائية أو ترميمية أو تعويضية، تساعد على التخفيف من الأضرار البيئية؛ وبما أن ذلك مكلف، ويرفع أسعار السلع، فيمكن للدولة أن تقوم بدفع جزء من تكلفة السلعة، من أجل المحافظة على البيئة. ومن المهم أن تتركز البحوث العلمية في إيجاد تطبيقات وتقنيات جديدة، تساعد على تقليل الهدر، وتسمح بإعادة تدوير المواد الأولية، مثل الحديد والورق وغيرهما[1]...

إن النفايات هي في الحقيقة نوع من الهدر، ونوع من ضعف الكفاءة الصناعية، وإذا انطلقنا من هذه الرؤية أمكننا أن نفعل الكثير.

ج ـ إن كثيراً من الأضرار البيئية ينتج من استهلاك الطاقة الحرارية المتولدة من الفحم والنفط، وبما أنهما مصدران غير متجددين فإن من الواجب البحث عن مصادر بديلة، متجددة ونظيفة في آن واحد، وذلك مثل الطاقة الشمسية، وطاقة الأمواج، واستغلال طاقة الرياح والشلالات في إنتاج الطاقة المحركة، والاستفادة من فضلات الأبقار وغيرها في توليد غاز

(١) مستقبلنا المشترك: ٣١٨، ٣١٩.

(الميثين). وقد قامت الصين بتشغيل ٤٠ مليون وحدة لتوليد هذا الغاز من أجل الاستخدام المنزلي!

د ـ وسائل النقل مثل الطائرات والسفن والسيارات والقطارات من أخطر مصادر تلويث البيئة، وأعظمها ضرراً عليها، ومن ثم فإن جعلها اقتصادية، أو جعلها تعمل بوقود آخر يعد ذا أهمية قصوى. منذ عام ١٩٥٠ وأعداد السيارات تتضاعف كل عشر سنوات، وهذا يعني مزيداً من الإجهاد لبيئة مريضة!.

هناك تطويرات كثيرة الآن، مثل استخدام الطاقة الشمسية، واستخدام خزان للهواء المضغوط يدفع بالسيارة مسافة لا بأس بها. ويمكن وضع قيود على إنتاج السيارات الكبيرة التي تستهلك كميات كبيرة من الوقود، كما يمكن وضع قيود على سرعة السيارات، بحيث لا تتجاوز السرعة المثالية لاستهلاك الوقود. ومما يمكن عمله أيضاً منع السيارات من دخول المناطق المزدحمة في المدن، والاعتماد على وسائل النقل العام، كما تفعل اليونان. ويعتمد كثير من الدول الاسكندنافية وهولندا على الدراجات الهوائية في التنقلات. وقد أخذت الصين ودول في جنوب شرق آسيا تحذو حذوها[١].

إن علينا أن ندرك أن أيام الرخاء والعيش السهل قد انتهت، وعلينا أن نتعامل مع هذه الحقيقة بجدية تامة، وإلا فإن النهاية قد تأخذ شكل الكارثة!

سنفعل الكثير لكوكبنا إذا تعاملنا معه كما نتعامل مع مكتباتنا الخاصة، فنحن نغنيها بالجديد والمفيد دائماً، ونغتني بالقراءة فيها ونتركها لانتفاع الأجيال القادمة وهي في قمة اكتمالها وثرائها!.

٧ ـ التحرر من التبعية هدف التنمية الجيدة:

تعني السيادة نوعاً من التحكم النسبي للجماعة بمصيرها، وقدراً من

---

(١) من كتاب: أرضنا الغاضبة.

الحرية في علاقاتها. في هذا الزمان لا توجد خيارات كثيرة أمام الفقراء والضعفاء؛ فالتواصل الكوني وضع الأمم بعضها في مواجهة بعض، وكشف الجميع للكل، وصارت العزلة غير ممكنة، وإنما هناك علاقات متكافئة، وعلاقات جائرة، تعمل لصالح طرف على حساب طرف آخر.

وعلى هذا فلا ينبغي أن يُظن أن التبعية تكون دائماً تعبيراً عن خيانة عظمى، أو تآمر على شعب بأكمله؛ فأكثر صور التبعية شيوعاً هي تلك التي تنشأ بسبب القصور الذاتي لدى الأمم، وعجزها عن إدارة شؤونها، والدفاع عن مصالحها أمام الأمم الطامعة فيها. وحين ندرك التبعية على هذا النحو، يشعر كل واحد منا بأنه مسؤول عن قدْر من التبعية التي تعاني منها الأمة، كما أنه يشعر أن باستطاعته أن يفعل شيئاً ما حيالها.

إن التبعية قبل كل شيء هي نوع من الاستخذاء، والشعور بالضعف، حيث يشعر التابع بالدونية، والحاجة إلى المتبوع، حتى إنه يرى نفسه، ويقومها من خلال مقولات المتبوع عنها، ومن خلال معاييره، وهذا وحده كاف لتعطيل آلية التفكير لدى التابع، وجعله يشعر بالنقص في استقلاليته وكرامته!.

إن الحرية هي القدرة على الاختيار، ولا اختيار إلا عند وجود بدائل. أما التبعية فإنها مناقضة للحرية؛ لأنها في جوهرها تعبير عن ضعف القدرة على الاختيار، بسبب قلة البدائل. ولا ينعدم ـ بالطبع ـ بعض الحواشي للمناورة مهما كانت الظروف سيئة، لكن كلما كنتَ أقوى كان لديك مجال لتأسيس علاقات متكافئة أكثر، فإذا كنت لا أجد الثوب إلا عندك، ولا تجد الطعام إلا عندي أمكن لكل منا أن يتعامل مع الآخر على نحو متكافئ، لكن إذا كنتُ أجد كل حاجاتي لديك، ولا تشعر في المقابل أن لديَّ شيئاً، يمكن أن تحتاجه، فكيف ستنشأ بيننا علاقات متكافئة، وعلى أي أساس؟!.

وهذه هي مشكلة العالم الإسلامي مع الغرب، ولا يحتاج المرء إلى

براهين كي يدلل على نقاط الضعف التي لدينا على مستوى الالتزام والاقتصاد والمعرفة والتنظيم[1].

طريق الخلاص:

الشكوى من التبعية، ومن ظلم القوى العظمى قديمة؛ وقد عُقدت عشرات الندوات والمؤتمرات في كل أنحاء العالم من أجل تقويم المشكلة، وإيجاد الحلول لها[2]؛ لكن النتائج ليست مشجِّعة؛ فمن الصعب على القط أن يقاوم إغراء قطعة الجبن، كما أن من الصعب تعليمه العفة أو الشفقة!

لعل من مصلحتنا جميعاً أن نطوي صفحة الحديث عن التبعية بالانتهاء إلى أن التبعية هي بنت الضعف، ولن يُولد الاستقلال إلا من رحم القوة، والاستغناء المتكافئ عن الآخرين. وأعتقد أن هذا الكتاب موضوع في جملته لبيان بعض طرق الخلاص مما نحن فيه.

ولا ينبغي لنا أن ننسى أن التبعية لم تتوطن في بلاد المسلمين في يوم وليلة، وإنما تراكمت عبر قرون، حيث كانت دائماً التعبير الملموس عن التخلف والضعف، ومن ثم فإن الخلاص منها يحتاج إلى وقت، ربما امتد إلى نصف قرن.

إن البداية في حركة التحرر تتمثل في أن نثق بما لدينا من مبادئ ومنطلقات ملَّكنا إياها المنهج الرباني الذي نعتز بحمله، وأن نتيقن أننا مهما خسرنا من معارك تنموية وعسكرية، فإننا سنظل نملك ـ بحول الله ـ الاتجاه الرشيد، والانشداد نحو الأهداف الكبرى، لكن ذلك وحده لا يكفي؛ إذ لا بد من القيام بواجبنا من التفكير وبذل الجهد.

إن درجةً من العزلة عما يدور في العالم من حولنا ضرورية لنا، وإن

---

(١) كنا قد خصصنا الجزء الأول من هذه السلسلة لإلقاء الضوء على واقع العالم الإسلامي.

(٢) انظر: من أجل مفهوم أفضل للتنمية: ٣٤٢.

التقشف وتقليل الاستهلاك، واعتماد التطوير للمحليات، وعدم المساومة على المبادئ، وحل مشكلاتنا عن طريق التفاهم والتفاوض ـ إن كل ذلك ضروري لبداية جيدة في بناء أمة قوية قادرة على الدفاع عن حقوقها ومصالحها.

في زمان التكتلات الكبرى يصعب على الدول الصغيرة والمحدودة الموارد أن تستقل، وتطور ذاتها بشكل جيد، ومن ثم فإن التحرر من التبعية بالنسبة لدول العالم الإسلامي سيظل مرهوناً بمدى قدرتها على إحداث نوع من التوحيد والتنسيق بينها، وتوسيع علاقاتها البينية على المستوى السياسي والثقافي والاقتصادي؛ والله غالب على أمره.

(٣) طرق وخبرات في التنمية الاقتصادية

قصة البشرية هي قصة المعاناة في توفير الحاجات الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة. وإن تنوع البيئات والموارد والظروف والتقاليد والأفكار ـ أوجد، تنوعاً هائلاً في الأساليب والأدوات التي يستخدمها الناس في تدبير شؤون معاشهم.

ويمكن القول: إن الشعوب لم يستفد بعضها من خبرات بعض في الماضي. ـ ولا سيما على المستوى الشعبي ـ بسبب ضعف الاهتمام وصعوبة الاتصال؛ بالإضافة إلى أن الناس الأكثر حاجة إلى خبرات غيرهم يكونون في العادة في وضع لا يمكنهم من البحث عن الجديد واستيعابه والانتفاع به، حيث تسيطر عليهم الأمية، والانشغال بقوت يومهم عن أي شيء آخر، والشعور بالضعف والاغتراب عن العصر، والعجز عن مغادرة الوطن للاطلاع على الأشياء الجديدة. . . .

إن الذين بإمكانهم أن يستفيدوا من خبرات غيرهم على نحو جيد هم أولئك الذين يشعرون بشعور الفقراء، وأولئك الذين يغارون على كرامة هذه الأمة، ومستقبل أجيالها، بالإضافة إلى الذين يشغلون بعض المناصب التنفيذية، ويؤمنون بضرورة الإصلاح والتغيير من أجل موقع أفضل بين شعوب الأرض.

إن فائدة ما سنذكره من خبرات ومناهج في التنمية الاقتصادية ـ لا تكمن في حرفيته وصورته، وإنما فيما يوحيه، ويفتق الذهن عنه، وفيما يثيره من مشاعر الحماسة للإبداع والتجديد والتغيير.

والحقيقة أن ما يمكن قوله في هذا الباب كثير جداً، لكن سنقتصر على الأفكار والخبرات الرئيسة من خلال المفردات التالية:

١ ـ الاعتماد على الذات:

يحرص الإسلام في توجيهاته وأدبياته على غرس الشعور بالمسؤولية الفردية في كل صعيد، فالمسلم مسؤول عن توظيف طاقاته، وحفظ جوارحه، ورعاية عياله، والإحسان إلى جيرانه، ومحاولة حل مشكلاته... وهو يلقي في روع المسلم أن عليه قبل أن يطلب مساعدة الآخرين أن يستنفذ طاقته في نفع نفسه، وعليه قبل أن يحاسب الآخرين أن يحاسب نفسه، وقبل أن يقرأ تاريخ الأمم الأخرى أن يقرأ تاريخ أمته....

وقد شكَّلت هذه التوجيهات البنية العميقة لثقافة المسلم؛ مما ساعد في انطلاق حضارة إسلامية، لحمتها وسداها ذاتي ومحلي، مع الانفتاح على الأمم الأخرى، ومحاولة الاستفادة منها.

إن الاعتماد على الذات هو وليد رؤية شاملة، تقوم على أسس عديدة، أهمها الثقة في القدرات الذاتية للأمة، ورفض استجداء الحلول الجاهزة. إنها تتناقض على نحو تام مع تنمية التبعية التي تزدري النفس، وتهرول نحو الأجنبي من أجل حل المشكلات الوطنية. إنها تنمية تستلهم التراث الحضاري للأمة، وتحترمه، وتسعى إلى أن تبدع فيه، وتخترع في إطار الإمكانات المتاحة، ولصالح القطاع الأوسع من أبناء الأمة.

مما يؤسف له أنه على حين يقوم كثير من كتابنا بتأسيس تنمية تابعة للشرق أو الغرب ـ يقوم كتاب غربيون في نصيحة الأمم الضعيفة باتباع طرق خاصة بها في التنمية، والاعتماد على نفسها، لكن بعد سقوط التجربة الشيوعية التي أطالوا التغني بأمجادها، وبعد أن كفَّ الغرب عن تقديم المساعدات ـ بدأ بعضهم يصحو على هول الصدمة، وبدأ رحلة العودة!

إن تنمية الاعتماد على الذات تقوم على مقولة: «جودة الثوب من مناسبته للابسه، وليس من جودة قماشه». فالتنمية الجيدة هي تنمية قابلة للاستمرار، وتنمية يستفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس؛ ولذا فإن تشغيل عدد كبير من الناس بدخول قليلة خير من تشغيل القلة بأجور مرتفعة، وإبقاء

الكثيرين يتسكعون في الشوارع. وإنتاج سلع أقل جودة بخبرات وموارد أولية محلية خير من إنتاج أو استيراد سلع ممتازة، لكن بخبرة ومواد أجنبية، وأبناء البلد عاجزون عن المشاركة؛ لأنهم لم يتلقوا التدريب الكافي.

أسس وصور في الاعتماد على الذات:

أ ـ إذا كان المقصود من الاعتماد على الذات التقليل من الاعتماد على الدول الأجنبية، وحفظ رأس المال الوطني من التسرب إلى الدول الصناعية، وإنقاذ أكبر عدد ممكن من الناس من براثن العوز والحاجة ـ فإن علينا أن نعتمد أسلوباً في التنمية يتيح للناس البقاء في قراهم، ويساعدهم على الاستفادة من العناصر المحلية الموجودة في بيئتهم، فقد ثبت أن كثيراً من العناء والتحلل الأخلاقي وانقسام الوعي ـ ينتج من اقتلاع الناس من أرضهم وأرض أجدادهم، ليستوطنوا حواشي المدن، ويتسوَّلوا فيها لقمة العيش بطرق شتى. وقد قامت دول عديدة بأعمال مختلفة لتفادي ذلك، ونقتصر على نموذجين منها:

ـ من أكثر برامج التصنيع الريفي كفاءة للفقراء شبكة مجالس تطوير الأحياء في (سيرلانكا) التي غطت البلاد كلها عام ١٩٧٢. ويقوم البرنامج بتنفيذ حشد من المشروعات الصغيرة لتنمية الزراعة والصناعة بمساعدات مالية من الحكومة. ويعتمد هذا البرنامج على المشاركة الشعبية الفعالة. ويضم كل مجلس ممثلين عن الجماعات التعاونية والتنمية الريفية. ولكل فرد أن يقترح مشروعاً، ثم يتم اختيار أكثر المشروعات المقترحة قدرة على تحقيق أكبر قدر ممكن من الاستفادة من الموارد المحلية المتاحة، وإيجاد أكبر عدد من الوظائف بأقل مبلغ من المال.

ثم تُنفذ المشروعات تعاونياً مع العمال الذين يملكون وسائل الإنتاج. ويتم تقاسم الأرباح، كما أن للعمال الحق في اختيار المديرين وخلال أربع سنوات من بداية البرنامج كان هناك ١٨٨٢ مشروعاً تحت التنفيذ في كافة أنحاء (سيرلانكا) نصفها تقريباً مشروعات صناعية؛ تتراوح ما بين إنتاج

الطوب الأحمر والنشاء والمنسوجات وقوارب الصيد، وقطع غيار المحركات، والجرارات ذات العجلتين. . .

ونشأ عن ذلك نحو من ٤٠ ألف وظيفة، ويبلغ متوسط المبلغ المستثمر في كل وظيفة ما يعادل ١٠٠ دولار (!) وهذا يقل عن متوسط تكلفة الوظيفة في مشروع صناعي كبير، تقيمه الدولة بنحو ثلاثين مرة! والمدهش أن المبلغ المستثمر في هذه المشروعات الصغيرة، حقق عائداً يعادل أربعة أمثال متوسط الإنتاج الحكومي(١)!

- قامت الهند بتنظيم أكبر برنامج عالمي لمساعدة الصناعة الريفية القائمة في الأكواخ. وأكبر صناعة ريفية بالهند، وأهمها هو الغزل بالنول اليدوي.

وقد تلقت المغازل اليدوية ضربة قاصمة في الماضي على يد الأنوال الكهربائية ومصانع النسيج، حيث ينتج العامل في مصنع النسيج عشرة أمثال ما ينتجه العامل على النول اليدوي. وقد قررت الهند أن تتوسع في تشغيل قطاع النول اليدوي بنسبة ٦٠٪ عام ١٩٨٣ مع عدم السماح مستقبلاً بزيادة سعة الأنوال الكهربائية أو مصانع النسيج. وقامت الحكومة الوطنية، وحكومات الولايات بوظائف التاجر الوسيط، فوفَّرت المواد الخام، وأعطت القروض الميسَّرة. وأنشأت الحكومة كذلك جميعات تعاونية للنساجين على نطاق واسع، كما قامت الدولة بإنشاء إدارة للتصميمات المطوَّرة؛ بما يحقق أذواق السوق، وتقوم بتقديمها للنسّاجين بسعر رمزي، كما تؤجّر لهم مخازن الجمعيات التعاونية(٢).

إنها صورة رائعة لما يمكن أن تساهم به الحكومات في دعم الحرف التقليدية الوطنية، وفي مساعدة الناس الأكثر حاجة، وإنها صورة حية لما يمكن أن توجده روح المشاركة من أعمال جليلة!

---

(١) العالم الثالث غداً: ١٤٧.

(٢) السابق: ١٤٨.

ب ـ إن أسلوب التنمية المعتمدة على الذات والإمكانات المتاحة هو في الأصل خيار سياسي، فالدولة هي صاحبة القرار في اختيار النمط التنموي المناسب.

والمطلوب عند اختيار هذا النمط هو تدخل الدولة على نحو جزئي، يكون أكثر ما يكون خدمياً وإرشادياً وتنظيمياً مع ترك مساحات واسعة للمشاركة الجماهيرية.

إن المنتجات المحلية ستواجه منافسة شرسة من المنتجات المستوردة، وإن الدولة هي التي تجعل الميزان يميل لصالح المحلية. وأتصور أن بإمكان الدولة أن تقوم بأعمال مهمة جداً في هذه السبيل، منها:

ـ إنشاء مراكز معلومات، تتخذ من الأرياف مقراً لها، وتقوم بعمليات مسح شاملة للقوى البشرية الموجودة، وللموارد المحلية المتاحة، وتقدم الخبرات العلمية والتقنية في مجالي الزراعة والصناعة الريفية، كما تقوم بإنشاء أجهزة شعبية حكومية، تتولى تطوير آلات وتقنيات ملائمة للموارد البشرية والمواد الخام في آن واحد.

ـ تمويل المشروعات الصغيرة، بقروض ميسَّرة، أو عن طريق المضاربة بعيداً عن الربا والفائدة. وإن بإمكان أجهزة الحكم المحلي أن ترعى وتحمي أطراً لشركات المضاربة والمساهمة المحدودة من أجل توظيف كل رؤوس الأموال المتاحة، مهما كانت صغيرة بشرط أن تظل الهيمنة للمساهمين.

ـ شراء منتجات المزارع والمشروعات الصناعية الصغيرة من قبل الدولة والجمعيات والهيئات الخيرية والإغاثية عامل مهم في دفعها إلى الأمام. ويمكن للدولة أن تنشر ثقافة شعبية تحبذ استهلاك المنتجات المحلية، وتدلهم على منافع ذلك، كما يمكنها أن تفرض على كل المستوردات التي لها نظائر محلية رسوماً مناسبة، تحوَّل إلى دعم مشروعات التنمية المحلية، والمشروعات الصغيرة بشكل خاص.

ويظل دور الدولة حيوياً في مراقبة الجودة؛ حتى لا يتكل الناس على

حماية الدولة، وتتدهور المواصفات القياسية. والمنتجات الرديئة لا تقنع أحداً بالإقبال عليها، كما أنها تشكل مظهراً من مظاهر الهدر والتخلف!.

جـ ـ الهمّ الأكبر في مجال التنمية يتمثل لدى الشعوب المسلمة في (الأجيال الجديدة) التي تحتاج إلى تعليم وتدريب وفرص عمل، ويمكن للدولة أن تساعدهم عن طريق منحهم قطعاً من الأرض المملوكة لها من أجل زراعتها أو إقامة مشاريع عليها؛ وتشرط بقاءها في أيديهم بإحيائها والاستفادة منها. ويمكن للدولة أن تضع الأراضي المملوكة لها تحت إشراف مجلس محلي أو هيئة مشتركة لضمان حسن توزيعها.

والمشكلة الأكبر التي تواجه الشباب اليوم هي مشكلة إيجاد مسكن ملائم لبناء أسرة؛ ويمكن التخفيف من غلواء هذه المشكلة عن طريق تجهيز الدولة لقطع من الأرض بالخدمات الأساسية، وتقسيط ثمنها على أقساط مريحة، ومن غير فائدة. كما أن المطلوب من المهندسين أن يبدعوا في إيجاد مساكن رخيصة، وضمن مجمعات سكنية منظمة. وقد كان الآباء يبنون أكثر بيوتهم من الطين، والطين هو المادة الوحيدة التي يمكن الحصول عليها مجاناً. وفي (فولتا العليا) قد تم إدخال بعض التحسينات على قوالب الطين من خلال مزجه بكمية من الإسمنت بنسبة ٥ إلى ١٠٪. وقد تضاعف بذلك العمر الافتراضي للبناء. وفي (دكا) عاصمة (بنغلادش) صُمم منزل مقاوم للمطر والريح بحوائط يتكون الواحد منها من حصيرين من الخيزران، بينهما مادة (البوليثين) السوداء الشديدة التحمل. وبهذا أمكن تشييد منزل خلال أربعة أيام[١]! وهذا في الحقيقة هو الإبداع، والإبداع لا يتجلى في تقليد الآخرين، وإنما في توليد الكثير من القليل، وفي حل المشكلات التي تثقل كاهل الناس.

وعلينا أن ننسى أن تبني سياسة (الاعتماد على الذات) سوف يوجد نوعاً من التكافؤ بيننا وبين الغرب، وسوف يحسِّن من شروط التبادل؛ فالإعراض

---

(١) العالم الثالث غداً: ٩٦، ٩٧.

عن شراء منتوجاته سوف يضطره إلى تخفيض أسعارها، كما أن ذلك سيمكننا من تكوين رأس مال وطني، نستخدمه في تطوير قدراتنا الذاتية.

٢ ـ التصنيع عصب التنمية الحديثة:

ليس في العالم اليوم شعب لا يتطلع إلى التصنيع، وليس في العالم شعب دخلُه مرتفع جداً، وهو مع ذلك بعيد عن التصنيع، والشذوذات في هذا المجال نادرة، وهي تؤكد القاعدة، ولا تخرمها.

يحمل التصنيع اليوم رموزاً ودلالات حسّاسة؛ فالشعوب غير الصناعية تشعر بالضآلة، ونوع من اتهام النفس بالعجز والاعتماد على الآخرين.

وينطوي التصنيع بالنسبة للمسلم على بعد أكثر حساسية، وهو بعد العزة والأمن والجهاد؛ فأمة الإسلام هي أمة الرايات والفتوحات؛ وتخلفها الصناعي جعلها تعتمد في حفظ أمنها الخاص على عدوها؛ وقد صار من غير المنطقي أن نقاتل الأعداء بأسلحتهم أو بأسلحة حلفائهم!.

ومن جهة أخرى فإن تعويض النقص في الموارد الناجم عن ضغوط زيادة السكان لا يمكن أن يأتي من خلال (الأرض) والزراعة، بل من خلال (التقنية) التي جسَّدت قدرة العقل البشري على إيجاد طرائق جديدة للأداء، واختراع وسائل حديثة، وتنظيم الإنتاج في صيغ أكثر تطوراً، والسعي الحثيث للتعجيل في نقل البضائع والأفكار من مكان إلى آخر، والحث على استنباط حلول جديدة لمشكلات قديمة[١]. وهذه التدابير كلها لصيقة بالصناعة، أو تعتمد عليها، أو هي أسس ومقدمات لها.

ولا أريد أن أستطرد في ذكر فضائل الصناعة الكثيرة؛ فالأحوال المادية الممتازة للدول المتقدمة صناعياً أوضح من أن تحتاج لمزيد من الشرح...

وتتبوأ الصناعات المعدنية اليوم قمة الهرم بين الصناعات المختلفة، وتُعدُّ مقياساً رئيساً للتقدم الاقتصادي والصناعي لدى الدول. وقد أثبتت بعض

(١) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٢٣، ٢٤.

الدراسات المسحية التي قامت بها بعض المعاهد المتخصصة أن كل مكان عمل في صناعة الحديد والصلب والمعادن غير الحديدية ـ يوفر ثمانية أماكن عمل جديدة في صناعات لم تكن لتوجد لولا أن هذه الصناعة تمدها باحتياجاتها من المعادن[1].

ما التقنية التي تناسبنا؟

هذا سؤال كبير، علينا جميعاً أن نجيب عليه، إذ إن (التنمية المتكاملة) تُعنى بنصب موازين الحساب لكل شيء؛ فالصناعة ليست أسلوباً للإنتاج، وإنما هي أسلوب حياة. حين تختار أمة أسلوباً صناعياً معيناً؛ فإن عليها أن تتفحص مدى انسجامه مع مبادئها وقيمها ونظامها الرمزي؛ فعدالة التوزيع لدينا مبدأ مهم، والعمل قيمة عليا بقطع النظر عما يترتب عليه من إنتاج ومنافع، والحفاظ على الترابط الاجتماعي هدف، وقدرة أي نشاط اقتصادي على الإيحاء الروحي سمة يصعب التفريط بها. . .

مراعاة هذه المسائل، وما شابهها، ليست مطلباً في النشاط الصناعي فحسب، وإنما في كل نشاط حضاري؛ وإهمال مثل هذه القضايا يجعل الحديث عن الخصوصية والاعتزاز بالتقاليد، والعناية بالمحليات ـ غير ذي معنى!.

لو نظرنا في الأوضاع العامة للعالم الإسلامي لوجدنا أن أكثر شعوبه لديها كثافة سكانية وبطالة عالية، ورؤوس أموال قليلة. وهناك شعوب قليلة، لديها مساحات كبيرة من الأرض، ورأس مال وطني جيد، لكن ليس لديها الأعداد الكافية من التقنيين والعمال المهرة. وعلى هذا فإن الأسلوب الصناعي والتقني المناسب للسواد الأعظم من الشعوب الإسلامية ليس هو الأسلوب الغربي الذي يقوم على تقنية عالية، واستخدام كثيف لرأس المال. وذلك ينسجم مع ضعف التطور السكاني لديهم، ومع رؤوس الأموال المتوفرة على نحو كبير.

---

(١) أهمية التصنيع: ٢٥.

التقنية المناسبة ليست مجرد تجميع خاص لآلة يثير شكلها الضحك، ولا هي شكل خاص لآلة ما؛ فربما تكون المصانع الكبيرة مناسبة في المفهوم الصحيح، كمعامل تكرير النفط وإنتاج الأسمدة غير المعبأة، إما لأنها الوسيلة الوحيدة الممكنة لتحقيق المطلوب، وإما لأنها أكثر اقتصاداً في استثمار رأس المال.

مصطلح التقنية المناسبة يعني كل تقنية تستفيد إلى أقصى درجة من الموارد الطبيعية المتاحة، ومن الحجم المناسب من رأس المال والعمال والمهارات، والتي تعزز الأهداف العليا والوطنية للأمة[١].

ويرى بعض الباحثين أن التقنية المناسبة أو (المتوسطة) هي التي تتطلب رأس مال عن كل منفذ جديد للعمل، يساوي تقريباً الدخل السنوي لكل مشتغل[٢].

أي أنه إذا كان الدخل السنوي للعامل عشرة آلاف، وجب أن تكون تكلفة التجهيزات والمعدات اللازمة لتهيئة فرصة عمل له في حدود ذلك الأجر.

سمات التقنية المناسبة:

أ ـ التقنية المناسبة مظهر من مظاهر إرادة الدولة المستقلة التي تتحسس مشكلات القاعدة العريضة من شعبها، كما تدرك بدقة قيمة المعطيات والإمكانات والطاقات المحلية، وتسعى إلى توظيفها بشكل جيد في تلبية الحاجات للأكثرية العظمى من الناس. وفي هذا السياق فإن (المعونات الخارجية) الأجنبية هي العدو الألد للتقنية المناسبة، ففي سنة ١٩٧٧ ارتبط أكثر من نصف المعونة الغربية كلياً أو جزئياً بشراء سلع ومعدات من الدول المانحة، ولا أظن أن الأمر قد تحسن اليوم. وذلك يؤدي إلى استمرار

(١) العالم الثالث غداً: ١٢٠.

(٢) البشرية في مفترق الطرق: ١١٧.

خطوط التبعية والحيلولة دون تطوير تقنيات محلية مناسبة؛ فالحاجة أم الاختراع، وكيف سنخترع معدات متخلفة، وأمامنا معدات جاهزة وراقية وشبه مجانية؟!

ب ـ إن التقنية المناسبة هي تلك التي تشغِّل أكبر عدد ممكن من الأيدي العاملة، وتوفر بذلك الستر والأمان وأسباب البقاء لأسر كثيرة محرومة بسبب عدم تمكن أصحابها من العمل الشريف المنتج.

وقد دلَّت بعض الدراسات على أن هناك علاقة عكسية بين درجة تطور المعدات، وبين مدى استيعابها للأيدي العاملة؛ فكلما كانت الآلات المستخدمة في المصانع أكثر تقدماً و (أتمة) كانت حاجتها إلى الأيدي العاملة أقل.

كما وجدت إحدى دراسات مكتب العمل الدولي أن الصناعة نصف الآلية للمعلبات في (تايلند) كان إنتاجها من العلب أرخص بنسبة الثلث من الصناعة الآلية ذات الإنتاج السريع، وزادت في الوقت نفسه في فرص العمل إلى خمسة أمثال، بالنسبة لوحدة رأس المال[1].

جـ ـ ذكرنا أن رؤوس الأموال المتوفرة لدى معظم الشعوب الإسلامية ليست كبيرة[2]، ومن ثم فإن التقنية المناسبة هي التي لا تحتاج إلى رؤوس أموال كبيرة؛ ولا يمكن لذلك أن يتم دون ثمن، فقد يقتضي ذلك شراء

---

(١) العالم الثالث غداً: ١٢٦. كما طور معهد أبحاث التخطيط في (لاكنو) مصانع السكر البلوري حيث تنتج المصانع الكبيرة أكثر من ١٢٠٠٠ طن سكر سنوياً؛ وقد أنشأ المعهد مصانع صغيرة ينتج الواحد منه ٦٤٠ طناً من السكر في السنة. وبقيمة المصنع الكبير الذي يوظف ٩٠٠ عامل يمكن بناء ٤٧ مصنعاً صغيراً، تتيح ١٠,٠٠٠ فرصة عمل، وكان سعر الكيلو أرخص في المصانع الصغيرة بنحو ١٤ روبية من المصانع الكبيرة، وقد انتشرت تلك المصانع في الهند، وصار منها في منتصف السبعينات أكثر من ١٢٠٠ مصنع، تشغّل قرابة ١٠٠٠٠٠ عامل!. السابق ١٢٧.

(٢) الحديث في الغرب عن ثراء العرب مضخَّم، ويقصد منه إعطاء المسوغات للنهب والضغط، وإلا فإن في أمريكا وألمانيا واليابان شركات عملاقة، يزيد رأس مال الواحدة منها على ميزانيات خمس أو عشر من البلدان العربية!!.

واستيراد معدات مستعملة، والقيام على صيانتها، وقد يقتضي ضغطاً كبيراً للإنفاق على أشكال المباني وأثاثها والسيارات المستخدمة، وجعلها أقل تكلفة وأناقة. وقد يقتضي ذلك إنتاج سلع غير ذات جودة عالية؛ لأن الجودة العالية تحتاج إلى مال أكثر وتقنية أعلى. وقد يقتضي ذلك قدراً من التدني في الأجور... إن كل هذا قد يكون جزءاً من الثمن الذي يجب دفعه، إذا ما أردنا استخدام تقنية مناسبة، تلبي الحاجات الحقيقية لمعظم الناس. وكل هذا يجب تحمله عن طيب خاطر، ما دام يساعد على توفير فرص عمل لأكبر عدد ممكن من الناس، ويحمي أجيالاً من التشرد والتسول والانحراف وسوء التغذية...

وهذا يقتضي منا أن ننسى - إلى أجل - كلمات مثل: موافق لأرقى المواصفات العالمية، ومجهز بأحدث الآلات، وفيه سكن فاخر ومريح للعالمين...

إن طبيعة تعاليم الإسلام تقضي بنشر الخير، ولو كان قليلاً على أكبر عدد ممكن من الناس، وهذا يتطلب شيئاً من التضحية، واللجوء إلى بعض الخيارات الصعبة التي لا ترتاح إليها النفس البشرية.

د - التقنية المناسبة، تقنية تعتمد على استثمار المعطيات المحلية، وتوظيف الخبرات والطاقات المتوفرة، وتراعي التقاليد والعادات السائدة، مما هو من قبيل المعروف.

ويمكن للسياسات الحكومية في مجالات التصنيع والتشييد أن ترجح كفة استخدام المواد المحلية من خلال إجراءات عديدة، منها:

- أسلوب فك الحزمة التقنية من خلال تحليل المشاريع التي يتم التعاقد من أجلها مع شركات أجنبية إلى عناصرها ومكوناتها الأساسية، وقيام الشركات الوطنية بتنفيذ أجزاء من تلك المشروعات، وتصنيع بعض معداتها، وتنظيم بعض جوانبها. وهذا قد يؤدي إلى بطء تنفيذ المشروعات، لكنه على المدى البعيد قد يكون الأسلوب الأمثل لامتلاك التقنية العالية، وتأسيس

الاعتماد على الذات[1]. إن هذا الأسلوب يتيح للأفراد الوطنيين فرص العمل، ويخفف من مقادير العملات الصعبة التي ستدفع للشركات الأجنبية. وهناك دول عديدة سلكت هذا المسلك، منها الأرجنتين التي أنشأت عام ١٩٧٤ السجل الوطني للعقود وفرضت الحكومة تسجيل كل عقد قبل سداد حوالات الدفع للخارج، وهي ترفض اعتماد أية عقود إذا تضمنت صفقات شاملة، أو استخدمت تقنية يمكن توفيرها محلياً[2].

ـ المشاريع الصغيرة تستخدم رؤوس أموال قليلة، وتعتمد آلات غير معقدة، ومن ثم فإن على الدول حمايتها من التهام المشروعات الكبرى. وقد انتهجت دول عديدة طرقاً متعددة للحماية؛ فاليابان ـ مثلاً ـ أكثرت من التعاقد بالباطن بين الصناعة الكبيرة والصناعة الصغيرة. والهند منعت الشركات الكبرى من إقامة مشروعاتها في الحضر والمدن المكتظة، كما منعتها من إنتاج ٥٠٤ سلع مخصصة للمشاريع الصغيرة وورش الأكواخ، كما ألزمت الدوائر والمؤسسات الصغيرة بشراء ٢٤١ سلعة من المشاريع الصغيرة فقط. وقامت الحكومة إلى جانب ذلك بتأسيس معهد للرقي بالصناعات الصغيرة، وتعليم الصنّاع المحليين الفقراء صناعة أحذية جيدة بأسعار زهيدة[3].

هـ ـ التقنية المناسبة لا بد أن تكون في البداية تقنية بسيطة، وبعيدة عن التعقيد. وستظل التقنية الغربية قليلة الفائدة بالنسبة لنا، مما لم نختر منها ما يلامس آفاق التقنية المحلية المتوفرة[4].

كلما أمكن للصناعة أن تستخدم آلات وطرقاً مبسّطة أمكن نشرها بطريقة أسرع، وأمكن لأعداد كبيرة من الناس استيعابها على نحو أفضل. وينبغي أن

---

(١) انظر: التنمية التكنولوجية: ٥٥.
(٢) العالم الثالث غداً: ١٣١.
(٣) السابق: ١١٥، ١٤٠، ١٤١.
(٤) يشبه الاستفادة من التقنية تعلم اللغة فإذا سمعنا كلاماً أعجمياً متصلاً صعب فهم شيء منه. ولا بد من سماعه بشكل مفرق كلمة كلمة مع شيء من الشرح والربط بأحداث وإشارات معينة إذا ما أردنا الفهم.

تقلل تلك الصناعات قدر الإمكان من استخدام الكهرباء والوقود، وتلجأ إلى طاقة الرياح والطاقة الشمسية؛ من أجل الحفاظ على الموارد، ومن أجل المحافظة على البيئة. وإن التقنية المناسبة ليست فرصة للتوفير فقط، وإنما هي فرصة للإبداع أيضاً؛ حيث إن الاستيعاب الجيد هو عتبة الإبداع.

يمكن إنتاج سيارات بسيطة ذات سرعات محدودة وتكلفة محدودة واقتصادية، تساعد الناس على الانتقال ضمن المدن، أو بين السكن والحقل.

وهناك دعوة لاستخدام الآلات المستعملة، وإدخال التعديلات عليها. وقد أجريت دراسة في (البرازيل) حول هذا الموضوع، وقد كشفت النقاب عن أن الآلات المستعملة مناسبة جداً لإنتاج المواد الملائمة للسوق المحلي، غير أنها لا تناسب الإنتاج بقصد التصدير. وفي اليابان لا تزال الآلات المستعملة ذات أهمية عالية بالنسبة للمصانع الصغيرة. وقد تبين أن الاستخدام الفعال لها من الأسباب الرئيسة التي مكنت المشاريع الصغيرة في اليابان من مواكبة المشاريع الكبيرة.

إن الآلات المستعملة هي أقل تطوراً، فتشغيلها واستيعابها يكون أسهل في بلادنا وهي أرخص ثمناً، فيمكن بثمن الآلة الجديدة شراء عدد من الآلات القديمة. والأهم من ذلك أن الآلات المستعملة تتطلب صيانة، وهي تتطلب إنشاء ورش محلية، وإيجاد أنشطة تعليمية، وإنعاش مهارات تقليدية؛ كما أنها تحث على إنتاج قطع الغيار وجعلها من الصناعات المزدهرة. ويعزف الناس عادة عن الآلات المستخدمة بسبب نقص المعلومات، وعدم توفر صيانة محلية جيدة؛ وأحياناً يكون الإحجام لأسباب اجتماعية. وهنا يبرز دور الدولة، ومجالس تطوير الصناعة حيث إن بإمكانها توفير معلومات جيدة عن نوعيات المعدات المستعملة، وعن صيانتها، والبلاد التي يمكن استيراد أصناف معيَّنة منها. ويمكن للدولة كذلك أن تجعل سوق الآلات المستعملة أكثر حيوية وتنظيماً[1].

(١) التنمية التكنولوجية: ٦٣ ـ ٦٥.

إنه لا بد من اعتماد عقلية (البداية المتواضعة) ثم التطوير المستمر والجاد من أجل توطين التقنية. وكل الدول الصناعية والدول التي تسير في طريق النمو الصناعي بدأت بدايات متواضعة، ثم تحسَّن مستواها شيئاً فشيئاً، والأمثلة في هذا أكثر من أن تُحصى.

إن التقنية لا تكون مناسبة عن طريق المصادفة أو العشوائية، وإنما يجب أن تعتمد على دراسات وبحوث مكثفة إلى جانب وجود ورش ومؤسسات عديدة متخصصة في اختيار المناسب من الأساليب الصناعية، وإبداع ما تمليه الحاجة والبيئة والموارد المتاحة...

وإذا لم تتخذ قرارات حاسمة بتخصيص ٢٪ من الدخل الوطني على الأقل لأغراض البحث العلمي وتوطين التقنية وتطويعها؛ فإن الحديث عن التقنية المناسبة لا يعدو أن يكون نوعاً من اللغو والتسلية!

لقد استمر استيراد التقنيات الجاهزة، وأنفقنا عليها أرقاماً فلكية، ولو أن جزءاً يسيراً مما أُنفق على استيراد (الصناديق المقفلة) أنفق على البحث العلمي والفنون التطبيقية، لكان لنا اليوم شأن آخر!.

وبعد كل ما سبق، فإن عكوفنا على تطوير مستلزمات حياتنا بطريقة خاصة، لن يتم إلا إذا أعطينا الأولوية للإحساس بـ (الكرامة) ونشر العدالة على الإحساس بالمتعة والرفاهية والمظهرية!.

٣ ـ الحد من الهدر والاستهلاك:

مشكلة الهدر والإسراف من المشكلات التي تعاني منها مجتمعات كثيرة؛ فالبسط في الرزق يدفع المرء إلى التوسع في الإنفاق. وقد وضح القرآن الكريم أن المسرفين لا ينالون مرضاة الله ـ تعالى ـ وحبه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] ووصف المبذرين بأشنع الأوصاف حين قرنهم

(١) سورة الأنعام، آية ١٤١.

بالشياطين: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1].

إن مما ينشر عادة الإسراف نظرة الناس إليه على أنه نسبي، ومن ثم فإن من السهل أن يقول بعض الأثرياء: إن فلاناً ينفق في الشهر كذا، ونحن أحسن حالاً منه؛ فمن حقنا أن ننفق أكثر مما ينفق. ويقول آخرون: نحن نتحدث بنعمة الله ـ تعالى ـ علينا، وما ننفقه بالنسبة لما نملك ليس كثيراً. . . ولذا فإن مفاهيم الهدر والإسراف والتبذير، لم تجد تجسيدات واضحة، وحدوداً فاصلة، وتُركَ ذلك للعرف.

مظاهر الإسراف والتبذير في حياتنا المعاصرة عديدة؛ فهناك أموال طائلة، تُنفق على شرب القات والدخان، وأخرى تنفق على الأثاث والرياش والتحف، وبناء مساكن واستراحات فائضة عن الحاجة، وهناك المبالغ الهائلة التي تُنفق على السياحة والسفر إلى غير بلاد المسلمين. وهناك الأطعمة الكثيرة التي تُطبخ، ولا تُؤكل، لتلقى في القمامة. وهناك شباب يشترون بالتقسيط، ويستدينون بالربا من أجل شراء سيارة فاخرة أو فرش وأثاث وثير!!

إن انتشار هذه الظاهرة في المجتمعات الإسلامية يعود إلى عدد من الأسباب، نذكر منها:

أ ـ ضعف الشعور الديني لدى المسلم، أوجد لديه نوعاً من الحرمان، وجعل استسلامه لأهوائه وشهواته أيسر وأسهل.

ب ـ فقر الحياة الثقافية والاجتماعية وجمودها، جعل مجال التفاضل الوحيد هو كسب المال، والتباهي بإنفاقه وهدره.

ج ـ ضعف الوعي بقيمة المال وحاجة الأمة إليه، جعل الشعور بالمسؤولية حيال تثميره والحفاظ عليه ضعيفاً.

---

(١) سورة الإسراء، آية ٢٧. هذا وكثيراً ما يطلق الإسراف والتبذير على معنى واحد، لكن بعض العلماء يجعلون التبذير خاصاً بانفاق المال في غير وجهه، ويجعلون الإسراف عبارة عن تجاوز للمعتاد في الإنفاق.

د ـ الافتتان بالنموذج الغربي، والأمريكي خاصة، ومحاولة تقليد القوم، والظن أن الإسراف مظهر من مظاهر التحضر والتقدم. وإن عادات الاستهلاك السيِّئ تنتشر، كما ينتشر الوباء الفتاك، على حين أن العلم والخبرة والحكمة تحتاج إلى تعلم بطيء.

هـ ـ الدخول الكبيرة الفائضة عن الحاجة تدفع أصحابها إلى التوسع في الإنفاق، وقد تُوجد عندهم نوعاً من الترهل والانصراف عن الإبداع والجدية اتكالاً على ما في أيديهم[1]. وهم ينشرون بسلوكهم الاستهلاكي نماذج سيئة في المجتمع، سيحاول كثيرون تقليدها!.

و ـ تكديس الأشكال الكثيرة من البضائع في الأسواق إلى جانب الإعلانات والدعايات التجارية ـ يوجد لدى الناس نوعاً من الاحتياج المصطنع، ويدفعهم دفعاً إلى مزيد من الاستهلاك!

كيف نحدُّ من الاستهلاك؟

ليس من السهل تغيير العادات النفسية والسلوكية للناس في ظل الضغوط الهائلة التي يمارسها الغرب في سبيل تعميم نموذج حياته المسرفة والصاخبة، وفي ظل استعمار العقول الذي غسل الأدمغة، وغيّر القيم، وقلب المعايير.... ومنهجيتي الثابتة في معالجة المشكلات هي اللجوء إلى (الحلول المركَّبة) التي تجمع بين استخدام التربية والإقناع والفكر والتنظيم، وتغيير الظروف. ومن ثم فإنني أرى أن هناك وسائل وأساليب عديدة للحد من ظاهرة الاستهلاك الترفي، غير المسؤول، ومن تلك التدابير ما يلي:

---

(١) يذكر أحد الباحثين أن حالة الوفرة قد تكون عامل انحطاط للشعوب أيضاً، ويقول: إن أسبانيا كانت في القرن الخامس عشر أكثر بلاد أوربا الغربية تقدماً في فنون الإنتاج والعلوم والقدرة على القتال والقدرة على التنظيم؛ لكنها خلال أقل من قرن تخلت عن هذا الموقع لهولندا، ومن بعدها إنجلترا، وفرنسا. ويجمع المؤرخون أن أهم أسباب هذا التدهور هو الكنوز الهائلة من الذهب والفضة التي سلبتها أسبانيا من فتوحاتها الجديدة في الأمريكتين، واستعاضتها بها عن تطوير قدراتها الإنتاجية. المأزق العربي: ٣١٤.

أ ـ نحن بحاجة إلى حملات توعية مستمرة بضرورة الاقتصاد والحفاظ على الثروات وترشيد الإنفاق. وهذه الحملات تظهر بمظاهر شتى، من نحو: تقرير مناهج مدرسية، تحث على الاعتدال في الإنفاق، وتنبِّه على صور الهدر الموجودة، ومن نحو تأليف كتيّبات توزع على ربات البيوت لإرشادهن إلى كيفية الطهي والخياطة والتأثيث الذي يجمع بين الجودة والبساطة والجمال ورخص الثمن، ومثل القيام بحملات صحفية وإذاعية وتلفازية، ووضع لوحات في الشوارع، وإنشاء الجمعيات والمؤسسات التي تنشر الفكر والثقافة الاقتصادية في الاستهلاك، وتحارب عادات الترف والتبذير والهدر، وتكون على مقربة من الناس لتوعيتهم وإرشادهم.

ب ـ إن الناس يحتاجون دائماً إلى نماذج ورموز يقتدون بها، ولا يمكن للمرء أن يكون قدوة لغيره من غير تضحية؛ وهذا يوجب على أهل العلم والخير والجاه والنفوذ أن يتحسسوا المسؤولية الملقاة عليهم في هذا الصدد؛ فالناس يتلقفون منهم من غير وعي مشروعية أنماطهم السلوكية، ويقتفون أثرهم بسبب تميزهم الديني أو الدنيوي. ونحن إلى اليوم ننفعل بسلوك النبي ﷺ المعيشي وسلوك أصحابه وبقية السلف؛ والله وحده يعلم ماذا ستكون أحوالنا لو أنه انطبع في أذهاننا صورة غير الصورة التي نعرفها عنهم!.

جـ ـ إن من الملاحظ أن عدم وجود مشاريع اقتصادية ناجحة يدفع برؤوس الأموال إلى الخروج من السوق، وحين تتكدس الأموال في الأرصدة يندفع الناس إلى استخدامها في شراء سلع، ليسوا بحاجة إليها، أو يندفعون إلى إنفاقها في السياحة والسفر، وما شاكل ذلك. ومن هنا فإن شركات المساهمة والمشاريع الصغيرة يمكنها أن تمتص كثيراً من الأموال الفائضة إذا توفر لها الإرشاد والرعاية والحماية.

د ـ إن من حق الدولة أن تضع سياسات للأجور، تجمع بين الحفز على التعليم والإبداع والارتقاء الوظيفي، وبين تحقيق التقارب في مستوى المعيشة بين الناس. والمسألة في الحقيقة حسّاسة ودقيقة؛ فجعل الأجور

متقاربة إلى حد بعيد يجعل اندفاع الناس إلى ترقية مهاراتهم، وتدريب أنفسهم معدومَ الحوافز. وقد اتبعت بعض الدول العربية هذه السياسة، وكانت عواقبها سيئة!

وجعل مسافات بعيدة بين الحد الأدنى للأجور والحد الأعلى، يدفع ذوي الدخول الكبيرة إلى التوسع في الإنفاق الترفي، ولهذا أيضاً أضرار بعيدة المدى على الثروة الوطنية، وعلى البنية الاجتماعية، كما أنه يؤدي إلى ارتفاع الأسعار على نحو مبالغ فيه؛ مما يؤذي ذوي الدخول المنخفضة. وهذا بالإضافة إلى أن ذلك يوجد بؤر نفوذ وهيمنة، تساعد على الخروج على القانون، وتساعد على تحلل النظم الإدارية.

وأتصور أن الحد الأدنى للأجور يجب أن يكون كافياً لتحقيق شروط الحد الأدنى من العيش الكريم. أما الحد الأعلى فينبغي ألا يتجاوز ستة أمثال الحد الأدنى، مع الاستمرار في المراجعة والرقابة، من أجل المحافظة على نوع من الاتزان المعيشي.

هـ - إن شعار! «مارس حريتك وادفع الثمن» يمكن تطبيقه في تدابير الحد من الاستهلاك؛ فإذا رغب بعض الناس في أن يتمتع بالمرفهات الزائدة على الحد المألوف المعتدل في المسكن والمركب والملبس والمأكل، فإن عليه أن يدفع ثمن ذلك للمجتمع الذي يعيش فيه، باعتباره جزءاً من التضامن الاجتماعي.

إن ضريبة تصاعدية تتناسب مع ارتفاع درجة كون السلعة كمالية وترفيهية، سوف تساعد كثيراً في الحد من الترف وتبديد رأس المال الوطني. وإن بإمكان الدولة أن تحظر إنتاج بعض السلع التي يؤدي استهلاكها إلى نوع من الاستفزاز الاجتماعي، كما أن لها أن تحظر استيرادها.

إن علينا أن نوقن أن الأفكار مهما تكن قوية، وأن الوعي النقدي مهما يكن عظيماً؛ فإن سلوك الناس لن يتغير بالقدر الكافي ما لم توجد ظروف اجتماعية جديدة، تحمل الناس حملاً على اتباع أسلوب جديد في العيش. وإن الأفكار التي طرحناها، ربما ساعدت على ذلك.

٤ ـ الادخار من أجل الاستثمار:

الخلل الكبير الذي يجتاح حياة كثير من الشعوب الإسلامية، سببه الرئيس، هو أخذها ببعض الكتاب، وإعراضها عن بعضه الآخر؛ فحرموا من بركة تكامل المنهج الرباني، وقدرته على الإصلاح الشامل المتزن. السواد الأعظم أخذ بحديث «**تناكحوا تكاثروا**...» على أنه مبدأ، لكن الذين أخذوا بتوجيهات الإسلام في الكدح والعمل الجاد وحسن التدبير، والإعراض عن زينة الدنيا... قليلون، فوقعنا في مآزق آخذة في التفاقم يوماً بعد يوم!!.

إن السكان يتضاعفون في بعض الدول الإسلامية كل خمس عشرة سنة، وفي بعضها كل عشرين سنة، وفي بعضها كل خمس وعشرين سنة؛ وهذا يعني أنه يجب حتى تحافظ على المستوى الحالي من العيش أن تضاعف السكن والخدمات والتعليم والصحة والغذاء مرة كل جيل على الأقل، وإلا وفدت أجيال لا تجد سكناً، ولا عملاً؛ فتجتاحها آفات البطالة والفاقة والتشرد والانحراف...

إن من المؤسف أن أكثر الناس لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ولا يهتم أبداً بمستقبل الأمة! إن عمر ـ رضي الله عنه ـ أبى تقسيم سواد العراق على المقاتلين، حتى لا يأتي جيل لا يجد أية أداة استثمارية، يكتسب بها؛ وكان ذلك إشارة واضحة إلى ما يجب أن نقوم به من التخطيط للمستقبل والوعي بمآلات تصرفاتنا التي تأخذ غالباً طابع الآنية، وضعف الاكتراث!.

إن الاستثمار هو تشغيل المال في الأطر الإنتاجية المختلفة؛ والمال يأتي من خلال التوفيرات التي يقتطعها الناس من دخلهم السنوي. فالمدخرات هي الفوارق بين الدخل والاستهلاك؛ فلا بد حتى تكون هناك استثمارات جديدة من أن يكون ما ينتجه الناس أكثر مما ينفقونه، وإلا فمن أين يأتي المال؟

إن فرض الإسلام للزكاة على الأموال القابلة للنماء، سواء أنماها أهلها أم لا ـ يُعد حافزاً على دفعها إلى دخول دورة الإنتاج، حتى لا تأتي عليها الصدقة.

وقد ورد في الحديث: «**خير المال مهرة مأمورة، وسكة مأبورة**». . والسكة المأبورة هي صف النخل الملقَّح، والمهرة المأمورة: الكثيرة النسل والنتاج[1] ومعنى النماء والاستثمار في هذين النوعين الخيرين ظاهر للعيان.

وروي أن عمر ـ رضي الله عنه ـ سأل أفراد رعيته عن حال الناس في الإقليم الذي جاء منه، فحدَّثه عن جزالة عطاء الوالي لهم، حتى إن الواحد من الناس يصرف المال فيما ينبغي، وفيما لا ينبغي. وكان توجيه عمر لهم: «فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء، ابتاع منه غنماً، فجعلها بسوادهم؛ فإذا خرج عطاؤه الثانية ابتاع الرأس والرأسين، فجعلها فيه، فإني أخاف عليكم أن يليكم بَعْدُ ولاةٌ، لا يُعد العطاء في زمانهم مالاً. فإن بقي أحد منهم، أو أحد من ولده كان لهم شيء، قد اعتقدوه، فيتكئون عليه، فإن نصيحتي لك وأنت عندي جالس، كنصيحتي لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين»[2]!

الحلقة المفرغة:

أسوأ ما في التخلف أنه في كثير من الأحيان، يجعل المبتلين به في حلقة مفرغة، يدورون فيها، دون أن يجدوا سبيلاً للخروج؛ إذ من الواضح أن الاستثمارات الجديدة تتطلب فائضاً اقتصادياً، والفوائض هي الفوارق بين مجمل الناتج ومجمل المستهلَك؛ فإذا لم تكن هناك فوائض جيدة زائدة على الاستهلاك، فإن المشروعات والاستثمارات الجديدة ستكون ضعيفة ومحدودة؛ وهكذا فأكثر الشعوب الإسلامية، دخلها منخفض؛ لأن الإنتاج منخفض. والإنتاج منخفض؛ لأن رأس المال المستثمر منخفض. وانخفاض رأس المال بسبب انخفاض الادخار. انخفاض الادخار يؤدي في النهاية إلى دخل منخفض[3]. وهكذا تكتمل الحلقة، ويحكم إغلاقها!.

ولا بد لكل دولة، ولكل شعب، بل لكل فرد من البحث عن نقطة

(١) النهاية في غريب الحديث: ١٣:١، ٦٥.
(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية: ٢٠٩.
(٣) قضايا التخلف: ١٣٦.

ضعف في حلقته الخاصة؛ حتى يتم كسرها، ويتمكن من الخروج منها.

تدل الإحصاءات المتوفرة على أنه للحصول على تنمية للدخل الوطني بنسبة ١٪ يجب أن نستثمر ٣٪[1] من هذا الدخل في مشاريع إنمائية؛ وذلك على نحو عام وهذا يعني أنه للحصول على تنمية اقتصادية بمعدل ٥٪ سنوياً - مثلاً - يجب أن نوظف ما لا يقل عن ١٥٪ من الدخل الوطني في مشاريع إنمائية كل عام.

ما العمل؟

إنني على ثقة كاملة أن الله - جلا وعلا - ما أنزل من داء إلا أنزل له دواء، وأن الإمكانات الكامنة والطاقات المعطلة هي أكثر بكثير مما نظن! والمعاناة الأساسية، تكمن في ضعف الالتزام والوعي، وقصور النظم السياسية والاجتماعية. وهذا يعني أن هناك مجالاً رحباً للتقدم، إذا امتلكنا من العزيمة والحكمة والبصيرة ما يؤهلنا لاستحقاقه.

إن تكوين رأس مال وطني جيد، وتوفير الأموال للاستثمار يحتاج إلى القيام بإجراءات عديدة منها:

أ - تعود كثير من الناس اختزان أموالهم في الذهب والمجوهرات والمساكن والعقارات. وهذا في الحقيقة حرَم سوق العمل من أموال هائلة، كان بإمكانها أن توفر ملايين فرص العمل، وأن تدفع مسيرة التنمية خطوات فساحاً إلى الأمام. والذي يدفع كثيراً من الناس إلى ذلك الخوف من أن يذهب التضخم بقيمة أموالهم، إلى جانب المشكلات التي يواجهونها في الاستثمار مع أصحاب المشروعات الوهمية.

إنه لا بد من التوعية الشاملة بأهمية دخول المال دورة الإنتاج، كما أنه لا بد من توفير الظروف التي تجعل النزول إلى السوق آمناً قدر الإمكان.

---

(١) نسبة الادخار في ماليزيا: ٣٧/٨،وفي أندنوسيا: ٢٧/١، وفي تايوان: ٣٨/٨ وفي اليابان ٣٢٪. أما الدول الفقيرة فإن نسبة الادخار لديها لا تتجاوز ٥٪!.

ويمكن للدول أن تضع بعض القيود على المضاربات بالعقارات؛ مما يخفف من لجوء الناس إلى اختزان الأموال فيها.

إن من الغريب أن المرأة الغربية تميل إلى البساطة في مظهرها وحليها وثيابها، على حين أن المرأة المسلمة تنفق الأموال الطائلة على ذلك، مع أن المسلمة أولى بذلك، ولكن. . .

ب ـ إن هناك كميات هائلة من الأموال التي تم تهريبها إلى خارج البلاد الإسلامية، وبعضها يخرج على نحو مشروع؛ ليعمل في بلاد الغرب. وتفيد بعض التقديرات أن الأموال العربية وحدها الموجودة في الدول الغربية، تتجاوز ستمائة مليار دولار! وهذا الرقم وحده كاف إذا استخدم استخداماً رشيداً لتأسيس نهضات اقتصادية عديدة!!

ولا يجوز أن نتجاهل أن بعض الحكومات شنت حرباً شعواء على أصحاب رؤوس الأموال؛ حتى اضطرتهم إلى الهجرة بأموالهم، كما لا ينبغي أن ننسى أن ضعف الأطر التنموية إلى جانب المركزية في التخطيط والإدارة وضعف المشاركة والتفاهم السائد في أكثر بلاد المسلمين بين الحكومات والشعوب ـ أن كل ذلك يعد أسباباً جوهرية لهجرة الأموال إلى الخارج.

وهكذا فإن الانتعاش الاقتصادي كثيراً ما يتوقف على نوع من التقدم السياسي والاجتماعي؛ ومن العسير أن نتهم من أخرج ماله من وطنه بضعف الولاء أو ضعف الشعور بالمسؤولية؛ فهناك من الأسباب ما يحرض على ذلك!.

إن تفكيرنا في تحسين ظروف الاستثمار لن يعود بأي نفع ما لم نحرز تقدماً ملموساً على صعيد العلاقات الاجتماعية، وعلى صعيد العدل والمشاركة والتفاهم الوطني.

جـ ـ إن ما يمكن أن يدفعه الفقير للدولة محدود جداً؛ لأن دخله محدود. وفي كثير من الدول الإسلامية تحلل في النظم الإدارية؛ ومن ثم فإن جباة الضرائب وكثيراً من الموظفين يجبون الأموال لخزائنهم الخاصة، وليس لخزينة الدولة.

وكثير من أصحاب الثروات، لا يدفعون ما يجب عليهم؛ ولذا فإن من الملاحظ أن هناك بعض التجار إمكاناتهم مثل إمكانات دولة أو دول!!

والواجب اختيار أهل الدين والعفاف ـ وهم كثر بحمد الله ـ لتولي شؤون المال والمشاركة في حمل الأمانة الكبرى التي تتحملها الدولة الإسلامية.

د ـ لا بد من تدابير عديدة لجعل (الطلب الداخلي) يتعاظم، بمعنى أن الأموال يتم إنفاقها على شراء سلع داخلية، وضمن خطة تقشفية. وهذا ما فعلته دول عديدة في جنوب شرق آسيا في أول نهضتها الصناعية، حيث وضعت بعض الضرائب والقيود على استيراد الكماليات والبضائع الأجنبية الفاخرة، وقيدت الاستهلاك الشخصي، كما وضعت قيوداً على خروج الأموال إلى الخارج، ووجهت الأموال إلى الاستثمار في المجالات الصناعية... وقد أدى كل ذلك إلى زيادة الصادرات، وزيادة الربح والادخار؛ مما شجع على تنشيط الطلب الداخلي[(١)].

هـ ـ ضغط قطاع الخدمات والتوزيع والتشييد لصالح الاستثمار في الأدوات الإنتاجية، أمر ضروري في البداية. وهو جزء من حملة تقشف علينا أن نتحملها إلى أمد، ليس بالطويل، بإذن الله تعالى. وقد ذكرت بعض الدراسات أن قطاع الخدمات ارتفع في بعض الدول العربية عام ١٩٨٥ بنسبة ٥٥٪[(٢)] وهذه الزيادة كبيرة جداً بالنسبة لدولة نامية، تحتاج إلى الكثير من المال للإنفاق على الأساسيات، وتحسين أحوال التنمية!

و ـ لكسر الحلقة المفرغة يجب الضغط والتركيز على بعض القطاعات الإنتاجية، كالزراعة أو الصناعات الخفيفة من أجل توفير الأموال لاستثمارها في قطاعات أخرى. وتختلف الخيارات من دولة إلى أخرى؛ فبلد مثل السودان قد تكون الزراعة هي خياره الأنسب، حيث التربة الخصبة والمياه الوفيرة.

---

(١) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٢٥٤.

(٢) قضايا التنمية في الوطن العربي ١٧.

وحيث تتوفر المعادن أو النفط الخام قد يكون الضغط على قطاع الصناعة هو الخيار الأفضل... وهكذا فالمهم هو استنفاد كل الإمكانات في البحث عن البداية الصحيحة.

ز ـ هناك أموال طائلة تنفق على شراء السلاح[١]. وكل من الشرق والغرب يغالي في أثمان أسلحته، ويضع قيوداً ثقيلة على استخدامها؛ مما يجعل فائدتها في أحيان كثيرة شبه معدومة! وفي تصوري أنه يجب صرف النظر عن اقتناء السلاح المتطور إلى حين، وتوجيه الأموال التي تُصرف عليه إلى إنشاء صناعات عسكرية محلية؛ حيث يتم بذلك توفير فرص عمل للناس، وإنتاج سلاح وطني غير مثقل بشروط الاستعمال، وتكون صيانته وتأمين قطع الغيار له في طاقة الدولة.

والأهم من ذلك توطين الخبرات العسكرية وتنميتها محلياً.

٥ ـ الزراعة ومستقبل المستضعفين:

النشاط الزراعي هو النشاط الفطري الذي مارسه الإنسان منذ أزمنة سحيقة. وتقدير الناس للأرض، وحبهم لها ربما كان بسبب الثبوتية التي تتمتع بها بنيتها، حيث يجد الناس فيها الأمن والأمان. وربما كان بسبب إحساسهم أنها مصدر للنماء والرزق المتجدد.

كانت الزراعة في يوم من الأيام كل شيء، وصار الاشتغال الزائد بها اليوم دليلاً على الفقر والتخلف، حيث زاحمتها قطاعات عديدة. ويبدو أن الأمر ليس جديداً، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن الفلاحة معاش المستضَعفين وأهل العافية من البدو[٢].

وتذكر بعض الدراسات أن الدولة التي يشتغل أكثر من ١٠٪ من سكانها

---

(١) منذ عام ١٩٦٠ والعالم الثالث ينفق على السلاح نحواً من ١٧٠ بليون دولار سنوياً. وفي عام ١٩٨٥ أنفق العالم على الأغراض العسكرية أكثر من ٩٠٠ مليار دولار. انظر مستقبلنا المشترك: ٤٢٩ والفقر والبيئة: ٤٤.

(٢) المقدمة ٢: ٢٩٦.

بالزراعة تعد متخلفة[1]. ولا شك في هذا، حيث إن توفير الغذاء يُقصد منه البقاء على قيد الحياة؛ فإذا كان أكثر السكان يعملون في الزراعة، فمعنى ذلك أنهم يكافحون من أجل البقاء، ليس أكثر. والفقراء ينفقون ما بين ٥٠ إلى ٧٠٪ من دخلهم على الغذاء، على حين أن هذه النسبة تقل كثيراً لدى الأغنياء، حيث تكون متطلبات الرقي أكثر، وتستلزم إنفاقاً أكبر.

إن حصة الفرد من الأرض الزراعية تبلغ اليوم نحواً من ٢٨٠٠ متر. وبسبب النمو السكاني العالمي فإن هذه الحصة تنخفض إلى ١٧٠٠ متر حتى عام ٢٠٢٥، وسوف تنحسر حصة الفرد الآسيوي إلى نحو ٩٠٠ متر فقط[2].

وتذكر بعض الدراسات التقديرية أن في العالم الإسلامي أكثر من أربعمائة مليون فدان مزروعة في مناطق مناخية مختلفة. وتشكل هذه المساحة نحواً من ١١٪ من مساحة الأرض المزروعة في العالم. كما أن في العالم الإسلامي نحواً من ٣٩٤ مليون هكتار من الغابات. وهي تشكل ٧/٩٪ من مساحات الغابات في العالم. وهناك أراضٍ كثيرة صالحة للزراعة في دول مثل باكستان والسودان والعراق وأندنوسيا[3].

إن الزراعة بالنسبة للعالم الإسلامي تمثل قضية هامة جداً؛ إذ إن الزيادة السكانية فيه تتزايد بنسب عالية جداً؛ إذا قيست بباقي دول العالم، ومن ثم فإن عدم تحقيق الكفاية الغذائية سيجعل الشعوب المسلمة تخضع للابتزاز والاستغلال من قبل الدول التي تصدِّر الغذاء، والتي أخذت تلوِّح به باعتباره أداة استعمارية جديدة!.

إن الناس يزيدون، لكن الأرض لا تزيد، ومن ثم فإن تحقيق الاكتفاء الغذائي، سيعتمد من الآن فصاعداً على التقدم العلمي في مجال الهندسة

---

(١) فقر الشعوب: ٤٢. وفي فتح الباري ٥: ٤ باب: ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به.

(٢) الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: ٩٧.

(٣) قضية التخلف العلمي والتقني: ١٣٣.

الوراثية، وتحلية المياه، وصناعة المبيدات والأسمدة، وتحسين نظم الري والتغليف والتبريد والتخزين وهذا يعني أن الدول الصناعية أكبر قدرة على تحقيق التقدم في مجال الزراعة. وإذا أراد المسلمون أن يؤمنوا لأطفالهم الحاجات الأساسية من الغذاء، فإن عليهم أن يكثفوا من الدراسات والبحوث والتجارب المتعلقة بتحسين الزراعة، وإلا فإن المستقبل يدعو إلى القلق!.

آفاق المستقبل:

لا شك أن أفضل الأراضي في العالم الإسلامي قد تمت زراعته. والمتبقي منها إما يحتاج إلى مياه للسقي، وإما يحتاج إلى استصلاح وبعضها لا يشكو من أي هاتين المشكلتين، لكنه أُهمل نظراً لعدم الحاجة إلى منتوجاته، أو عدم القدرة على نقلها وتسويقها[1].

ومن هنا فإن التقدم الرحب في الزراعة سيظل رأسياً، ومعتمداً على التقدم في المجالات الأخرى الصناعية والتسويقية، بل والسياسية والاجتماعية؛ مما يصح معه القول: إن التقدم الزراعي يمكن أن يكون مرآة صادقة للتحضر العام لأية أمة من الأمم!.

إن الأزمات الغذائية الآخذة في التفاقم، قد تمنحنا فرصاً جديدة لإعادة التفكير في القطاع الزراعي، وتدعيمه، وإعادة تنظيمه. وفي هذا السياق يمكن أن نقول:

- إن حب الناس لأرضهم شيء فطري، لكن في زماننا هذا حدثت تغيرات هائلة حيال كثير من المقدسات، وصار مركز حب الأشياء العقل لا القلب!

ومن هنا فإن الناس لن يزرعوا أرضهم، ولن يسكنوها ما لم يشعروا أن الزراعة تؤمِّن لهم الحد الأدنى من شروط العيش الكريم؛ وهذا يتطلب في

---

(١) تختلف الكثافة السكانية من دولة إسلامية إلى أخرى اختلافاً كبيراً. ونظراً لضعف التنسيق بين البلاد الإسلامية فإنه لا تتم استفادة الشعوب بعضها من أراضي بعض.

الحقيقة أن تقوم الدولة بمساعدتهم، بتأمين البذور الجيدة، وإرشادهم إلى الطرق الجديدة في الزراعة، وحماية منتجاتهم من أن تتدهور أسعارها؛ وذلك بتغطية الفارق بين سعر السوق والسعر المجزي الذي يُنصفهم.

ولا بد من تمكين المزارعين من تنظيم أنفسهم وإتاحة الفرصة لهم للدفاع عن حقوقهم، كما هو الشأن في كثير من بلدان العالم.

ـ يجب أن تقوم الصناعة بخدمة الزراعة؛ إذ إن كثيراً من وسائط الري والحراثة والقطاف والحصاد والتخزين يتم بطرق بدائية جداً؛ مما يترتب عليه قلة في المحاصيل، وهدر في كثير منها. في بعض الدول المياه متوفرة، لكن لا توجد طاقة لرفعها، ومن السهل إنشاء مصنع بسيط لدواليب الهواء، من أجل رفع الماء ـ مثلاً ـ، وفي أماكن أخرى المياه شحيحة، وأساليب الري بدائية؛ فيمكن إعانة المزارعين بمدهم بأجهزة ري عن طريق الرش أو التنقيط، أو صب طبقة من (البلاستك) تحت التربة، حتى لا يصل الماء إلى الأرض السابعة (!) دون أن يستفاد منه.

ويعاني الناس في أكثر البلدان الإسلامية من هبوط أسعار منتجاتهم وقت المواسم، ولا سيما الخضار والفاكهة. والحل هو مصانع التعليب وإنشاء الثلاجات لحفظ ما يمكن حفظه؛ ليباع في أوقات أخرى. والمزارع الفقير الأمي لا يستطيع أن يقوم بشيء من ذلك؛ فهو بحاجة إلى مساعدة الدولة. والأولى أن يتم إنشاء جمعيات مساهمة، ويمكن للدولة أن تقدم لها الدعم والمشورة. وهكذا فالقطاع الزراعي عاجز عن الارتقاء بنفسه ما لم تمد له يد العون من القطاع الصناعي والتجاري.

ـ إن الزراعة أكبر من أن تترك للمزارعين، وإن بإمكان أعداد كبيرة من الناس أن يزرعوا في الشرفات وعلى أسطح المنازل، وفي الأرض الفضاء في المدن، وفي الدور وفي القرى. وإن الحياة الحضرية لدينا غدت جرداء مشوَّهة، حيث تحولت المدن إلى غابات من الإسمنت المسلح، وفقدت كل معاني الحياة!.

ـ لا بد من العودة ـ قدر الإمكان ـ إلى التقاليد القديمة، حيث كان المزارع يؤمن كفايته من اللحوم والخضروات والفاكهة والبيض والصوف ومشتقات الألبان، ولا يحتاج إلا إلى شراء أشياء قليلة جداً. وإن تقدم أساليب الزراعة يمكِّن الناس من سد حاجاتهم اليومية من الخضار من مساحة قد لا تزيد على مئة متر[١]. ولذلك فوائد كثيرة جداً. ويمتلك العالم اليوم خبرات كثيرة في هذا المجال.

ـ الهندسة الجينية قد تكون شراً مستطيراً، إذا ما تم التمادي في بحوثها وتطبيقاتها على الإنسان، لكنها تَعِد بأعظم النتائج في المجال الزراعي. ومن حسن الفأل أن هناك اليوم فرعين من فروع المعرفة، لا يحتاجان إلى العتاد، بمقدار حاجتهما إلى العنصر البشري، وهما (المعلوماتية) و (الهندسة الجينية) وفي إمكان الدولة الإسلامية أن تجعل من أكداس الباحثين والخريجين جيوشاً تبحث في هذين الفرعين الخطيرين، ولكن بشرط أن تبصر طريقها، وتعي الفرص المتاحة أمامها[٢].

وقد قامت المجموعة الاستشارية للبحث الزراعي الدولي بتأسيس عشرة مراكز، يركز كل مركز منها على نوع من المحاصيل. والمركز (سيات) في كولومبيا مخصص للزراعة المدارية. ويهدف هذا المركز إلى الكشف عن نوع رخيص من التقنية التي تحتاج إلى كثافة عمالية، وتناسب الظروف الاقتصادية للمزارع الصغيرة وإنجازات هذا المركز كثيرة جداً، ومتنوعة، منها أنه استنبت نوعاً من البذور التي تصلح للتربة القلوية، بدل تغيير قلويتها بكيماويات كثيرة، كما نجح في تحقيق هدفه في إيجاد (بروتين) رخيص من البقول، كاللوبيا والفاصوليا والفول، وسعرات حرارية رخيصة من الكسافا. وقد أصبح

---

(١) بإمكان بذرة واحدة مهجنة من بذور الخيار أن تعطي ٢٥ كغ من الخيار. وبإمكان بذرة واحدة من بذور الطماطم أن تعطي ٢٠٠ كغ منها!!.

(٢) عرف اليهود الغاصبون ندرة الثروات الطبيعية في فلسطين المحتلة، فاتجهوا إلى تكثيف العمل في هذين الفرعين اللذين يعتمدان ـ كما قلنا ـ على العنصر البشري، وهم يحتلون الآن مواقع عالمية فيهما!.

لدى المركز بنك للجينات فيه ١٢٠٠٠ نوع من البقوليات، من أجل تهجين صفات أخرى حسب الطلب.

وابتكر المعهد الدولي لبحوث (الأرز) في الفلبين سلالات تتحمل الجفاف، وأخرى تتحمل تربة المستنقعات المالحة، وتتحمل نظم الري في مناطق الجفاف.

واكتشف المعهد الدولي للبطاطس في (ليما) أنواعاً من البطاطس تنضج في مائة يوم؛ بما يقل عن المدة العادية بخمسين إلى ثمانين يوماً. كما اكتشف أنواعاً أخرى يمكن أن تنمو في الأراضي المنخفضة المدارية في ستين يوماً[١].

إن حمل الناس على الاستفادة من الإمكانات الزراعية المتاحة لا يتم بسهولة، كما أن تشغيل الباحثين يحتاج إلى الأطر التي تسهل لهم سبل البحث، وتضع لهم البرامج، وإن تعاوناً حكومياً شعبياً مكثفاً، يمكنه أن يفعل الكثير!.

ـ قد لا ينتبه كثير من الناس إلى أن الأرض تتفتت باستمرار؛ فإذا كان زيد من الناس يملك اليوم عشرة أفدنة، ورزق خمسة من الولد؛ فإنه بعد ثلاثين سنة سيكون على هذه الأفدنة أن تعول ست عوائل، وكل فرد من هذه العوائل إذا أحياه الله ـ تعالى ـ سيكوِّن عائلة بعد ثلاثين سنة أخرى وهكذا. . . .

وهذا يعني أنه مهما حدث من تقدم في الزراعة، فإن الناس في الريف بحاجة إلى مصادر أخرى للرزق، وما لم تتوفر لهم، فإنهم لا يستطيعون الاستمرار في العيش فيه. ولذا فلا بد للمزارعين من مشاريع صغيرة مساندة، تمتص الأيدي العاملة الجديدة، وتمتص البطالة الموسمية التي قد تصل إلى ١٨٠ يوماً في السنة!

(١) انظر: تفصيلات أكثر في: العالم الثالث غداً: ٨١ وما بعدها.

إن المشروبات الريفية يجب أن تتمحور حول المواد الأولية الموجودة في الريف، وحول ما يمكن تربيته فيه من نحو مزارع الأسماك وخلايا النحل ومعاصر الزيتون، ومصانع لتجفيف الفاكهة، ومصانع للألبان والأجبان واللحوم، وتعليب الفاكهة والخضار، ومصانع صغيرة لإنتاج الأحذية والصوف، ومصانع لإنتاج الآلات الزراعية البسيطة.

وإن على الدولة أن تقدم القروض الميسَّرة السداد، من أجل دعم تلك المشاريع، ولو حسبت كل دولة ما تكلفها الهجرة من الريف إلى المدينة، وما تسببه من خسارة مادية وعطالة وتفكك اجتماعي، لوجدت أن ما تنفقه لدعم بقاء الناس في قراها أقل بكثير مما تنفقه لتلافي آثار الهجرة العشوائية المقيتة!.

٦ ـ لا مكان للصغار في عصر الكبار:

الاقتصاد هو ما تبقى من السياسة اليوم؛ والدول التي لم تنجح في إقامة علاقات اقتصادية جيدة فيما بينها، لا تستطيع إقامة علاقات سياسية فاعلة؛ لأن الاقتصاد والتجارة والمال والتنافس على الأسواق الدولية، والمواد الأولية الرخيصة هي الصخرة التي يمكن أن تتحطم عليها كل التقاربات السياسية، وكل أشكال التنسيق في المحافل الإقليمية والدولية. فالمحك النهائي للتعاون والتناصر في هذه الأيام، محك اقتصادي قبل أي شيء آخر.

إن المنطق السليم يقرر أن التحديات الكونية يجب أن تواجَه بجهود كونية، وتعاون المسلمين مع بعضهم هو من هذا القبيل؛ فالعالم الغربي المتربص بالشعوب المستضعَفة، ينظر إلى العالم الإسلامي على أنه بنية ثقافية واحدة، ومن ثم فإن المعايير التي تمَّ إرساؤها للتعامل مع دوله هي معايير متقاربة. وما اختلفت دولة إسلامية مع دولة غير إسلامية إلا وقف الغرب إلى جانب الدولة غير المسلمة.

إن العالم الإسلامي حين يكون متفرقاً في عالم مجزّأ، فإن الأضرار التي تعود عليه من وراء ذلك تكون أخف وطأة، لكن حين يتمزق في وقت

يجري فيه السعي الحثيث إلى تكتلات تجمع الدول القوية[(١)]؛ فإن الأخطار التي تهدد مصالح المسلمين ستكون آنذاك جسيمة!

من الواضح أن بإمكان التجمعات الكبرى ـ كالسوق الأوربية المشتركة ـ أن تمارس ضغوطاً هائلة على العالم الإسلامي في مجالات كثيرة، مثل أسعار المواد الخام، وأسعار الآلات والمصنوعات التي نشتريها منهم؛ كما أن بإمكانها أن تضع القيود التي تناسبها على تدفق العمالة المسلمة. . .

لقد بات من المؤكد اليوم أن من العسير على الدول الصغرى أن تهيمن على شؤونها الخاصة، حيث حواشي المناورة أمامها دائماً محدودة، وأسواقها الداخلية أيضاً محدودة. وهي لا تستطيع أن تفتح أسواقاً عالمية لمنتجاتها بسبب ضآلة تلك المنتجات، ولا تستطيع تطويرها بالصورة المناسبة؛ لأن ذلك يتطلب إنفاقاً مكثفاً على البحث العلمي. . . وهذا كله لا يتأتى للدول الصغرى. وليس من الشاذ ألا نرى اليوم أية دولة عظمى يقل عدد سكانها عن خمسين مليون نسمة، ومع هذا فالدول العظمى كلها داخلة في أحلاف وتجمعات فعّالة، تزيدها قوة إلى قوتها!

إن كل نوع من المشاريع له طاقة إنتاجية مثالية، فإذا قل عنها كانت منتجاته أكثر كلفة. وعلى سبيل المثال فإن مجمعاً حديثاً للتعدين، وذا دورة إنتاجية كاملة، تكون الصورة المثالية لطاقته الإنتاجية هي أربعة ملايين طن من الحديد الزهر، وخمسة ملايين طن صلب في السنة. وبالنسبة لمصنع إسمنت حديث فإن الطاقة الإنتاجية المناسبة له هي مليون طن سنوياً. وفي إنتاج سيارات الركوب ٦٠٠ ألف وحدة. وبالنسبة لسيارات الشحن والجرارات في حدود ١٠٠ ألف وحدة[(٢)].

فإذا كانت السوق الداخلية محدودة، ولم تكن هذه الصناعات عالية

(١) فصّلنا في كتاب (نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي) القول عن بعض تلك التكتلات انظر: ص١٧٧ منه.

(٢) انظر وتفصيلات أخرى في أهمية التصنيع: ٩١.

الجودة ورخيصة التكلفة، فإن إنتاجها سيتكبد خسائر، لا يقوى معها على الاستمرار!

إن التفاوت الذي نلمسه بين دولة إسلامية وأخرى كان لدى ولايات كثيرة في العالم، ثم استطاعت أن تشكل فيما بعد دولاً كاملة، فقد كانت الدويلات الألمانية كذلك، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية كذلك، ثم زالت الفوارق والمعوقات[1]. شيء من التضحيات مطلوب على المدى القريب من أجل الوحدة، لكن الثمار اليانعة سوف يقطفها الجميع فيما بعد. والمسألة من قبل هذا، ومن بعده مسألة مبدأ. والحسابات النفعية لا تُعطى أهمية كبرى في مجال المبادئ، وإنما يجري التحايل عليها، وتأويلها في سبيل الامتثال لما يجب أن يكون!

حدود التعاون الممكن:

إن من غير الممكن الآن تشكيل تكتل اقتصادي إسلامي على مستوى العالم؛ لأسباب كثيرة، لا داعي لتعدادها. وفي كثير من الأحيان يجد المرء نفسه عاجزاً حيال قضايا كثيرة؛ لكنه إذا قال: ماذا يمكن أن أعمل حيال المشكلات والصعوبات الكثيرة خلال عشرين عاماً، لوجد أنه يستطيع عمل أشياء كثيرة جداً!

وأود أن أؤكد أنه من الصعب إنجاز أشياء كثيرة في تحقيق التعاون الإسلامي بعيداً عن الشعوب الإسلامية؛ فالحمل الذي يتم خارج رحم الأمة هو حمل كاذب!

وإن علينا أن نعترف أننا لم نقم بواجبنا ـ ولا على مستوى من المستويات ـ تجاه تأسيس ثقافة تفضّل السياحة في ديار المسلمين، والتعرف عليها. كما أننا لم نفعل شيئاً ذا قيمة تجاه تفضيل استهلاك المنتجات

(١) أنفقت ألمانيا الغربية نحواً من ٤٠٠ مليار مارك على عمليات التوحيد بين شطري ألمانيا. وهذا نموذج لما يمكن أن يُفعل من أجل المبدأ والتاريخ والقرابة واللغة!

الإسلامية، وإن كانت أقل جودة من غيرها؛ وما ذلك إلا لأننا لا نمتلك الوعي المناسب بخطورة نظام التجارة، وقدرته على اكتساح كل النظم!

وأيضاً فإن جاذبية الغرب للصفوة فينا أقوى بكثير من جاذبية البلدان الإسلامية؛ ومن ثم فإن الولاء للمسلمين لم يتشخص في أي تحركات عملية وتبادلية، بل ظل عبارة عن مقولات ومشاعر!!.

إن هناك إمكانات هائلة للتعاون بين المسلمين حكومات وشعوباً، بشرط أن يُنظر إلى القضية على أنها قضية مبدأ ومصير في آن واحد. ومن تلك الإمكانات:

أ ـ هناك جهل عريض لدى المسلم بأحوال إخوانه المسلمين(١)، وجهل بالميزات والفرص والإمكانات الاقتصادية المتوفرة في بلاد الإسلام. وإن بإمكان الجامعات والغرف التجارية والصناعية والاتحادات المهنية أن تقوم بالدراسات والبحوث والمسوحات التي تكشف عن الإمكانات والميزات في كل بلد إسلامي سواء أكانت صناعية أم تجارية أم خدمية، وأن تعمم نوعاً من الثقافة الاقتصادية.

كما أن بإمكان تلك المؤسسات إلى جانب الجمعيات والجماعات والأندية أن تنظم رحلات استكشافية وسياحية، الغرض منها التعارف وبناء الجسور بين رجالات الأعمال المسلمين.

إن أمة الإسلام لن تنجز الكثير، مالم يشعر كل مسلم أن بإمكانه أن يصنع شيئاً ولو كان استهلاكاً لسلعة صُنعت في بلد إسلامي، أو نشر معلومة تتعلق به، أو لفت الأنظار إلى مشكلة يواجهها. . . .

ب ـ إن العالم الإسلامي متنوع الإمكانات والميزات والمناخات؛ وإن لكثيرٍ من البلدان الإسلامية ميزات ظاهرة، تشبه التخصص، ويمكن لها من

---

(١) يمثل الغرب قلب العالم، وتمثل الدول الفقيرة والنامية أطرافه وحواشيه وإن كل الأطراف مشدودة إلى القلب في كل شيء أما علاقات الأطراف بعضها مع بعض فهي معدومة أو شكلية أو ضعيفة!.

خلال التعاون مع البلدان الإسلامية أن تسد حاجات كثيرة، وأن تسهم في النهضة الاقتصادية الإسلامية الشاملة.

إن أندنوسيا وماليزيا من الدول التي تستطيع تنمية صناعات مهمة، مثل صناعة الورق والإلكترونيات والطائرات إذا وجدتا التعاون من قبل الدول الإسلامية بالإقبال على شراء مصنوعاتهما، وتمويل بعض المشروعات فيهما.

وإن من الممكن جعل السودان مصدراً للغذاء لدول أخرى عديدة، لكنه بحاجة إلى المعونة الفنية والمالية لاستثمار الإمكانات الهائلة التي لديه.

وإن بإمكان دول الخليج أن تقدم خبرات ممتازة، وتقود مشاريع عملاقة في مجال صناعة النفط وتسويقه، كما أنه يمكن لبعضها أن يساهم في تمويل مشروعات إنمائية في دول إسلامية أخرى.

ومن غير التكاتف لتوسيع السوق الإسلامية وتعاونها لا يمكن لخيرات الأمة أن تُنمى، ويستفاد منها على الوجه المطلوب.

جـ - إن أسرار التقنية عند مستوياتها العليا لا تباع ولا تشرى؛ لأن الوصول إليها مكلف للغاية. وإن كثيراً من الدول الإسلامية مشغول بصرف ما لديه من إمكانات على التوسع في التعليم ومحو الأمية لمواجهة الزيادة السكانية. وهي لا تملك الأموال الكافية للإنفاق على البحث العلمي(١). ونحن نعتقد أن البطالة سوف تزداد، والأزمات ستتفاقم، ما لم يتم القيام بخطوات جريئة، أهمها زيادة الإنفاق على البحث العلمي، من أجل فتح الأبواب والمسارات أمام التقدم الصناعي. ومن هنا فإن بإمكان المسلمين أن يأسسوا مراكز أبحاث ضخمة متخصصة، تساهم فيها الدول الإسلامية مجتمعة أو متفرقة، ثم توزع نتائجها على الدول جميعها بأسعار تشجيعية وبحسب درجة المشاركة فيها.

---

(١) إن اكتشاف علاج وتصنيع دواء قد يكلف مليار دولار؛ وهذا يساوي ميزانية دولة صغيرة لمدة عام.

وإن من أهم مراكز الأبحاث التي نحتاجها مركزاً للبحث في تقنيات تحلية مياه البحر، وآخر للاستفادة من مصادر الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح. . . . ومركزاً للبحث في (الهندسة الجينية) واستنبات وتهجين بذور جديدة تلائم الظروف المناخية الصعبة، ومركزاً للمعلومات والبرمجة، ومركزاً للمواد الجديدة، وآخر للتحكم عن بُعد والأشعة. . . .

وأعتقد أن هذه القضية بالغة الخطورة والأهمية، وهي لا تحتاج إلى تكاليف كثيرة إذا ما اشترك في إقامتها عدد من الدول. إنما الذي نحتاجه دائماً في مثل هذا الوعي والاهتمام والعزيمة!.

د ـ لا بد لتحسين التعاون الإسلامي في إيجاد ظروف جديدة، تجعل الناس يندفعون إلى التعاون بصورة آلية؛ فحين تمنح دولةٌ أخرى سمة (الدولة الأولى بالرعاية) كما تفعل أمريكا مع الصين مثلاً؛ فإن ذلك يدفع الناس في الدولتين إلى التعامل والتبادل من أجل جني الثمار التي تعود عليهم. وحين تقام منطقة حرة على الحدود بين دولتين، أو تزال الحواجز الجمركية، أو توحَّد التعرفة الجمركية، فإن ذلك كله يدفع الحركة التجارية والصناعية والخدمية إلى الأمام دون الحاجة إلى تذكير الناس بأهمية التعاون؛ حيث المادي أسهل في اللمس من المعنوي!.

إن هناك الكثير من الاقتراحات التي يمكن أن تقال في هذا الصدد، وقد قيل من قبل الكثير. وهناك أمل كبير في أن تتحسَّن الأحوال في المستقبل، ويكتشف المسلمون أن العون الصادق لن يتلقاه المسلم إلا من المسلم. والله حسبنا.

خاتمة

تحدثنا في هذا الكتاب عن ستة أنواع من التنمية، وهذا ليس مألوفاً في أسلوب البحث والتأليف؛ لكن الذي دفعنا إلى هذا هو إيماننا العميق بأن الناس اليوم بحاجة إلى قاعدة من المعلومات والمفاهيم والأفكار التي تمكنهم من رؤية جيدة، وشاملة لمجمل الواقع المحلي والعالمي، وتمكنهم من العثور على بعض الطرق والآليات التي تساعدهم على الدفع بأحوالهم العامة خطوةً إلى الأمام.

إن العصر الذي نعيش فيه عصر معقد إلى أبعد الحدود، وإن الطروحات التي ينبغي أن تعالج مشكلاته، لا بد أن تشتمل على حلول مركبة من عناصر مختلفة، وفي اعتقادي أن هذا الكتاب جهد متواضع في إيجاد بنية ثقافية عميقة، تسمح برؤية متعددة الأبعاد، وتنطلق نحو استخدام واسع المدى لإمكانات وأدوات منوَّعه تنويعاً كثيراً.

إن هناك أشياء كثيرة يجب أن تقال، لكن لأسباب عديدة لم أذكرها وأملي أن يتجاوز القارئ الطاقة اللغوية لهذه الحروف الصغيرة نحو الظلال والإيحاءات، وما بين السطور.

إن الموضوعات التي عالجتها ضخمة ومتنوعة، ومن ثم فإن إمكانات الخطأ والوهم وسوء التقدير ستظل واردة. وأسأل الله ـ جل وعلا ـ المثوبة على الصواب والتجاوز عن الخطأ والقصور؛ إنه المؤمَّل والمرتجى؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين؛ والحمد لله رب العالمين.

الفهارس

جريدة المراجع

١ ـ اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية تأليف د. ماجد الكيلاني. عمّان ـ دار البشير ط أولى ١٩٩٢.

٢ ـ أثر تطبيق النظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع ـ مجموعة بحوث قدمت إلى مؤتمر الفقه الإسلامي الأول في الرياض. نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ إدرة الثقافة والنشر.

٣ ـ أثر تقنيات التعلم على الذكاء. تأليف د. فائز الحاج. الرياض ـ دار الهدى ط أولى عام ١٩٩٥.

٤ ـ الأخلاق النظرية تأليف د. عبد الرحمن بدوي. الكويت ـ وكالة المطبوعات ط ثانية عام ١٩٧٦.

٥ ـ الأخلاق والحياة الاقتصادية تأليف (فرانسوا سليه) ترجمة د. عادل العوّا. بيروت ـ باريس ـ منشورات عويدات ط ثانية عام ١٤٠٩.

٦ ـ إدارة التنمية تأليف (جورج ف جانت) ترجمة منير موسى. القاهرة ـ دار المعارف.

٧ ـ الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة تأليف. د. رمزي زكي. بيروت ـ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط أولى ١٤٠٦.

٨ ـ الاستعداد للقرن الحادي والعشرين تأليف (بول كنيدي) ترجمة محمد عبد القادر وغازي مسعود. عمّان ـ دار الشرق عام ١٩٩٣.

٩ ـ أسس لإعادة البناء الاجتماعي تأليف (برتراند راسل) ترجمة د. إبراهيم النجار. بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٤٠٧.

١٠ ـ الإسلام كبديل تأليف د. (مراد هوفمان) نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا عام ١٩٩٣.

١١ ـ الإسلام والتنمية الاقتصادية تأليف د. شوقي دنيا. القاهرة ـ دار الفكر العربي ط أولى ١٩٧٩.

١٢ ـ أضواء على الاقتصاديات العربية تأليف عدنان بسيسو. القاهرة ـ دار العرب ط أولى عام ١٩٩٢.

١٣ ـ اغتيال العقل تأليف د. برهان غليون. بيروت ـ دار التنوير ط ثانية عام ١٩٨٧.
١٤ ـ اقتصادنا تأليف محمد باقر الصدر. بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ط عام ١٣٩٨.
١٥ ـ اقرأ وربك الأكرم تأليف جودت سعيد. دمشق ط أولى عام ١٤٠٨.
١٦ ـ الأموال للقاسم بن سلام. تحقيق محمد خليل هراس. قطر ـ إدارة إحياء التراث الإسلامي.
١٧ ـ الإنسان ذلك المجهول تأليف (ألكسيس كاريل). ترجمة شفيق فريد. بيروت ـ مكتبة المعارف ط ثالثة عام ١٩٨٠.
١٨ ـ إنسانية الإنسان تأليف (رينيه دوبو) ترجمة د نبيل الطويل. بيروت ـ مؤسسة الرسالة ط ثانية عام ١٤٠٤.
١٩ ـ أهمية التصنيع لعملية التنمية العربية تأليف د. عبد الهادي يموت. بيروت ـ معهد الإنماء العربي ط أولى عام ١٩٨٤.
٢٠ ـ البشرية في مفترق الطرق تأليف (إدوارد بستيل) وزميله ترجمة د حسين عمر وزميله. جدة ـ عكاظ للنشر عام ١٤٠٣.
٢١ ـ بنية التخلف تأليف إبراهيم البليهي. الرياض سلسلة كتاب الرياض ـ العدد السادس عام ١٩٩٥.
٢٢ ـ تحسين التفكير بطريقة القبَّعات الست تأليف (إدوارد دوبونو) ترجمة د. عبد اللطيف الخياط. مكة المكرمة ـ المكتبة المكية. ط أولى عام ١٤١٤.
٢٣ ـ تحضير الطفل العربي لعام ألفين. تأليف د. محمد عماد زكي. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٠.
٢٤ ـ التدريس من أجل تنمية التفكير. حرره (جيمس كييف وهربرت ويلبرج) ترجمة د. عبد العزيز البابطين. الرياض ـ مكتب التربية لدول الخليج عام ١٤١٦.
٢٥ ـ التربية والتقدم الاجتماعي والاقتصادي للدول النامية تأليف (جون و. هانسون) ترجمة محمد لبيب النجيحي. القاهرة ـ دار نهضة مصر. عام ١٩٧٦.
٢٦ ـ التطورات الاقتصادية والسياسية في الوطن العربي تأليف إلياس توما. ترجمة عبد الوهاب الأمين. الكويت ـ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط أولى عام ١٤٠٧.
٢٧ ـ التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. تأليف د. علي القريشي ـ القاهرة ـ الزهراء للإعلام العربي. ط أولى عام ١٤٠٩.
٢٨ ـ تعليم التفكير تأليف. د. (إدوارد دوبونو) ترجمة د. عادل ياسين وزميليه. الكويت مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط أولى ١٩٨٩.
٢٩ ـ تكوين العقل العربي تأليف د. محمد عابد الجابري. بيروت ـ دار الطليعة ط أولى.

٣٠ ـ تنمية الإبداع تأليف د. زين العابدين درويش. القاهرة ـ دار المعارف أولى عام ١٩٨٣.
٣١ ـ التنمية التكنلوجية: مفهومها ومتطلباتها. د. يعقوب العبيد. الكويت ـ الدار الدولية للنشر ط أولى ١٩٨٩.
٣٢ ـ التنمية الثقافية تأليف لفيف من خبراء اليونسكو. ترجمة سليم مكسور. بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط أولى عام ١٩٨٣.
٣٣ ـ التنمية والتخلف في العالم العربي. د. فؤاد حيدر. بيروت ـ دار الفكر العربي ط أولى عام ١٩٩٠.
٣٤ ـ ثقب في جدار التخلف تأليف د. محمود سفر. الرياض ـ دار الصافي للثقافة والنشر. ط أولى عام ١٤١٠.
٣٥ ـ حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي. بقلم مجموعة من الخبراء. ترجمة د. عبد السلام رضوان. الكويت سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٥٠ عام ١٤١٠.
٣٦ ـ حركة النفس الزكية. تأليف محمد العبدة. الكويت ـ دار الأرقم ط ثانية عام ١٤٠٦.
٣٧ ـ الحرمان والتخلف في ديار المسلمين تأليف د. نبيل الطويل. قطر ـ سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٤.
٣٨ ـ حول الخيار الديموقراطي. بقلم مجموعة من الباحثين. بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربية ط أولى عام ١٩٩٤.
٣٩ ـ دراسات في المجتمع والثقافة والشخصية. تأليف د. علي جلبي. بيروت ـ دار النهضة العربية عام ١٤٠٤.
٤٠ ـ دليل التدريب القيادي تأليف د. هشام الطالب. المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٤١٤.
٤١ ـ سيكلوجية السعادة تأليف (مايكل أرجايل) ترجمة فيصل يونس. الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٧٥ عام ١٤١٤.
٤٢ ـ الشفاهية والكتابية. تأليف (والتر ج. أونج) ترجمة د. حسن عز الدين الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٨٢ عام ١٤١٤.
٤٣ ـ الطريق إلى المعجزة الاقتصادية. تأليف د. أحمد علي دغيم. القاهرة ـ الشركة العربية للنشر عام ١٩٩٤.
٤٤ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام. تأليف صالح أحمد الشامي. بيروت ـ المكتب الإسلامي ط أولى عام ١٤٠٧.
٤٥ ـ العادات السبع للقادة الإداريين. تأليف (ستيفن كوفي) ترجمة هشام عبد الله. بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٩٩٥.

٤٦ ـ العالم الثالث غداً تأليف (بول هاريسون) ترجمة مصطفى عبد الرازق. الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٢.
٤٧ ـ العبقرية والإبداع والقيادة. تأليف (دين كيث سايمنتن) ترجمة د. شاكر عبد الحميد. الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٧٦ عام ١٤١٤.
٤٨ ـ علم اجتماع التنمية ـ دراسة في اجتماعيات العالم الثالث. تأليف د. نبيل السمالوطي. بيروت ـ دار النهضة العربية ط ثانية عام ١٩٨١.
٤٩ ـ علم اجتماع المعرفة. تأليف د. نبيل رمزي. الإسكندرية ـ دار الفكر الجامعي ط أولى.
٥٠ ـ عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة. تأليف (جان ماري بيلت) ترجمة السيد محمد عثمان. الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة ـ العدد ١٨٩ عام ١٤١٥.
٥١ ـ الغذاء والدواء في عالم المسلمين الفقراء. تأليف د. نبيل الطويل. بيروت. مؤسسة الرسالة.
٥٢ ـ الغرب وأسباب ثرائه تأليف (ناثان روز نبرج) وزميله. ترجمة صليب بطرس. القاهرة ـ دار الفكر العربي.
٥٣ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني. القاهرة ـ المطبعة السلفية.
٥٤ ـ فتح القدير للشوكاني. بيروت ـ دار المعرفة.
٥٥ ـ الفروق الفردية. تأليف كمال سيسالم. القاهرة ـ مكتبة الصفحات الذهبية. ط أولى ١٤٠٨.
٥٦ ـ فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي. تأليف د. حمدي عبد العظيم عام ١٤١٥.
٥٧ ـ الفقر والبيئة تأليف (ألن ب وننج). ترجمة د. محمد صابر القاهرة ـ الدار الدولية للنشر عام ١٩٩١.
٥٨ ـ الفقه الإسلامي وأدلته. تأليف د. وهبة الزحيلي دمشق ـ دار الفكر ط ثانية عام ١٤٠٥.
٥٩ ـ فقه الدعوة ـ حوارات مع عدد من المفكرين تحرير عمر عبيد حسنة. قطر. سلسلة كتاب الأمة. ط أولى ١٤٠٨.
٦٠ ـ فقه السنة. تأليف سيد سابق. بيروت ـ دار الكتاب العربي ط سابعة عام ١٩٨٥.
٦١ ـ فلسفة لتنمية جديدة تأليف (فرانسوا بيرو) تقديم علال سيناصر. بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط أولى عام ١٩٨٣.
٦٢ ـ في النقد الذاتي تأليف د. خالص جلبي. بيروت ـ مؤسسة الرسالة ط ثانية عام ١٤٠٥.

٦٣ - القراءة أولاً تأليف محمد عدنان سالم. دمشق - دار الفكر ط أولى عام ١٤١٤.
٦٤ - قضايا التجديد تأليف د. حسن الترابي. الخرطوم - معهد البحوث والدراسات الاجتماعية ط أولى عام ١٤١١.
٦٥ - قضايا التنمية في الوطن العربي تأليف. د. إبراهيم بدران وزملائه. عمّان - دار الفكر ط أولى عام ١٩٨٩.
٦٦ - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر تأليف د. زغلول النجار. قطر - سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٩.
٦٧ - القيادة والتغيير تأليف بشير شكيب الجابري جدة - دار حافظ ط أولى عام ١٤١٤.
٦٨ - اللغة والتفسير والتواصل تأليف. د. مصطفى ناصف. قطر - سلسلة عالم المعرفة - العدد: ١٩٣ عام ١٤١٥.
٦٩ - المأزق العربي بقلم مجموعة من الكتاب. تحرير لطفي الخولي. القاهرة - مركز الأهرام للترجمة والنشر. ط أولى ١٩٨٦.
٧٠ - المجتمع الصناعي تأليف (ريمون آرون) ترجمة (فكتور باسيل). بيروت - باريس - منشورات عويدات ط ثالثة عام ١٩٨٣.
٧١ - مختصر دراسة التاريخ تأليف (أرنولد توينبي) ترجمة فؤاد شبل القاهرة - ط أولى عام ١٩٦٠.
٧٢ - المدرَك والغامض تأليف. د. مختار بدر القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٥.
٧٣ - المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري تأليف د. محسن عبد الحميد. قطر - سلسلة كتاب الأمة ط أولى عام ١٤٠٤.
٧٤ - مستقبلنا المشترك إعداد اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة د. محمد عارف. الكويت - سلسلة عالم المعرفة ط أولى عام ١٤١٠.
٧٥ - المعجم الوسيط إعداد لجنة بإشراف مجمع اللغة العربية في القاهرة - دار الفكر.
٧٦ - المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة تأليف زيد الرماني مكة المكرمة - سلسلة دعوة الحق - العدد ١٥٣ ط أولى عام ١٤١٥.
٧٧ - مقدمة ابن خلدون تحقيق المستشرق (كاتر مير) بيروت - مكتبة لبنان عام ١٣٩٠.
٧٨ - الموافقات للشاطبي. بيروت - دار الكتب العلمية ط أولى عام ١٤١١.
٧٩ - نحو مشروع حضاري عربي وقائع ندوة الأهرام تحرير محمود مراد. القاهرة - وكالة الأهرام للنشر ط أولى عام ١٩٩٤.
٨٠ - نحو مفهوم أفضل للتنمية تأليف د. يوسف الحلباوي وعبد خرابشة. بيروت - مؤسسة الرسالة ط أولى عام ١٤٠٩.

٨١ ـ نصر بلا حرب تأليف (ريتشارد نيكسون) إعداد وتقديم محمد عبد الحليم أبو غزالة. القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة ط أولى عام ١٤٠٩.
٨٢ ـ نهاية التاريخ وخاتم البشر تأليف (فرانسيس فوكوياما) ترجمة حسين أحمد أمين. القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة والنشرط ط أولى عام ١٤١٣.
٨٣ ـ النهاية في غريب الحديث لابن الأثير تحقيق د. محمود الطناحي. بيروت ـ دار إحياء التراث.
٨٤ ـ الوحدة الإسلامية ـ الإطار النظري وخطوات التطبيق أبحاث اللقاء السابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في كوالالمبور ط أولى.
٨٥ ـ الوعي الذاتي تأليف د. برهان غليون بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ثانية عام ١٩٩٢.
٨٦ ـ اليابان اليوم إصدار شركة الجمعية الدولية للمعلومات التربوية. طوكيو عام ١٩٩١.

ـ الدوريات:

١ ـ مجلة الفيصل ـ العدد ٢٣٥ مقال للمؤلف.

٢ ـ جريدة الأهرام ـ العدد الصادر في ١٢/١٠/١٩٩٥ مقال بقلم محمد سعيد أحمد.

فهرس الأفكار والمقولات العامة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ـ العقل البليد لا يفرق بين الشروط والواجبات الحضارية، ولا يدرك طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات في المجالات الإنسانية	٧٤
ـ الخلط بين المطلق والنسبي هو الأصل وإدراك المطلق أسهل من إدراك النسبي ..	٧٤
ـ ليس من السهل على المرء أن يتخطى الشروط الخاصة الذاتية والموضوعية التي تحدد وعيه وطريقة تمثله للواقع	٧٥
ـ ليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع	٧٦
ـ التفكير الجيد مهارة يصنعها التدريب	٨٣
ـ كثيراً ما ننظر إلى المشكلات بعيون قلوبنا، ومن ثم فإننا لا نقبل أي نوع من الجدل حولها	٨٨
ـ إتاحة الفرصة للنقد لا تزيد فيه ـ على خلاف ما يعتقد الناس ـ وإنما تخفف من حدته	٨٩
ـ ربما كان النقد شديد الإغراء؛ لأنه يمنح المرء تفوقاً سريعاً على النظراء، على حين أن التفكير البنائي يحتاج إلى وقت حتى تثبت مصداقيته	٨٩
ـ في غالب الأحيان لا يغلق باب إلا ويفتح باب آخر، لكننا نُشغل بالباب الذي أُغلق عن الباب الذي فُتح	٩٠
ـ إن علينا أن نعترف أن الخط الفاصل بين الاندفاع الأحمق والتفكير الإيجابي المتفائل ـ هو خط ضيق جداً	٩٠
ـ إن التفكير المبدع يحتاج إلى وقت والعَجَلة هي عدوه الأول	٩١
ـ إن الشروط الخارجية لأية ظاهرة تظل ثانوية، ما لم تتمكن من زحزحة بعض الشروط الداخلية والحلول محلها	٩٤
ـ إن المخيلة الشعبية طالما ملأت الفراغات المعرفية من خلال التصورات والأحكام الشائهة والمبتَسَرة	٩٥
ـ المدخلات المعرفية الخاطئة تعني مخرجات خاطئة؛ والعقل «كالحاسوب» لا يستطيع إضفاء تحسينات كثيرة على المدخلات القاصرة	٩٦
ـ طلبنا للكمال المطلق فيما حولنا نابع من رؤيتنا المجزأة للأشياء	٩٧
ـ يستحيل الحصول على حلول كاملة في واقع غير كامل	٩٨
ـ إن التاريخ أداة من أدوات التربية، وإن عدم استيعابه على نحو صحيح قد يحوله إلى أداة تخريب	١٠٠
ـ إن قعود المرء عن اكتساب أفكار جديدة، يجعله كلاً على مجتمعه، يمتص أسوأ ما لديه من نقائص	١٠١
ـ إن ضحالة الفكر تجعل المرء عيياً، وإن كان قادراً على إطلاق مصفوفات من الألفاظ المنمَّقة	١٠٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- إن النجاح الدنيوي الذي لا ينسجم مع النجاح الأخروي ليس بنجاح، وإنما هو بروز شكلي مؤقت؛ والعاقبة للتقوى	١٧٩
- إن الذي يجري وراء إشباع رغباته كشارب ماء البحر؛ كلما شرب ازداد ظمأ	١٨٣
- إن بعض كتابنا أراد أن يحرك همة المسلم من خلال أدبيات غريبة، كتلك التي يتعلمها موظفو العلاقات العامة ومندوبو المبيعات!	١٨٧
- إن الفرص الكبرى قد لا تتاح للأمم والأفراد إلا مرة واحدة في الحياة	١٨٨
- إن الطريقة التي نقضي بها أوقاتنا هي نتيجة مؤكدة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا	١٨٨
- علينا قبل أن نحسّن علاقاتنا مع الآخرين أن نحسّن أنفسنا أولاً	١٩٠
- على كل واحد منا أن يرفع شعاراً: «البداية من عندي» وسيأتي بعد ذلك خير كثير	١٩١
- كثيراً ما تفسد العلاقات بين الإخوة بسبب اقتحام الخصوصيات والخلطة الزائدة	١٩٣
- إن شدة الاختلاط بالناس، تستهلك الشخصية، وتستنفد الطاقة الفكرية والنفسية للمرء	١٩٣
- إن اكتشاف الميزات لدى الناس يحتاج إلى نوع من الفراسة والإبداع وقبل ذلك الاهتمام	١٩٥
- لا شيء يكرّس العبودية مثل الفضاءات التي نمنحها إياها، ونجعلها مصدراً لتغذيتها وتنفسها	١٩٥
- يعلمنا القرآن الكريم أن المشاعر ثمرات، وليست حتميات علينا أن نخضع لها	١٩٦
- إن بإمكان الثقة أن تستخرج أفضل ما في نفسية البشر من نوازع الخير	١٩٨
- إن أهم مصدر للسعادة والهناء انسجام واقع المرء مع معتقداته	٢٠٤
- إن القاعدة الروحية الأخلاقية هي التي تتحمل الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في الميادين المختلفة	٢٠٤
- إن الذين نكن لهم عظيم الاختلاف ليسوا أولئك المعروفين بالدهاء أو العلم أو امتلاك المال؛ وإنما أولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم، وأولئك الذين يضحون بالعاجل في سبيل الآجل	٢٠٥
- كل الحضارات المندثرة تركت تنظيماتها ووسائل ضبطها خلفها شاهدةً على نفسها بالعقم	٢٠٦
- إن التقدم الحاسم على الصعيد الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى تقدم سياسي واقتصادي	٢٠٨
- في كثير من بلدان العالم الإسلامي صار امتلاك مسكن اليوم عبارة عن نصر في معركة شرسة!	٢١٠
- ما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الأمة، وبالرغبة في (التماهي) معها	٢١٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٣ ـ فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

آثار المؤلف

١ ـ الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي (دكتوراه)	مخطوط
٢ ـ أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها	مخطوط
٣ ـ القواعد والإشارات إلى أصول القراءات (تحقيق)	دمشق ـ دارالقلم (نفد)
٤ ـ رد الانتقاد على الشافعي في اللغة (تحقيق)	بريدة ـ دار البخاري
٥ ـ أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي	دمشق ـ دار القلم (نفد)
٦ ـ المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح	دمشق ـ دار القلم
٧ ـ الصفوة من القواعد الإعرابية	دمشق ـ دار القلم
٨ ـ ابن عباس مؤسس علوم العربية	جدة ـ مكتبة السوادي (نفد)
٩ ـ فصول في التفكير الموضوعي	دمشق ـ دار القلم (طبعة ثانية)
١٠ ـ نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي	دمشق ـ دار القلم
١١ ـ من أجل انطلاقة حضارية شاملة	دمشق ـ دار القلم
١٢ ـ مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي	دمشق ـ دار القلم
١٣ ـ في إشراقة آية	أبها ـ دار هجر